

مركز دلائل
Dala'il Centre
DALAIL
ردود علماء الغرب
على الإلحاد المُعاصر
(عرض ونقد)
(الجزء الثالث)
د. جوهانس كلومنك
(د. عبدالله السويدي)

ردودُ علماءِ الغرب على الإلحادِ المُعاصر

(عرضٌ ونقد)

- الجزء الثالث -

رسالةٌ علميَّة

لنيْل درجةِ العالمية العالية؛ الدكتوراه

إعدادُ

د. جوهانس كلومنك

(د. عبدالله السويدي)

إشرافُ فضيلة الأستاذ الدّكتور

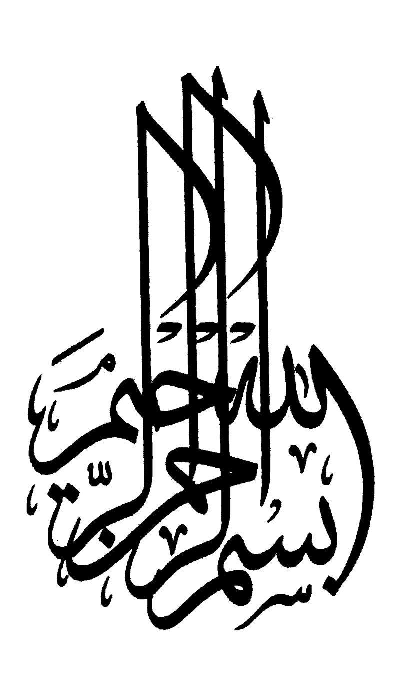
صالح بن عبد العزيز سندي

ح دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

ردود علماء الغرب على الإلحاد المعاصر - عرض ونقد
د. جوهانس كلومنك (د. عبدالله السويدي)
١١٨٠ صفحة، ١٧ × ٢٤ سم - (٣ أجزاء)
ترقيم دولي: ٠ - ٣ - ٨٦٢٠٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

مركز دلائل
Dala'il Centre
Dalailcentre@gmail.com
الرياض - المملكة العربية السعودية
Dalailcentre@    
+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠



المبحثُ السّابع

ردودُهم على شبهةِ إبريق راسل

مِن الأسئلة المشهورةِ في المناقشات: على مَن يقع عبء الإثبات؟ هل هو على أحدِ طرفي النقاش أو على كليْهما؟ وهذا السؤالُ حيويٌّ في النقاش بين المؤمنين بوجود الله والملاحدة. فكثيرٌ من الملاحدة يقولون إنَّ الإلحاد هو عدم الإيمان بوجود الإله، والأصلُ أنَّ الشيء غيرُ موجود حتى يوجَد دليلٌ يثبت وجوده. فيروْن أنَّ الأصل هو أنَّ الإله غيرُ موجود حتَّى يثبت المؤمنُ العكس. ويروْن أنَّ في المناظرة بين المؤمن والملحد يجبُ على المؤمن أنْ يأتي بالأدلَّة والحجج، وأمّا الملحد فلا يحتاج أن يأتي بأيّ دليلٍ ثبوتي، وإنَّما غاية ما يجبُ عليه أن يشكِّك في هذه الأدلة والحجج. وإن استطاع الملحدُ أنْ يقدح في الأدلة، فإنَّه باقٍ على الأصل من أنَّ الإله غير موجود[1].

وقد ذكرَ الملاحدةُ عددًا من الأقيسة لبيان هذه القضية، ومن أشهرها: قياس إبريق راسل (Russel's Teapot). وسيتناول هذا المبحثُ هذه الشبهة في ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تقريرُ الملاحدة لشبهة: إبريق راسل.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: إبريق راسل.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: إبريق راسل.

الفقرةُ الأولى: تقريرُ الملاحدة لشبهة: إبريق راسل:

شبهةُ إبريق راسل قياسٌ صاغَه الفيلسوف الملحد المشهور برتراند راسل في رسالته: «هل هناك إله؟» (Is there a God?) المنشورة عام ١٩٥٢م، في مجلة «المصوّر» (Illustrated). وملخَّص القياس كالآتي:

---

(١) انظر: براهين وجود الله (١٤٩).

«يتحدَّث كثيرٌ من الأصوليّين كما لو كان على المتشكِّكين أن يقوموا بدحض العقائد التي تلقَّوها بدلًا مِن العقائديين لإثباتها. ولا شكَّ أنَّ هذا خطأ. إذا أمكنني أن أشيرَ أنه يوجَد بين الأرض والمريخ إبريقٌ مصنوع من الخزف الصيني يدور حول الشمس في مدارٍ بيضاوي، لا يمكن لأحدٍ أن يدحض افتراضي، إذا كنت حريصًا على ذكر أن الإبريقَ أصغرُ من أنْ تراه أقوى التلسكوبات الموجودة عندنا. ولكني إذا انتقلت إلى الادِّعاء بأنَّ افتراضي يتمتَّع بخاصية أنه لا يمكن إثبات عدم صحته، وبذلك فإنه من غيرِ المقبول لأيِّ عقلٍ بشري متَّزن أن يشكِّك في صحته، فبالتأكيد يجب أن يعتبرني الناس أتحدَّث بجنونٍ خالص. ورغمَ ذلك فإنه إذا وجِد في نصوص قديمة ما يؤكِّد وجودَ مثل ذلك الإبريق، واعتبرَ كشيء مقدَّس كلَّ يوم أحد، وزُرع في عقول الأولاد الصغار في المدرسة؛ فإنْ شككتَ في وجوده فسيكون ذلك علامة على عدم الاتِّزان ويجذب ذلك المشكِّك انتباهات طبيب نفساني في عصرٍ مُستنير كعصرنا، أو أي فضولي في العصور السحيقة»[١].

ويتناقل الملاحدةُ هذا القياس بينهم، وقد ذكره زعيمُ الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز في كتابه: «وهم الإله»، وأشاد به[٢].

وكان هذا القياسُ هو الأصلَ لما عُرف في القرن الواحد والعشرين بـ: «وحش السباغيتي الطائر» (Flying Spaghetti Monster). وهو إلهٌ تهكّمي لديانة وهمية يذكره الملاحدة احتجاجًا على تدريس التَّصميم الذكي في المدارس. وخلاصته: أنّه لو افترض أحدٌ أنه يوجد وحش سباغيتي طائر، ويزعمونَ أنَّه كائن غير مرئي، وقد خلق الكون، فلن يصدّق أحد هذا الادِّعاء، فضلًا عن أنْ يسمح بتدريس هذه النظرية في المدارس. فكذلك لا ينبغي تدريسُ نظرية التصميم الذكي التي تفترض وجودَ كائنٍ ذكي خلق الكون والكائنات الأخرى[٣].

---

(1) "Is There a God?" in The Collected Papers of Bertrand Russell, (Vol 11, pp. 547-548), (Last Philosophical Testament, 1943-68, ed. John G. Slater and Peter Köllner (London: Routledge, 1997).

(٢) انظر: The God Delusion (74 - 75)

(٣) انظر على سبيل المثال مقال صحيفة ديلي تلغراف عن وحش السباغيتي الطائر أوّل ما ظهر الحديث عنه:
http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/northamerica/usa/1498162/In-the-beginning-there-was-the-Flying-Spaghetti-Monster.html

ويستخدم الملاحدةُ هذا المثالَ كثيرًا في مناقشة المؤمنين بوجود الخالق، بل قالوا متهكِّمين: إنَّه توجد ديانة باسم: «كنيسة وحش السباغيتي الطائر» (Church of the Flying Spaghetti Monster) أو «بستافاريانية» (Pastafarianism) مع «إنجيل وحش السباغيتي الطائر» (Gospel of the Flying Spaghetti Monster)، ورسموا صورًا تهكمية عن هذا الوحش، استهزاءً بالمؤمنين بوجود الله[١].

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: إبريق راسل:

حيث إنَّ هذه الشبهة منتشرةٌ فإنَّ علماء الغرب قد ردّوا عليها من أوجه متعدّدة؛ أهمُّها خمسة:

الوجهُ الأوَّل: هذه الشبهةُ تفترض أنَّ الإلحاد هو الأصل. والذين يحتجون بهذه الشُّبهة هُم ملاحدة الإلحادِ الإيجابي. والإلحاد الإيجابي هو إنكارُ وجود الخالق. وذكر البروفسور وليام لاين كرايغ قاعدةً مهمَّة في الردِّ على هذه الشبهة، وهي: «عدم وجود الدليلِ ليس دليلًا على العدم»[٢]، وهذه قاعدةٌ عقلية مهمَّة خالفها الملاحدةُ في هذا الباب.

وقد ذكرَ علماءُ الإسلام هذه القاعدة كذلك؛ فقال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) على سبيل المثال: «النَّفي بلا دليل قولٌ بلا علم، وعدمُ العلم ليس علمًا بالعَدم، وعدمُ الدليل عندنا لا يوجِب انتفاءَ المطلوب الذي يطلب العلم به، والدليل عليه، وهذا مِن أظهر البديهات»[٣].

ولهذا كان على النّافي أن يقيم دليلًا مثلَ ما يجب على المثبت، إلا إذا كانت المسألة بديهيَّة؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «لا ريبَ أنَّ النافي عليه الدليل إذا لم

---

(١) انظر على سبيل المثال مقال:
https://usatoday30.usatoday.com/tech/science/2006-03-26-spaghetti-monster_x.htm

(2) “Theistic Critiques of Atheism”, a part of The Cambridge Companion to Atheism (70)

(٣) الفتاوى الكبرى (٦ / ٥٣٣)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ. ت. محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا).

يكنْ نفيه بديهيًّا، كما أنَّ على المثبت الدليل، فالقضية سواء كانت سلبية أو إيجابية إذا لم تكنْ بديهية فلا بدَّ لها من دليل، وأمّا السلبُ بلا علم فهو قولٌ بلا علم»[١].

وقدْ ناقش البروفسور بيتر فان إنفاغين[٢] برتراند راسل في هذه القضيةِ من الناحية المنطقية والفلسفية في نقاشٍ مطوَّل، وبيَّن أنَّه لا علاقة منطقية بين حجّة راسل المزعومة وتبنِّي الإلحاد. فراسل، مع أنَّه متخصِّص في المنطق، قدَّم هذه الحجّة الضعيفة التي لا تدلُّ على النتيجة التي أراد أن يتوصَّل إليها، وإنما غايةُ ما تدلُّ عليه هذه الحجّة هو القولُ باللاأدرية[٣].

وعلى اللاأدري أنْ يعترف بجهله ويتعلَّم، فيستمع للحجج التي يقدّمها المؤمن على وجودِ الله. وهذه الحججُ ظاهرة وبيِّنة. وأمّا كونه لا يقتنع، فذلك لا يقدح في الحجج نفسِها. و«نعلم أنَّ قيام الحجة الصحيحة غير الاقتناع بها، فقد لا يقتنع المرء بالحجّة الصَّحيحة لسوء فهمِه لها، أو لسوء عرضِ أنصارها لها»[٤]. فالمؤمن هو الذي يقدِّم الحججَ والبراهين، وغايةُ ما يقدِّمه الملحدُ مع هذه الشبهة هو القول بأنّه لم يقتنع بتلك الحجج والبراهين، ويبقى محتارًا.

الوجهُ الثّاني: ذكرَ برتراند راسل هذا القياس لكي يتوصَّل إلى أنَّ الإله غير موجود. فكما أنَّه لا يوجد دليلٌ على وجود الإبريق، فكذلك لا يوجَد دليلٌ على وجود الإله. إذًا، القياسُ يتعلّق بالدليل.

---

(١) الردّ على المنطقيين (٧).

(٢) بيتر فان إنفاغين (Peter Van Inwagen): بروفسور الفلسفة في جامعة ديوك بالولايات المتَّحدة. وكان رئيسَ جمعية الفلاسفة النصارى سابقًا. انظر:
https://www.closertotruth.com/contributor/peter-van-inwagen/profile

(٣) انظر هذا النقاش في: Russel's China Teapot ضمن كتاب:
The Right to Believe: Perspectives in Religious Epistemology (11-26), Edited by: Dariusz Likasiewicz and Roger Pouviet (Ontos Verlag, 2012)

(٤) براهين وجود الله (١٥٠).

وقد ناقش الفيلسوف براين غارفي[1] هذه القضية في بحث بعنوان: «عدم الأدلة، والأدلَّة على العدم، وإبريق راسل» (Absence of Evidence, Evidence of Absence and Russel's Teapot). وملخَّص ردِّه أنه تساءل قائلًا: ما هو الدليلُ المقنع لإثبات وجود الله؟ هل لا بدَّ من إدراكه بالحواس الخمس؟ فإنَّ هذا ما لا يقوله حتى الملاحدة حيث إنَّهم يثبتون عددًا من الأشياءِ غير المدركة بالحسّ. فهل تكفي دلالةُ التصميم على وجود مصمِّم؟ الظاهرُ أنَّ دوكينز يقتنع بذلك؛ لأنَّه نفسه ذكر أنَّ مَن آمن بوجود الله بدليل التَّصميم قبلَ وجود نظرية داروين كان له دليلٌ قوي على هذا الاعتقاد. ولكنه ذكر أنَّ نظريةَ التطوّر قدَّمت تفسيرًا أفضلَ لوجود الإحكام والإتقان في المخلوقات الحيّة. فالشاهدُ أنَّ دليل التصميم يكفي كدليلٍ على وجود الخالق - لولا المانع في نظرة دوكينز -. وبذلك يتبيَّن أنَّ إبريق راسل قياسٌ مع الفارق. فالإبريق الصيني ليس له أدنى أثرٍ في بقيَّة المخلوقات، بينما يعتقد المؤمنُ أنَّ الله خلق هذا الكون، وجميع المخلوقات دالَّة على خالقها. وعليه، فلا يمكن استخدامُ هذا القياس على إنكار وجود الخالق[2].

الوجهُ الثّالث: الشيء الذي ظهرَ بطريقةٍ عشوائية يختلف عن الشيء المصنوع لخالقٍ عليم حكيمٍ قدير. وهذا الأمرُ يتَّفق فيه الملحدُ والمؤمن. فقد اعترف بذلك زعيمُ حركة الإلحاد دوكينز بذلك في كتابه: وهم الإله[3].

---

(١) براين غارفي (Brian Garvey): فيلسوف إيرلندي، حامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة دوبلن، وأستاذ في جامعة لانشستر. قد تخصّص في الفلسفة الداروينية. انظر:
https://www.lancaster.ac.uk/arts-and-social-sciences/about-us/people/brian-garvey

(٢) انظر البحث: Absence of Evidence, Evidence of Absence, and the Atheist's Teapot, وهو موجود على هذا الرابط:
https://www.tandfonline.com/doi/pdf/10.1080/15665399.2010.10820011?needAccess=true

(٣) انظر: The God Delusion (٧٨)

وقد ردَّ البروفسور سكوت هون والبروفسور بنيامين هذه النقطة في ردّهما على دوكينز، ثمَّ تساءلا: ما هي خصائصُ الكون المخلوق؟ أليس هو التصميم؟ لأنَّ دوكينز نفسَه عرَّف علمَ الأحياء - كما سبق مرارًا - بأنَّه: «دراسة الأشياء المعقدة التي تعطي انطباعًا بأنها صمِّمت من أجل هدف». فدوكينز يذكر أنَّ الكون المخلوق لخالق سوف يختلفُ عن الكون الموجود بلا خالق، ثمَّ يعترف بأنَّ علم الأحياء يدرس الأشياء التي تبْدو مصمَّمة لهدف. أليس هذا الهدفُ ألصق بالكون المصمّم المخلوق؟[١].

وهذا الوجهُ قويٌّ جدًّا في الحقيقة. فالملحد يعتقد أنَّ الكون وكلَّ ما فيه نتيجة انفجارٍ عشوائي بدون أيِّ خالق ولا هدف. وأمَّا المؤمن فإنّه يعتقد أنّ الكون نتيجة خلقٍ لخالق عليمٍ حكيم لحكمةٍ بالغة. فهل خصائصُ الكون تشهد بالعشوائية أو الإتقان؟ قد سبق الفصلُ الثّاني من الباب السابق في بيان الأدلة الواضحة البيِّنة على الدقَّة والإتقان والإحكام في الكون وكلّ ما فيه، غنية عن إعادته. والخلاصة أنَّ الملحد دوكينز قد شهدَ على مذهبه بالبطلان.

الوجهُ الرّابع: يزعمُ برتراند راسل أنَّه كما لا يوجد دليلٌ على وجود الإبريق الصيني فلا يوجَد دليلٌ على عدم وجوده، ولهذا يجب أن نفترضَ أنَّه غيرُ موجود. ثمَّ قاس الوجود الإلهي على هذا المثال. ولكن الادِّعاء أنه لا يوجد دليلٌ على عدم وجود الإبريق الصيني غير صحيح. وقد ناقشَ البروفسور ألفن بلانتنغا هذا الأمر؛ فقال: «من الواضح أنَّه يوجَد أدلة كثيرة ضدَّ الإبريقية (Teapotism)[٢]، فعلى سبيل المثال: نحن نعلم أنَّ الطريقةَ الوحيدة لوصول إبريق لمسار فلكي حولَ الشمس هو أن دولة ما لديها قدرةٌ على إرسالِ إبريق إلى الفضاءِ للدوران في فلكه. ولا توجد دولةٌ لديها قدرة على فعل مثلِ هذا الأمر التافه. وإضافةً إلى ذلك، فلو فعلت دولةٌ

---

(١) انظر: Answering The New Atheism (54 - 55)

(٢) هذه ليست كلمة إنجليزية، ولكن البروفسور بلانتجا استخدمها من باب السخرية كأنّ الإيمان بالإبريق ديانة من الديانات.

هذا الأمر لوردَ الأمر في الأخبار، ولكنّا لم نسمع بذلك. وبالتالي فلدينا أدلةٌ كثيرة ضدَّ الإبريقية»[1].

وقصد البروفسور بلانتنغا بكلامه هذا أنَّ قياس راسل تافه في أصله. فيمكن تقديمُ أدلَّة سهلة على عدم وجود الإبريق، بينما لا يوجد أدنى دليلٍ على وجوده. فكيف يقاسُ الإله الخالق على هذا الإبريق، والمخلوقات كلّها دالة على وجوده؟

الوجهُ الخامس: عارضَ البروفسور غاري غوتينغ[2] هذه الشبهة من وجهٍ آخر في مقالِه: «ردّ على إلحاد دوكينز» (On Dawkin's Atheism: A Response). فذكر أنّه لو أضيفَ إلى قياس راسل أنَّه وُجد عددٌ من روَّاد الفضاء شاهدوا ما يشبه هذا الإبريق، ثمَّ قدَّم عددٌ من العلماء الفلكيّين المعتبرين معلومات من الأقمار الصناعية على وجود شيءٍ مثل هذا الإبريق، فإنَّه يعتبر من الخطأ أن يردَّ افتراض وجود الإبريق، بل على الإنسان أن يحقِّق في الأدلة لكي يتوصَّل إلى علم بوجود الإبريق أم لا. والمؤمنُ بوجود الله يقدِّم عددًا من الأدلَّة على وجود الإله الخالق، فعلى المشكّك أن يراجع هذه الأدلة، ولا يردُّها مباشرة[3].

هذا الوجهُ جيِّد من وجه، ولكنَّه في الوقت نفسه يجعل الإيمانَ بوجود الله استدلاليًّا محضًا، بينما الإيمانُ بوجود الله ضروري، ثمَّ تأتي الأدلة بعد ذلك لتؤكّد هذا الإيمان.

---

(١) المقال: Is Atheism Irrational? على الرابط:
https://opinionator.blogs.nytimes.com/2014/02/09/is-atheism-irrational/

(٢) غاري غوتينغ (Garry Gutting): بروفسور الفلسفة في جامعة نوتري دام بالولايات المتَّحدة. وقد تخصَّص في فلسفة الدين وفلسفة العلوم. توفي عام ٢٠١٩م. انظر:
https://news.nd.edu/news/in-memoriam-gary-gutting-john-a-obrien-professor-of-philosophy/

(٣) انظر المقال: On Dawkin's Atheism: A Response, وهو موجود على الرابط:
https://opinionator.blogs.nytimes.com/2010/08/11/on-dawkinss-atheism-a-response/

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: إبريق راسل:

الأوْجه التي سبق ذكرُها في الردِّ على هذه الشبهة الضعيفة جيّدة من حيث العموم، وقد تبيَّن أنَّ هذه الشبهة مبنيَّة على قياسٍ فاسد بينَ وجود إبريق في الفضاء وبين وجود خالقٍ خلق الكون. ولكنْ بقيت بعضُ الأوجه التي لم أقفْ عليها من عند علماء الغرب، ولكنّي وجدتُها عند باحثين مسلمين، ويحسنُ إيرادها لتعمّ الفائدة:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ «هذا الاعتراض قائمٌ على التسوية بين المختلفات؛ حيث إنَّ المعترضَ به يساوي بينَ الفرض العقلي وبين الوجود الحقيقي الثابت بالأدلة، فإنّ الملاحدةَ ينطلقون في اعتراضهم من أنَّه لا فرق بين إيمان المؤمن بوجود الله وبين قول من يدَّعي أنَّ هناك إبريقًا يدور في الفضاء، وهذا عين المغالطة والتنكّر في الحقيقة.

فإنَّ الإيمان بوجود الله ليس مجرَّد فرضٍ عقلي خالٍ من الأدلة والبراهين، وإنما هو إدراكٌ عميق متجذِّر في النفوس الإنسانية، ومعمَّق في وجدانهم وأرواحهم، وهناك دلائلُ وبراهينُ عظيمة تدلُّ على ذلك، فآثارُ وجود الله ظاهرة في الكون ومتجلية في الآفاق، تدفعُ سليمَ العقل والفطرة إلى الإقرار بوجودِه، والإيمان بكماله؛ لهذا كان الأصلُ فيهم الإيمان بوجود الله، وهو الغالبُ على حالهم في كلِّ المراحل التاريخية.

وأمّا الإبريقُ الدائر في الفضاء فهو مجرَّد فرضٍ عقلي لا يوجد أيُّ دليل يدلُّ عليه، وليسَ لذلك الإبريق أيُّ أثرٍ في الواقع يدعو الناسَ إلى الإيمان به، ولأجلها كان الأصلُ في جنس الإنسان عدمَ الإيمان بذلك الإبريق وعدمَ الالتفات إليه من حيث الأصل»[1].

وهذا الكلامُ يشبه بعضَ الكلام الذي تقدَّم لبعض علماء الغرب، ولكنه زاد الأمرَ إيضاحًا بربطِه الإيمان بالله بالفطرةِ البشرية، ثمَّ يذكر الأدلة والبراهين بعد ذلك. وأمّا علماءُ الغرب فيكتفون بذكرِ الأدلة والبراهين دون الإشارة إلى الفطرة - حسب ما وقفتُ عليه من كلامهم -.

---

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢ / ٥٤).

الوجهُ الثّاني: أنَّ «ذلك الاعتراض يمكن أن يقلبَ على الملاحدة، وتبطل به كثيرٌ مِن أقاويلهم، فإنَّه يمكن أن يقول مُعترض: إنَّ قضية التطوّر مجرّد فرض عقلي يقابله فرضٌ عقلي آخرُ ويناقضه، وهو أنَّ الحياة نشأت في الكون عن طريق الخلق الخاص لكلِّ نوعٍ حيواني، فعندنا إذًا فرضان متساويان عقلًا، فلا يمكن أن نؤمن بفرضية التطوّر، ولا أنْ نرتِّب عليها أي نتيجة في الواقع. فإنْ لم يقبلوا بذلك، وادَّعوا أن قولهم بالتطوّر مبنيٌّ على أدلةٍ علمية ثابتة، فقد ناقضوا أنفسهم؛ لأنَّ المؤمنين يدّعون بأنَّ إيمانهم بوجودِ الله مبنيٌّ على أدلة عقلية وعملية ثابتة وقطعية.

فرجع الأمرُ إلى البحث في صحَّة الأدلة وعدم صحّتها، وهذا الرجوع إبطالٌ لذلك الاعتراض مِن أساسه؛ لكوْنه قائمًا على أنَّ وجود الله مجرّد فرض لا دليل عليه»[1].

الوجهُ الثّالث: تقدَّم في بداية المبحث أنَّ هذا القياس يتعلّق بقضية عبء الإثبات. ويحاول الملحدُ أن يجعلَ عبء الإثبات على المؤمن وحدَه؛ لأنَّ الإلحاد - حسبَ زعمه - مجرَّد عدم الاعتقاد. ولكنَّ الأمر ليس كذلك لأنَّ المخلوقات وُجِدت بعدَ أنْ لم تكنْ موجودة، وهذا يتطلّب وجود موجِد يوجدها من العدم. ونشاهد الإتقان والإحكام، وهذا يتطلّبُ وجودَ مُتقِن ومُحكِم. ويزيد الأمر وضوحًا أنَّ هذا الاعتقاد ضروريٌّ وفطري، ويهجم على النَّفس البشرية، بينما الملحدُ ينكر هذا الأصلَ العظيم. فالملحدُ في الحقيقة مطالَب بأدلَّةِ نفي العلم الضروري، وتفسير وجود المخلوقات بلا خالق.

و«الجدلُ في وجودِ الله، ليس مجرَّد بحثٍ في وجود ذات ما، في مكانٍ ما، أو لا مكان، أو كلِّ مكان، كما يحبُّ الملحد أنْ يوحي للناس، إنَّما هو أعمق من ذلك؛ فهو متعلِّق بجوابٍ لسؤال جوهريٍّ يقال: ما هو تفسيرُ هذا الكون بصفاته القائمة؟ فإنَّ وجودَ الله أو عدمَه له لوازمُ موصولة بفهْم هذا الوجود الحقيقي القائم. فالملحد مطالَب بتفسيرِ الوجود كما المؤلِّه؛ ففي حين المؤلِّه أنَّ وجودَ الله يفسِّر عامَّة خصائص الواقع، بطريقٍ مباشر أو غير مباشر، يرى الملحدُ أنَّ هذا الوجود مفصح عن عشوائية

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٥ - ٥٦).

غير حكيمة. إنَّ الملحد - مثلًا - لا يملك أن يفرَّ من جواب الأسئلة التالية إن أراد أن يُقرَّ على تصوّره الكوني:

- كيف يكون الكونُ أزليًّا معَ امتناع تسلسل الأحداث إلى ما لا نهاية في الماضي؟ وكيف يثبت ذلك علميًّا مع إجماع الفيزيائيين الملاحدة أن لكوننا بداية؟
- ما هو تفسيرُ الانفجار العظيم الذي ظهر به كوننا؟
- كيف يفسّر انفجارٌ ظهورَ الكون المنظّم والحياة المعقّدة؟
- ما هو تفسيرُ الانفجار الكمبري الذي ظهرت معه عامَّة جماعات الأحياء المعقَّدة؟
- ما هو تفسيرُ انفجار الوعي من المادة؟
- ما هو تفسيرُ النزوع الأخلاقي عند الإنسان؟
- ما هو تفسيرُ مظاهر الجمال في الكون؟
- بل ما هو تفسيرُ وجود المعنى في كون عبثي أزلي؟

إنَّ المذهبَ الإلحادي يجب أن يكون جوابًا لأسئلةٍ وجودية كثيرة، ليس هو محضَ الوجوم أمام ظواهر الكون»[١].

بهذه الأوْجه الثلاثة يكتمل الردُّ على هذه الشبهة، ويتبيَّن مدى ضعفها وهزالتها.

---

(١) براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم (١٥٠ - ١٥١).

المبحثُ الثّامن

ردودُهم على شبهة: عدم الإيمان

قد سبقَ في المبحثِ الثالث من هذا الفصل أنَّ عوام الملاحدة يوردون شبهةً خلال السؤال: «كيف نؤمن بوجودِ الله معَ أننا لا نراه؟».

ولكنَّ دعاة الإلحاد وفلاسفتَهم يوردون الشبهةَ بطريقة أخرى. وهي أنهم لا يشترطونَ رؤية الله جهرةً للإيمان، ولكنَّهم يقولون: إنَّ الأدلة على وجود الله ليست كافيةً للإيمان به، وهذا سببُ وجود عددٍ كبير من الملاحدة. ويسمّون هذه الشبهة بـ: حجّة عدم الإيمان (Argument from nonbelief).

وبتعبيرٍ آخر يقولون إنَّ الإله - إن كان موجودًا - فقدِ اختبأ مِن خلقه بطريقة لا يمكنُ أن نعلم إن كان موجودًا. ويسمّون تلك الشبهة بـ: حجّة الاختباء الإلهي (Argument from divine hiddenness).

والشُّبهتان متقاربتان، ولهذا أوردتهما في مبحثٍ واحد كشبهة واحدة.

وسأقسّم هذا المبحث إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: حقيقةُ هذه الشبهة، وأبرز مَن ذكرها.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب لهذه الشبهة.

الفقرةُ الأولى: حقيقةُ هذه الشبهة، وأبرزُ مَن ذكرها:

الشَّكوى بأنَّ الإله لا يُظهر نفسَه قديمة جدًّا في التراث اليهودي والنصراني، بل ذُكر عدَّة أمثلة على ذلك في كتابهم المقدَّس، ومِن ذلك ما نسبوه إلى أحد أنبيائهم أنّه قال - وحاشاه - : (حَقًّا أَنْتَ إِلَهٌ مُحْتَجِبٌ يَا إِلَهَ إِسْرَائِيلَ الْمُخَلِّصَ)[1].

---

(١) أشعياء (٤٥: ١٥).

وقد تقدَّم عند الحديث عن تاريخ الإلحاد أنَّ الشكَّ موجودٌ بكثرة لدى علماء النَّصارى، ومن ضمن هذه الشكوك: الاختباءُ الإلهي. ولهذا نجد عند كبار علمائهم مثل: القديس أنسلم - الذي أوجدَ الحجَّة الوجودية - أنّه يتحدّث في كتابه: «بروسولوجيون» (Prosologion) بهذه الطريقة المتشكّكة الموحية بهذه الشبهة إذ قال: «أنا لم أرَكَ يا رب إلهي. أنا لا أعرف شكلَك. ماذا يا ربي العليّ، سيفعل هذا الرجل، المنفى بعيدًا عنك؟ ماذا يفعل عبدك، حريص في حبِّه لك، ويطرد من وجهك؟ إنه يرغب أن يراك، ووجهك بعيدٌ جدًّا عنه. إنه يتوقّ إلى المجيء إليك، ولا يمكن الوصول إلى مقرّك. هو حريصٌ على العثور عليك، ولا يعرف مكانك. إنه يرغب في البحث عنك، ولا يعرف وجهك. يا رب، أنت إلهي، وأنت أنتَ ربي، ومع ذلك لم أرَكَ قطّ... وأنت أيها الرب! إلى متى يا رب أنت تنسانا. إلى متى أنت تتحوّل وجهك منا؟ متى تنظر إلينا وتسمعنا؟».

فالقديس أنسلم لا يشكُّ في وجود الله، ولكنّه يشكو من غياب الإله - كما يزعم -، ولهذا نقل بعضُ الباحثين أنَّ كلام القديس يوحي بشكوى بأنّه يريد أن يرى الإله ويحبَّه، ولكن لا يتلقّى جوابًا[1].

فالإلحادُ نشأ في بيئةٍ نصرانية حاضنة لهذه الشكوك. فجاء أمثال نيتشي في القرن التّاسع عشر، وبدأ يبثُّ شبهةَ الاختباء الإلهي؛ فقال: «إلهٌ عليم قدير، ولا يتأكّد أنَّ مخلوقاته تفهم نواياه، هل يمكن أن يكون هذا إلهًا خيِّرًا؟ الذي يسمح باستمرار عدد لا يُحصى مِن الشكوك والنداءات لآلافِ السنين، كما لو أنَّ خلاص البشرية لم يتأثر بها، ومِن ناحية أخرى يحمِّل عواقب وخيمة إذا ارتكبَ أيَّ خطأ فيما يتعلّق بطبيعة الحقيقة؟ ألَا يكون إلهًا شريرًا إذا امتلك الحقيقةَ ويستطيع أن يمنع الإنسانية من أن تعذّب نفسها عليها؟»[2].

---

(١) انظر:

Divine Hiddenness: New Essays (2-3), by: Daniel Howard-Snyder and Paul Moser, (Cambridge University Press, 2001)

(2) Daybreak (89-90) by: Friedrich Nietschze, trans. R.J. Hollingdale Cambridge University Press, 1982))

عقَّب بعضُ الباحثين على قول نيتشي أنّه يريد أنْ يستنتج من الاختباء الإلهي أنه لا يمكن الإيمانُ بالإله الذي يؤمن به اليهود والنصارى(١).

ولكنَّ الذي أصَّل لهذه الشبهة بطريقة منطقية هو: البروفسور جي. أل. شيلينبيرغ(٢) في كتابه: «الاختباء الإلهي والعقل الإنساني» (Divine Hiddenness and Human Reason)، الذي صدر عام ١٩٩٣م، وذكرَ هذه الشبهة بالصياغة المنطقية الآتية:

١. إنْ كان الإله موجودًا، فهو كاملُ المحبّة.

٢. إنْ كان الإله كاملُ المحبّة موجودًا، فلا يمكن أن يوجَد كفر بطريقة عقلانية.

٣. الكفرُ موجود بطريقة عقلانية.

٤. بالتالي، لا يوجد إلهٌ كاملُ المحبة.

٥. إذًا، لا يوجد إله(٣).

ولكنَّ هذه الشبهة لا تُصاغ في الغالب بهذه الطريقة المنطقية إلّا في الدوائر الأكاديمية الفلسفية، وإنما يذكر الملاحدةُ جزئياتٍ من هذه الشبهة في كتبهم ومناظراتهم، ومؤدَّاها أنَّ الأدلة على وجود الإله ليستْ كافية، وأنَّه كان ينبغي أن تكون الأدلة أقوى لكي يقتنع جميعُ الناس بوجوده. ومِن الأمثلة على ذكر هذه الشبهات المتفرّعة:

---

(١) انظر: Divine Hiddenness: New Essays (3)

(٢) جي. أل. شيلينبيرغ (J.L. Schellenberg) بروفسور الفلسفة في جامعة جبل سانت فنسنت الكندية. وهو ملحد شرس، فقد ألّف عشراتِ الأبحاث الفلسفية في الإلحاد ونقد الدين. انظر: http://www.jlschellenberg.com/uploads/8/5/6/1/8561683/cv_2019.pdf

(٣) انظر:
Divine Hiddenness and Human Reason (83), by: J.L. Schellenberg, (Cornell University Press, 1993)

المثالُ الأوَّل: اشتهرتْ مقولةٌ للفيلسوف الملحد برتراند راسل أنه سئل: إن كان الإلهُ ظهر لك بعدَ الموت وسألك: لماذا لم تؤمن، فأجاب: «الأدلةُ لم تكن كافية يا إله! الأدلة ليست كافية»[1].

المثالُ الثّاني: أنَّ الملحد الفلكي كارل ساغان تساءل بطريقة صبيانية: «لماذا لم ينقشِ الإلهُ الوصايا العشر على القمر؟ أو جعل صليبًا طوله ١٠٠ كيلو يدور حول الأرض؟ لماذا يكون الإلهُ ظاهرًا في الكتاب المقدَّس مع أنّه غامض في العالم؟»[2].

المثالُ الثّالث: قال لوارنس كراوس في مناظرته مع البروفسور وليام لاين كرايغ بعنوان: هل هناك دليلٌ على وجود الله؟ (Is there Evidence for God?): «... الآن، سيكون مِن السَّهل أن يكون هناك دليلٌ على وجود الله. إذا كانت النجوم تعيد ترتيبَ نفسِها الليلة، ونظرت لأعلى الليلة - يعني هذا المكان ليس مناسبًا، ولكن في مكان يمكنك أن ترى فيه النجوم... ونظرت للأعلى الليلة ورأيت النجوم تعيد ترتيبَ نفسها وتقول: «أنا هنا.» هذا هو الدليلُ المثير للاهتمام! وفي الحقيقة، عندما نتحدّث عن الأدلة، فإنَّ الدليل الوحيدَ الذي يمكن أن تقدِّمه على وجود الله هو الدليل المعجز؛ لأنَّ وجودَ الله يعني شيئًا خارقًا للطبيعة، شيء يتجاوز ذلك الذي يمكن تفسيره بالنظرية الفيزيائية. ولذا، إن كان لديك أدلةٌ على وجود الله، فلا بدَّ أن يكون من قبل المعجزات»[3].

---

(١) انظر:

"Religion and Science: A New Look at Hume's Dialogues," Philosophical Studies 33 (1978), p. 176

(٢) المقال: Atheism and Carl Sagan's God على الرابط:

http://www.truefreethinker.com/articles/atheism-and-carl-sagans-god-part-1-2

(٣) انظر تفريغ مناظرة: Is there Evidence for God?، على الرابط:

https://www.reasonablefaith.org/media/debates/the-craig-krauss-debate-at-north-carolina-state-university/

والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ في خطاب الإلحاد المعاصر. وأصبحت هذه الشبهة مع شبهة: مشكلة الشَّر إحدى أكثر الشبهات انتشارًا في الزمن الحاضر[1].

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة:

حيث إنَّ لهذه الشبهة حضورَها الواسع في خطاب الإلحاد المعاصر، فقد ردَّ عليها علماءُ الغرب بردودٍ من أوْجه متعدِّدة. ويمكن تلخيصُ الردود في الأوجه الآتية:

الوجهُ الأوَّل: ذكر اللاهوتي ستيفن غوستافسون[2] أنه كي نجيب عن هذه الشبهة فلا بدَّ أن نفهم حقيقةَ إيمان المؤلّهة. وهذه الشبهةُ ظهرت بسبب سوء فهم الملاحدة للإيمان. وذلك يتبيَّن في النقاط الثلاث الأولى من ردوده:

النُّقطةُ الأولى: مفهومُ الذات الإلهية: فالمؤلهة يعتقدون أنَّ الإله متعالٍ على الزمان والمكان[3]، ولا يمكن إدراكُه بالحواس إدراكًا مباشرًا في الدنيا[4] ولا عن طريق العلم التَّجريبي. فإيمانهم مبنيٌّ على أنَّ الله غيب عنا، وبالتالي يكون طلبُ أدلة مادية حسية مباشرةً على وجوده يتناقضُ مع حقيقة الإيمان. فكلُّ مَن طلب دليلًا حسّيًّا مباشرًا على الإله، فإنَّه لم يفهم حقيقة الإيمان.

---

(١) انظر البحث:

C.S. Lewis on the Problem of Divine Hiddenness (1), by: Travis Dumsday

وهو موجود على الرابط:

http://www.anglicantheologicalreview.org/static/pdf/articles/dumsday.pdf

(٢) ستيفن غوستافسون (Stefav Gustavsson): عالم اللاهوت السويدي، وأحدُ أبرز المهتمين بنقد الإلحاد في السويد، وقد ترأس عددًا من المؤسسات الدينية النصرانية في السويد. انظر: http://www.stefangustavsson.se/?page_id=2

(٣) هذه الجملة فيها إجمال، والأولى أن يقال: إنَّ الله فوق عرشه، والعرش هو سقفُ المخلوقات.

(٤) هذا الكلام ليس بصحيحٍ على إطلاقه؛ فقد سمع كليمُ الله موسى u في الأرض، كما أنَّ نبينا محمد ﷺ سمع كلامَه فوق سبع سماوات. فالكلام فيه شيء من الإجمال. وأما للإنسان العادي فيصحُّ القول بأنهم لا يدركون الله بالحواسِّ في الدنيا. وأمّا في الآخرة، فيختلف الأمر، كما سيأتي ذكره إن شاء الله.

النُّقطةُ الثّانية: مفهومُ الصفات الإلهية: فالمؤلهةُ يعتقدون أنَّ الإله عظيم ومقدّس، ونحنُ ضعفاء وفقراءُ إليه، فينبغي لنا نحن أنْ نتقرَّب إليه ولا العكس. فطلب الإنسان مِن الله أنْ يريه المزيدَ من الآيات دليلٌ على أنَّ هذا الإنسان ابتعد من الله، ولا العكس.

النُّقطةُ الثّالثة: مفهومُ طبيعة الأدلة على وجوده: فالمؤلهة يعتقدون أنّ الأمر لله من قبْل ومِن بعد. فالإلهُ هو الذي يختار الأدلةَ والبراهين على وجوده لا الإنسان. فالموقف الصحيحُ أن يسأل صاحبُ الشبهة: هل هناك أدلة على وجود الله؟ وإن كان الجواب نعم، فما هي هذه الأدلة؟ وليس على الإنسان أن يفترض مِن عنده أدلةً مناسبة حسبَ أهوائه، ثمَّ يقول: إنْ لم تكن هذه الأدلة موجودة، فلا أؤمن بوجوده. فهذا يدلُّ على تفكيره المعوجِّ في طبيعة أدلة وجود الله[1].

وهذه النقاطُ الثلاث تبيِّن الخطأ في التفكير عند صاحب الشبهة، ولا بدَّ أن يصحِّح هذا التفكير قبلَ الإجابة عن الشبهة. وبيانه لهذه النقاط صحيح وجيّد كمقدّمة لنقد الشبهة.

الوجهُ الثّاني: ذكر البروفسور وليام لاين كرايغ أنَّ هذه الشبهة مبنيةٌ على موقف الإنسان من براهينِ وجود الله. فإنْ كانت البراهين والحجج قويّة ومقنعة، فإنَّ هذه الشُّبهة تسقط. ولذلك يجب على مَن يردُّ على هذه الشبهة أنْ يذكر البراهين والحجج بطريقةٍ مُقنعة، فإنِ اقتنع سقطت الشبهة من أصلها[2].

وهذا ردٌّ قويّ وجيِّد؛ لأنَّ الحجج والبراهين واضحةٌ وبيّنة لكلِّ مَن أراد الحقّ. فعلى مَن يردّ على هذه الشبهة أن يتعلَّم أدلة وجود الله بطريقة مقنعة ومبنية على شواهد جيِّدة، فإنّه يقدر على ردِّ هذه الشبهة بإذن الله.

---

(1) The Hiddenness of God: Why Isn't God More Obvious?

وهو موجود على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=WFvi6qG_dBY

(٢) محاضرة: The Hiddenness of God :٢٩ Excursus on Natural Theology, Part.

وهي موجودة على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=W8KJ1sBWy1g

الوجهُ الثّالث: ذكر البروفسور وليام لاين كرايغ أنّ العبرة ليست بأن يعلم أن الله موجودٌ فحسب، وإنّما العبرة أنَّ الإنسان - مع إيمانِه بوجوده - يستسلم لله، ويحبّه، ويؤمنُ به. ولا علاقةَ بين المزيد من الأدلة وزيادة الاستسلام لله. فقد أرى الله بني إسرائيل الآياتِ البيِّنات في مصر قبلَ خروجهم من فرعون، وأثناء الخروج بانفلاق البحر، وبعدَ خروجهم في التيه؛ ومعَ ذلك وقعوا في الكفر بالله، وذلك لقساوة قلوبهم(١).

وكلامُه هذا صحيح، وهو مصداقٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٠ - ١٥].

فالمعرضُ عن الحقِّ لا ينتفع بكثرة الحجج؛ قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس:١٠١].

وهذا في نهاية الأمر متعلِّق بمشيئة الله، وهو الذي يهدي مَن يشاء بفضله، ويضلُّ مَن يشاء بعدله؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١].

والإنسانُ لا يلوم إلّا نفسه، فاللهُ أقام الحجَّة البالغة على الخلق، والكافر أعرض وتولّى عن الحقّ. وهنا تكمُن المشكلة الأساسية عندَ كثير من الملاحدة أنهم لا يريدون الاستسلامَ لله، وبالتالي لا يروْن الأدلة الواضحة البيّنة على وجوده.

فكيف يتوقَّع مثلُ هذا الشخص أن يرى الآياتِ والأدلةَ والبراهين على وجود الله، وهوَ مُعرض عن ذلك كلّه، ويريد أن يستسلم لله؟!

---

(١) المحاضرة: The Evidence for Christianity

وهي مفرّغة على الرابط:

https://www.bethinking.org/is-christianity-true/the-evidence-for-christianity

الوجهُ الرّابع: مطالبةُ الملحد بتقديم دليلٍ على دعواه: بيَّن والبروفسور جي. بي. مورلاند البروفسور وليام لاين كرياغ أنَّ الملحدَ يزعم أنّ المؤمن مطالَبٌ بالإتيان بأدلة معيَّنة على وجود الله، ولكنَّ هذه المطالبة مبينة على دعاوى مبطنة في الحقيقة. فالملحدُ يزعم في الحقيقة أمرين:

الأمرُ الأوّل: أنَّه لا بدَّ أن يقدِّم الإله أدلةً أكثر على وجوده من الأدلة الموجودة.

الأمرُ الثّاني: أنَّه قد تمَّ البحثُ عن هذه الأدلة، وهي ليست موجودة.

وهذان الأمران بحاجةٍ إلى أدلة بحدِّ ذاتهما. وإذا لم يقم الأدلة على ذلك فإنّها دعوى مجرَّدة عن الدليل[١].

ومِن المعلوم أنَّه لا يمكن أن يقيمَ دليلًا على الأمر الأوَّل، وإنَّما هي دعوى مستندة إلى هواه، بدليل أنَّ كثيرًا من الناس قديمًا وحديثًا رأوا أنَّ الأدلة كافية تحقيق الإيمان بوجوده، بل بربوبيته وألوهيته.

ومِن اللطائف أنَّ كارل ساغان - وهو من أكثر مَن كان يردّد هذه الشبهة - اعترف بذلك إذْ قال: «أتمنى أن يكون واضحًا أنَّه لا يعني أنَّ كوني لا أرى أنه أدلة معيّنة على وجودِ الله أنه يُستنتج من ذلك أنّي أعرفُ أنَّ الإله غير موجود؛ هذا أمرٌ آخر. عدم الدليل ليس دليلًا على العدم»[٢].

---

(١) انظر:

Philosophical Foundations for a Christian Worldview (157), by: J.P. Moreland & William lane Craig.

(٢) وهي إجابة له لأحد السائلين، ذكره الدكتور بيتر وليامس في مقاله:

Carl Sagan: The Sceptic's Sceptic

وهو موجود على الرابط:

https://www.bethinking.org/atheism/carl-sagan-the-skeptics-sceptic/3-3-natural-theology

فغايةُ ما يفعله الملحد أنَّه يزعم مِن عنده أنَّه كان ينبغي للخالق أن يقدّم أدلة أكثر على وجوده، ثمَّ يزعم أنَّه لم يجدْ هذه الأدلة، وبناءً على ذلك يستنج أنَّ الله غير موجود. وهذا تفكيرٌ ساذج مخالف للمنطق السليم.

الوجهُ الخامس: ردَّ البروفسور مايكل ريا[١] على هذه الشبهة بأنَّ الإلحاد نوع من أنواعِ خداع الذات، مثل: مدمن الخمر، الذي يأبى أن يعترف أنَّه مدمن، وبالتالي يخدع نفسَه أنه غيرُ مدمن. فكذلك الملحد، فإنَّه لا يريد أن يستسلم لله، وبالتالي يخدع نفسه أنَّه لا توجد أدلةٌ وبراهين على وجوده[٢]. ثمَّ استشهد البروفسور ريا على ذلك بكلام الفيلسوف الملحد تومس نيجل إذْ قال: «أنا أريد أن يكون الإلحادُ صحيحًا، وأشعر بعدمِ ارتياح أن يكون أكثرُ الأشخاص ذكاء وعلمًا الذين أعرفهم من المؤمنين المتديّنين. الحقيقة هي ليست أني لا أؤمنُ بالله فحسب، بل الحقيقة أنَّني أتمنى أن يكون اعتقادي هذا صحيحًا. أتمنَّى أنَّ الإله غير موجود! أنا لا أريد أن يكون هناك إله، ولا أريد أن يكون الكونُ بهذه الطريقة»[٣].

ورغم أنَّ هذا الوجه قوي وجيِّد، فإنَّ الدكتور ريا استشكله، وذكر أنه قد يفسِّر وجودَ الكفر عند بعض الأشخاص - مثل توماس نيجل -، ولكنّ البروفسور ريا يقول إنه قدْ يعترض على هذا الردَّ بأنَّه يوجد مؤمنون بالإله يستشكلون الاختباءَ الإلهي، كما أنَّه يوجد عددٌ من الملاحدة يبحثونَ عن الإيمان، ولكنهم لا يجدون أدلة كافية رغم بحثهم. فهنا يردُ السؤال: لماذا الإلهُ يسمح بخداع الذات لأمثال هؤلاء؟ فلا بدَّ أن يكون للإله حِكَمٌ لسماحه بوجود الكفر[٤]. وهذا السؤال يؤدِّي إلى الوجه السادس.

---

(١) مايكل ريا (Michael Rea): بروفسور الفلسفة في جامعة نوتري دام بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في فلسفة الدين. انظر: /https: / /www.michaelrea.org

(٢) انظر: محاضرة: Divine Hiddenness, Divine Silence, وهي موجودة على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=dCka_Zg7ELQ

(3) The Last Word, (130-131)

(٤) محاضرة: Divine Hiddenness, Divine Silence

الوجهُ السّادس: شبهةُ الاختباء الإلهي مبنيَّة على أنّه لا يمكن أن يكون للربِّ حِكمٌ للسماح بوجود الكفر في العالم. فالمقدّمة الثانية في حجَّة جي. أل. شيلينبيرغ هي: «إنْ كان الإله كاملُ المحبّة موجودًا، فلا يمكن أن يوجَد كفر بطريقة عقلانية». وهذه المقدِّمة غيرُ صحيحة، لأنَّه قد يكون هناك حِكم كثيرة للإله بعدم إظهار نفسه لكلِّ أحد. ذكر الدكتور مايكل ريا بعضَ الحِكم التي استنبطها:

السببُ الأوَّل: أنَّ هذا يؤدّي بالإنسان أن يبحث عن خالقه خلال آياته ويرجوه.

السببُ الثّاني: لكي يظهر الربُّ للبشر أنّه الذي يحكم ويؤثّر في العباد، وهم لا يؤثِّرون فيه.

السببُ الثّالث: أنَّ بعضَ الناس يعبّر عن الاختباء الإلهي بالصمت الإلهي، ويقولون إنَّهم لا يسمعون شيئًا من الإله. ثمّ ذكر الدكتور ريا أنّه قد يصعب تفسير صمتِ شخصٍ من الأشخاص؛ لأنَّ صمتَه يرجع إلى شخصيته، وإذا ما عرفنا شخصيته وطبيعتَه فيصعب علينا تحليلُ صمته. وإذا كان هذا موجودًا في تحليل الصمت بين البَشر، فكيف بتفسيرِه للإله. وليس لدينا علمٌ بالذات الإلهية[1]، وبالتالي لا نفهم لماذا لا يُظهر نفسَه لبعض الأشخاص[2].

وهذا الوجهُ في أصله جيِّد، وهو ذكر بعض الحِكم لكوْن الربّ لا يُظهر نفسه لبعضِ الأشخاص. ولكنَّ الحِكمَ التي ذكرها الدكتور ريا فيها شيء من التخمين. والأوضحُ من ذلك أنَّ الله أضلَّ الكافرين المعرضين عن الحقِّ. فاللهُ - تبارك وتعالى - ذكر في آياتٍ كثيرة أنَّه يهدي مَن يشاء ويُضل مَن يشاء، وأنه يزيغ قلوب الكافرين، وأنّه يطبعُ عليها. وهذا الإضلال مبنيٌّ على علمه - سبحانه وتعالى - لمن يصلح للهداية، ومَن لا يصلح، معَ العلم الراسخ أنّ الله لا يظلم أحدًا مثقال ذرّة.

---

(١) لا يمكن للإنسان الوصولُ إلى العلم بكيفية الذات الإلهية، ولكنَّه يمكنه أن يكون لديه علمٌ بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وإن كنا لا ندرك كيفيتها.

(٢) المصدر السابق.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة عدم الإيمان والاختباء الإلهي:

شبهةُ الاختباء الإلهي في الحقيقة شبهةٌ موجَّهة ضدَّ النصارى أكثر من كونها موجّهة ضدَّ المسلمين. وذلك أنَّ النصارى يعتقدون أنَّ الربَّ أبٌ في السماء يراعي أولاده في الأرض كما يراعي الأبُ في الدنيا أولاده[1]. كما أنَّ النصارى يركّزون كثيرًا على صفة المحبَّة لله، مُتغافلين الصفات الأخرى كالحكمةِ والغضب والعقاب. ولهذا نجد في المقدّمة الأولى لحجَّة جي. أل. شيلينبيرغ أنّه قال: «إن كان الإله موجودًا، فهو كامل المحبّة». فلم يذكرْ في هذه المقدِّمة سوى صفةٍ واحدة، ثمَّ بنى المقدّمة الثانية على هذه المقدّمة بقوله: «إن كان الإلهُ كاملُ المحبّة موجودًا، فلا يمكن أن يوجد كفر بطريقة عقلانية».

أمَّا لو قيلَ في المقدِّمة الأولى: «إن كان الإله موجودًا فهو العليم الحكيم الملك الجبَّار، الودود الرحيم، وشديدُ العقاب، الذي يهدي مَن يشاء بفضله، ويضلُّ مَن يشاء بعدله»، فإنَّ المقدّمة الثانية تسقط، بل يقال: بلى، يمكن للربّ أن يكون عنده حِكم كثيرةٌ لإضلال الكفَّار المعرضين عن الحقّ؛ فقد أقام اللهُ تعالى الحجّة على الإنسان بطرقٍ متنوّعة، ومن ذلك:

١) أنَّ الله خلق الإنسانَ على الفطرة السوية؛ ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

٢) أنَّ الله أخذ العهد من بني آدم؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

٣) أنَّ الله أقام الحجّةَ على وجوده وربوبيته بآياته ومخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

[آل عمران: ١٩٠].

---

(١) وهذا الكلام يردّده الدكتور مايكل ريا في محاضرته عن الاختباء الإلهي مرّات عديدة.

٤) أنَّ الله أرسل الرسلَ وأنزل الكتب هداية للناس؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فمَن أعرض بعد ذلك كلِّه فيلومنَّ إلا نفسه. ومِن عقوبة إعراضه عن الحقّ أنَّ الله يطبعُ على قلبه ويضلّه؛ قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وحريٌّ لمن استمرَّ في الجدال بعد هذه الآيات البيّنات أنّ الله يطبع على قلبه؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

ومِن حكمة الله أنَّ العباد لا يروْنه في الدنيا لتحقيق الابتلاء والامتحان؛ فاللهُ خلق الموتَ والحياة ليبتلي العباد كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

والعبادُ لا يمكنهم رؤيةُ الله في الدينا، فأجسامهم أضعفُ من أن تطيق ذلك، فعدمُ تجلّي الخالق لعباده فيه رحمةٌ لهم. وقد أخبر اللهُ عن طلب موسى u أن يراه وماذا حدث إذ قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وعودًا إلى ردودِ علماء الغرب، فإنَّ فيها ضعفًا واضحًا، وعددًا من الأخطاء؛ فبعضهم يذكر أنَّ الإله قد أظهر نفسَه عن طريق المسيح، فهو الإله الذي مشى على الأرض. وهذا مبنيٌّ على عقيدةِ النصارى بألوهية المسيح، وهي معتقدٌ فاسد ردّ اللهُ عليه في القرآن الكريم في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

ومعَ ذلك فيمكن الاستفادةُ من بعضِ ردود علماء الغرب على شبهة عدم الإيمان وشبهة: الاختباء الإلهي، فالأوجهُ المذكورة في هذا المبحث أوجهٌ جيِّدة، ويستفاد منها، وإنْ كان ردُّ المسلمين لهذه الشبهة أسهلَ بكثير من ردّ النصارى لها.

المبحثُ التّاسع

ردودُهم على شبهةِ رهان الملحد

قد تقدَّم الحديث عن الحجَّة البرجماتية على وجود الله في الباب الثاني. وهذه الحجة اشتهرتْ باسم: رهان باسكال - نسبةً إلى الفيلسوف الفرنسي بليزيه باسكال -. وقد أقامَ رهانَه على أنَّ وجودَ الإله أو عدم وجوده مُحتمل. وإن كان موجودًا فإنَّ مَن آمن به يربح كلَّ شيء في الآخرة بدخوله الجنّة، وأمَا مَن ينكر وجوده فإنه يخسر كلّ شيء في الآخرة بدخولِ النار. بينما لو لم يكنِ الإلهُ موجودًا فإنَّ الذي آمن أو لم يؤمن به لا يربحُ ولا يخسر أيَّ شيء في الآخرة. وبناءً على هذا الرهان رجّح باسكال أنَّ الإيمان بوجود الإله أضمنُ من عدم الإيمان به.

وقد سبق أنَّه قد استحسن بعضُ المتديّنين هذا الرهان، بينما انتقده بعض المتديّنين والملاحدة معًا. ولكنْ لشُهرة هذا الرهان في الجدلِ الديني الغربي استغلّه بعضُ الملاحدة وقلبَ الحجَّة في صالحِ الملاحدة بما يُعرَف بـ «رهان الملحد». وهذا ما سيتناوله هذا المبحثُ - بإذن الله - في ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تقريرُ الملاحدة لرهان الملحد.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على رهان الملحد.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على رهان الملحد.

الفقرةُ الأولى: تقريرُ الملاحدة لرهان الملحد:

قد تقدَّم أنَّ عددًا من الملاحدة واللادينيين انتقدوا رهانَ باسكال من أوجه مختلفة. ومنهم: البروفسور مايكل مارتين، وهو مِن أشهر الملاحدة الذين اهتمّوا بنقد هذا الرهان بالتفصيل. وذلك في كتابه: «الإلحاد: تبرير فلسفي» (Atheism: A Philosophical Justification).

حيث خصَّص عشرَ صفحات في نقده. ولكنَّه لم ينتقد الرهان فحسب، بل قلبَ الحجَّة في صالح الملاحدة بطريقةٍ فلسفية معقَّدة. وخلاصةُ كلامه: أنَّ باسكال افترض أنَّه يوجد الإلهُ الذي يجازي المؤمنين به، ويعاقب المنكرينَ له، وبنى رهانه على ذلك. ومادام أنَّ رهانه مبنيٌّ على افتراض وجودِ الإله، فيمكن افتراضُ وجود كائن آخر خارق للعادة، ويعاقب مَن يؤمن بوجود الإله، ويجازي مَن ينكره. كما أنه يمكن افتراض وجود كائنٍ آخر خارق للعادة، يجازي مَن آمن به وبالكائن الأوّل الخارق للعادة، ولا يجازي مَن آمن بشيء آخر. وإذا كان الأمرُ كذلك فيوجد عددٌ من الخيارات الممكنة، وأسلم طريقةٍ هي عدمُ الإيمان بوجود أي إله أو كائنات خارقة للعادة[١].

فالبروفسور مارتن أراد أن يبيِّن أنَّه مادام أنَّ رهان باسكال مبنيٌّ على مجرّد افتراضات وليس مبنيًّا على يقين، فيمكن للملحدِ أن يفترض وجودَ آلهة أو كائنات أخرى خارق للعادة؛ لأنَّ الأمر يقتصر على افتراضات وإمكانات ذهنية.

وهذا الكلامُ وإن كان ساقطًا إلّا أنه فتح البابَ لغيره من الملاحدة في إقامة نحو هذه الرهانات.

ومِن ذلك أنَّ الإيمان بوجود الخالق، وتبنِّي دياناتٍ معيّنةً ليس مبنيًّا على أدلة وبراهينَ موضوعية، وإنما هو مبنيٌّ على افتراضات. ومادام الأمر كذلك، فمن افترض وجودَ إله فالأوْلى أن يفترض أنَّ هذا الإله خيِّر، وأنَّه يجازي جميعَ الناس الذين يعملون أعمالًا طيّبة، سواء كان موحِّدًا، أو مشركًا أو ملحدًا أو ربوبيًّا. ولكنَّ المتديّن أكثرُ عرضةً للوقوع في أعمالٍ غير أخلاقية لأنَّ الأديان تدعو إلى أعمال طيبة وسيئة معًا، بينما الملحدُ ينظر إلى القضايا الأخلاقية بنظرةِ ريبة، ولا يقبل خُلُقًا من الأخلاق، لأنَّه ضمنَ منظومته الدينية. ولكن لو لم يوجَد إلهٌ فإنَّ المتديّن قد ضيّق وقته بالطقوس الدينية بدون فائدة[٢].

---

(١) انظر: (232 - 238) Atheism: A Philosophical Justification

(٢) انظر المقطع: The Atheist's Wager على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=0iqWi3B7aM8

ونتجتْ من هذا الرهان الشبهةُ الإلحادية: أنَّ أهمَّ شيء أن يكون الإنسان طيّبًا في تعامله مع الآخرين، ولو وُجد إلهٌ بالفعل ويحاسب الناس في الآخرة، فإنّ الملاحدة والمتديّنين المتحلّين بأخلاقٍ وآداب طيّبة سيدخلون الجنة معًا. فلا حاجة للإيمان أصلًا.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على رهان الملحد:

قد تقدَّم أنَّ علماء الغرب لا يستخدمون رهانَ باسكال إلا في النادر. وكذلك الملاحدةُ فإنَّهم لا يستخدمون رهانَ الملحد إلّا في النادر. بل لم أقف على مَن أعاد نشرَ شبهة البروفسور مايكل مارتن لهذا الرهان. ولكنّ هذا الرهان فتح الباب للشبهة الإلحادية: أنَّه على فرض وجودِ الخالق، فإنَّه سيجازي حتَّى الملحد المتحلّي بالأخلاق الطيب؛ بدخول الجنة. والظاهرُ أنَّ هذه الشبهة أصحبت منتشرة نظرًا لكثرة ردود علماءِ الغرب عنها. وحيث أنَّ هذه هي الشبهة الأبرز، فسأركِّز على أجوبتها في هذه الفقرة. وسألخِّص أجوبتهم في خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: هذه الشبهة مبنيةٌ على أنَّ الملحد يحدِّد ما هو خير وما هو شرّ، وما هو ذنبٌ وما ليس بذنب. وذكر البروفسور جاسون هيلس[(١)] في ردّه على هذه الشبهة أنَّ الناس يختلفون في تحديدِهم لهذه الأمور، ولكنَّ الحكم في ذلك لا يرجع إلى الإنسان، بل يرجع إلى الله[(٢)].

وهذا الوجهُ صحيح؛ فلا يمكن للإنسانِ أن يستقلَّ بالحكم فيما هو خير أو شر أو ذنبٌ أو طاعة. بل هذا الأمرُ يرجع إلى الله. وأعظمُ أنواع الخير: الإيمان بالله. وقد سئل النبي (ﷺ): «أيُّ العمل أفضل؟ فأجاب: «إيمانٌ بالله ورسوله...»[(٣)]. فالإيمان أعظمُ أنواع الخير، والملحدُ ليس لديه أدنى إيمان.

---

(١) جاسون هيلس (Jason Hiles): بروفسور علم اللاهوت النصراني وعميد كلية اللاهوت في جامعة غراند كانيون بالولايات المتَّحدة. انظر:

https://www.gcu.edu/blog/author/jason-hiles-phd

(٢) انظر: المقطع: Trending Faith: Can "Good" People Go to Hell?، على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=QI7DrDivaFg

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦)، كتاب الإيمان، باب من قال: إن الإيمان هو العمل. وأخرجه مسلم في صحيحه (٨٣)، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

وأعظمُ أنواع الشرور: الشرك؛ قال النبي (ﷺ): «أكبر الكبائر: الإشراك باللَّه...»(١). وأقبحُ أنواع الشرك: شركُ التعطيل بتعطيل المخلوق عن الخالق، كما هو شركُ فرعون، وشركُ الملاحدة المعاصرين(٢).

فالملحدُ فاقدٌ أعظمَ أنواع الخير، وواقعٌ في أعظم أنواع الشَّر، ومع ذلك يتمنّى أنه سيدخل الجنة وينجو من النار.

الوجهُ الثاني: صاحبُ هذه الشبهة يفترض أنَّ الإنسان يستطيع دخول الجنة بأعماله. قد ردَّ البروفسور جاسون هيلس على هذا الافتراض بأنّه غير صحيح، لأنّه يتضمن القولَ بأنَّ الأصل في الإنسان الخير، وأنَّ هذا الخير يكفي في دخول الجنة. ولكنَّ الحقيقة أنَّ الأصل في الإنسان ليس الخير، والجنة ثواب لانهائي، وليس للإنسان أعمالٌ كافية لكي يستحقّ هذا الثواب(٣).

وهذا الجوابُ خاطئ من جهة، وصحيح من جهة أخرى:

الجهةُ الخاطئة: أنَّ النصراني - ومنهم البروفسور هيلس - يبني هذا القول بناءً على الخطيئة الموروثة، وأنَّ الأصلَ في الإنسان الشَّر، ولا يمكن أن يتخلّص من هذا الشرِّ ويدخل الجنة إلّا إذا آمن بأنَّ المسيح افتدى نفسه من أجل البشرية على الصليب - هذه العقيدةُ الخرافية سيتمُّ الردُّ عليها في مبحث: مصير الجاهل في الفصل الثالث إن شاء الله -.

ولكنَّ المقصود في هذا المقام أنَّ النصراني ينظر إلى الإنسان من حيث هو الإنسان - ويدخل في ذلك المولود الجديد - بنظرةٍ متشائمة بأنه غارقٌ في الشَّر والخطايا. بينما المسلمُ ينظر إلى الإنسان بأنَّه يولَد على الفطرة وعلى الحنفية، ثمّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٨٧١)، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا﴾ [المائدة:٣٢]. وأخرجه مسلم في صحيحه (٨٨)، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه).

(٢) انظر: الداء والدواء (٢٩٩)، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية، (دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ).

(٣) انظر: المقطع: Trending Faith: Can “Good” People Go to Hell?، المشار إليه سابقًا.

قد يستقيم على هذه الفطرة، أو ينحرف عنها لأسباب، مثل: تربية الوالدين، وتأثير الشياطين إلخ. - كما سبقَ في مبحث: حجة الفطرة -.

الجهةُ الصَّحيحة: مع أنَّ الإنسان يولَد على الفطرة والحنفية، فإنَّ السمة الغالبة للبشر - من حيث الواقع - : الظلم والجهل؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «الإنسانُ خُلقَ ظلومًا جهولًا، فالأصل فيه: عدم العلم، وميلُه إلى ما يهواه من الشَّرِّ، فيحتَاج دائمًا إلى علمٍ مفصَّلٍ يزولُ به جهله، وعدلٍ في محبَّته وبغضه، ورضاه وغضبه، وفعله وتركه، وإعطائه ومنعه، وكلُّ ما يقوله ويعمله يحتاجُ فيه إلى عدلٍ ينافي ظلمه، فإن لم يمنَّ الله عليه بِالعلم المفصَّل والعدل المفصَّل، وإلّا كان فِيه من الجهلِ والظُّلم ما يخرج به عن الصِّراط المستقيم»[1].

وكذلك أنَّ الإنسان لن يدخل الجنةَ بعمله مهما فعل من الخير؛ قال النبي (ﷺ): «لن يُدخِل أحدًا منكم عمله الجنة» قالوا: «ولا أنت يا رسول الله؟» قال: «ولا أنا إلا أنْ يتغمدني اللهُ منه بفضل ورحمة»[2]. فإذا كان نبيُّ الله ورسوله (ﷺ) لا يدخل الجنة بأعماله، وإنما يدخُل بفضل الله ورحمته؛ فكيف يتوقَّع الملحدُ أنه سيدخل الجنة بما يظنّه أنّه أعمال طيّبة، وهو الذي جحد ربّه بالكلية؟!

الوجهُ الثّالث: وبناءً على الوجه السابق فقد ذكر البروفسور توني كوستا[3] أنَّ الإنسانَ الصادق إذا فتّش نفسه فسيعرف أنّه قد قامَ بالعديد من الذنوب

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، كتاب المرضى، باب تمنّي المريض الموت.

وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٨١٦)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

(٣) توني كوستا (Tony Costa): لاهوتي كندي، بروفسور الدراسات الدينية ومهتمٌّ بنقد الإلحاد. انظر:
http://www.churchatfriendship.org/pti-meet-dr-tony-costa.html

والخطايا. ثمَّ يخدع نفسَه بأنه في الحقيقة طيب، ولذلك لا يستحق الذهاب إلى الجحيم[1].

وهذا الوجهُ أيضًا جيِّد في نقد هذه الشبهة، فالملحد يخدع نفسَه بأنّه طيّب وخيّر ويستحقُّ الجزاء - إنْ قدَّر بوجوده في زعمه - بسبب هذا. ولكنّ الواقع غير ذلك. بل اعتقادُهم هذا دليلٌ على غرورهم النفسي عندَ الملاحدة وتكبُّرهم. وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النحل:٢٢ - ٢٣]. فالذين لا يؤمنون بالآخرة - والملاحدة منهم - مستكبرون، وقد أخبر اللهُ أنه لا يحبُّ المستكبرين. بل الكبرُ من أخصِّ صفات أهل النار؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٩]. ومجادلةُ الملاحدة بهذه الشبهة مبنيَّة على كبرهم، وقد أخبر اللهُ تعالى أنه طبعَ على قلوب المتكبّرين الجبابرة إذ قال: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

فتلخَّص من هذه الأوجه الثلاثة أنَّ قول صاحب الشبهة إنَّ الملحد «الطيب» سيدخُل الجنة افتراض باطل. وهذا يقود إلى الوجه الرابع.

الوجهُ الرّابع: ذكر البروفسور جي وارنير واليس[2] أنّه ينبغي لنا عند الإجابة عن هذا السؤال أن نتيقَّن أنَّ الإله لن يرسلَ الطيِّبين إلى النار، ولكن مفهوم الملاحدة للطيِّبين خطأ[3]. وبناءً على هذا الجواب يمكن التسليمُ بأنَّ الطيِّب الحقيقي لن يدخل النار، ولكنَّ الملحد ليس من الطيّبين.

---

(١) انظر المقطع: How Can God Send Good People to Hell?، على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=udSsvWnrHYI

(٢) جي وارنير واليس (J. Warner Wallace): بروفسور الدفاع عن النصرانية في جامعة بيولا بالولايات المتحدة. انظر: https: / /coldcasechristianity.com /author /admin/

(٣) المقال: Why Would God Send Good People to Hell?، وهو على الرابط:
https://coldcasechristianity.com/writings/why-would-god-send-good-people-to-hell/

والحقُّ أنَّ الملحد لن يدخلَ الجنة، كما قال النبي (ﷺ): «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ»[1].

فالملحدُ المخلَّد في النار لا خيرَ فيه أصلًا. وكلُّ ما عمله مما ظاهره الخير في هذه الدنيا يكون هباءً منثورًا يوم القيامة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال الإمام ابن كثير (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «وهذا يوم القيامة، حين يحاسب اللهُ العباد على ما عملوه من خيرٍ وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين[2] من الأعمال - التي ظنوا أنها منجاة لهم - شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرطَ الشرعي؛ إمّا الإخلاص فيها، وإمّا المتابعة لشرع الله. فكلُّ عمل لا يكون خالصًا وعلى الشريعة المرْضِية، فهو باطل. فأعمالُ الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معًا، فتكون أبعدَ من القبول حينئذ»[3].

الوجهُ الخامس: وإضافةً إلى كلِّ ما سبق؛ فقد ذكر البروفسور توني كوستا في ردِّه على هذه الشبهة أنَّ الذين يدخلون الجحيم - وعلى رأسهم الملاحدة - قد رفضوا الإله، بل كثيرٌ منهم يبغضونه. فكيف يتوقَّع أنه سيُدخلهم الجنة[4].

وقد صدقَ في ذلك، فالبروفسور مايكل مارتن الذي أثار هذه الشبهة على سبيل المثال أَلَّف كتابه: «الإلحاد - تبرير فلسفي -» في أكثر من ٤٠٠ صفحة، وذكر أنواعًا متعدِّدة من الشبهات الإلحادية، ثمَّ قدَّم في وسط هذا الكتاب: رهان الملحد. فكيف يتوقّع عاقلٌ أنَّ شخصًا يحارب الله بهذه الطريقة سيدخله الجنة؟!

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١١١)، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأنَّ مَن قتل بشيء عذّب به في النار، وأنه لا يدخل الحنة إلا نفس مسلمة، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

(٢) والملاحدة من باب أولى.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٠٣).

(٤) انظر المقطع: How Can God Send Good People to Hell?، المشار إليه سابقًا.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على رهان الملحد:

شبهة: رهان الملحد ليست مُنتشرة، ولكنَّها موجودة. وقد ردَّ علماءُ الغرب عليها، وذكروا بعضَ الأجوبة المفيدة. ولكنَّ المشكلة لدى النصارى أنهم بنوا ردودَهم على صحَّة دينهم، واعتقادهم أنَّهم سيدخلون الجنة. وهذه مجرّد أمنية؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١]. قال العلامة السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا مَن كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا مَن كان نصارى، فحكموا لأنفسهم بالجنَّة وحدهم، وهذه مجرَّد أماني غير مقبولة، إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كلُّ مَن ادَّعى دعوى، لا بدَّ أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا، فلو قلبتْ عليه دعواه، وادَّعى مدعٍ عكسَ ما ادَّعى بلا برهان لكانَ لا فرق بينهما، فالبرهانُ هو الذي يصدق الدَّعاوى أو يكذبها، ولما لم يكنْ بأيديهم برهان، علم كذبهم بتلك الدعوى»(١). فكلامُ النصارى في هذا الباب أنهم سيدخلون الجنة دون غيرهم مبنيٌّ على مجرّد أماني كاذبة، وأنَّ إيمانهم بأن المسيح (عليه السلام) افتدى نفسه على الصليب تكفيرًا لذنوبهم سبب لدخولهم الجنة ودعوى باطلة.

والمسيح (عليه السلام) لم يمتْ على الصليب؛ قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [النساء: ١٥٧]. فإيمانهم بأنّه قُتل على الصليب مجرّد ظنّ، وما قتلوه يقينًا ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٨]. فلنْ يدخل أحد الجنة بسبب ظنّه أنَّ أحدًا آخر مات على الصليب.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير المنان (٤٨).

فالذي يدخل الجنة هو مَن قال اللهُ عنه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١٢]. وذلك كلّه بفضلٍ مِن الله رحمة، كما سبق تقريرُه.

فعلماءُ الغرب أصابوا في بعضِ الردود على الملاحدة، ولكنّهم بنوا ردودهم على أسسٍ باطلة وأصول واهية.

نقدُ رهان الملحد للبروفسور مارتن:

وأمَّا رهانُ الملحد الذي نصَّ عليه البروفسور مايكل مارتن فلم أقف على أنّ أحدًا مِن علماء الغرب ردَّ عليه. ولكن حيث إنَّه ذُكر في بداية المبحث، فلا بدَّ من نقضه؛ فيقال: البروفسور مارتن بنى رهانَ الملحد على رهان باسكال. وهذا الرهان نفسه فيه إشكالياتٌ كبيرة، وقد سبق ذكرُها في المبحث المخصَّص لهذا الرهان. ومن الإشكاليات في رهانِه أنَّه بناه على أنَّ وجود الله ممكن، ثمَّ رجَّح هذا الإمكان بأنَّ الأسلم أن يؤمنَ الإنسانُ لكيلا يتعرَّض لعقوبة في الآخرة.

وعندما ذكر أنَّ وجودَ الله من الممكنات، فإنّه فتح البابَ لأمثال البروفسور مارتن أنْ يقول: «والإيمانُ بكائنات أخرى خارقة للعادة ممكن. والردُّ على ذلك من وجهيْن:

الوجهُ الأوَّل: الإيمانُ بوجود الله ليس مِن قبيل الممكنات، بل الإيمان بوجوده ضروري - كما سبقَ ذكره مرارًا -. وهذا الإيمانُ فطريٌّ ومبني على حجج وأدلة وبراهين يقينية. وأمَّا ما ذكره البروفسور مارتن من أنَّ وجودَ كائنات خارقة للعادة أخرى فليس عليه أدْنى دليل أو برهان.

الوجهُ الثّاني: وجودُ آلهةٍ أخرى مع الله تعالى ليس مِن قبيل الممكنات، بل من قبيل المستحيلات. ولو وُجِد آلهة أخرى لاختلَّ الكون وفسد؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٢١ - ٢٢]. قال العلامة السعدي (رحمه الله) في تفسيرِ هذه الآية: «وبيانُ ذلك: أنَّ العالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما

يكون من الصَّلاحِ والانتظام، الذي ما فيه خللٌ ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدلَّ ذلك على أنَّ مدبرَه واحد، وربَّه واحد، وإلهَه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك؛ لاختلَّ نظامه، وتقوَّضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدُهما تدبيرَ شيء، وأراد الآخرُ عدمَه؛ فإنه محالٌ وجود مرادهما معًا، ووجودُ مراد أحدِهما دون الآخر يدلُّ على عجز الآخر، وعدمِ اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميعِ الأمور غيرُ ممكن، فإذًا يتعيَّن أنَّ القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع؛ هوَ اللهُ الواحد القهار»[1].

فالخلاصةُ أنَّ البروفسور مارتن جعل الإيمانَ بالله وآلهة أخرى كلّه من الممكنات، ولكنَّ الصواب أنَّ الإيمان بالله ضروري، ووجود الآلهة الأخرى مستحيل. وعليه، فإنَّ رهانَه باطل من أساسه.

---

(١) المصدر السابق (٤٩٣).

المبحثُ العاشر
ردودُهم على شبهةِ ضعف التصميم

تقدّم في الباب الثاني تقسيمُ الحجج على وجودِ الله إلى ثلاثة أقسام: الحجج العقلية والحجج العلمية والحجج الحسية. وذُكرت الحجة الغائية من ضمن الحجج العقلية، ثمَّ فُصِّلت الأدلة والشواهد للحجة الغائية ضمنَ الحجج العلمية. فالحجّة الغائية في الأصل حجة عقلية، ولكنه يستدلُّ لها بشواهد كثيرة من العلم التجريبي.

وقد عارضَ الملاحدةُ الحجة الغائية أو دليلَ التصميم بشبهةٍ تسمَّى: حجة ضعف التصميم (The Argument from Poor Design)، وهي شبهة عقلية في صياغتها، ولكن شواهدُها المزعومة من العلم التجريبي، ولا سيَّما بعض الشبهات المتعلّقة بنظرية التطوّر. ولهذا سوف أتناولُ هذه الشبهة كشبهةٍ عقلية معَ بعض شواهدها في هذا المبحث، ثمَّ أفصِّل الردَّ على نظرية التطوّر في الفصل القادم - إن شاء الله -.

وسأقسِّم هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: ضعف التصميم.

الفقرةُ الثّانية: صياغةُ الملاحدة لشبهة: ضعف التصميم.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: ضعف التصميم.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: ضعف التصميم.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: ضعف التصميم:

أصدرَ تشارلز داروين كتابه: أصل الأنواع عام ١٨٥٩م، وبصدوره نشأت نظريةُ التطوّر. وحاول داروين أن يستدلَّ في كتابه على حصول التطوّر من سلف مشترك عن طريقِ الانتخاب الطبيعي بأدلةٍ متعدِّدة. ومِن ضمن هذه الأدلة: ما يسمّى بالأعضاء الأثرية (Vestigial organs). وهي - حسبَ مزاعم داروين والتطوّريّين - أعضاء

كانت تقوم بوظائفها في الماضي، وعندما قلَّت الحاجةُ إليها ضَمُرت أو اختفت[1]. وخصّص داروين الحديثَ عنْ هذه الأعضاء المزعومة في الباب الرابع عشر من كتابه، وزعم أنّها كثيرة جدًّا في الطبيعة: «الأعضاءُ أو الأجزاء الجسدية الموجودة في هذه الحالة الغريبة، التي تحمل الطابعَ الواضح الخاصَّ بعدم الجدوى، شائعة إلى حدٍّ بعيد، أو حتى إنها عامَّة في جميع أرجاء الطبيعة»[2].

وانقسم المجتمعُ العلمي بين موافقٍ ومعارض لنظرية داروين. وسعى الموافقون للنظرية لحشدِ أكبر عددٍ من الأدلة المزعومة لنظريتهم.

وكان مِن ضمن مَن جمع الأدلة لذلك: إرنست هيكل[3]، وركّز على جمع أمثلة على هذه الأعضاء، واخترع مصطلحًا جديدًا، وهو: بلاغائية (Dysteleology)[4]. وبينما كان موقفُ داروين من هذه الأعضاء علميًّا - وإن كان خاطئًا -، فإنَّ موقف هيكل كان فلسفيًّا؛ وهو محاولةُ نفي الغائية عن الأعضاء. وقد لخَّص مرجع أكسفورد (Ox-ford reference) هذا الموقفَ الفلسفي وأثره على الإيمان بقوله: «إن كانت الغائية دليلًا على وجود الله، فإنَّه يبدو لأوَّل وهلةٍ أنَّ «بلاغائية» دليل ضدَّ الإيمان به»[5].

ويستخدم الملاحدةُ عدمَ وجود الغائية لإثبات صحّة منظورهم الإلحادي للكون؛ فيقول زعيمُ الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز على سبيل المثال: «الكون الذي

---

(١) انظر:

Encyclopedia of Evolution (1131-1133), by: G. B. Muller, (Oxford University Press, 2002)

(2) On the Origins of Species (370)

(٣) إرنست هيكل (Ernst Heakel) بروفسور الحيوان الألماني، ومتخصّص في علم الأجنة. كان يدعم الدارونيية بقوَّة، وحاول دعمها بدراسات علمية. توفي عام: ١٩١٩م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Ernst-Haeckel

(٤) انظر: The History of Creation (331)، by: Ernst Haeckel, (Appleton, 1892)

(٥) مصطلح: Dystheology على الرابط:

https://www.oxfordreference.com/view/10.1093/oi/authority.20110803095738944

نشاهده توجَد فيه الخصائص التي نتوقَّعها. هو في الحقيقة **بلا تصميم**، ولا هدف، ولا شرّ ولا خير، ولا شيء سوى اللامبالاة القاسية»[١].

وخصَّص كريستوفير هيتشن بابًا كاملًا في كتابه: الإله ليس عظيمًا، لدليل التَّصميم، وأورد كثيرًا من الأمثلة على ضعف التصميم حسب زعمه[٢].

ويكثُر ريتشارد دوكينز من ذكر الأمثلة على ضعف التصميم حسب زعمه في مقاطعَ مرئية[٣].

وشبهةُ ضعف التصميم من أقوى شبهات الملاحدة المستمدّة من نظرية التطوّر. فنظريةُ التطوّر نفسها ليستْ دليلًا مباشرًا على الإلحاد، ولكنَّ شبهة ضعف التصميم تقود إلى الإلحاد.

وذلك أنَّ «نظرية التطوّر قد تؤدِّي إلى اللادينية من جهتين، وإلى الإلحاد من جهة. أما اللادينية[٤]:

فالجهةُ الأولى: أنَّ الاعتقاد بالتطوّر يعني أنَّ عملية خلق الإنسان وسائر الأنواع تمَّت بعمليةٍ عشوائية دافعُها الانتخاب الطبيعي على امتداد الزمن، فإن أضيف إليها افتراضاتُ ونظريات علوم الجيولوجيا والكونيات، تحصَّل أنَّ خلق السماوات والأرض والأحياء تمَّ بعملية عشوائية ثابتة على مدار الزمان، ولذلك يولِّد هذا شعورًا بأن الإله خلقَ الكون ووضعَ قوانينه ثمّ تركه... وهذا القول وإن كان لا يلزم منه اللادينية إلا أنَّه واقع...

والجهةُ الثّانية: إنَّ القول بالتطوّر ينافي النصوص الصحيحة الواردة في الأديان، وهي نصوصٌ صحيحةُ الثبوت صريحةُ المعنى، ولا يمكن الجمع بينهما إلّا باعتساف وتأويل يبطل المعنى ويذهب بحقيقة النصّ فيكون النصّ وعدمه سواء...

---

(1) River out of Eden (133)

(٢) انظر: God is not Great (73 - 96)

(٣) انظر على سبيل المثال مقطع: Evidence for Evolution: Bad Design, وهو موجود على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=AN74qV7SsjY

(٤) الظاهر أنَّ المؤلف يقصد باللادينية في هذا المقام: المذهب الربوبي.

وأمّا جهةُ الإلحاد، فهي مِن جهة أنها تقول بوجود العيب وانعدام التصميم في مخلوقات الله، وتدَّعي عدمَ موافقة التركيب للوظيفة المثلى، وهنا يجعلون من عدم العلم بالحكمة دليلًا على انعدامها، وبالتالي ينفونَ الحكمة في الخلق، فينفون أن يكون الإله مطلقُ القدرة والعلم خلقَ هذه الخلائق، وهي طريقةٌ تشبه استدلالهم بوجود الشرِّ في العالم على نفي وجود الله...»[1].

فشبهةُ ضعف التصميم مما يتمسَّك بها الملحد في الاستدلال بنظرية التطوّر على إلحاده. وهذا هو واقعُ الملاحدة المعاصرين.

الفقرةُ الثّانية: صياغةُ الملاحدة لشبهة: ضعف التصميم:

تلخَّص مما سبق أنَّ شبهة ضعف التصميم مما يتمسّك بها التطوّريون على الإلحاد. وفي الغالب يذكرون هذه الشبهةَ مصحوبة بذكر أمثلة معيَّنة على سوء تصميم مزعوم، وأنَّه دليلٌ على الإلحاد. ولكنَّ هذه الشبهة تتضمَّن مقدِّمات عقلية مبطنة. وقد أوردها بعضُهم بالصياغة الآتية:

١) الإلهُ الخالق ذو العلم والقدرة والخير سيخلق الكائناتِ الحيةَ ذات تصميم مثالي.

٢) لدى الأحياء خصائصُ ليست مثالية.

٣) لذا، فإنَّ الإله لم يخلق هذه الأحياء، أو أنه ليس ذا علم وقدرة وخير[2].

٤) فهذه خلاصةُ هذه الشبهة بصياغتها المنطقية.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: ضعف التصميم:

هذه الشبهةُ مبنيَّة على مقدِّمتين ونتيجة. والمقدِّمة الأولى تفترض أنّه لو كان الخالقُ متَّصفًا بالعلم والقدرة والخير فلا بدَّ أن تكون المخلوقات على تصميم مثالي. فهذه المقدِّمة مبنيَّة على افتراض لاهوتي. والمقدِّمة الثانية تفترض أنَّ المخلوقات ليست مثالية،

---

(١) الإلحاد وثوقية التوهّم وخواء العدم (١٦٣ - ١٦٤).

(٢) انظر: The Gay Epiphany: How Dare You Speak for God?، Chapter 7, by: Robert K. Pavlick, (iUniverse, 2010)

ويستشهدون على ذلك بأمثلةٍ من علم الأحياء. ثمّ يستنتجون من المقدّمتين: النتيجة، وهي أنَّ الإله لم يخلقِ المخلوقات، أو أنه لا يتَّصف بالصفات التي يثبتها المؤلهة.

وقد ردَّ علماءُ الغرب على المقدِّمتين والنتيجة، وعليه فستقسَّم الردودُ إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الردُّ على المقدّمة الأولى:

ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة من وجهين:

الوجهُ الأوَّل: هذه الشبهةُ تشبه شبهةَ مشكلة الشَّر في صياغتها من بعض الأوجه، ولهذا كان ردُّ اللاهوتيّين النصارى على هذه الشبهة ينطلق من المنطلق نفسه الذي ردُّوا فيه على مشكلة الشَّر. وذلك أنَّ المخلوقات بعد معصية آدم ليست مثالية، بل يوجَد العديدُ من المصائب في هذه الدنيا بالزلازل والقحط والأمراض وتأثير الشياطين، إلخ. فلا ينتظر أن تكون المخلوقات كلّها مثالية[١].

الوجهُ الثّاني: القائلونَ بالتصميم الذكي - مثل الدكتور وليام دمبسكي - ردَّ على هذه المقدِّمة بالتفريق بين التصميم الذكي (Intelligent Design) والتصميم المثالي (Optimal Design)، وبيَّن الدكتور دمبسكي أنَّه لا يلزم أن تكون جميع المخلوقات مثالية لكي تكونَ دالةً على وجود مصمِّم ذكي[٢]. وقسَّم التصميم إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: ما يبدو مصمّمًا وهو ليسَ كذلك، وهو ما يقوله التطوّريون عن المخلوقات الحيّة.

القسمُ الثّاني: التصميمُ الذكي، وهو ما دلَّ على وجود مصمِّم ذكي صمَّم المخلوقات الحيّة، ولا يلزم أن تكون المخلوقاتُ مثالية. وهو ما يتبنّاه القائلون بنظرية التصميم الذكي.

---

(١) انظر:
God at War: The Bible and Spiritual Conflict (206), by: Gregory A. Boyd, (IVP Academic, 1997)

(٢) وقد سبق التنبيهُ على ما في هذا اللفظ من الإجمال.

القسمُ الثّالث: التصميمُ المثالي. والأمثلةُ التي يذكرها التطوّريون من هذا القبيل، ولكنَّ القائلين بالتصميم الذكي لا يدَّعون أنَّه موجود[1].

وضربَ مثالًا في التفريق بين الأقسام الثلاثة بقوله: «تمَّ تصميمُ السيارات التي تدور في مصانع التجميع في ديترويت بذكاء، بمعنى أنَّ الذكاء البشري مسئول عنها. مع ذلك، حتى لو اعتقدنا أنَّ أصحابَ الصناعة في ديترويت يصنعون أفضل السيارات في العالم، فمن الخطأ أن نقول إنَّها مصمَّمة على النحو الأمثل. كما أنه ليس صحيحًا أن نقول إنَّها تبدو مصمّمة فقط»[2].

وعليه فتكون المقدِّمة الأولى في هذه الشُّبهة من قبيل مغالطة الرجل القشّ[3]، لأنَّ اللاهوتيّين النصارى والقائلين بالتَّصميم الذكي لا يتبنَّون القول بالتصميم المثالي، فحتى لو وُجِد عيبٌ في المخلوقات، فلا يعني ذلك أنَّ الخالق غير موجود. وسيأتي ذكرُ الموقف الإسلامي من الخلق المثالي في نهاية المبحث - بإذن الله -.

القسمُ الثّاني: الردُّ على المقدِّمة الثانية:

قد ردَّ علماءُ الغرب على هذه المقدِّمة من وجهين: الوجه العام، والوجه الخاص، وبيانُ ذلك كالآتي:

الوجهُ العام: وهو أنَّ شبهة الأعضاء الضامرة مبنية على جهل التطوّريين بوظيفة بعضِ الأعضاء، ومن ثَمَّ يفترضون أنَّ هذه الأعضاء ليست مخلوقة بعناية، وإنما هي من بقايا التطوّر. وكان التطوّريون يفترضون أنَّ أعضاء كثيرة جدًّا بدون أي فائدة وتدخل في هذا الصنف، ثمَّ مع تقدُّم العلم تراجعوا عن هذا القول شيئًا فشيئًا؛ قال سكوت هيوس - المتخصِّص في نقد نظرية التطوّر - : «الأعضاءُ الضامرة هي البُنى

---

(١) انظر المقال: Intelligent Design is not Optimal Design, وهو موجود على الرابط: https://www.discovery.org/a/86/

(٢) المصدر السابق.

(٣) سبق التعريف بهذه المغالطة في المبحث المخصّص بالمغالطات المنطقية عند الملاحدة.

التي يفترض التطوّريون أنَّها بقايا لا فائدة منها لعضوٍ كان كاملًا ووظيفيًّا في الأنواع السلفية، وقد استخدمتْ هذا البنى طويلًا كدليلِ إثبات التطوّر لأنها يفترض أن تمثّل تغيّرات تطوّرية سابقة.

ولكنِ اتَّضح أنَّ قضية الأعضاء الضامرة هي **مثال للتسرّع في الحكم عند التطوّريين**، فالتطوُّرات في الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) **بيَّنت أنَّ الأعضاء الضَّامرة المفترضة هي أعضاء نافعة تمامًا في الواقع بل وأساسية**. على سبيل المثال نجد أنَّ الكتب المدرسية حتى الستينيات من القرن الماضي وضعت قائمةً بأكثر من ٢٠٠ بنية حيويَّة ضامرة في جسم الإنسان، بما في ذلك الغدة الدرقية والغدة النخامية! **وقد بدأت قائمةُ البنى والأعضاء «غير المفيدة» تتقلّص مع زيادة معرفتنا وفهمنا لها.**

ونعلم اليوم أنَّ ما كان يصنّف في الماضي عضوًا ضامرًا، له وظيفة ما خلال حياة الكائن الحي»[١].

بمعنى، أنَّ التطوُّريين يستدلُّون ببرهان الجهل، وخلاصته: «**إذا لم أكن أعلمُ أنَّ كذا متقن الصنع، فهو معيب!**» أو: «**أنا لا أعلمُ الحكمة من خلق كذا، فوجود كذا دالٌّ أنه لا وجود لخالق!**»[٢].

وكأنَّ التطوّري جعل نفسَه الحَكَمَ فيما يعتبر متقنًا أو غير متقن، وإذا ظنّ أنه غير مُتقن فإنّه يقول إنَّ هذا العضو من بقايا التطوّر، وعليه فلا يوجد خالق. وقد تبيّن أن التطوُّريين أخطأوا ٢٠٠ مرَّة تقريبًا في تصنيف أعضاء على أنها من الأعضاء الضامرة، ثمّ ظهرَ خطؤهم. فكان الأوْلى بالتطوّريين أن يتَّعظوا بهذه الأخطاء ويتواضعوا. ولو وقفوا على عضوٍ في الإنسان أو في حيوانٍ من الحيوانات من هذه الشاكلة؛ لكان ينبغي لهم أنْ يقولوا: «لسْنا ندري ما وظيفةُ هذا العضو، ولكن لعلَّنا نعلم ذلك في المستقبل». وأما أنْ يكرِّروا هذا الخطأ مرَّة تلوَ الأخرى، فهوَ من غرائبهم وعجائبهم.

---

(1) The Collapse of Evolution (146)

(٢) انظر: براهين وجود الله (٦٦٦ – ٦٦٧).

الوجهُ الخاص: وهو بنقدِ الأمثلة التفصيلية على هذه الشبهة. وحيث إنّ الملاحدة يكثرونَ من التَّمثيل على هذه الشبهة، ثمَّ يتراجعون عما مثّلوا به بعد ذلك فلا يتّسع المقامُ للوقوف على جميع أمثلتهم. وإنما أقفُ معَ مثالين من أشهر الأمثلة التي يذكرها الملاحدةُ التطوّريون، ويستدلّون بها على سوء التصميم، ثمَّ تبيَّن لهم أنّها ليست من باب سوءِ التصميم في شيء، بل هي مخلوقةٌ في غاية الدقّة والإحكام.

- **المثالُ الأوَّل: الحمض النووي الصبغي الخردة (Junk DNA):**

الحمضُ النووي الصبغي الخردة هو أجزاء من الحمض النووي التي لا تقوم بإنتاج متسلسلات البروتين. ولهذا كان التطوّريون يستدلّون بوجودِ هذا النوع من الحمض النَّووي على أنه مجرَّد خردة، ولا وظيفة له. ورأوا أنَّ هذا من أقوى الأدلة على وجود التطوُّر. وذكر ريتشارد دوكينز في كتابه: «أعظم استعراض في الأرض: الأدلة على التطوّر» (The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution) عام ٢٠٠٩ م، أنَّ ٩٥ ٪ من الحمْض النووي في الإنسان من هذا النوع، ويتساءل بعد ذلك عن سبب خلق مصمِّم ذكي مثل هذه الجينات الزائفة التي ليست لها أيُّ فائدة إلّا إذا كان يتعمّد خداعَنا[1].

ولكنَّ تقدُّمَ العلم بجينيات الإنسان شيئًا فشيئًا، معَ مشروع موسوعة عناصر الحمض النووي (ENCODE project) - وهو أعظم مشروع علمي في دراسة الحمض النووي - الذي اشترك فيه ٤٤٠ عالمًا من ٣٢ مختبرًا[2]. وتبيَّن خلال هذا المشروع أنّ ما كان

---

(١) انظر:

The Greatest Show on Earth (146), by: Richard Dawkins, (Free Press, 2009)

(٢) انظر المقال:

Bits of Mystery DNA, Far from 'Junk', Play Crucial Role

وهو موجود على الرابط:

https://www.nytimes.com/2012/09/06/science/far-from-junk-dna-dark-matter-proves-crucial-to-health.html

التطوّريون يسمُّونه بالحمض النووي الخردة، ليس خردة إطلاقًا، بل له وظائف مهمَّة جدًّا. وفي عام ٢٠١٢م، نشرت مجلة سينس (Science) التابعة للجمعية الأمريكية لتقدّم العلوم (American Association for the Advancement of Science) - وهي أكبر منظمَّة علمية في العالم وهي من أنصار نظرية التطوّر - بحثًا علميًّا بعنوان: «مشروع أنكود يكتب تأبينًا للحمض النووي الصبغي الخردة» (ENCODE Project Writes Eulogy for Junk DNA). وملخّص البحث كالآتي: «في هذا الأسبوع [فقط]، هناك ثلاثون بحثًا علميًّا، منها ستة في مجلة ناتشر - مِن أشهر الدوريات العلمية في العالم - وأبحاث إضافية نشرتْ على الإنترنت من قبَل مجلة سينس، تدقُّ صوتَ الموت لفكرة: أنّ أغلب الحمض النووي الخاصّ بنا عديم الفائدة. مشروع أنكود الذي استمرَّ لعقد من الزمن اكتشف أنَّ ٨٠ ٪ من جينوم الإنسان له وظيفة من ناحية الكيمياء الحيوية. إلى جانبِ تعريف البروتينات، تحدِّد قواعدُ الحمض النووي التي أبرزتها مشروع أنكود نقاطَ هبوطٍ للبروتينات التي تؤثّر في نشاط الجينات، أو سلاسل من الحمض النووي الريبي مع أدوار لا تعدُّ ولا تحصى، أو ببساطة الأماكن التي تعمل فيها التعديلات الكيميائية على إسكات امتدادات الكروموسومات لدينا»[(١)].

ففي عام ٢٠٠٩ م، كتب ريتشارد دوكينز أنّ ٩٥ ٪ من الحمض النووي خردة. ثمَّ في عام ٢٠١٢ م، ذكر هذا البحث العلمي أنّ ٨٠ ٪ من الحمض النووي نافع، وعقّب أحدُ المسئولين على مشروع أنكود أنَّ من المرجَّح أنَّ هذا الرقم سوف يزداد إلى ١٠٠ ٪ مع تقدّم البحث العلمي[(٢)].

---

(١) ملخص بحث: ENCODE Project Writes Eulogy for Junk DNA

وهو موجود على الرابط:

https://science.sciencemag.org/content/337/6099/1159.

(٢) انظر المقال: ENCODE: The Rough Guide to the Human Genome

وهو موجود على الرابط:

https://www.discovermagazine.com/the-sciences/encode-the-rough-guide-to-the-human-genome

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة بقوّة، ومن ذلك أنّ الدكتور جونثان ويلز ألّف كتابًا في الردِّ على هذه الشبهة بعنوان: «أسطورة الحمض النووي الصبغي الخردة» (The Myth of Junk DNA) في ١٥٠ صفحة في الردّ على هذه الشبهة، وفنّدها بالنقل عنْ مئات الأبحاث المحكّمة التي تبيّن فوائدَ هذا النوع من الحمض النووي.

- **المثالُ الثّاني: الزائدة الدودية (Appendix):**

الزائدة الدودية قطعةُ صغيرة في نهاية المصران الأعور، تقع في نهاية الأمعاء الغليظة. وكان التطوّريون يعتقدون أنّها ليست لها أيُّ فائدة أو وظيفة. وكانوا ينصّون على ذلك في الموسوعات الكبرى كموسوعة بريتانيكا حتى عام ١٩٩٧م[١]. ولكن تغيّر هذا الاعتقادُ عندما اكتشف العلماءُ أنَّ للزائدة الدودية وظيفة مهمّة في الدور المناعي مع الجهاز الليمفاوي للحماية من الهجمات البكتيرية الضارة. حتى نشر موقع مجلة سينتيفيك أميريكان (Scientific American) - وهي من أشهر المجلات العلمية الأمريكية المؤيّدة لنظرية التطوّر - مقالًا علميًّا بعنوان: «الزائدة الدودية قد تنقذ حياتك» (Your Appendix Could Save Your Life)[٢].

وقد ردَّ الدكتور كارل ويلاند وكين هام[٣] على تناقضات التطوّريين في موقفهم من الزائدة الدودية، معَ بيانِ فوائدها في مقال بعنوان: «الزائدة الدودية لك... هي موجودة لهدف» (Your appendix ... it's there for a reason)[٤].

---

(1) New Encyclopedia Britannica (1:491), (1997)

(٢) وهو موجود على الرابط:
https://blogs.scientificamerican.com/guest-blog/your-appendix-could-save-your-life/

(٣) كين هام (Ken Ham): عالم علوم البيئة الأسترالي، وأحد رموز مذهب الخلق. وقد ألّف مؤلفات ومقالات عديدة في الانتصار لهذا المذهب. انظر:
https://answersingenesis.org/bios/ken-ham/

(٤) وهو موجود على الرابط:
https://creation.com/your-appendix-its-there-for-a-reason

هذان مثالان مِن الأمثلة الكثيرة على موقف الملاحدة التطوّريين من سوء التصميم. فيُعلنون في البداية أنَّ بعضَ الأعضاء ليست لها أي فائدة، ثمّ يتراجعون بعد ذلك مع تقدُّم العلم، ويتبيَّن للجميع أنَّ المخلوقات في خُلقت بإتقان وإحكام وعناية، ولكنهم لا يتراجعونَ عن عقيدتهم الباطلة التي كانوا عليها يستدلون.

القسمُ الثّالث: نتيجةُ شبهة سوء التصميم:

قد تبيَّن مما سبق أنَّ المقدِّمتين اللتين بنى عليهما الملاحدةُ هذه الشبهة باطلتان، وبالتالي لا يعوَّل على نتيجتهم: «لذا، فإنَّ الإله لم يخلق هذه الأحياء أو أنه ليس ذا علمٍ وقدرة وخير». بل تبيَّن أنَّ العكس هو الصحيح، وأنَّ الإتقان والإحكام والدقّة في هذه المخلوقات دالَّة على وجود خالق عليم حكيم خلق هذه المخلوقات بهذه العناية.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة سوء التصميم:

ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة على قسمين:

القسمُ الأوَّل: ردودُهم على المقدّمة الأولى. وهذه الردودُ تتداخل مع تصوّراتهم اللَّاهوتية والفلسفية. فما هو الموقفُ الإسلامي من الخلق المثالي؟ الجواب أنَّ أهل السنة يعتقدون أنَّ ما خلقه الله موافق لحكمته؛ فهذا أحسنُ ما يمكن بالنسبة للحال المعينة والوقت المعين؛ مِن جهة موافقتِه للحكمة التي يعلمها الله؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) حاكيًا قولَ الجمهور: «... قولُ جمهور المسلمين الذين يقولون: إنه كريم جَواد عَدْل يخلق ما يشاءُ ويختار، وهو على كلِّ شيء قدير، وأنه يفعلُ ما يفعل لحكمة، وهو أرحمُ بعباده من الوالدةِ بولدها، وما يخلقه من الآلام والعقوبات يخلقه لحكمةٍ له في ذلك، لا تحصلُ تلك الحكمة بدون ذلك المخلوق، فهوَ على غاية الجود والكرم في إرادتِه، وغاية القوة والمكْنَة في قدرته، لكنَّ فعلَ الشيء يقتضي فعلَ لوازمه، وترك ما يُنافيه، فوجودُ أحد الضِّدين يستلزم تركَ الآخر، ووجودُ الملزوم يقتضي وجود اللازم»[1].

---

(١) الردُّ على الشاذلي في حزبيه وما صنَّفه في آداب الطريق (٩١)، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، (دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ ت. علي بن محمد العمران).

وقد ذهب بعضُ المتكلّمين إلى أنَّه ليس في الإمكان وجود أحسن من هذا العالم[1]. وقد ردَّ شيخُ الإسلام (رحمه الله) على هذا القول إذْ قال: «وقد أنكر طائفة هذا الكلام، وتفصيله: أنَّ الممكن يُراد به المقدور. ولا ريبَ أنَّ الله - سبحانه - يقدر على غيرِ هذا العالم، وعلى إبداعِ غيره إلى ما لا يتناهى كثرة، ويقدرُ على غير ما فعله»[2].

فاللهُ - تبارك وتعالى - يخلق ما يخلقه موافقًا للحكمة، ومِن ذلك ما يخلقه من الآلام والعقوبات. وما يذكره الملاحدةُ من الأمثلة على «التصميم المعيب» - حسب تعبيراتهم - فهوَ من هذا القبيل. ولا يلزم من ذلك أنَّ هذه المخلوقات ليست مخلوقة بحكمة وعلم، كما أنَّه لا يلزم منه أنَّ الله ليس بقادر على أن يخلق أحسنَ منه.

فـ«يعتقد المخالفُ أنَّ الخلق الإلهي لا بدَّ أن يبلغ الكمال في الصَنعة مطلقًا. وهذا إلزامٌ فاسد، وسببُ ذلك أنَّ الله يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، وفعله مرتبط بعلته[3]، لا بطبيعةِ المخلوق، بمعنى: أنَّ الله - سبحانه - قد خلقَ الخلق لتعمير الأرض، وخلق البشرَ للاختبار في هذه الحياة، ومِن لوازم هذه الغاية ألّا تخلَّد الكائنات، وأن يعرض لها المرض والعطب، ليكون الأذى سببًا في الاختبار أو الموت... ولذلك فتفسيرُ قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]؛ أنه سبحانه أحسنَ هذا الخلق بما يفي بالغاية من الخلق، لا بما يحقِّق للمخلوقات الخلود، أو يمنع عنهم الأذى. ولذلك قال القرطبي المفسِّر: ﴿أَحْسَنَ﴾؛ أي: أتقنَ وأحكم، فهو أحسنُ من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها»[4].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤ / ٢٧٥)، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، (دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ).

(٢) جامع الرسائل (١ / ١٤٢)، لأحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية (دار المدني للنشر والتوزيع، ١٤٠٥ هـ ت. محمد رشاد سالم).

(٣) لو عبّر بكلمة: «حكمته» لكان أفضل.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٩٠).

وبعبارةٍ أوضح، نحن لا نؤمن «بالنظم الأقصى» «Optimal Design»؛ فإنّه - سبحانه - لم يخلقْ أشياء العالم على صورة ليس بعدَها زيادة، إنما خلقها على أحسن صورةٍ تؤدِّي الحكمة من خلقها؛ فالخلقُ المثالي يقتضي - مثلًا - ألّا تفجع المخلوق حاجة، ولا يقربه موت، وذاك يعارض الحكمةَ من خلق هذه الأشياء في هذا الكون الزائل؛ حيث قصورُ المخلوقات عن مرتبةِ الكمال أثرٌ لحكمة تريد أن تمتحن الإنسان بالمرض، وتقوِّي عزيمته بمواجهة الآفات، وتذكِّره بالنعمة عند الغفلات...»[1].

والخلاصةُ أنّه لا يلزم من الاعتقاد أنَّ الله خلق كلَّ شيء بعناية أنّ هذه المخلوقات مثالية. بل لا يتأتَّى الامتحان والابتلاء إلّا بوجودِ الأمراض والمصائب. ولكن مع ذلك فإنَّ الإتقان والإحكام في هذه المخلوقات يدلّان على وجود خالق عليم قدير.

القسمُ الثّاني: ردودُهم العلمية على هذه الشبهات: وهي ردودٌ قوية، ويستفاد منها لأنَّ الذين ردُّوا على هذه الشبهات هم أهلُ التخصُّص، ويعرفون مداخل التطوّريين ومخارجَهم. وعليه، فينبغي للمسلمين الاستفادةُ من هذه الردود على هذه الشبهة.

---

(١) براهين وجود الله (٦٦٥).

المبحثُ الحادي عشَر
نقدُ ردودِ علماء الغرب
على شبهاتِ الملاحدة العقلية

هذا الفصلُ تناول ردودَ علماء الغرب على شبهات الملاحدة العقلية. والشبهات المذكورة في هذا الفصل هي: شبهة الخصائص غير المتوافقة، وشبهة: من خلق الله؟، وشبهة عدم إمكان رؤية الله، وشبهة تناقض القدرة المطلقة، وشبهة الوحي غير المتناسق، وشبهة عدم إدراك رؤية الله، وشبهة عدم إدراك المراد بالإله، وشبهة إبريق راسل، وشبهة عدم الإيمان، وشبهة رهان الملحد، وشبهة ضعف التصميم.

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهاتِ ببعض الردود القوية والمقنعة، ولكن كان في بعضِ كلامهم خللٌ واضح أيضًا. وحيث إنَّني قيَّمت كلامهم في كلِّ مبحث فلا حاجةَ إلى إعادة الكلام كلّه. ولكن يمكن تلخيصُ أهمِّ مشكلات الملاحدة في ردودهم على شبهات الملاحدة العقلية في خمس نقاط:

النُّقطةُ الأولى: أنَّ كثيرًا من شبهات الملاحدة العقلية متعلقة بالصفات الإلهية، واليهود والنصارى لديهم مواقفُ مضطربة في هذا الباب. فبينما دلَّت كتبهم المقدّسة على وصْف الله بالنقائص والعيوب، فإنَّ متأخِّريهم معطلة. وهذا الاضطراب فتح البابَ أمامَ الملاحدة في ذكْر هذه الشبهات. وإن كان علماءُ الغرب أصابوا في بعض ردودهم على هذه الشبهات إلّا أنّهم أخطأوا في مسائلَ كثيرة. وحيث إنَّ باب الصفات توقيفي فلا يمكن أن يصلَ الإنسان إلى الحقِّ الخالص إلّا عن طريق الوحي المعصوم. فلا بدّ لمن ردَّ على شبهاتِ الملاحدة المتعلقة بالصفات الإلهية أن ينطلقَ من نصوص الكتاب والسنَّة، وما قرَّره أئمة السنة. وبذلك يستطيع أن يفحمَ الخصمَ بأدلة قاطعة.

النُّقطةُ الثّانية: مع أنَّ أغلب اليهود والنصارى معطلة في الصفات فلديهم توسُّع كبيرٌ في إطلاق العبارات في حقِّ الله تعالى. وهذا واضحٌ في ردودهم على شبهات الملاحدةِ المتعلقة بالصفات الإلهية. وهذا التجوُّز في العبارات والجرأة في إطلاق الألفاظ مما يُضعف قيمةَ ردودهم. ولا بدَّ أن يحتاطَ المسلم كثيرًا عندما ينقل عنهم كلامًا في هذا الباب. ولكن يمكن أن يستفيدَ المسلمُ من الردود بشكل عام حيث إن لديهم خبرة طويلة في نقدِ شبهات الملاحدة، ثمَّ يصيغ هذه الردود بما يتوافق مع نصوص الكتاب والسنة.

النُّقطةُ الثّالثة: أنَّ ردودَ علماء الغرب على بعض الشبهات مثل: عدم الإيمان والاحتجاب الإلهي لم تكنْ وافيةً بالمقصود. ولهذا أوردتُ عددًا من الأوجه الأخرى في الردِّ على تلك الشبهة. فمع أنَّ هذه الشبهة منتشرة في الغرب لم يوفّقوا في الردّ عليها كما استطاعوا القيامَ بردود قوية ومقنعة على شبهات أخرى.

النُّقطةُ الرّابعة: أنَّ علماء الغرب لا يكتفون بنقدِ شبهات الملاحدة في هذا الباب فحسب، بل ينتهزون الفرصةَ للدعوة إلى النصرانية. وهذا الأمرُ واضحٌ في ردودهم على شبهة: الوحي غير المتناسق؛ حيث سعوا إلى إبطالِ هذه الشبهة أوّلًا ثمَّ حاولوا الاستدلالَ على صحة الوحي المزعوم في كتابهم المقدَّس. وهذا الاستدلال البائس يُضعف ردودَهم على هذه الشبهات؛ لأنَّ الديانة النصرانية ديانة وثنية بعيدة عن رسالة المسيح السامية، كما أنَّ ما يسمُّونه «الكتاب المقدَّس»، وإن كان يشتمل على بعض بقايا وحيِ الأنبياء، إلّا أنَّه كتاب محرَّف، ويوجد فيه كثيرٌ من الكلام لم ينقل عن الأنبياء قطعًا. فلا يمكن أن يردَّ على هذه الشبهات بحقٍّ وصدق إلّا أهلُ الإسلام المتمسكّين بالوحي المنزَّل من الله تبارك وتعالى.

النُّقطةُ الخامسة: أنَّ بعضَ الشبهات التي أوردها الملاحدة في هذا الباب نتيجة لحججٍ ضعيفة عندَ علماء الغرب. ومن الأمثلة على ذلك أنّ الملاحدة قلبوا رهانَ باسكال إلى رهانِ الملحد. فبسببِ إيراد بليزيه باسكال لهذا الرهان، واستحسان عددٍ من النصارى له، وتناقلهم له في كتبهم؛ ذكر مايكل مارتن هذه الشبهة. وهذا يدلُّ على أهميةِ الاحتجاج بحججٍ قوية ومقنعة، والابتعاد عن هذه الحجج الضعيفة والواهية، لأنَّ مَن احتجَّ بها يفتح البابَ أمام الخصوم لإيراد مثل هذه الاعتراضات.

الفصلُ الثّاني

ردودُهم
على شبهاتِ الملاحدة العلمية

وفيه ثمانيةُ مباحث:

المبحثُ الأوّل: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بنظرية الانفجار.

المبحثُ الثّاني: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة.

المبحثُ الثّالث: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بنظرية التطور.

المبحثُ الرّابع: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بميكانيكية الكم.

المبحثُ الخامس: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بالكيمياء.

المبحثُ السّادس: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بعلم النفس.

المبحثُ السّابع: ردودُهم على الشبهات المتعلقة بالتاريخ.

المبحثُ الثّامن: نقدُ ردودِ علماء الغرب على شبهاتِ الملاحدة العلمية.

المبحثُ الأوَّل
ردودُهم على الشُّبهات
المتعلقةِ بنظريةِ الانفجار العظيم

دليلُ الخلق والإيجاد من الأدلةِ القوية على وجود الله كما سبقَ بيانُه في الفصل الثاني. وهذا الدليلُ مبنيٌّ على أنَّ للكون بداية. وكان الملاحدة في السابق يردّون هذا الدليلَ بناءً على اعتقادهم أنَّ الكون أزلي. ولكن مع تقدُّم الأدلة العلمية على أنَّ للكون بدايةً ظهر ما باتَ يُعرف بنظرية الانفجار العظيم. وقد عرّفها قاموس كامبردج بأنَّها «النظرية القائلة بأنَّ الكون بدأ بانفجار عظيم جدًّا من كتلة مادية واحدة»(١).

وهذه النظرية استخدمَها المؤلهة في تأييدِ دليل الخلق والإيجاد، وحاول الملاحدةُ إحداثَ فرضيات مُصاحبة لها تفسِّر حدوث الكون بدون وجود خالق. ولأهمية هذه النَّظرية في الجدل الإيماني - الإلحادي سوف يتمُّ تقسيمُ هذا المبحث إلى الأقسام الآتية:

القسمُ الأوَّل: تاريخُ نظرية الانفجار العظيم.

القسمُ الثّاني: شرحُ نظرية الانفجار العظيم باختصار.

القسمُ الثّالث شبهاتُ الملاحدة المتعلّقة بنظرية الانفجار العظيم.

القسمُ الرّابع: مواقفُ علماء الغرب من نظرية الانفجار العظيم.

القسمُ الخامس: ردودُ أتباع نظرية خلق الأرض الفتية على نظرية الانفجار العظيم.

القسمُ السّادس: تقييمُ ردود علماء الغرب على نظرية الانفجار العظيم.

---

(١) تعريف: The Big Bang Theory في Cambridge Dictionary وهو موجود على الرابط:
https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/big-bang-theory

القسمُ الأوَّل: تاريخُ نظرية الانفجار العظيم:

قد تقدَّم في مبحث: الحجة الكونية شيءٌ من تاريخ الجدل عن أزلية الكون، وأنَّ أرسطو ومَن تبعه مِن الفلاسفة واللاهوتيين كانوا يقرّرون أزليةَ الكون، بينما كان علماءُ الإسلام وكثيرٌ من اللاهوتيين النصارى يقرّرون أنَّ للكون بداية. وعندما ظهر المذهبُ الإلحادي واللاديني في القرن الثامن عشر ثمَّ التاسع عشر أيَّد الملاحدةُ القول بأزلية الكون. فكان فلاسفةُ الإلحاد واللادينية كإيمانويل كانت، وكارل ماركس وفريدريش إنجلس يثبتونَ أزلية الكون[١].

ولكن تغيَّر ذلك في بداية القرن العشرين معَ تقدُّم العلم التجريبي. وبدأ العلماء في عام ١٩١٠م يرصدون أنَّ المجرّات الحلزونية تبتعد عن الأرض. وبعد سنوات قليلة من هذا الرَّصد وضعَ أينشتاين نظريةَ النسبية العامة، ووفقًا لهذه النظرية فلا تقبل أي حلولٍ كونية ثابتة، فإمَّا أن الكون يتمدَّد، أو أنَّه ينكمش. وكان هذا الأمر يقلق أينشتاين حيثُ كان يعتقد أنَّ الكون أزلي، فحاول أن يصحِّح النظرية بوضع الثابت الكوني. وكانتْ وظيفةُ هذا الثابت أنه جعل المعادلاتِ تشير إلى أنَّ الكون ثابت بإيجاد توازن بينَ قوى الجذب وقوى أخرى تقاومها، ولكنَّه تراجع عن هذا القول بعد ذلك.

وفي عام ١٩٢٢م، اعتمدَ ألكسندر فريدمان[٢] على نظرية النسبية العامة، ولكن توصَّل إلى أنَّها تشير إلى أنَّ للكون بداية. وأيَّد جورج لومتر[٣] نظرية فريدمان وبيّن أنَّ

---

(١) انظر:

The Creation of Universe from Nothingness (16-17), by: Harun Yahya, (al-Attique Publishers, 2000)

(٢) ألكسندر فريدمان: عالم الفلك، وفيزيائي، ورياضياتي سوفيتي وروسي. وقد اشتهر لكونه اكتشفَ حلَّ الكون المتمدِّد لمعادلات النسبية العامة المجالية في عام ١٩٢٢م، التي أصبحت القاعدةَ الأساسية لنظرية الانفجار العظيم. توفي عام: ١٩٢٥م. انظر:

http://www-history.mcs.st-andrews.ac.uk/Biographies/Friedmann.html

(٣) جورج لومتر (Georges Lemaître): بروفسور الفيزياء وعلم الكون البلجيكي، كما أنه كان قسيسًا كاثوليكيًّا. وكان أحدَ مَن وضع الأسس لنظرية الانفجار العظيم. توفي عام: ١٩٦٦م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Georges – Lemaitre

للكون بداية، ولا بدَّ أنَّ هناك شيئًا جعله يتمدَّد بهذه القوّة. ولكن لم تزل هذه النظرية بدون ملاحظاتٍ رصدية واضحة حتى عام ١٩٢٩م، حين اكتشف أنّ ضوء المجرّات البعيدة ينزاح نحوَ الأحمر، وهذا يؤيّد القولَ بأنَّ المجرّات تبتعد عن بعضها البعض. فكان ذلك دليلًا قويًّا على تمدُّد الكون، وعليه للكون بداية[١].

انقسمَ المجتمعُ العلمي بينَ القول بأزلية الكون والقول بأنَّ له بداية. فكان العلماء المثبِتون لأزليَّة الكون يتبنَّون نظرية الحالة الثابتة التي وضعها فريد هويل، بينما أيّد علماءُ آخرون القولَ بأنَّ للكون بداية. وفي مقابلةٍ مع قناة بي بي سي استهزأ فريد هويل مع القائلين بأنَّ للكون بداية، وسمَّى نظريتهم بـ«الانفجار العظيم» (Big Bang)، وكان هذا هو الاسمَ الذي اشتهرت به النظرية بعد ذلك[٢].

وكان مِن أقوى أسباب رفضِ الملاحدة لنظرية الانفجار العظيم أنّها تشير إلى وجود خالقٍ للكون؛ فكان البروفسور الفيزيائي أرثر أدينغتون[٣] يعتبر أنّ هذه النظرية أمرٌ بغيض فلسفيًّا، ويقول إنه: «يبدو أنَّ البداية تقدِّم صعوباتٍ لا تقهر إلا إذا اتفقنا أن ننظرَ إليها بصراحة تامَّة كأمر فوقَ طبيعي»[٤]. وذكر البروفسور الفيزيائي ستيفن واينبرج أنَّ نظرية الحالة الثابتة أكثرُ جاذبية فلسفيًّا لأنّها الأقلُّ شبهًا بما جاء في سفر التكوين[٥].

ولكنْ خُيبت آمالُ الملاحدة في عام ١٩٦٥م، عندما اكتشف العلماءُ إشعاع الخلفية الكونية – وهو أشعة كهرومغناطيسية توجد في جميع أنحاء الكون بنفس التوزيع والشدَّة –

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٧ – ١٩).

(٢) انظر: شموع النهار (١٢٧).

(٣) أرثر أدينغتون (Arthur Eddington): بروفسور الفيزياء الفلكية البريطاني، وأحد من نقل نظرية النسبية العامة إلى اللغة الإنجليزية. توفي عام ١٩٤٤م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Arthur-Eddington

(4) The Expanding Universe (178), by: Arthur Eddington (Macmillian, 1933) بواسطة كتاب: «فمن خلق الله؟ (٩٦).

(٥) انظر: The World within the World (226)، بواسطة: شموع النهار (١٢٨).

وكانت نظريةُ الانفجار العظيم هي النظرية الوحيدة التي استطاعت تفسير ذلك. بل سمَّاها ستيفن هوكينغ بالمسمارِ الأخير في نعش نظرية الحالة الثابتة[١].

ومعَ مرور السنوات اكتشف العلماءُ مزيدًا من الأدلة على بداية الكون حتى كادَ المجتمعُ العلمي أن يجتمعَ على هذا القول في التسعينيات فصاعدًا[٢]. وكلما تقدَّم الوقت ازدادَ يقينهم بأنَّ للكون بداية؛ قال البروفسور مارتن ريس: «كنت سابقًا، منذ سنوات قليلة، أثقُ بدرجة ٩٠ ٪ في حدوث الانفجار العظيم... أمّا الآن فالنسبة أعظم بكثير، التقدُّم العظيم في المشاهدات والتجارب جعلَ الصورةَ الكونية الكبرى أدّق أثناء التسعينيات من القرن العشرين، وأرغبُ الآن في رفع درجة يقيني إلى ٩٩ ٪»[٣].

القسمُ الثّاني: شرحُ نظرية الانفجار العظيم باختصار:

ما الذي توصَّل إليه العلماء في الأخير؟ فكرة هذه النظرية باختصار: أنَّ هذا الكون الذي نحن فيه ابتدأ مِن مفردة[٤] شديدة الحرارة، وذاتِ كثافة لانهائية، وتمدّد الكونُ وتوسَّع بعدَ ذلك عبر ١٣,٨ مليار سنة تقريبًا. وهذا التمدُّد ليس ناشئًا عن تباعد مجرَّات هذا الكون بعضها عن بعض، بل الذي يتمدَّد هو المكان ذاته التي تحلُّ فيه تلك الأجرام[٥].

---

(١) انظر المقال: The Beginning of Time, by: Stephen Hawking, وهو موجود على الرابط: http://www.hawking.org.uk/the-beginning-of-time.html

(٢) انظر: The Creation of Universe from Nothingness (22)

(3) Just Six Numbers: The deep forces that shape the universe (10), by: Martin Rees, (Basic Books, 2000)

(٤) المفردة (Singularity): نقطة ذات كثافة لا نهائية ودرجة حرارة يصعب على عقولنا استيعاب طبيعتها، وهي التي انفجرت مع بداية الانفجار العظيم حسب النظرية.

انظر المقال: The Big Bang: What Really Happened at Our Universe's Birth? على الرابط:

https://www.space.com/13347-big-bang-origins-universe-birth.html

(٥) انظر المقال: ما هي نظرية الانفجار العظيم؟ على موقع وكالة ناسا بالعربية، على الرابط: https: / /nasainarabic.net /education /articles /view /big – bang – theory

وأنصارُ النظرية يتحدَّثون عن كيفية تشكّل الكون بتفاصيل عديدة - وإن لم تكن من صُلب النظرية نفسها -، ومن الأمثلة على ذلك:

١) تكوَّنت الذرّات الأولى ٣٠٠,٠٠٠ سنة بعد الانفجار.

٢) تشكَّلت المجرّات والنجوم مئات الملايين من السنين بعد الانفجار.

٣) ظهرَ النظام الشمسي بما فيه كوكب الأرض بعد تسعة مليار سنة من الانفجار.

٤) وُجدت الحياةُ الأولى على كوكب الأرض بعد عشرة مليار سنة من الانفجار[١].

القسمُ الثالث: شبهاتُ الملاحدة المتعلّقة بنظرية الانفجار العظيم:

تبيَّن أنَّ الملاحدة كانوا يكرهون فكرة بداية الكون لأنّها تؤدّي إلى السؤال الآتي تلقائيًّا: مِن أين أتى الكون؟ وقد حاول كثيرٌ من المؤلهة استخدام هذه النظرية لصالح الإيمان بالله، وأنَّها تؤيِّد حجةَ الخلق والإيجاد. ولهذا حاول الملاحدةُ إيجادَ عدد من النَّماذج البديلة للبداية المطلقة للكون[٢]؛ قال البروفسور كريستوفر إيسهام [٣]: «ربّما أفضلُ حجَّة لصالح الطرح القائل: إنَّ (الانفجار العظيم) يؤيد الإيمان بالله هو التململ الواضح الذي قوبِلَ به من طرفٍ بعض الفيزيائيين الملاحدة. وقد أدّى ذلك إلى ظهور أفكارٍ علمية، مثل: (الخلق الدائم) (Continuous creation)[٤] أو

---

(١) انظر الرسم الموضّح لتاريخ الكون كما يصوّره أتباع النظرية على موقع: The Open University على الرابط:
https://www.open.edu/openlearn/ocw/pluginfile.php/550718/mod_resource/content/1/History%20of%20Universe%20Timeline.pdf

(٢) المقصود بالبداية المطلقة للكون أنّ المادة والطاقة والزمان والمكان تشكّل مع لحظة الانفجار العظيم.

(٣) كريستوفر إيسهام (Christoffer Isham): بروفسور الفيزياء النظرية في كلية لندن الإمبراطورية. وهو متخصّص في ميكانيكا الكم. انظر:
https://www.imperial.ac.uk/people/c.isham

(٤) يقصد بذلك: نظرية الحالة الثابتة التي سبقت الإشارة إليها.

الكون المتذبذب (Oscillating universe)[1]، وقد تمّ تقديمها بحماسة تفوق بكثير قيمتها الحقيقية مما يلزم المرءُ بأنْ يرى دوافعَ نفسية أعمق بكثير من الرغبة المألوفة للنظر لدعم النظرية»[2].

فما هي هذه النماذجُ العلمية التي قدَّمها علماء الكون الملاحدة للتهرّب من البداية المطلقة للكون؟ حيث أنَّها كثيرة ومتعدّدة، أقتصرُ على ذكر ثلاثةٍ من أشهرها فحسب[3]:

- **أوّلًا: النموذجُ المتذبذب (Cyclic model):**

هذا النموذج يقترح أنَّ الكون في حال توسُّعٍ وانكماش دائبين منذُ الأزل بدون بداية. وقد اقترح أصحابُ هذه النظرية تلك الفكرةَ تهرّبًا من القول ببداية مطلقة للكون. وقد نصَّ على ذلك الدكتور جون غريبين[4] إذْ قال: «أكبرُ مشكلة مع نظرية الانفجارِ العظيم المتعلقة بنشأةِ الكون هو فلسفي - وربما حتى لاهوتي -، وهو: ماذا كان قبلَ الانفجار؟ كان هذا الإشكالُ وحده كافيًا لمنح دفعة أولى لـ(نظرية الحال الثابتة)، ولكنْ بعد أن تبيَّن - للأسف - أنَّ تلك النظرية معارضة للأمور المشاهدة، كان الطريق الأفضل للالتفاف حولَ هذا الإشكال الأولي هو في تقديم نموذجٍ يتوسَّع فيه الكون من مُفردة، وهو يعود فينهارُ بعد ذلك، ثمَّ يعيد دورته هذه دون نهاية»[5].

---

(١) سيأتي التعريف بهذه النظرية في هذا المبحث لاحقًا إن شاء الله.

(2) "Creation of the Universe as a Quantum Process", in Physics, Philosophy and Theology, (378), (Vatican Observatory, 1988)

(٣) مِن أكثر مَن دافع عن الحجَّة الكونية، وردَّ على هذه النماذج الإلحادية هو البروفسور وليام لاين كرايغ. وقد توسَّع في الردِّ عليها في كتابه: الإيمان العقلاني (Reasonable Faith)، كما أنّ الدكتور سامي عامري قد أفادَ وأجاد في هذه المسألة في كتابه: فمن خلق الله؟ ولهذا ستتمُّ الاستفادة منهما بقدر كبير.

(٤) جون غريبين (John Gribbin): عالم الفيزياء والفلك البريطاني، وحامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء الفلكية من جامعة كامبرج. وقد ألّف عشرات الكتب في تبسيط العلوم لعامة الناس. انظر: https://web.archive.org/web/20160303205538/http://www.popularscience.co.uk/biographies/gribbin.htm

(5) "Oscillating Universe Bounces Back", Nature 259, (1976), 15

وذكرَ البروفسور وليام لاين كرايغ ردودًا عديدة على هذا النموذج، وأهمّها ثلاثة:

1) أنَّ هذا النموذج يستند إلى تخمينات لا يمكن التحقّق منها. وحوافز النموذج ميتافيزيقية وليست علمية.
2) أنَّ الأدلة تشير إلى وجود بداية مطلقة لا أكثر.
3) لا يوجد شيء في الفيزياء يُمكِّن من إثبات وجود انهيار للكون، ثمّ تضخّمه من جديد[1].

- **ثانيًا: التضخّمُ الأزلي (Eternal inflation):**

هذا النموذج يعترفُ بأنَّ الكون - الذي نحن فيه - له بداية، لكن لا يعني ذلك أنها البدايةُ المطلقة للمادة والطاقة؛ فهمَا أزليتان. ويقول أتباعُ هذا النموذج إن أجزاءً مختلفة مِن الكون تتمدَّد وتنكمش بمعدلاتٍ مختلفة، ويمكن اعتبارُ هذه الأجزاء أنها أكوان متعدِّدة. وهذه الأكوانُ الأخرى ليست لها بداية، بخلاف هذا الكون[2].

ولكنْ واجه هذا النموذج إشكالان رئيسان:

الإشكالُ الأوَّل: أنَّ هذا النموذج غيرُ قابل للاختبار، لأنّه لا يستندُ إلى دليل مادي[3].

الإشكالُ الثّاني: ما أثبتَه البروفسور أرفن بورد، والبروفسور ألكسندر فيلنكن في بحثٍ عام ١٩٩٤م، أنَّ جميع نظريات التمدّد - ومنها: هذا النموذج - لا يمكن أن تتلافى المفردة التي نشأ منها الكون. وأقرَّ البروفسور أندري لندي[4]، وهو من روّاد هذه النظرية، بذلك في الأخير[5].

---

(١) انظر: Reasonable Faith (129 - 130)

(٢) انظر: شموع النهار (١٣٣).

(٣) انظر: The Book of Nothing: Vacuums, voids, and the latest ideas about the origins of the universe (256), by: John Barrow, (Panethon Books, 2000)

(٤) أندري لندي (Andrei Linde): بروفسور الفيزياء في جامعة ستانفورد المشهورة بالولايات المتَّحدة، وهو متخصِّص في نظريات بداية الكون. انظر:
http://web.stanford.edu/~alinde/

(٥) انظر: From the Big Bang Theory to the Theory of Stationary Universe, in Physical Review D, 49, 1994, 1783 - 1826

ولهذه الأسباب وأسبابٍ أخرى، ذكرَ ستيفن هوكينغ أنّ هذا النموذج ميّت كنظرية علمية[١].

- **ثالثًا: نموذجُ هوكينغ (Hawking's model):**

ستيفن هوكينغ مِن أشهر علماء الكون في هذا العصر، وكان ملحدًا يجهر بإلحاده في آخرِ حياته - كما سبق ذكرُه -. وتبنّى نظريات متضاربة في نشأة الكون أثناء حياته، وكان لديه مواقفُ مضطربة من وجودِ الخالق قبلَ إعلان إلحاده في الأخير[٢].

وقد قدَّم نموذجًا مع البروفسور جيمس هارتل[٣] سمّي بـ(حالة هوكينغ - هارتل) (Hartle - Hawking state)، وهي فرضيةٌ عن حالة الكون قبلَ حقبة بلانك[٤]. وكان هوكينغ يتحدَّث عن الزمن قبلَ حدوث الانفجار. ولكنه كان يسمّي هذا الزمن بـ(الزمن التخيُّلي) (Imaginary time)، وإنما افترضه من أجل أن تصحَّ معادلاته. ومع ذلك اعترفَ بأنّه لا بدَّ من وجود مفردة للكون[٥].

وهذا التخيُّل هو ما سمَّاه البروفسور ألكسندر فلينكن بمجرّد ملاءمة حاسوبية (Computational convenience)[٦]. وذكر ديفيد بارك[٧] أنّه لا يمكن ألبتَّة أنْ يكون لهذه التصوُّرات معنى في الفيزياء[٨].

---

(١) انظر: A Brief History of Time (132)

(٢) انظر: God and Stephen Hawking (15 - 17)

(٣) جيمس هارتل (James Hartle): بروفسور الفيزياء في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتَّحدة، ومتخصِّص في النسبية العامة لأينشتاين. انظر: http: / /web.physics.ucsb.edu /~hartle/

(٤) حقبة بلانك (Planck Epoch): هي أقدم حقبة في تاريخ الكون من ٠ إلى ١٠ - ٤٣ ثانية بعد حدوث الانفجار العظيم. انظر: https: / /www.definitions.net /definition /PLANCK+EPOCH

(٥) انظر: A Brief History of Time (139)

(٦) انظر: Many Worlds in One: The Search for Other Universes (182)

(٧) ديفيد بارك (David Park): بروفسور الفيزياء الأمريكي، وقد ألّف عددًا من الكتب في العلوم. توفي عام ٢٠١٢م. انظر: https: / /physics.williams.edu /profile /dpark/

(٨) انظر:
"The Beginning and End of Time in Physical Cosmology", in The Study of Time IV, (112-113), Ed. J.T. Fraser, N. Lawrence and D. Park.

وخلاصةُ الأمر أنَّ هذه النماذج البديلة كثيرة ومتعدّدة، ودوافعها نفسية أكثر من كوْنها علمية كما سبق. ولكن، هل يمكن الفرارُ من القبول بأنّ الكون له بداية؟ الجواب: لا. وقد ذكرَ ذلك البروفسور ألكسندر فيلنكن عندما قال: «يقال: إن الحجةَ تُلزِم العقلاء، وإنَّ البرهان يُقنع حتى غيرَ العقلاء. والآن بعد استقرار أمرِ البرهان، لم يعدْ في مقدور علماءِ الكونيات الاختباءَ وراء احتمال وجود كون أزلي. لا مهرب لهم، ويجبُ عليهم مواجهةُ مشكلة وجود بداية كونية»[1]. ولكن بسبب التزام البروفسور فلنكن بالمذهبِ المادي، وأنّه لاأدري؛ فإنّه حاول الهروبَ من اللوازم اللاهوتية بعد هذا الاعتراف الواضح بأسطر.

بينما اعترف الملحدُ ستيفن هوكينغ بأنَّ البداية المطلقة للكون يستلزم بوجود خالق بقوله: «إذا كانتْ للكون بداية، فعلينا أن نفترض أنَّ للكون خالقًا»[2].

فالملاحدةُ يتخبَّطون بينَ محاولة الهروب من إثبات بداية مطلقة للكون وبين عدم الالتزام بلوازمِ هذا الإثبات. وأمَّا المؤمن، فيعتقد أنَّ الكون له بداية، ويلتزم باللوازم الضَّرورية لهذا الاعتقاد، وهو أنّه لا بدَّ من وجود خالق أخرج هذا الكون من العدم إلى الوجود. وقد سبق التفصيلُ عن ذلك في الحديث عن الحجّة الكونية.

القسمُ الرّابع: موقفُ علماء الغرب من نظرية الانفجار العظيم:

تبيَّن فيما سبق أنَّ نظرية الانفجار العظيم مُحرجةٌ للملاحدة لأنّها تثبت وجودَ بداية مُطلقة للكون، وهذا يستلزم وجودَ الخالق. لكن ما موقفُ علماء الغرب النصارى من هذه النظرية؟ اللاهوتيون النصارى اختلفوا في تفسيرِ الأيام المذكورة في السفر الأوّل من كتابِهم المقدَّس على مذهبيْن رئيسين، وبناءً على ذلك وقع اختلافُهم في قبول هذه النظرية[3]:

---

(1) Many Worlds in One (176)

(2) A Briefer History of Time (146)

(٣) سبق الحديثُ عن هذه المسألة في المبحث السادس، من الفصل الثالث، في الباب الأوّل.
ولكنْ لأهمية المسألة يعاد الكلام هنا، مع المزيد من فوائد.
والكلام في التقسيم ومراجعه مأخوذ من كتاب
Seven Days That Divide the World (39-44), by: John Lennox

المذهبُ الأوَّل: الذين رأوا أنَّ الأيام المذكورة في السفر الأوّل من كتابهم المقدّس ليستْ كأيّامنا، ولهذا لا يمكن تحديدُ عُمر الكون والأرض. وهذا القول موجود قديمًا عندَ اللاهوتيين النصارى. وهذا القولُ هو ما ذهب إليه القائلون بنظرية الخلق القديمة (Old Earth Creationism).

وأتباعُ هذا المذهب لم يروا أيَّ تعارض بين الإيمان بكتابهم المقدّس وقبول هذه النظرية. وقد تكلَّموا عن هذه النظرية من وجهين:

الوجهُ الأوَّل: استخدامُ هذه النظرية في إثبات الحجّة الكونية، مع الردِّ على النَّماذج البديلة للبداية المطلقةِ للكون. ومِن أبرز علماء الغرب الذين قاموا بذلك: البروفسور وليام لاين كرايغ؛ فقد ألَّف كتابه: «الحجة الكونية الكلامية» (The Kalam Cosmological Argument) عام ١٩٧٩م، واستدلَّ بهذه النظرية، ودافعَ عنها في ذلك الكتاب وغيره مِن كتبه كما سبق له البيانُ عند الحديث عن الحجّة الكونية.

الوجهُ الثّاني: بيانُ عدم معارضة هذه النظرية مع فهْم كتابهم المقدَّس. ومِن أبرز مَن فعلَ ذلك هو البروفسور جون لينوكس في كتابه: الأيام السبعة التي فرّقت العالم (Seven Days that Divided the World).

المذهبُ الثّاني: الذين فسَّروا أيامَ الخلق تفسيرًا ظاهريًّا، وأنَّ الكون خُلق قبل حوالي ٦٠٠٠ سنة، وأنَّ كلَّ يوم مذكور في هذا السفر يعادل ٢٤ ساعة من الساعات المعروفة اليوم. وهذا ما ذهبَ إليه روّاد المذهب البروتستانتي مثل: مارتن لوثر وجون كالفن. وهذا المذهبُ يتبّناه القائلون بنظرية الخلق الفتية (Young Earth Creationism).

وهؤلاء يرون أنَّ نظرية الانفجار العظيم من النظريات العلمانية لا تمتُّ للخلق المذكور في كتابهم المقدَّس بصلة؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: «إن الانفجار العظيمَ والأفكارَ العلمانية عن تكوين المجرات، والنظام الشمسي، إلخ. هي تفسيراتٌ لأصول الخلق وفقَ المذهب الطبيعي. وهي في طبيعتها إلحادية. وليس القصد من هذا أن نقول: إنَّ كلَّ مَن يتبنى هذه الآراء ملحدٌ بضرورة، ولكن هذه السناريوهات الموافقة لهذا الرأي عنِ النشأة تحاول تفسيرَ خلق الكون وما فيه (المجرّات، النجوم،

الكواكب...) دون اعترافٍ بوجود الإله. لا يوجد نصٌّ من نصوص كتب علم الفضاء التي استعملتُها في دراستي ما قبلَ حصولي على الشهادة، أو في برنامج الدكتوراه، تعْزو للإله خلق الكون أو أيِّ شيء فيه. وجميعُ الأحداث موصوفة بمصطلحات لما يمكن تفسيرُه خلال قوانين الطَّبيعة؛ فلا شيء وراءَ الطبيعة مسموحٌ به عندهم. هذا هو المذهب الطبيعي. ولكن الكتاب المقدَّس فوق الطبيعي[1]. والكتاب المقدّس يوضِّح أنّ الإله (بطريقة مباشرة أو غير مباشرة) خلقَ كلَّ شيء... الإله خارج الكون الفيزيائي، وليس في داخله. الرؤية الكونية المسيحية فوق الطبيعي في طبيعته...»[2].

فهذا يلخِّص مذهبَ القائلين بالأرض الفتية بطريقة جيّدة، وأنهم يرون أنَّ قبول نظريةِ الانفجار العظيم مبنيٌّ على المذهب الطبيعي، وهذا المذهب علماني ولا يمكن أنْ يتوافق مع العقيدة النصرانية.

القسمُ الخامس:
ردودُ أتباع نظريةِ خلق الأرض الفتية على نظرية الانفجار العظيم:

قد ألَّف أنصارُ نظرية الخلق الأرض الفتية مؤلفاتٍ عديدة؛ فقد ذكر موقعهم الأشهر: «المعهد لدراسات الخلق» (The Institute for Creation Research) قائمة بـ ١٣٠ كتابًا من كُتبهم[3] على سبيل المثال. ولكن رغمَ أنَّ عُمر الكون مهمٌّ في نظريتهم إلا أنَّ المؤلفات في نقدِ نظرية الانفجار العظيم قليلة جدًّا، وإنما ينصبُّ اهتمامهم العلمي بنقد نظرية التطوّر.

وأكثرُ مَن اهتمَّ بنقد نظرية الانفجار العظيم منهم هو الدكتور جاسون ليزلي؛ فهو يحملُ شهادة الدكتوراه في الفيزياء الفلكية، وألَّف كتابًا مستقلًّا عن علم الكون وفقَ منظورِ أتباع مذهبه، بعنوان: «استعادة علم الفضاء» (Taking Back Astronomy)،

---

(١) هو يعبّر عن معتقده النصراني، وإلا فإنّ الكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى كتاب محرّف.

(2) Taking Back Astronomy (74-75)

(٣) انظر المقال: The Young – Earth Creationist Bibliography, وهو موجود على الرابط:
https: / /www.icr.org /article /young – earth – creationist – bibliography

وذكر في بداية كتابه أنَّ المؤلَّفات التي ذكرت الأدلة العلمية المؤيّدة لتعاليم كتابهم المقدَّس، ونقد ما يخالفه؛ كثيرة. ولكنَّ هذه الكتب تتعلّق بعلم الأحياء، وعلم الأرض، وعلم الإحاثة، وعلم الإنسان. بينما المؤلفاتُ في بيان علم الفلك من منظور كتابهم المقدّس قليلةٌ جدًّا. وأنَّ ذلك من أسباب تأليفه لهذا الكتاب[1]. ولذلك سيتمُّ التعويلُ على ردودِه من هذا الكتاب في هذا القسم. وقد ذكر عددًا كبيرًا من الإشكاليات في نظرية الانفجار العظيم - وأغلبها تتعلَّق بالعمر المديد الذي يفترضه أتباع هذه النظرية للكون -، وحيث إنّه لا يمكن ذكرُها كلّها، فسأقتصرُ على ثلاثة منها:

- **الإشكالُ الأوَّل: إشكاليةُ الأفق على نظرية الانفجار العظيم:**

بيَّن الدكتور جاسون ليزلي أنَّ حسب نظرية الانفجار العظيم، فإنَّ الكون ينشأ في حالةٍ متناهية من الصغر تسمَّى مفردة، والتي تتضخَّم في بداية الأمر بسرعة هائلة. واستنادًا إلى هذه النظرية، فعندما كان الكون صغيرًا جدًّا فقد تطوَّرت درجات حرارة مختلفة في عدَّة مواقع. لنفترض أنَّ النقطة (أ) ساخنة والنقطة (ب) باردة. واليوم قد توسَّع الكون والآن النقطتان (أ) و(ب) بعيدتان عن بعضهما للغاية.

ورغمَ ذلك، فللكون درجةُ حرارة في غاية الانتظام في المسافات البعيدة: أي ما وراء المجرّات المعروفة والأكثر بعدًا. وبتعبير آخر، للنقطتين (أ) و(ب) تقريبًا نفس درجة الحرارة اليوم. ونحن نعلم هذا لأنَّنا نرى الإشعاع الكهرومغنطيسي قادمًا من كلِّ الاتجاهات في الفضاء في شكلِ أمواج دقيقة. يُطلق على هذا اسم «الخلفية الفلكية للأمواج الدقيقة» [CMB]. ولترددات الإشعاع درجة حرارة مميزة هي ٧ ,K٢، وهذه التردداتُ منتظمة للغاية في جميع الاتجاهات؛ حيث إنَّ درجة الحرارة تنحرف فقط بمقدار واحدٍ من عشرة آلاف جزء.

وهذا هو الإشكال: كيف للنقطتين (أ) و(ب) أن تكون لهما نفس درجة الحرارة؟ ولا يمكنُهما فعلُ هذا إلّا بتبادل الطاقة. هناك العديدُ من الأنظمة يحصل فيها هذا التبادل، خذْ مثلًا مكعب ثلج موضوعًا في كأس قهوةٍ ساخن، الثلج يسخن والقهوة تبْرد عن طريقِ تبادل الطاقة بينهما بالمثل. النقطة (أ) يمكنها مدُّ النقطة (ب) بالطاقة في شكلِ

(١) انظر: Taking Back Astronomy (10)

إشعاع كهرومغنطيسي [الضوء]. هذه الطريقة الأسرع لانتقال الطاقة لأنه لا شيء يمكنُه الانتقالُ أسرع من الضوء. ومع ذلك، فباستعمالِ افتراضات مناصري نظرية الانفجار العظيم المبنيَّة على المذهب الطبيعي ومذهب الوتيرة الواحدة فلم يكن هناك زمنٌ كافٍ في ١٤ مليار سنة ليصل الضوء من (أ) إلى (ب)، فإنهما بعيدتان جدًّا عن بعضِهما البعض. هذا هو مشكلُ زمن انتقال الضوء - وهو مشكل في غاية الجدية.

وفي نهاية المطاف، (أ) و(ب) لهما تقريبًا نفس درجة الحرارة اليوم، وعليه يجب أنْ يكونا تبادلا الضوء مرات كثيرة[1].

- **الإشكالُ الثّاني: إشكاليةُ المجرات اللولبية على نظرية الانفجار العظيم:**

ذكرَ الدكتور ليزلي أنَّ المجرَّة في الحقيقة: تجمُّعٌ هائل من النجوم مع الغاز والغبار الكونيّين. تأتي المجراتُ في نطاق متنوِّع من الأحجام، ويمكنها أن تضمَّ من مليون إلى تريليون نجم. وتضمُّ مجرتنا (درب التبانة) أكثر من ١٠٠ مليار نجم. وتأتي المجرّات أيضًا في نطاقٍ متنوّع من الأشكال؛ فعددٌ منها دائري أو إهليجي، وأخرى ليس لها شكل مُنتظم مثلَ سحب ماجلان (مجرتان تدوران حولَ درب التبانة). وبعض أجمل المجرات تتَّخذ بطبيعتها شكلًا لولبيًّا. المجرَّة اللولبية لها شكل قرصٍ مسطَّح مع انتفاخ في الوسط. يحتوي الجزءُ الذي في شكل القرص أذرعًا لولبية: وهي جهاتٌ ذات عددٍ أكبر من النُّجوم ممتدَّة من طرف المجرة إلى نواتها. وتدور المجراتُ اللولبية حول نفسها ببطء، لكن الجهات الداخلية من الذِّراع اللولبي تدور أسرعَ من الجهات الخارجية، وهذا ما يسمى «الدوران التفاضلي». ويعني هذا أن تصبحَ المجرة الحلزونية ملتوية بشكل ثابت أكثر فأكثرَ، كما أنَّ اللولب يصبح أشدَّ إحكامًا. وبعد بضع مئات من ملايين السنين، تصبح المجرةُ مُحكمة الإغلاق بحيث لا تحافظُ على الشكل اللولبي لمدة أطول. واستنادًا إلى سيناريو الانفجار العظيم، يفترض أن يكون عُمر المجرات عدَّة مليارات من السنين، لكنَّنا نرى فعلًا المجرّات اللولبية، بل وعددًا منها. هذا المعطى يقترح أنَّها ليست بالعمر الذي يحتاجه مدَّعو الانفجار العظيم[2].

---

(١) انظر المصدر السابق (٤٨ - ٤٩).

(٢) انظر: المصدر السابق (٦٥ - ٦٦).

- **الإشكالُ الثّالث: إشكالية بقاء المذنَّبات:**

بيَّن الدكتور ليزلي أنَّ المذنَّبات هي كراتٌ من الثلج والغبار تدور حول الشمس، وغالبًا في مداراتٍ غير مركزية. ويسمَّى الجزءُ الصُّلب المركزي من المذنب: النواة. وللمجرّات محيطٌ من المواد المتبخِّرة تبدو في شكْل «ضباب باهت («وهو ما يسمَّى «الهالة»). وتُمضي المذنَّبات أكثرَ وقتها في التحرُّك ببطء قريبًا من النقطة الأبعد من مدارِها حول الشمس (الأوج). وعندما تقتربُ منها، تسرع وتستخدم جاذبية الشمس لإضافةِ الزَّخم إليها في دورانها حول الشمس، حيث تتحرَّك بأقصى سرعة في أقرب نقطةٍ منها (الحضيض). وخلالَ هاتين المرحلتين من الاقتراب تكون العديد من المذنبات «ذنبًا»، وهو تدفُّق من المواد المتبخرة تمتدُّ بعيدًا عن المذنب. يتّجه الذنب بعيدًا عن الشمس لأنَّ المادة يتمُّ جرفُها من قبَل الرياح الشمسية والإشعاعات. وفي العادة يتكوّن ذنبان: ذنب شارد إيوني مكوَّن من جسيمات مشحونة بالضوء، وذنب من الغبار يحْوي موادَّ أثقل. يميل لونُ الذَّنَب الأيوني إلى الزرقة، وهو مستقيم، ويتّجه مباشرة في جهة المذنَّب الأبعد عن الشمس. في حين أنَّ ذنَبَ الغبار أبيض، ومنحنٍ على العموم، وفي بعض الأحيان لا يمكن رؤية إلّا واحد من الذنبين. ذَنَبُ المذنب (أو أذنابه) هو مؤشّر على عجزِ المذنَّب عن البقاء إلى الأبد، فوجودُ الذنَبِ يعني أن المذنب يخسر المادة المكوِّنة له، وفي كلِّ مرَّة يدور فيها المذنَّبُ حول الشمس فإنه يتقلّص. وقد تمَّ تقديرُ أن مذنَّبًا كنموذج نمطي لا يمكنه الدورانُ حول الشمس لأكثر من ١٠٠ ألف سنة كأقصى حدٍّ قبل أن يفقد مادته كليًّا. هذا مثال متوسِّط، وإلّا بالطبع فإن مدى الحياة الحقيقي يتعلَّق بالحجم البدئي للمذنَّب، وبالوسائط المتغيرة المرتبطة بمداره. وبما أننا مازلنا نرى الكثيرَ من المذنبات، فهذا يقترِح أنَّ عُمر النظام الشمسي أصغر بكثير من ١٠٠ ألف سنة[١].

فهذه الأوْجه تبيِّن فعلًا أنَّ هناك بعض الإشكاليات الكبيرة في القول بأنّ عُمر الكون ١٣,٧ مليار سنة، والأقرب أنه أقلُّ عمرًا من ذلك بكثير.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٦٧ - ٦٨).

القسمُ السّادس: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على نظرية الانفجار العظيم:

سيتمُّ تقييم ردودِ علماء الغرب على نظرية الانفجار العظيم على وجهين، وهما:

الوجهُ الأوَّل: ما اتَّفقوا عليه، وهو أنَّ الكون له بداية. وقد أبدع علماءُ الغرب في بيانِ هذا الأمر من الناحية العلمية، كما أنَّهم أبدعوا في ردودِ ترَّهات الملاحدة في محاولة الهروبِ من هذه الحقيقة. وهذا ما يمكن الاستفادةُ منه في كلامهم، واستخدام هذه الأدلَّة في الاستدلال بالحجّة الكونية كما سبق الحديثُ عنه.

الوجهُ الثّاني: ما اختلفوا فيه، وهو عُمْر الكون. والذي يبدو أنَّ كلا المذهبين فيهما إشكال. وبيانُ ذلك كما يأتي:

المذهبُ الأوَّل: أنصارُ نظرية خلق الأرض الفتية ينطلقون في تحديد عُمر الكون مِن ظاهر نصوصِ كتابهم المقدَّس الدالَّة على أنَّ الكون خُلق قبل حوالي ٦٠٠٠ سنة. وهذا الكتاب محرَّف، ولا يمكن الاعتمادُ عليه.

المذهبُ الثّاني: أنصارُ نظرية خلق الأرض القديمة يسلِّمون بتحديد العمر الذي توصَّل إليه علماءُ الكون الماديون. وهذا التحديد مبنيٌّ على تبنّيهم للمذهب الطبيعي الذي يقتصرُ فيه على تفسير الطبيعة بالطبيعة. ومِن مستلزمات المذهب الطبيعي: مذهب الوتيرة الواحدة، بمعنى أنَّ قوانين الطبيعة ثابتة ولا تتغيّر. وتوصّلهم إلى تحديد عُمر الكون مبنيٌّ على ذلك؛ فقد بيَّن موقع وكالة ناسا بالعربية أنّ علماء الفلك أنهم يعتمدونَ في تحديد عُمر الكون على طريقين:

الطريقُ الأوَّل: بدراسةِ العناقيد الكروية: «يستطيع علماءُ الفلك تحديد أعمار بعضِ أقدم النجوم في الكون عبرَ دراسة العناقيد الكروية. العنقود الكروي (globular clusters) هو تجمُّع كثيف، ومكوَّن من حوالي مليون نجم، وتشكّلت كل هذه النجوم في نفسِ الوقت تقريبًا. تكون كثافةُ النجوم بالقربِ من مركز العنقود هائلة، وإذا ما عشنا بالقربِ من مركز عنقودٍ نجمي سيكون هناك بضعُ مئات آلاف النجوم التي تبعد عنا نفسَ بُعد آلفا قنطورس؛ أقرب جيراننا النجميين الحاليين. تعتمد دورة حياة النجم

على كتلتِه، والنجوم ذاتُ الكتلة الأكبر هي الأكثرُ لمعانًا من النجوم منخفضة الكتلة، وبالتالي فهي تحرقُ وقودَها الهيدروجيني بسرعة. يمتلك النجمُ المشابه للشمس وقودًا كافيًا في مركزه لكي يستمرَّ بالاحتراق بشكلٍ لامع على مدار ٩ مليار عام تقريبًا. في حين سيحرقُ النجم، الذي يمتلك كتلةً تصل إلى ضعفي كتلة الشمس وقودَه خلال ٨٠٠ مليون سنة تقريبًا. أمّا النجوم التي تبلغ كتلتها ١٠ أضعاف كتلة الشمس فستحرقُ وقودَها بزمن يصل إلى ٢٠ مليون سنة فقط، وستكون أكثر لمعانًا بألف مرة مِن الشمس. وعلى النَّقيض من ذلك، فإنَّ النجم الذي يتمتع بنصف كتلة الشمس سيقومُ بحرق وقتِه ببطء بحيث تمتدُّ حياته على مدار ٢٠ مليار سنة تقريبًا»[١].

فهذا التحديد مبنيٌّ على أنَّ النجوم تحرق وقودها الهيدروجيني بسرعة معيّنة، وأنّها كانت كذلك، وسوف تستمرُّ بهذا المعدَّل. وهذا مبنيٌّ على مذهب الوتيرة الواحدة.

الطريقُ الثّاني: الاستقراءُ العكسي لمعدَّل توسُّع الكون: «تعتمد طريقة أخرى لتقديرِ عُمر الكون على قياس «ثابت هابل H٠". يُمثل ثابت هابل قياسًا لمعدل توسع الكون حاليًا. ويستخدم علماءُ الكون هذا القياسَ بغرض الاستقراء العكسي وصولًا إلى الانفجار العظيم، ويعتمدُ الأمرُ على الكثافة الحالية للكون وعلى تركيبه»[٢].

وهذا أيضًا مبنيٌّ على مذهبِ الوتيرة الواحدة. فلو افترضنا أنّ الله أراد أن يوسِّع الكونَ بسرعةٍ أسرع مما هو عليه الآن، فإنَّه ممكن. وكلُّ شيء تحت قدرةِ الله تبارك وتعالى.

---

(١) انظر المقال: كيف نقيس حجم وعمر الكون؟ وهو على الرابط:
https://nasainarabic.net/education/articles/view/measure-the-size-and-the-age-of-the-universe

(٢) انظر: المصدر السابق.

عُمَر الكون في الكتاب والسنة:

إذا كان لا يمكن الاعتمادُ على الكتاب المقدَّس لدى اليهود والنصارى ولا استنتاجات الماديين لعُمر الكون للوصول إلى يقين تامٍّ في عمر الكون؛ فكمْ عمرُه وفق الكتاب والسنة إذًا؟

ليسَ في صريح القرآن والسنة - حسب علمي - ما يحدّد عمرَ الكون. توجد آيات عديدةٌ تنصُّ على أنَّ الله خلق السماوات والأرض في ستّة أيام، ولكنّها لا تحدّد متى وقعَ هذا الخلق. وأمّا في كون هذه الأيام الستة كأيامنا هذه فقد اختلفَ فيه العلماء[1]. وقد ذكرَ الراغب الأصفهاني (رحمه الله) أنَّ «اليوم يعبّر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها. وقد يعبَّر به عن مدَّة من الزمان أي مدّة كانت»[2].

وأصرحُ ما وردَ في السنة مِن تحديد هذه الأيام هو حديثُ أبي هريرة ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: «خلق اللهُ التربة يوم السبت، وخلق اللهُ فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النورَ يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدمَ بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعاتِ الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»[3]. فهذا الحديث صريحُ الدلالة في أنَّ المراد باليوم هو اليوم العادي. ولكنَّ هذا الحديث ضعَّفه جمعٌ من أهل العلم؛ قال الحافظ ابن كثير (رحمه الله):

«اختلف فيه على ابن جريج، وقد تكلَّم في هذا الحديث علي بن المديني، والبخاري، والبيهقي وغيرهم من الحفاظ. قال البخاري في التاريخ: وقال بعضهم عن كعب وهو أصحّ؛ يعني: أنَّ هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة، وتلقّاه من كعب الأحبار، فإنّهما يصْطحبان ويتجالسان للحديث، فهذا يحدِّثه عن صحفه، وهذا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٦).

(٢) المفردات في غريب القرآن (٨٩٤)، لحسين بن محمد بن المفضّل، المعروف بالراغب الأصفهاني، (دار القلم، ١٤١٢ هـ).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٨٩)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ابتداء الخلق، وخلق آدم ﷺ، من حديث أبي هريرة ﷺ.

يحدِّثه بما يصدقه عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديثُ مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه، فوهم بعضُ الرواة فجعله مرفوعًا إلى النبي ﷺ»[1].

فالظاهرُ أنه لم يردْ في الكتاب والسنة تحديدُ عُمر الكون، ولهذا كان من الغيبيات التي لا يعلمها إلّا الله؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: ٥١].

فالذي يهمُّنا من «هذه النظرية هو تسليمها بأن لكوننا بداية، وأنه ليس كونًا أزليًّا»[2]، «ولكننا إذ نماشي الفيزيائيين الفلكيين في هذا كله، إنَّما نريد أن نلزمهم به الحجَّة، وإلّا فإننا نعتقد أنَّ الكون أكبرُ بكثير من هذا الكون المشاهَد... فالكون المخلوقُ أعظمُ بكثير من الكون المشهود، وزمانه سابق لزمان هذا الكون»[3].

وهذا هو ما يبدو صوابًا في هذه المسألة، والعلمُ عند الله.

كيفيةُ الخلق بينَ القرآن الكريم ونظريةِ الانفجار العظيم:

وتبقى مسألةٌ أخرى متعلّقة بموقفِ الإسلام من نظرية الانفجار العظيم، وهي أنَّ أنصارَ نظرية الانفجار العظيم يتحدَّثون بالتفصيل عن كيفية خلق الكون. وبينما كانت أدلتُهم على أنَّ الكون له بدايةٌ مبنيَّة على أدلة حسِّية مثل: توسُّع الكون، فإنَّ كلامهم عنْ كيفية الخلق ليس مبنيًّا على العلم، وإنَّما على ظنون كاذبة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: ٢٨].

بأيِّ مصدر من مصادر المعرفة يمكننا معرفةُ كيفية الخلق؟ لا شكَّ أنه لا يمكن عن طريق الحسِّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف: ٥١].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١ / ٣٣)، لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، (دار هجر، ١٤٢٤ هـ، ت. عبد الله التركي).

(٢) الفيزياء ووجود الخالق (٨٢).

(٣) المصدر السابق (٨٨).

ولا يمكن التوصُّل إلى ذلك عن طريق العقل المجرّد، لأنَّه لو تُرِك الأمرُ إلى العقل لتوصَّل الناس إلى آراء متباينة وأقوال متضاربة.

والاعتمادُ على العلم التجريبي - المبني على الحسّ والاستنباطات العقلية - في كيفية الخلق غيرُ مُجدٍ أيضًا. وقد سبقَ في المبحث عن حدود العلم التجريبي أنّ هذا النوع من العلم جيِّد في وصفِ الظواهر الموجودة والمشاهَدة، ولكنه ضعيفٌ في وصف أحداث الماضي. ومِن ذلك: كيفية خلق الكون.

إذن، يبقى مصدرٌ واحد مِن مصادر المعرفة، وهو الخبرُ الصادق. وأيُّ خبر أصدق مِن الوحي المنزَّل من الله: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]. فاللهُ - تبارك وتعالى - هو الذي خلقَ الكون وكلَّ ما فيه، وهو الذي يعلم التفاصيلَ الدقيقة. وأخبرنا اللهُ - تعالى - عن شيء مِن ذلك في القرآن الكريم. وبعض ما أخبر اللهُ به يخالف ما قرَّره أصحابُ نظرية الانفجار العظيم.

ومِن ذلك أنَّ أصحابَ نظرية الانفجار العظيم قرّروا أنّه قبلَ الانفجار وُجدت مُفردة صغيرة للغاية، ثمَّ انفجرت وتكوَّنت النجوم بعد مئات الملايين من السنين، ثمَّ تكوَّن النظامُ الشمسي الخاص بما فيه كوكبُ الأرض بعد تسعة مليار سنة. فهذا ما قرّره أصحابُ النظرية، وهو مخالفٌ لما ورد في القرآن الكريم؛ كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وهذه الآية يستدلُّ بها بعضُ المؤيّدين لنظرية الانفجار العظيم من المسلمين على أنَّ القرآن أشار إلى النظرية[1]. ولكن مع التمعُّن في النظر إلى الآية في ظلِّ تفسير السلف نجد فرقًا واسعًا بين الآية الكريم وما قرّره أصحاب النظرية؛ فقد فسَّر علماءُ السلف كابن جرير الطبري (رحمه الله) هذه الآية الكريمة بقوله: «يقول تعالى ذكرُه: أوَلم ينظر هؤلاء الذي كفروا بالله بأبصارِ قلوبهم، فيروا بها، ويعلموا أنَّ السماوات والأرض كانتا رتقًا؟ يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين... وهو من صفةِ

---

(١) انظر على سبيل المثال: القرآن والعلم (٦١)، لأحمد محمد سليمان، (دار العودة، الطبعة الخامسة، ١٩٨٢م).

السماء والأرض... وقوله ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] يقول: فصدعناهما، وفرجناهما»[(١)]. فمعنى ذلك أنَّ السماوات والأرض كانتا موجودتين ملتصقتين ثمَّ فرج اللهُ بينهما أو كما قالَ ابن عباس (رضي الله عنهما): (كانتا ملتصقتين، فرفع السماء ووضع الأرض)[(٢)]. فكيف تكون هذه الآيةُ وصفًا لحادثةِ الانفجار العظيم، والأرض لم تكوّن إلّا تسعة مليار سنة بعد هذا الانفجار؟ فمَن عرف حقيقةَ دلالة هذه الآية وحقيقةَ هذه النظرية؛ علمَ مدى البُعد بينهما.

وإضافةً إلى ذلك فقد أخبر اللهُ تعالى أنَّه خلقَ السماوات والأرض في ستة أيام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقد اختلف أهلُ العلم في تحديدِ هذه الأيام كما سبق، ولكنَّ الآيةَ في الوقت نفسه صريحة أنَّ الله خلق السماوات والأرض بترتيبٍ معيَّن. وهذا الترتيب يخالف ما قرَّره أصحابُ نظرية الانفجار العظيم؛ فهُم قرَّروا أنَّ كوكب الأرض تكوَّن مليارات السنين بعد المجرّات والنجوم. وأما ظاهرُ القرآن فيدلُّ على أنَّ الله خلق الأرض قبلَ السماء كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩ - ١٢] قال ابن كثير (رحمه الله): «ففصَّل ها هنا ما يختصُّ بالأرض مما اختصَّ بالسَّماء، فذكر أنه خلقَ الأرضَ أوَّلًا لأنَّها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثمَّ بعدَه بالسقف»[(٣)]. وقد بيَّن ابنُ عباس (رضي اللهُ عنهما) ذلك إذ قال: (... وخلق الأرضَ في يومين، ثمَّ خلقَ السماء، ثمَّ استوى إلى السماء، فسواهنَّ في يومين آخرين، ثمَّ دحى الأرض،

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦ / ٢٥٤ - ٢٥٥).

(٢) المصدر السابق (١٦ / ٢٥٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦ / ١٦٥).

ودحيُها: أنْ أخرجَ منها الماءَ والمرعى، وخلق الجبالَ والجماد والآكام وما بينَهما في يومينِ آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وقوله ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] فخلقتِ الأرضُ وما فيها من شيء في أربعةِ أيام، وخلقتِ السماوات في يومين)[1]. فذكرَ ابنُ عباس (رضي اللهُ عنهما) في هذا الأثر المفسِّر لهذه الآيات أنَّ الله خلق الأرضَ قبلَ السماء. وبذلك تخالف نظرية الانفجار العظيم ظاهرَ القرآن الكريم.

والخلاصةُ أنَّ هذه النظرية تفيد أمرًا واحدًا، وهو أنَّ الكون له بداية. وأما ما يتعلَّق بعُمر الكون فهوَ من الغيبيّات التي لا يعلمها إلّا الله. وأمّا ما يتعلَّق بكيفية خلق الكوْن، فإنَّ ما يقرِّره أصحابُ النظرية يخالف ما وردَ في القرآن الكريم. فلا ينبغي للمسلم أن يقبلَ هذه النظريةَ على إطلاقها، بل يقبلُ ما فيها من الحقّ، ويردُّ ما فيها من الباطل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة حم السجدة، (٣/ ٢٨٦ - ٢٨٧).

المبحثُ الثّاني
ردودُهم على الشبهاتِ المتعلِّقة بقوانين الطبيعة

كان الإنسانُ منذ القدم ينسب الظواهرَ الطبيعية المختلفة إلى خالقٍ واحد إذا كان موحِّدًا، أو آلهةٍ مختلفة إذا كان مشركًا؛ فإذا نزلَ المطر، أو حدث زلزال، أو سُمع صوت الرَّعد نُسبَ ذلك إلى ما فوق الطبيعة. ومع تقدُّم الكشوفات العلمية وجد علماءُ الطبيعة أسبابًا طبيعية لكثيرٍ مِن هذه الظواهر، كما أنَّهم اكتشفوا أنَّ الطبيعة محكومة بقوانين يمكن صياغتُها رياضيًّا بشكلٍ دقيق. ومِن هنا نشأت الشبهةُ الإلحادية باستغناء الطبيعة بقوانينها، وأنَّها ليست بحاجةٍ إلى خالق متصرِّف في الكون، وكلِّ ما فيه[1].

ولبيانِ هذه الشُّبهة يحسنُ تقسيمُ هذا المبحث إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ الشبهات المتعلّقة بقوانين الطبيعة.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ الشبهات المتعلّقة بقوانين الطبيعة:

لا نستطيع فهمَ حقيقة شبهاتِ الملاحدة المتعلقة بقوانين الطبيعة إلّا إذا فهمنا تاريخَ هذه الشُّبهات. وذلك أنَّ شبهاتِ الملاحدة المعاصرة نشأت كردَّة فعلٍ للتصوّرات اللاهوتية الشركية القديمة، وبيانُ ذلك كما يلي:

سادتِ المعتقداتُ الشركية في كثيرٍ من الأمم عبر التاريخ. وذكر البروفسور جون لينوكس أنَّ الطابعَ العام على هذه المعتقدات أنهم كانوا يؤمنون بآلهةٍ مختلفة

---

(١) انظر: براهين وجود الله (١٥٢).

تحكم أجزاء مِن العالم بقوانينها الخاصة[١]. وعليه، فلا يوجد نظامٌ عامٌّ للعالم، ولا قوانين متّسقة تخضعُ لها الطبيعة؛ بل كان يحكم إلهٌ معيَّن حسب أهوائه، ويحكم إلهٌ آخر حسب أهوائه. فيوجَد إله للشمس، وإله للريح، وإله للمطر، وإله للبحر، وهكذا. ويكشف الناسُ عن مُراد الآلهة وفقَ خرافات كالتطيّر والعرافة[٢]؛ فلا حاجة لدراسة قوانين الطبيعة دراسةً علمية منظّمة. ويسعى أتباعُ هذه الديانات إلى إرضاء الآلهة بأنواع من العبادات والقرابين، ويعتقدون أنَّ ذلك يؤثّر في تصرّفات الآلهة[٣].

ولهذا رجَّح بعضُ علماء تاريخ العلوم أنَّ مُعتقد التوحيد وضع الأسس لدراسة العلوم الحديثة، لأنَّ الموحِّد يعتقد أنَّ الكون بأسْره يخضع لخالق واحد يحكمه وفقَ سننه ونظامه، وليس لآلهة متعدّدة[٤].

وهذا الاستنباطُ صحيح، وقد أشيرَ إليه في القرآن الكريم إذ قال اللهُ تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فدراسة العلوم الطبيعية تستلزم وجودَ نظام، والإيمانُ بخالق واحد يحكم الكون بمشيئته المنتظمة أصلٌ في ذلك.

ومعَ ذلك، فكانت أوروبا في القرون الوسطى - التي سيطرت فيها الكنيسة على العلوم - متخلِّفة للغاية. وذلك يرجع لأسبابٍ عديدة، ولكنْ أكتفي بذكر اثنين منها هنا، وهما:

السببُ الأوَّل: النظرةُ المُعادية للعلوم الدنيوية: لا يخفى أنَّ بولس هو المؤسّس الحقيقي للنصرانية المحرَّفة، وكان ينظرُ إلى العلوم والحِكم بازدراء؛ فهو القائل: (لاَ يَخْدَعَنَّ أَحَدٌ نَفْسَهُ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّهُ حَكِيمٌ بَيْنَكُمْ فِي هَذَا الدَّهْرِ فَلْيَصِرْ جَاهِلًا

---

(١) انظر: God's Undertaker (30)

(٢) انظر: Antikens religioner (170 - 173), by: Ingvild S Gilhus and Einar Einar Thomassen, (Nordstedts, 2011)

(٣) انظر: المصدر السابق (١٩١ - ١٩٣).

(٤) انظر: God's Undertaker (٣٠)

لِكَيْ يَصِيرَ حَكِيمًا! **لأَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الْعَالَمِ هِيَ جَهَالَةٌ عِنْدَ اللهِ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ**: «الآخِذُ الْحُكَمَاءَ بِمَكْرِهِمْ». وَأَيْضاً: «الرَّبُّ يَعْلَمُ أَفْكَارَ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ»)[1].

و«سيطر المنهجُ التأمّلي على الثقافة النصرانية السابقة للبعثة النبوية. كما باعدت الكنيسةُ عن العالم باعتباره «وادي الظلمات» - تأثّرًا بالمذاهب الغنوصية التي اخترقت الكنيسة الأرثوذكسية -، وهو ما باعدَ بدوره بين العلم والتجربة في الغرب، وبقي التفكير العقلي التجريدي المصدرَ الأساسي للمعرفة البشرية، بما في ذلك معرفة العالم الطبيعي»[2].

السببُ الثّاني: تفسيرُ الظّواهر الطبيعية في ظلِّ الكتاب المقدَّس المحرَّف: كان النصارى يعتقدون أنَّ الإله خلقَ هذا العالم وفقَ خطَّة محكمة، ولكن لا يمكن للعقل البشري الكشفُ عن هذه الحِكم والغايات إلّا في ظلِّ تأمُّل نصوص كتابهم المقدَّس المحرَّف[3].

فكان النصارى يعترفون أنَّ الكون يسير وفقَ سننٍ وقوانين - لإيمانهم بخالق واحد[4] -، ولكنَّهم حجروا على عقولهم لاكتشافها بالانكباب على دراسة الكتاب المقدَّس المحرَّف.

وقد بعث اللهُ نبيه محمدًا (ﷺ) بالتوحيد الخالص على حين فترةٍ من الرسل حين عاشتْ أوروبا في تلك الظلمات. وإن كانت رسالتُه قد اهتمّت بإصلاح العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق في المقام الأوَّل؛ إلّا أنَّ مضامين رسالته مهّدت الطريقَ لدراسة العلوم التجريبية أيضًا؛ فقد «نبع الاهتمامُ الإسلامي بالنظر التجريبي من صريحِ آيات القرآن الدّاعية إلى النظر في الكون، واعتباره قبلةَ الجهد البشري لمعرفة بديع صنعةِ الله، وتحقيق التمكين في الأرض والرفاه المادي، ومن ذلك

---

(١) ١ كورنثوس (٣/ ١٨ - ٢٠).

(٢) براهين النبوة (١٩١).

(٣) خرافة الإلحاد (٢٠).

(٤) النصارى يعتقدون أنه يوجد خالق واحد له ثلاثة أقانيم: الأب، والابن والروح القدس. فهذا الاعتقادُ ممزوج بين التوحيد وبين المعتقدات الشركية.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فالنظرُ في الكون، وبديعِ صنعه، ودقيقِ ملمح جماله؛ وسيلةٌ لإدراك حقيقته، وداعٍ لمعرفةِ أصله، وبرهانٌ يهدي إلى أنّ للوجود غاية...

وفي الآياتِ الكونية في القرآن بيانٌ لـ«وحدة الوجود الطبيعي»؛ فالعالم المادي ليس مجموعَ نثائر مشتَّتة، وإنما هو بنيانٌ مرتَّب، ومتَّصل الأفراد، منتظم الأجزاء، وتلك هي المقدِّمة الأولى لكلِّ بحثٍ علمي؛ إذِ العلم الطبيعي يحتاج لازدهاره مفهومَي «النظام» و«الحكمة» مقدّمة أولى قبل النظر والكشف والاختراع»[١].

«وقد كان مفهومُ «وحدة الوجود الطبيعي» في الثقافة اليهودية - النصرانية قائمًا، ولكنْ على شكل باهت؛ لأنَّ المعنى الأبرزَ للطبيعة في الكتاب المقدَّس هو أنها مظهرُ فعْل الإله الغاضب الثّائر على أعداء «بني إسرائيل»؛ فالجبالُ والبحار والمطر والريح أدواتُ انتقام أكثرَ منها مظاهر عظمة صنع»[٢].

ولهذا ظهر كثيرٌ من العلوم التجريبية في العالم الإسلامي كما ذكرت الباحثة سيغريد هونكه[٣] بقولها: «العرب[٤] هُم مؤسِّسو الكيمياء التجريبية، وكذلك الطبيعة

---

(١) براهين وجود الله (١٩٣ - ١٩٤).

(٢) المصدر السابق (١٩٤).

(٣) سيغريد هونكه (Sigrid Hunke): عالمة الأديان الألمانية، حصلت على شهادة الدكتوراه في علم الأديان من جامعة برلين، واستقرّت فترة في المغرب، وكتبت كتابها المشهور: شمس الله تطلع على الغرب. توفيت عام ١٩٩٩م. انظر:
https://www.goodreads.com/author/show/398101.Sigrid_Hunke

(٤) من العيوب في كتاب سيغريد هونكه أنّها تنسب هذه العلوم إلى العرب وإلى الحضارة العربية، وكان المفترض أنها تنسبُ ذلك إلى المسلمين والحضارة الإسلامية. فالعامل المشترك في أغلب هؤلاء العلماء في العالم الإسلامي أنّهم كانوا مسلمين - وإن كان فيهم قلة من اليهود والنصارى -، وإن كانوا من قوميات مختلفة. والدافع لبحوثهم هو دينهم، وليس عرقهم.

العملية والجبر، والحساب بمعناه الحديث، وحساب المثلثات الكروي، وعلم طبقات الأرض، والاجتماع، وغيرُ ذلك من الاختراعات الكثيرة الأخرى في مختلف العلوم والمعرفة، وغالبًا ما سطَا عليهم اللصوصُ ونسبوها إلى أنفسهم. فالعربُ هُم الذين قدّموا للعالم أغلى وأثمنَ هدية، فهُم أصحابُ البحوث المنتظمة في الطبيعيات، هذه البحوث التي كانت العاملَ القويَّ في بعث العلوم التجريبية في أوروبا»[١].

كما أنها ذكرتْ أنَّه كان ينبغي للأوروبيين الاعترافُ بذلك إذ قالت: «إنّ أوروبا مَدِينةٌ للعرب وللحضارة العربية، وإنَّ الدَّيْن الذي في عنق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب كبيرٌ جدًّا، وكان يجب على أوروبا أن تعترفَ بهذا الصنيع منذ زمن بعيد، لكنَّ التعصّبَ الديني واختلاف العقائد أعمى عيوننا... ظلَّ العرب ثمانية قرون طوالًا يشعّون على العالم علمًا وفنًّا وأدبًا وحضارة، كما أخذوا بيدِ أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النُّور، ونشروا لواءَ المدنيّة أنَّى ذهبوا إلى أقاصي البلاد ودانيها، سواء في آسيا وإفريقيا أو أوروبا، ثمَّ أنكرت أوروبا الاعترافَ بهذا الفضل للعرب»[٢].

فتدفَّقت العلومُ التجريبية من العالم الإسلامي إلى أوروبا تدريجيًّا خلالَ عدّة قرون، وأثَّرت هذه العلوم إلى حدٍّ ما على المعتقدات الدينية لدى العلماء في أوروبا. ومن أبرز الأمثلة على ذلك: إسحاق نيوتن، فكان مِن أبرز العلماء التجريبيين المكتشفين لقوانين الطبيعة، وإن كان ينتسبُ إلى النصرانية إلّا أنَّه رافض أبرز معتقداتهم التي هي عقيدة التثليث. وكان يعتقد أنَّ الإله أرسل محمدًا (ﷺ) ليكشف الإله الحقّ للعرب[٣].

---

(١) شمس الله تستطع على الغرب (٣٠٤)، لسيغريد هونكه، (دار العالم العربي، الطبعة الثانية، ١٤٣٢ هـ، تعريب: فؤاد حسنين علي).

(٢) انظر: المصدر السابق (٩ – ١٠).

(٣) انظر:

"Isaac Newton, heretic: the strategies of a Nicodemite", by: Stephen D. Snobelen, in "British Journal for the History of Science, (Dec. 1999, 32) (pp. 388)

وكانت اكتشافاتُ نيوتن نقلةً نوعية في النظر إلى العالم الطبيعي المقنّن بقوانين دقيقة، وكذلك في علاقةِ العالم الطبيعي بالخالق. فماذا توصَّل إليه نيوتن؟ «لقد توصّل نيوتن إلى قوانينِ الحركة الثلاثة الشهيرة[١]، وكذلك قانون الجاذبية. كما وصف بدقة - في ضوءِ هذه القوانين - بنْيَة المجموعة الشمسية... وهي نفسُ القوانين التي تصف سقوطَ التفاحة من الشجرة... لذلك شبَّه الفيزيائيون النظام الشمسي (كما وصفه نيوتن) بالسَّاعة الزنبركية، التي تُملأ ثمَّ تُترك لتعمل تلقائيًّا. إنَّ قوة الجاذبية وقوة الطرد المركزية وقوانين الحركة كفيلةٌ بالمحافظة على عمل النظام الشمس دون التدخُّل من قوى خارجية.

انتشرت فكرةُ آلية العالم انتشارَ النار في الهشيم، فقامَ العلماء والفلاسفة في أوروبا بتفسير كلِّ شيء من خلال منظور الآلية...

وقد لاحظَ نيوتن اختلافًا طفيفًا بينَ ما ينبغي أن تكون عليه مدارات الكواكب كما تحدِّدها حساباته، وبينَ المدارات الفعلية التي يرصدها التلسكوب. وإذا تراكمت هذه الفوارقُ مع مرور الزمن، فسينقلب النظامُ الكوني رأسًا على عقب؛ فقد تغوص الكواكبُ في الشمس، أو تفلت من سيطرتها وتندفع في الفضاء الكوني السحيق.

تجاوزَ نيوتن هذا الإشكال بأنِ اعتبر أنَّ الإله يتدخَّل من وقت لآخر ليعدّل مسارات الكواكب...»[٢].

---

(١) وهذه القوانين الثلاثة هي:

القانون الأوّل: الجسم الساكن يبقى ساكنًا، والجسم المتحرّك يبقى متحركًا، مالم تؤثر عليه قوى ما.

القانون الثاني: إذا أثرت قوة على جسم ما فإنها تكسبه تسارعًا، يتناسب طرديًّا مع قوته، وعكسيًّا مع كتلته.

القانون الثالث: لكلِّ قوة فعل قوة ردِّ فعل، مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه.

انظر المقال: Newton’s Laws of Motion في موسوعة بريتانيكا على الرابط:

https://www.britannica.com/science/Newtons-laws-of-motion

(٢) خرافة الإلحاد (٢٢ - ٢٣).

وساهمتْ هذه النظرة إلى بروز المذهب الربوبي في الساحة الدينية الأوروبية، حيث بنوا معتقدَهم على العالم الفيزيائي المقنَّن بقوانين نيوتن[١]. والظاهر أنهم رأوا أنّ تصرُّف الإله في الكون محدود، وأنه يتناسبُ مع معتقدهم.

«ثمّ أثبتَ الفلكي الفرنسي ماكيز لاباس[٢] (١٧٤٩ - ١٨٢٧) أنّ الانحرافات التي عجزَ نيوتن عن تفسيرها بالقوانين الطبيعية ليست تراكمية، وأنّها تلغي بعضها بعضًا بعد فترةٍ من الزمان، وبالتالي لا تحتاج إلى تدخُّل إلهي لتصحيحها. لذلك أجاب لابلاس نابليون عندما سأله عنْ دور الإله في النظام الكوني بأنه لا يرى حاجةً للقول بهذا الافتراض[٣]! ولذلك أيضًا صرنا نتحدَّث عن «حتمية لابلاس» التي تعني أن الكون يخضعُ بشكل تامٍّ لقوانين الطبيعة... **الثورةُ العلمية كان لها بالفعل أثرٌ مدمِّر على المسيحية في أوروبا؛ إذ أعقبَها مباشرة نزعة شكّية إلحادية كبرى**»[٤].

والخلاصةُ أنّه عندما حصل تقدُّم في اكتشاف قوانين الطبيعة اعتقد بعض الأوروبيين أنَّه لا حاجةَ إلى وجود الخالق. وذلك مبنيٌّ على التصوّر الخاطئ في اللاهوت النصراني عنِ الغائية. فالنصارى اعتقدوا أنَّ كلَّ شيء في الكون يوجد وفقَ تقدير إلهي، وأنّه لا يمكنُ للعقل أن يكشفَ عن التقدير، وأنَّ المرجع في تفسير ذلك هو كتابهم المقدّس المحرَّف. وكتابُهم المقدّس يخبر عنْ علاقة الإله بالعالم بطريقة مزيَّفة. فعندما اكتشف علماءُ الطبيعة هذه القوانين تسبَّب ذلك في موجةٍ تشكيكية في مبادئ العقيدة النصرانية.

---

(١) انظر المقال: Deism في موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https://www.britannica.com/topic/Deism

(٢) ماكيز لابلاس (Marquis Laplace): واسمه: بيير سيمون ماكيز دي لابلاس. عالم الرياضيات والفلك والفيزياء الفرنسي. اشتهر بسبب اكتشافاته المتعلقة بالنظام الشمسي. توفي عام: ١٨٢٧م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Pierre-Simon-marquis-de-Laplace

(٣) قصة لابلاس مع نابليون مذكورة في العديد من كتب التاريخ، منها:
Mémoires du docteur F. Antommarchi, ou les derniers momens de Napoléon, (vol. 1, p. 282), by: Tome Premier, (Barrois L'Ainé, 1825)

(٤) خرافة الإلحاد (٢٣).

والملاحدةُ المعاصرون يستدلُّون بكلام لابلاس في خطابهم الإلحادي(١) ويعمّمون كلامَه عن قوانين الحركة على سائر القوانين. والملاحدة يزعمون أنّ اكتشاف قوانين الطبيعة يلغي الإيمانَ بالغائية؛ قال البروفسور الملحد بيتر أتكنز: «على البشر أن يقبلوا بحقيقةِ أنَّ العلم قد ألغى كلَّ مُبرر للإيمان بوجود الغاية في الكون، وبقاء أي علةٍ غائية للكون شيء ناتج عن الشعور فقط»(٢).

فالنصارى تبنَّوا القولَ بالغائية، ولكن وفقَ تفسير كتابهم المقدّس، والملاحدة أنكروا الغائية بالكلية بناءً على أنَّ قوانين الطبيعة كافيةٌ في تفسير كلِّ شيء في الكون. ولكن تبقَى مسألة مهمَّة، وهي: كيف يفسِّر الملاحدة وجودَ الكون من العدم بقوانين الطبيعة؟ لأنَّ قوانين الطبيعة تصفُ الانتظام في الكون الموجود، ولكنّ الملاحدة المعاصرين يعتقدون أنَّ الكون حادث. فلا بدَّ لحدوث الكون نفسه من تفسير.

وقد تصدَّى الفيزيائي الملحد ستيفن هوكينغ للإجابة عن هذا السؤال في كتابه: التصميم العظيم، وحاول تفسيرَ وجود الكون من العدم بقوانين الطبيعة. وقد قعّد لهذه المسألة في هذا الكتاب، وبيتُ القصيد منه قوله: «وحيث إنه وُجد قانونٌ مثل الجاذبية، فإنَّ الكون يستطيع، وسوف يخلقُ نفسه من العدم»(٣)، واستنتجَ بعد ذلك: «والخلق التلقائي هو السببُ في أنَّ هناك شيئًا بدلًا من اللاشيء، لماذا يوجد الكون، ولماذا نوجَد فيه، ليس من الضروري أن نستحضرَ إلهًا لإشعال فتيل الخلق ولضبط استمرار الكون»(٤).

واستقبل ريتشارد دوكينز هذا الكتابَ ونتائجه بصدرٍ رحْب، فكتب عنه: «الداروينية استبعدت وجودَ الإله من علم الأحياء، ولكن كان الأمر في الفيزياء أقلَّ يقينًا، ولكن الظاهر أنَّ هوكينغ الآن قد أطلق رصاصة الرحمة»(٥).

---

(١) انظر: God's Undertaker (45)

(2) Will Science Ever Fail?, New Scientist, 8 Aug 1992, pp. 32-35

(3) Grand Design (180)

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر المقال: Another ungodly squabble, على الرابط:

https://www.economist.com/babbage/2010/09/05/another-ungodly-squabble

فالملاحدةُ المعاصرون يعتقدون أنَّ الكون محكوم بقوانين دقيقة، وهي لا تتبدّل ولا تتغيّر، وأنَّ ذلك يلغي القولَ بالغائية. ويعتقدون أنَّ هذه القوانين - ولا سيَّما قانون الجاذبية - يفسِّر ظهور الكون من العدم إلى الوجود.

الفقرةُ الثّانية:
ردودُ علماء الغرب على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة:

قد ردَّ علماءُ الغرب[1] على شبهات الملاحدة المتعلّقة بقوانين الطبيعة من أوجه متعدِّدة، أذكر خمسة منها:

- **الوجهُ الأوَّل: قوانينُ الطبيعة وصف وليس بمسبب:**

قبلَ الخوض في الردِّ على شبهات الملاحدة المتعلقة بقوانين الطبيعة نحتاج أن نفهم هذه القوانين؛ فما هو القانونُ الطبيعي؟ قد عرّفتْه موسوعة بريتانيكا بأنّه: «انتظام معلن في العلاقات، أو ترتيب الظواهر في العالم، الذي يحمل بموجبِ مجموعة من الشروط المنصوص عليها، سواء عالميًّا أو في نسبة مذكورة من الحالات»[2]. ثمّ واصلت الموسوعة شرحَ القانون الطبيعي بقولها: «علاوة على ذلك، ليس لقانون الطبيعة ضرورة منطقية؛ بدلًا من ذلك، فإنه يعتمدُ بشكل مباشر أو غير مباشر على أدلة الخبرة»[3].

وذكرَ البروفسور جون لينوكس أنَّ القانون لم يخلق شيئًا، وإنما هو وصف لما يحصل في الغالب، أو تحتَ شروط معيَّنة. وضرب مثالًا على ذلك بقانون نيوتن للجاذبية. عندما اكتشفه نيوتن، فإنَّه لم يكتشف ما يخلق الجاذبيةَ أو يخلق المادة التي

---

(١) أكثر مَن وجدته يتكلَّم عن هذه القضية من علماء الغرب هو جون لينوكس - بروفسور الرياضيات في جامعة أكسفورد -، فهو متخصِّص في الصياغات الرياضية، وقد أبدع بكلامه في هذه القضية، ولهذا يكون أغلب النقول عنه.

(٢) موسوعة بريتانيكا، مادة: (Law of Nature)، على الرابط:
https://www.britannica.com/topic/law-of-nature

(٣) المصدر السابق.

تعمل فيها الجاذبية، بل نيوتن نفسُه اعترف بأنّه لم يفسِّرْ وجود الجاذبية أصلًا. فغاية قانون الجاذبية أنه وصف للطبيعة[1].

ونستنتجُ من ذلك أنَّ القوانين لم تخلق شيئًا، بل لم تتسبّب في وجود أيٍّ شيء إطلاقًا، وإنما هي وصف خبراتنا للطبيعة.

- **الوجهُ الثّاني: قوانينُ الطبيعة نفسها بحاجة إلى مقنِّن:**

إذا كانت قوانينُ الطبيعة مجرَّدَ وصف للطبيعة، فكيف نفسِّر وجودَ هذه القوانين؟ قد أجابَ البروفسور كيث وارد عنْ ذلك بقوله: «وجودُ قوانين الفيزياء لا يستبعد وجودَ الله، بل بالعكس، فإنَّ وجودَها يوحي تمامًا بوجود الإله الذي صاغ هذه القوانين وجعل الواقعَ الفيزيائي متّسقًا معها»[2].

فنستنتجُ من كلام البروفسور وارد أنَّ القوانين بحاجة إلى مقنّن أوّلًا، ثمّ إلى مَن يخلق الطبيعة وفقَ هذه القوانين. وهذا كلُّه يشير إلى وجود خالقٍ متعالٍ على الطبيعة، لأنَّ الطبيعة نفسَها بلا علم ولا حكمة ولا إرادة؛ فلا يمكنها القيام بذلك. ويضاف إلى ذلك ثلاثُ نقاط:

النُّقطةُ الأولى: أنَّ هذه القوانين ليست مستقلة، بل هي متَّسقة، ويعتمد بعضها على بعض. وهذا الأمرُ بحدِّ ذاته يوحي بوجودِ خالق عليم حكيم؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: «تعتمد كثيرٌ من قوانين الطبيعة على قوانين أخرى، والتي تعتمد بدورها على قوانينَ أخرى، وهكذا. وفي النهاية، يجب أن يكون هناك وضعٌ أساسي للمبادئ الذي لا يوجَد لسبب غير أنَّ الله قدَّره أن يكون كذلك. إنَّ القوانين الأساسية للطبيعة تتطلَّب إذًا وجودَ مانح لتلك القوانين»[3].

النُّقطةُ الثّانية: هذه القوانينُ مضبوطة بدقَّة متناهية كما سبق الحديث عنه، وبيَّن البروفسور جون بولكينغهورن أنَّ هذا يزيد الأمرَ وضوحًا أنّه لا بدَّ من وجود غاية

---

(١) انظر: God and Stephen Hawking (40 - 41)

(2) God, Chance and Necessity: 55-56

(3) Taking Back Astronomy (36)

وراء ذلك[1]. ووجودُ غاية في الكون ينكره الملاحدة، ويثبته المؤمنون بوجود الخالق.

وكان هذا هو السببَ الرئيس للاكتشاف العلمي عند المتقدّمين كما ذُكر، قال البروفسور سي. أس. لويس: «أصبح الناسُ علماء لأنهم توقّعوا وجودَ قانون في الطبيعة، وسببُ توقّعهم وجودُ القانون: إيمانهم بوجود واضع للقانون»[2].

النُّقطةُ الثّالثة: وجودُ قوانين للطبيعة لا يتَّسق مع عالم الملحد بحدّ ذاته، ولكن لا يقفُ الأمر على ذلك، بل قدرةُ الإنسان على اكتشاف هذه القوانين لا تتَّسق مع عالم الملحد أيضًا. وقد سبق الحديثُ عن ذلك في مبحث: حجج علماء الغرب على وجود الله من علم الرياضيات. وذلك أنَّ الملاحدة المعاصرين يتبنّون نظرية التطوّر، ويفسّرون حصولَ التطوّر بالصراع من أجل البقاء. وفهمُ قوانين الطبيعة بصياغات رياضية دقيقة لا يمكنُ تفسيرُه وفقَ هذه النظرية. وقد أشرتُ في ذلك المبحث إلى قول البروفسور بول ديفيز: «لو كانت القدرةُ على فهْم الرياضيات تطوَّرت بالصدفة أو بالأحرى تحت ضغوطٍ بيئية، فمِن المدهش حقًّا أنْ نجدها قابلة للتطبيق في الكون المادي. على الجانب الآخر لو كانتِ الرياضيات نشأتْ بشكل مُبهم من أجل البقاء بالانتقاء الطبيعي فسنبقَى على مواجهة معَ لغز مطابقة الطبيعة للرياضيات. بعد كلٍّ هذا أقول إنَّ الصراع مِن أجل البقاء «في غابة» لا يتطلّب معرفةً بقوانين الطبيعة من خلال تجليها فقط»[3].

فالمفترضُ أن يكون الملحدُ آخرَ مَن يحتج بقوانين الطبيعة على إلحاده، لأنّه لا يتوافقُ وجودُ هذه القوانين وإمكانية اكتشافها معَ رؤية العالم التي يتبنّاها.

---

(١) انظر المقال: Science Finds God, على الرابط:
http://www.washingtonpost.com/wp-srv/newsweek/science_of_god/scienceofgod.htm

(2) Miracles: a preliminary study (110)

(3) The Unreasonable Effectiveness of Science (554)، through: A Case Against Accident and Selforganization (144 - 145).

- **الوجهُ الثّالث: قوانينُ الطبيعة لا تمنع تدخّل الخالق:**

الإقرارُ بوجود الانتظام في الكون، وأنَّ الطبيعة تسير وفقَ قوانين محدّدة لا يمنع الاعتقادَ أنَّ الخالق يتصرّف في خلقه كما يشاء. وقد أبدع البروفسور جون لينوكس في بيانِ هذه القضية إذ قال: «المجادلة بأنَّ قوانين الطبيعة تجعل من المستحيل علينا التصديق بوجود الله، أو احتمالية تدخله في الكون مغالطة كبيرة، فهي تشبه الادعاءَ بأنَّ فهمَ قوانين آلية عمل محرّك احتراق داخلي تجعل من المستحيل أن نصدّق بأن المهندس مصمِّم المحرّك أو الميكانيكيين معه يمكنهم، أو سيقومون، بالتدخل وإزالة غطاء أسطوانة احتراق. لا شكَّ أنهم سيتدخلون»[1].

وقال أيضًا: «قانونُ نيوتن في الجاذبية يخبرني أنّني عندما أترك تفاحة فستسقط نحو مركزِ الأرض، ولكنَّ هذا القانون لا يمنع أحدًا من التدخّل والإمساك بالتفاحة أثناء هبوطِها. بكلمةٍ أخرى: القانون يتوقَّع ما سيحدث بشرطِ ألّا يحدث تغيّر في شروط إجراءِ التجربة. وبالتالي، فمِن وجهة نظر المؤمنين بالله تتوقَّع قوانين الطبيعة ما سيحدث إنْ لم يتدخَّل الله، وأنه لا يوجد أيُّ مخالفة بالطبع إن تدخل الخالق بخلقه»[2].

فالخلاصةُ أنَّ وجود القوانين يدلُّ على وجود الخالق، والإيمان بالخالق الذي خلق هذا الكونَ بهذه القوانين لا يمنع أنَّ الخالق يفعل ما يريد في خلقه. فلو شاء الخالق الذي خلقَ الكون بقوانينه الكثيرة أن يتصرَّف بشيء يخالف هذه القوانين، فإنّه يفعل ذلك؛ إذْ لا يُعجزه - سبحانه - شيء. وهذا ما سبق الحديثُ عنه في الكلام عن المعجزات.

- **الوجهُ الرّابع: تصحيحُ المفاهيم عن موقف لابلاس ونيوتن من القوانين:**

كان نيوتن أحدَ روّاد العلم الحديث، ومكتشفَ بعضِ أهمِّ القوانين الفيزيائية. ولكن ماذا كان موقفُه عندما اكتشفَ هذه القوانين؟ هل أدَّى به ذلك إلى إنكار وجود الخالق كما فعلَ ستيفن هوكينغ؟ الجواب: لا، بل الأمرُ كان بالعكس. وقد بيَّن

---

(1) God's Undertaker (201)

(٢) المصدر السابق (٢٠٠ - ٢٠١).

البروفسور جون لينوكس ذلك بقوله: «سير إسحاق نيوتن... لم يرتكب خطأ الفيئة (Category mistake) الذي ارتكبه هوكينغ عندما اكتشفَ قانون الجاذبية. نيوتن لم يقل: «الآن عندما اكتشفتُ قانون الجاذبية، فلست بحاجةٍ إلى الإله»، بل صنَّف كتابه: مبادئ الرياضيات (Principia mathematica)، وهو أشهر كتاب في تاريخ العلم التجريبي، وبيّن أملَه أن «يقنع الإنسان المتفكّر» أن يؤمن بالله»[1].

إذا كان هذا موقفَ نيوتن، فماذا عن موقفِ لابلاس وقصّته مع نابليون، التي يحبّ الملاحدةُ أن يذكرها؟ قد أجاب البروفسور جون لينوكس عمّا ذكروه بكلام رائع إذ قال: «بالطبع أنَّ الله لا يوجَد في الوصف الرياضي للابلاس لكيفيةِ عمل الأشياء، تمامًا كما أنَّه لا يوجد السيد فورد في الوصف العلمي لقانون الاحتراق الداخلي للمحرّك، ولكن ما الذي يثبتُه هذا؟ هل هو أنَّ السيد فورد غير موجود؟ بالطبع لا، وكذلك فإن هذه الحجَّة لا تثبت أنَّ الله غير موجود»[2].

فجوابُ لابلاس لنابليون لا قيمةَ له إطلاقًا، وتمسّك الملاحدة بكلامه يدلُّ على إفلاس مذهبهم، وأنه مبنيٌّ على مغالطات. والغريب أنَّ هوكينغ نفسه اعترف بذلك في محاضرةٍ عن قوانين الطبيعة؛ فقال: «لا أعتقد أنَّ لابلاس كان يدَّعي أن الإله غير موجود. إنَّه فقط لا يتدخَّل لكسر قوانين العلم. ويجب أن يكون هذا هو موقف كلِّ عالم. القانون العلمي، ليس قانونًا علميًّا، إذا كان ينطبق فقط عندما يقرِّر كائنٌ خارق للطبيعة أن يترك الأشياءَ تسير، ولا يتدخل»[3]. إذًا، هوكينغ يعترف في هذه المحاضرة أنَّ المقولة المحبَّبة للملاحدة المنسوبة إلى لابلاس لا تدلُّ على عدم وجود الخالق. وغاية ما تدلُّ عليه أنه ينبغي للعالم عندما يدرس العلومَ التجريبية أن يفترض أنّ الإله

---

(1) God and Stephen Hawking (37)

(2) God's Undertaker (46)

(٣) محاضرة بعنوان: Does God Play Dice, وهي مفرّغة على الرابط:
https://web.archive.org/web/20000711060247/http://www.hawking.org.uk/lectures/dice.html

لا يتصرّف في هذه القوانين. ولكنْ كما سبق فإنَّ هذه القوانين نفسها بحاجة إلى خالق قنّنها، ولا يلزمُ من انتظامِها في معظم الأوقات أنَّ هذا الخالق لا يقدر أن يخرقها إذا شاء.

- **الوجهُ الخامس: الردُّ على زعْم هوكينغ أنّ قانون الجاذبية خلق الكون:**

إذا كان كلامُ لابلاس - ومَن تبعه في هذا الباب - غريبًا، فإنَّ كلام ستيفن هوكينغ عنْ إمكانية خلق قانون الجاذبية للكون أغرب. وذلك لأنَّ لابلاس تحدّث عن قوانين تصفُ الطبيعة، وأنّه لم يجدْ حاجة إلى وجودِ الخالق في كتابة معادلاته. ولكن ستيفن هوكينغ يفترض أنَّ الكون ظهرَ من العدم بسبب قانون الجاذبية. وإن كان قانون الجاذبية وصفًا للطبيعة، فكيف يخرج الكونُ من العدم إلى الوجود قبل وجود الطبيعة؟!

وقد سبق كلامُ البروفسور لينوكس في الردِّ على كلام هوكينغ في مبحث: بيان تناقضات الملاحدة. ولكنْ لأهمية الكلام أعيده هنا:

قال البروفسور جون لينوكس رادًّا على هوكينغ: «لاحظ الادّعاء الأوّل من قوله: «وحيث إنه وُجِد قانون مثل الجاذبية...» يزعم هوكينغ أنَّ قانون الجاذبية موجود. ولهذا يفترض أنَّ الجاذبية نفسَها موجودة، لسبب بسيط أنَّ قانونًا رياضيًّا مجرّدًا يكون فارغًا بنفسه إذا لا يستطيع أن يصف شيئًا... على كلِّ حال، القضية الرئيسة الآن هي أن قانونَ الجاذبية والجاذبية ليست لاشيء، إنْ كان يستعمل الكلمة بطريقته الفلسفية الصحيحة بمعنى عدم الوجود. وإن لم يكنِ الأمرُ كذلك فينبغي له أن يبيِّن مرادَه لنا. وعلاوةً على ذلك، فإنه يبدو أنَّ هوكينغ يزعم أنَّ الكون خُلق مِن العدم، ومِن شيء في الوقت نفسه، وهذه بداية غير موفَّقة...

والأمرُ لا يزداد حسنًا عندما ننطلقُ إلى منطق هوكينغ في الجزء الثاني من قوله: «فإن الكونَ يستطيع وسوف يخلق نفسَه من العدم». هذا الادّعاء متناقض ذاتيًّا. لو قلنا: «إن X خلق Y » فإننا نفترض وجود X في البداية قبل إيجاده Y. هذا ما يُفهم بسهولة من جملة «X خلق Y». وإن كنَّا نقول: «X خلق "X فإننا نزعم وجود X لكي يكون سببًا في وجود X. لا شكَّ أن هذا متناقض بالتالي غير مقبول منطقيًّا، حتى ولو كان X هو الكون!»[1].

---

(1) God and Stephen Hawking (29-31).

فهوكينغ وقعَ في تناقضات عجيبة في استنتاجه أنّه يمكن للكون أن يخلق نفسه بنفسه. وقد مهَّد هوكينغ في كتابه: التصميم العظيم إلى الوقوع في نحو هذه التناقضات عندما ذكر أنَّ الفلسفة ماتت ولم تحافظْ على صمودها أمام تطوّرات العلم الحديث، وأضحى العلماءُ يحملون مصابيحَ الاكتشاف[1]. فكأن المراد بموت الفلسفة هنا في كلامه: عدمُ استخدام قوانين المنطق المعروفة، منها: قانون عدم التناقض. ومراده أنَّ العلماء يحملون مصابيحَ الاكتشاف، أنَّه ينبغي للعامة أن يسلّموا لما يقوله علماء الفيزياء - وهو على رأسهم - وإن كان ذلك يخالف بديهيات العقل. فكلامه أنّ الكون خلقَ نفسَه بنفسه ليس كلامًا علميًّا أصلًا، لأنَّه غيرُ مبنيٍّ على المشاهدات والتجارب، وإنَّما هو ضرب من السفسطة المخالفة للمنطق السوي.

الفقرةُ الثّالثة:
تقييمُ ردود علماء الغرب على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة:

وجودُ قوانين للطبيعة وإمكانية اكتشافها أمر مدهش للغاية. وقد تبنّى الغربيون أربعة معتقدات مختلفة، وكانت هذه القضية تشكّل معضلةً في جميع هذه المعتقدات، وبيانُ ذلك كما يأتي:

المعتقدُ الأوَّل: الدياناتُ الشركية: وقد تبيَّن أنَّ الإيمان بآلهة متعدّدة تحكم أجزاء مختلفة من الطبيعة يتنافَى مع ما يشاهَد من الانتظام في الكون. كما أن المشركين ظنّوا أنّه بإمكانهم الكشفُ عن مُراد الآلهة عن طريق الخرافات، وليس عن طريق العلم التجريبي الممنْهج. وسعوا إلى التأثيرِ على مُراد الآلهة وتصرُّفاتهم في الكون بأنواع من العبادات والقرابين والشعوذات.

المعتقدُ الثّاني: الديانة النصرانية: وإنْ كانت هذه الديانة تدَّعي أنها توحيدية، وأنَّ ذلك يوفِّر أرضية لانتظام الطبيعة، وأنَّ كلَّ شيء في العالم يسير وفق إرادة إلهية، إلا أنَّ اللاهوتيين النصارى ادَّعوا أنه لا يمكن الكشفُ عن هذه الإرادة إلّا وفقَ كتابهم المقدَّس المحرَّف المليء بالخرافات. وقد وقفوا وقفةً معادية للعلوم التجريبية، وكان ذلك مِن أسباب تخلّف أوروبا في القرون الوسطى.

---

(١) سبقت الإحالة إليه.

المعتقدُ الثّالث: المذهب الربوبي: يعتقد الربوبيون أنَّ الإله خلق الكون وفق قوانينَ منتظمة، ولكنَّ الكون مستغنٍ عن العناية الإلهية للبقاء والسيرورة، وأنّ المعجزات لا تحدُث لأنَّ الإله غيرُ قادر على إحداثها؛ إذْ قوانين الطبيعة لا تتغيّر، أو أنه لا يريد ذلك[1].

وإنْ كان هذا المعتقد يستطيع أن يفسِّر وجودَ الكون بقوانينه لأوّل الأمر، إلا أنه لا يفسِّر استمراريته وفقَ هذا النظام العجيب. فهذا الكون لا يشهد بوجود خالق فقط، بل يشهد بوجودِ خالقٍ قيّوم يدبّر الأمر في كلِّ لحظة وحين؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١]. كما أنَّ الحسَّ والأخبار المتواتر تشهد بحصول المعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة، وقد سبق بيانُ ذلك بتفصيل في المبحث المخصّص بالحديث عن المعجزات.

المعتقدُ الرّابع: الإلحاد: واعتقادُ الملاحدة أنَّ الكون نتيجة العشوائية يتنافى مع وجودِ هذا الانتظام في الكون. والضرورةُ العقلية تقتضي أنَّ وجودَ الانتظام يستلزم وجود منظِّم، ووجود قوانين يستلزم وجودَ منظِّم. كما أنّ تمسُّك الملاحدة بنظرية التطوّر تحت شعار: «الصراع من أجل بقاءِ الأصلح» لا يتوافق معَ إمكانية كشف الإنسان لقوانين الطبيعة.

ويمكن أن نستخلص مِن ذلك أنّه لا يستقيم الإيمانُ بأنّ الطبيعة منتظمة بقوانين وإمكانية كشفها إلّا في ظلّ الإيمان بأربعة أمور - وهي موجودة في الإسلام - :

الأمرُ الأوّل: الإيمانُ بخالق واحد خلق كلّ شيء، فأحسن خلقه؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: ٧].

الأمرُ الثّاني: الإيمان بأنّ هذا الخالق خلق المخلوقات وفقَ سنن جارية؛ قال الله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ ﴾ [فاطر: ١٣].

---

(١) انظر:
Perspectives: Understanding and Evaluating Today's World Views (177-179), by: Norman L. Geisler and William D. Watkins (Wipf and Stock Publishers, 2003)

الأمرُ الثّالث: أنَّ الخالق يجري آياتٍ ومعجزات على أيدي أنبيائه ورسله، وينصر المؤمنينَ ويعاقب الكافرين بما يخالف الانتظام المعهود في الطبيعة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر: ٧٨].

الأمرُ الرّابع: أنَّ الإنسان لديه عقلٌ يمكن الوثوق به، ويحثُّ على التأمّل والتفكّر في كلٍّ من السنن الجارية في الكون، وكذلك الآيات البيِّنات الخارقة لما هو معهود في الطبيعة، ؛ قال الله تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

ولا يوجَد هذا الاتِّساق إلّا في ظلِّ العقيدة الإسلامية؛ فلا نستغرب وجود هذا التخبُّط الكبير في الجدال بينَ أتباع المعتقدات المختلفة في قضية قوانين الطبيعة وإمكانية اكتشافها. ولو أنَّ الغربيين راجعوا أنفسهم بعيدًا عن التعصّب والتكبّر، لوجدوا أنَّ الحلَّ الوحيد لهذا اللغز في العقيدة الإسلامية.

ومعَ ذلك، فإنَّ ردودَ علماء الغرب المعاصرين على شبهات الملاحدة المتعلِّقة بقوانين الطبيعة ردودٌ قويَّة وجيِّدة، ويُستفاد منها، ولا سيَّما وهُم أهلُ التخصّص في فلسفة العلم والعلوم التجريبية.

المبحثُ الثّالث
ردودُهم على الشُّبهات المتعلِّقة بنظرية التطور

لا توجد نظريةٌ علميَّة على الإطلاق - فيما أعلم - وقعَ فيها جدلٌ مثل: نظرية التطوُّر. فمنذ أنْ ظهرت هذه النظرية والجدلُ قائمٌ بين المؤيدين لها والرافضين. والملاحدة يروْن أنَّ هذه النظرية أهمُّ النظريات التي يستندون إليها. ولهذا كانت شبهاتُ الملاحدة المتعلقة بهذه النظرية أكثرَ من الشبهات المتعلقة بنظريات أخرى، كما أن ردودَ علماء الغرب على هذه النظرية أكثرُ من ردودهم على نظريات أخرى. وقد ألّفت في هذه المسألة مئاتُ الكتب من الطرفين - وسيأتي تنبيهٌ على بعضها في هذا المبحث -، فلا يمكن استيفاءُ هذا الموضوع في مبحثٍ من مباحث رسالة علمية، وإنما يتطلّب رسائل علميَّة متعدِّدة. ولهذا سيتمُّ الاقتصارُ على أهمِّ الموضوعات المتعلّقة بهذه المسألة بدون تطويل. وهذا المبحثُ مقسَّم إلى خمس فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ نظرية التطوّر.

الفقرةُ الثّانية: أهميةُ نظرية التطوّر في الخطاب الإلحادي.

الفقرةُ الثّالثة: المرادُ بالتطوّر.

الفقرةُ الرّابعة: ردودُ علماء الغرب على أسس نظرية التطوّر.

الفقرةُ الخامسة: تقييمُ ردود علماء الغرب على نظرية التطوّر.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ نظرية التطوّر:

لا يمكن فهمُ نظرية التطوّرِ وأسباب تمسُّك الملاحدة بها بصورة جيّدة إلّا إذا فهمنا جذورَها التاريخية. وهي ثلاثُ مراحل:

- **المرحلةُ الأولى: التطوُّرُ قبل داروين:**

بدأ الفكرُ التطوُّري في وقتٍ مبكِّر من العصر اليوناني، وكان طاليس[1] أوّلَ فيلسوفٍ يوناني، ولديه اهتمامٌ بدراسة علم الطبيعة. وكان لديه تلميذ اسمه: أناكسيماندر[2]. وقد اقترحَ أناكسيماندر أنَّ الحيوانات الأولى عاشت في الماء، ثمَّ صعدت إلى اليابسة، واعتقد أنَّ جذور الإنسان الأوّل ترجع إلى الأسماك. ومن هذه الفلسفة وُلِد الفكرُ التطوّري. ولكنَّ أشهر فلاسفة اليونان مثل: أفلاطون وأرسطو وفلاسفة الفلسفة الرواقية في الإمبراطورية الرومانية كانوا يرون أنَّ الكائنات وُجدت نتيجةً لتصميم إلهي. وبقيَ هذا هو الرأي السائد[3].

وقد نصَّ السفرُ الأوَّل من العهد القديم بكلِّ وضوحٍ على أنَّ الإله خلق الكائنات خلقًا مستقلًّا. وعندما انتشرتِ النَّصرانية في أرجاء البلاد اختلف علماءُ النصارى في تفسيرِ قصة الخلق، فبينما فهمَها بعضُ علماء اللاهوت فهمًا حرفيًّا، فهمها آخرون بأنَّها مجاز، ولا يمكن تفسيرُها حرفيًّا. وكان مِن أنصار الرأي الثاني - الذي استند إليه النصارى الذين قبلوا نظرية في هذا العصر - لاهوتيون مشاهير، مثل: القديس أغسطين في القرن الخامس. ورأى أنَّ أنواع الكائنات تتحوَّل ببطء عبر الزمن. ولكنَّ هذا الرأي لم يكنْ سائدًا في الكنيسة بعد ذلك[4].

---

(١) طاليس: هو طاليس من مليتوس، أحدُ فلاسفة الإغريق قبل سقراط، وواحدٌ من حكماء الإغريق السبعة. ويعتبره العديدُ الفيلسوف الأول في الثقافة اليونانية وأبو العلوم. توفي عام: ٥٤٧ ق.م. انظر: http: / /www - history.mcs.st - and.ac.uk /Biographies /Thales.html

(٢) أناكسيماندر (Anaximander): فيلسوف يوناني، وأوَّلُ فلاسفة اليونان الذين دوّنوا نظرة فلسفية شاملة للكون. توفي عام ٥٤٦ ق.م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Anaximander

(٣) انظر المقال: History of Evolutionary Thought في: BioScience Encyclopedia وهو موجود على الرابط:
http://www.bioscience.ws/encyclopedia/index.php?title=History_of_evolutionary_thought

(٤) انظر: المصدر السابق.

انتشرتِ الفلسفاتُ المادية في عصري النهضة والتنوير. وارتبطت هذه الفلسفاتُ بالأفكار المتعلِّقة بالتطوّر من وقتٍ مبكِّر. ومن ذلك ما كتبه الفيلسوف الفرنسي جورج دي بوفون[1] في كتابه: «التاريخ الطبيعي» (Histoire naturelle) الذي صدر بين عامي ١٧٤٩ إلى ١٧٨٨م، في ٣٦ مجلَّدًا. ذكرَ في هذا الكتاب الضخم أنّه يوجد حوالي ٢٠٠ نوعٍ من الثدييات، وترجع إلى ٣٨ نوعًا. وهذه الأنواع الأصلية ظهرتْ بالتولّد الذّاتي (Spontaneous generation)[2]، وهذه الأفكار تشير إلى بوادر الفكر التطوّري قبل ظهورِ النظرية على يد داروين.

وبينَ عامي ١٧٩٤ - ١٧٩٦ نشرَ إيراسموس داروين - جدُّ تشارلز داروين - كتابه: «قوانين الحياة العضوية» (Zoonomia: The Laws of Organic Life)، وكان في هذا الكتاب عددٌ من الأفكار التي استندَ إليها حفيدُه بعد ذلك. فرأى أنَّ الحياة ظهرت بشكل تلقائيٍّ من مستودع لقاحٍ حي، والذي كان العلةَ الأولى لجميع الكائنات الحية. وتلا هذا الكتابَ كتابٌ آخر للمؤلف نفسه، وهو: «معبد الطبيعة» (The Temple of Nature) الذين صدرَ في عام ١٨٠٣م، وأكَّد فيه ظهور الحياة مصادفة. ومن هنا تبلورت الأفكارُ التطوُّرية بقوّة[3]. وكان إيراسموس داروين ذا وجاهةٍ في المجتمع البريطاني في ذلك الوقت حيث كان طبيبًا مشهورًا، وطلبَ منه ملك بريطانيا أن يكون طبيبه الشخصي لشهرته[4]؛ فلا يستغرب أنَّ هذه الأفكار بدأت تنتشر في المجتمع نظرًا لشهرة المؤلّف.

---

(١) جورج دي بوفون (George de Buffon): واسمه الكامل: جورج لويس لاكراك دي بوفون. عالم العلوم الطبيعية الفرنسي، اشتهر بتأليفه الكتاب الضخم: تاريخ الطبيعة. توفي عام: ١٧٨٨م. انظر: https://www.britannica.com/biography/Georges-Louis-Leclerc-comte-de-Buffon

(٢) انظر المقال: History of Evolutionary Thought في: BioScience Encyclopedia, وهو سيأتي التعريفُ بهذه النظرية، والردُّ عليها في مبحث: ردود علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلقة بالكيمياء.

(٣) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٣٣ - ٣٤)، لمحمد صالح الهبيلي، (مركز دلائل، ١٤٣٧ هـ).

(٤) انظر الموقع المخصّص لحياته:
https://www.erasmusdarwin.org/learning/erasmus-darwin/

طوَّر جان بابتيست لامارك[1] أفكارَ إيرازموس داروين في كتابه: «فلسفة علم الحيوان» (Philosophie zoologique) في عام ١٨٠٩، حيث افترض أن عملية التولُّد الذاتي للأجيال تنتج أنواعًا بسيطة من الحياة، ثمَّ تطوَّرت تدريجيًّا إلى أن صارت أكثرَ تعقيدًا. وكانت الفلسفةُ الأساسية افتراضه توريث الصفات المكتسبة في الطبيعة. ومن الأمثلةِ المشهورة على ذلك: زعمه أنَّ الزرافة حظيت بعنق طويل لأنها كانت تتطاول للأشجار العالية للأكل منها، ثمَّ توارثت السلالةُ هذه الصفة المكتسبة إلى أن أصبحت أعناقُ الزرافات بهذا الطول[2].

وظهرتْ في القرن التاسع عشر بعضُ النظريات المؤثرة في ظهور نظرية التطوّر بعد ذلك، منها نظرية توماس روبرت مالتوس[3] عنِ التكاثر السكاني في كتابه: «أصول الاقتصاد السياسي» (Principles of political economy) الذي صدر في عام ١٨٢٠م، وكان مِن أبرز أفكاره أنَّ العوامل التي تبقي السكان تحت السيطرة وتحافظ على المال وموارد الغذاء، هي الحروبُ والأمراض والمجاعات. وقد عمَّم تشارلز داروين هذه الأفكار بعدَ ذلك على الطبيعة في نظرته للصراع لبقاء الأصلح - وهي من ركائز النظرية -.

ومِن النظريات المصاحبة أيضًا ما نشرَه تشارلز لايل[4] في كتابه: «أسس الجيولوجيا» (Principles of Geology). وقد ذكر فيها أنَّ عُمر الأرض أقدمُ بكثير

---

(١) جان بابتيست لامارك (Jean Baptise Lamarck): عالم الإحياء الفرنسي في عصر التنوير، اشتهر بنظريتِه المتعلقة بتوريث الصفات المكتسبة. توفي عام: ١٨٢٩م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Jean-Baptiste-Lamarck

(٢) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٣٩).

(٣) توماس روبرت مالتوس (Thomas Robert Malthus): عالم الاقتصاد والديموغرافية البريطاني، واشتهرَ كثيرًا بسبب نظرياته في التكاثر السكاني. توفي عام: ١٨٣٤م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Thomas-Malthus

(٤) تشارلز لايل (Charles Lyell): عالم الجيولوجيا الاسكتلندي، اشتهر بنظرياته عن قدم الأرض. توفي عام: ١٨٧٥م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Charles-Lyell

مما زعمه الأصوليون اللاهوتيون. والقولُ بقدم الأرض من أهمِّ الأسس لنظرية داروين حيث افترض أنَّ التطوُّر يحصل بشكل بطيء جدًّا. ولا يمكن ظهورُ الكائنات المتنوّعة الموجودة اليوم إلا بافتراض قدم الأرض[1].

- **المرحلةُ الثّانية: نشرُ داروين لنظريته:**

يتلخَّص مما سبق أنَّ الظروف كانت مهيأة لظهور النظرية. وذلك من سبعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: الفكرُ التطوّري موجودٌ منذُ زمن طويل في التراث الغربي، وقد تبنّاه بعضُ الفلاسفة اليونانيين.

الوجهُ الثّاني: أنه لا يلزمُ مِن نشر النظرية المصادمة مع الكنيسة، حيث وُجدت فكرةُ التطوّر عند اللاهوتيين القدامى.

الوجهُ الثّالث: انتشارُ الفلسفة المادية مع صعود المذهب الربوبي والإلحادي في الغرب.

الوجهُ الرّابع: تبنّي بعضُ علماء الطبيعة مثل: بوفون ولامارك لبعض النظريات المبنية على التطوّر.

الوجهُ الخامس: انتشارُ فكر الصراع لبقاء الأصلح على يد مالتوس.

الوجهُ السّادس: ظهورُ نظريات جيولوجية تؤيّد قدم الأرض.

الوجهُ السّابع: أنَّ تشارلز داروين كان مِن أسرة مشهورة بسبب شهرة جدّه.

وُلِد داروين عام ١٨٠٩م، في إنجلترا. كان جدُّه - كما سبق - طبيبًا مشهورًا، كما أنَّ والده روبرت داروين كان طبيبًا. وكان كلٌّ من الأب والجدّ متأثّرين بالأفكار العلمانية التي بدأت تنتشرُ في ذلك الزمن. فنشأ تشارلز داروين في عائلة علمية وعلمانية في الوقتِ نفسه. أرسلَه والده لدراسة الطبِّ في جامعة إيدينبورغ وعمره ١٦ سنة فقط، وكانت تلك الجامعة معروفةً بكثرة الطلاب العلمانيين والماديين؛

---

(١) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٤٠ - ٤١).

فتعرّف على أفكار لامارك في التطوُّر. كان داروين فاشلًا في دراسته، فأرسله والدُه إلى جامعة كامبردج لدراسةِ علم اللاهوت كي يكون قسيسًا في المستقبل - رغم أن الوالد كان علمانيًّا -، واستطاعَ داروين الحصولَ على الباكالوريوس. وعندما كان في جامعة كامبردج قرأ كتاب: «اللاهوت الطبيعي أو الأدلة على وجود الإله وصفاته» (Natural theology or Evidences of the Existence and Attributes of a Deity) لوليام بالي - الذي سبق الكلامُ عنه في الحديث عن الحجَّة الغائية -، فتردّد داروين بين الأفكار العلمانية والعقيدة النصرانية في حياته المبكّرة[١].

وفي عام ١٨٣١م، خرجَ داروين مع سفينة بيغل في رحلة استغرقت خمس سنوات، ومرَّت السفينة حول قارة جنوب أمريكا، ثمَّ عبرَ المحيط الهادئ إلى أستراليا، ثمّ عن طريق السّاحل في جنوب وغرب أفريقيا، ثمَّ إلى بريطانيا. وفي هذه الرحلة دوَّن كلَّ ما لاحظه من العرقيات المختلقة بين البشر، والحيوانات والنباتات. وعندما رجع إلى بريطانيا بدأ يؤلِّف بعض الرسائل عن ملاحظاته. ولمرضه لفترة طويلة تأخَّر في نشر كتابه الأشهر: «أصل الأنواع» (On the Origins of Spieces)، وصدر في عام ١٨٥٩م. وحاول داروين تفسيرَ ظهور وتنوُّع الحيوانات والنباتات عن طريق الانتخاب الطبيعي بدون حاجة إلى تدخُّل الخالق. ولم يتحدّث في هذا الكتاب عن أصل الإنسان.

وفي عام ١٨٧١م، نشر كتابًا آخر بعنوان: «نشوء الإنسان والانتقاء الجنسي» (Descent of Man, and Selection in Relation to Sex)، وتحدّث فيه عن تطوّر الإنسان من سلف مشترك مع القرد[٢].

أدركَ داروين أنَّ نظريته تعاني من مشكلات عديدة، وخصّص فصلًا من كتابه: «أصل الأنواع» عنوانه: «صعوبات النظرية» (Difficulties on theory). وذكر فيه

---

(١) انظر سيرته في: Peoplepill الرابط:

https://peoplepill.com/people/charles-darwin

(٢) انظر: المصدر السابق.

عددًا من الصعوبات، مثل: فقر سجلّ الحفريات في الأنواع الانتقالية، وكيفية ظهور أعضاء معقّدة كالعين عنْ طريق الانتخاب الطبيعي، ووجود الغرائز في الحيوانات. وحاول داروين أن يجيبَ عن هذه الإشكالات، وأمّل أنَّ الاكتشافات الجديدة سوف تجيب عن هذه الصعوبات[١].

حصلتِ انتقاداتٌ شديدة لنظريته من أوّل وهلة؛ فقد أرسل داروين نسخة من كتابه قبلَ طباعته لصديقِه المقرَّب البروفسور آدمِ سدجويك، فأجابه سيدجويك بقوله: «قرأتُ كتابك بتألم أكثرَ من الرضا. أحترم جدًّا أجزاء منه، وأضحك من أجزاء حتى تقارب خاصرتي على التقرُّح من الضحك، وأجزاء أخرى أقرؤها بأسى شديد، لأني أعتقدُ أنها زائفة تمامًا، وللأسف عابثة جدًّا... إنَّ الكثير من استنتاجاتك الواسعة مبنية على افتراضات لا يمكن إثباتُها ولا دحضها»[٢].

وكان الأسقفُ صامؤيل ويلبيرفورس[٣] من أكبر المعارضين للنظرية، وألّف مراجعة للكتاب في ٥٠ صفحة. وكان توماس هوكسلي[٤] - صديق داروين المقرّب - أقوى المدافعين عن النظرية. ووقعتْ مناظرة مشهورة بينهما في جامعة أكسفورد ١٨٦٠م، ورغمَ أنَّ تفاصيل المناظرة غير معروفة إلا أنَّ التطوّريين وصفوا أنفسهم بالانتصار،

---

(١) انظر: خديعة التطوّر (١٧)، لهارون يحيى، (الأجيال للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م. ترجمة: سليمان بايبارا).

(٢) From Adam Sedgwick ٢٤ November ١٨٥٩، والرسالة منشورة في الموقع المخصَّص لرسائل داروين على الرابط:

https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-2548.xml

(٣) صامؤيل ويلبيرفورس (Samuel Wilberforce): رجل دين بريطاني وأسقف أكسفورد، اشتهر بمعارضته لنظرية التطور. توفي عام: ١٨٧٣م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Samuel-Wilberforce

(٤) توماس هوكسلي (Thomas Huxley): الفيلسوف وعالم الأحياء البريطاني. اشتهر بإظهار مذهب اللاأدرية ودفاعه المستميت عن داروين. توفي عام: ١٨٩٥م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Thomas-Henry-Huxley

حتى كأنَّ العلم التجريبي انتصرَ على الدين، مما أثار ضجَّة كبيرة في الأوساط العلمية والدينية[1].

أسَّس هوكسلي «نادي أكي» (X – Club) عام ١٨٦٤م، الذي ضمَّ كبارَ العلماء التَّجريبيين الماديين في زمنه. وسعى أعضاءُ النادي – وفي مقدّمتهم هوكسلي – إلى تقديم نظريةِ داروين واعتمادِها عند الحكومة البريطانية، وعلمنةِ العلوم التجريبية، ونجحوا في ذلك إلى حدٍّ كبير.

كما أنَّ أعضاء النادي أسّسوا مجلة «ناتشر» (Nature)، وهي من أشهر الدوريات العلميَّة في العالم إلى هذا الوقت، والمؤيّدة لنظرية التطوّر خصوصًا. وساهموا في الكتابة في مجلة «المعاملات الفلسفية للجمعية الملكية» (Philosophical Transactions of the Royal Society)، وهي أقدم مجلة علمية في بريطانيا[2].

وكان هوكسلي رئيسَ بعض أشهر الجمعيات العلمية في بريطانيا في فترات من حياته مثل: «الجمعية البريطانية لتقدّم العلوم» (British Association for the Advancement of Science) والجمعية الملكية (Royal Society)، وكان من أكثر من نشر نظرية التطوّر على الإطلاق مستفيدًا من مناصبه وعلاقاته[3].

وفي عام ١٨٦٣م، أُنشئت في الولايات المتَّحدة «الأكاديمية الوطنية للعلوم» (National Academy of Science) بقرارٍ من الرئيس الأمريكي، وكانت هذه الأكاديمية تقدِّم الماديين على المتديِّنين من بداية نشأتها، وكانت تؤيّد نظرية التطوّر[4].

---

(١) انظر: God's Undertaker (٢٨ – ٢٦)، وبيَّن البروفسور جون لينوكس في هذا الموضع من كتابه أنَّ ما يذكره التطوّريون عن المناظرة تحريف للحقائق، حيث أنّ ويلبرفورس ناقش هوكسلي من منطلق علمي محْض، وداروين نفسه رأى أنَّ انتقاداته كانت قويّة عندما قرأ مراجعته.

(٢) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٤٨).

(٣) ولهذا يلقّب ببلدغ داريون (Darwin's bulldog) – بلدغ هو الكلب المعروف بشراسته الشديدة –. انظر المقال: Thomas Henry Huxley في موسوعة بريتانيكا على الرابط: https://www.britannica.com/biography/Thomas-Henry-Huxley

(٤) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٤٨).

كما أنَّ الجمعية الأمريكية لتقدّم العلوم أنشأت مجلة «العلوم» (Science) في عام ١٨٨٠م، وأصبحت مِن أشهر المجلات العلمية في الولايات المتَّحدة - نظيرة مجلة «ناتشر» في بريطانيا - وأيَّدت نظرية التطوّر من بدايتها[١].

فكأنَّ الماديين وجدوا ضالتَهم في هذه النظرية، وتعصّبوا لها ما لم يتعصّبوا لأيِّ نظرية أخرى، وحيث أنَّهم تبوؤوا مناصبَ كبرى في دول عظمى فقد ساهم ذلك كثيرًا في قبول النظرية.

توفّي تشارلز داروين عام ١٨٨٢م. وقد انتشرت نظريتُه إلى حدٍّ كبير في حياته[٢].

- **المرحلةُ الثّالثة: نظريةُ التطوّر بعد داروين:**

استمرَّ الماديون في نشْر نظريتهم والدفاع عنها، وصارَ لها قبولٌ واسع في الدوائر العلمية في الدول الغربية. وكان داروين وأنصارُه يعتمدون على فرضية لامارك في توريث الصِّفات المكتسبة. ولكنْ عندما اكتشف العلماءُ قوانين الوراثة دخلت النظرية في أزمة عميقة؛ لأنَّ هذه القوانين تبيِّن أنَّ الصفات المكتسبة لا تورث.

وقام اثنان من العلماء التطوُّريين بتعديل النظرية باعتبار أنَّها تعتمد على الانتخاب الطبيعي فقط في ضوء «قوانين ميندل للوراثة» (Mendelian inheritance)، وسميت الصياغة الجديدة لنظرية التطوّر بـ«الداروينية الجديدة» (Neo – Darwinism)، فكانت بمثابة عملية الإنقاذ الأولى للنظرية بعد وفاة داروين[٣].

ولكنْ بقيت مشكلةٌ كبيرة في النظرية، وهي أنَّ الانتخاب الطبيعي نفسه لا يتسبَّب في ظهور صفاتٍ جديدة، وإنما يختار الكائنات الأكثر ملائمة للبقاء. والتقى العلماءُ التطوّريون في اجتماع نظَّمته الجمعية الجيولوجية الأمريكية عام ١٩٤١م؛ للمشاورة في حلِّ هذه الإشكالية،

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥٣ - ٥٤).

(٢) انظر المقال: Charles Darwin في موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https://www.britannica.com/biography/Charles-Darwin

(٣) التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٦٨).

وقدَّموا فرضية عن ظهور طفرات عشوائية في الكائنات الحية، وهي تسبِّب تطوُّر الكائنات الحيّة، ثمّ يُبقي الانتخاب الطبيعي الأنواع الملائمة، ويميتُ الأنواع غير الملائمة. وأطلقوا على نظريتهم الجديدة اسم: «النظرية الحديثة للتطوّر التركيبي» (Modern Synthesis Theory)، وأضافوا الطفرات العشوائية إلى النظرية، وأنها هي التي تسبِّب في ظهور صفات جديدة، ويتراكم النافعُ منها عبر الزمن عن طريقِ الانتخاب الطبيعي[١].

وقد كان مِن ضمن مَن أشهَرَ هذه النظرية الحديثة: جوليان هوكسلي، وهو حفيدُ توماس هوكسلي - بلدغ داروين -. وكان جوليان مِن ضمن مؤسّسي منظمة اليونسكو (منظَّمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة) وأوَّلَ رئيس لها[٢]. ولا شكَّ أنَّ تولّي دارويني متعصِّبٍ رئاسةَ أهمِّ منظمة علمية في العالم ساهمت في قبول النظرية عالميًّا.

ولم تقبلِ الدول الغربية الرأسمالية هذه النظريةَ فحسب، بل قبلتها الدولُ الشيوعية الشرقية أيضًا. فعندما ظهرَ كتاب: «أصل الأنواع» تلقّاه كارل ماركس بقبول، وكتب لرفيق دربه إنجيلز أنَّ هذا هو الكتاب الذي يحتوي على أسسِ التاريخ الطبيعي لآرائهما. ولما استولى الشيوعيون اعتمدوا تدريسَ هذه النظرية، كما أنَّ ماو تسي دونغ بجّل هذه النظريةَ واعتُمِدتْ في التعليم الصيني[٣].

وعندما نجحَ الاتحاد السوفيتي الشيوعي في إطلاق أوّلِ قمرٍ صناعي عام ١٩٥٧م إلى الفضاء، استغلَّ الماديون الأمريكان هذا الأمرَ في ترويج أنَّ سببَ تقدّم الشيوعيين هو اعتمادُهم على المادية، وتعليم نظرية التطوّر. ولذلك قام الرئيس الأمريكي بتغيير المناهج الدراسية الأمريكية، ودعَّم أكاديمية العلوم المناصرة لنظرية التطوّر، وفرضوا تدريسَها في المدارس، وصار لها قبولٌ واسع في الولايات المتّحدة بعد ذلك[٤].

---

(١) انظر: خديعة التطوّر (١٧ - ٢٠).

(٢) التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٦٨).

(٣) انظر المقال: The Darwinian Foundation of Communism, وهو موجود على الرابط: https://answersingenesis.org/charles-darwin/racism/the-darwinian-foundation-of-communism

(٤) انظر: التطوّر: نظرية تاريخية وعلمية (٩٥ - ٩٦).

وبعدما تبنَّت أقوى الدول في العالم هذه النظرية انتشرت بشكلٍ كبير في أرجاء المعمورة. ونستنتجُ من هذا التاريخ الموجَز لنظرية التطوّر كيف أنَّ الماديين استطاعوا نشرَها بطرق مختلفة، منها:

١) نشر النظرية عن طريق المجلات العلمية مثل: مجلة ناتشر ومجلة العلوم.

٢) اعتماد النظرية عن طريق السلطة السياسية في أقوى الدول في العالم مثل: بريطانيا أوّلًا، ثمّ الاتحاد السوفيتي، ثمّ الصين، ثمّ الولايات المتّحدة.

٣) تولّي التطوّريين المتعصّبين لمناصب حساسة كرئاسة اليونسكو.

وهذا يلخِّص تاريخَ نظرية التطوّر، ويبيِّن أنَّها نظرية مادية قديمة، أحياها الماديون في عصرِ التَّنوير، وأشهرها داروين، ثمَّ استمرَّ الماديون في الدفاع عنها إلى هذا العصر.

الفقرةُ الثّانية: أهميةُ نظرية التطوُّر في خطاب الملاحدة:

نظريةُ التطوُّر أشهرُ نظرية علمية يستدلُّ بها الملاحدة على إلحادهم ويلجؤون إليها في الحديثِ عن الخلق، ويتخنْدَقون بها في مناقشاتِهم للمؤمنين. فنظرية التطوّر أسُّ الإلحاد العلمي ولبُّه في هذا العصر، ويدافع عنها الملاحدةُ بشراسة وفظاظة. وقد بالغ الملاحدةُ في الدفاع عنها إلى أنِ اتخذوها دينًا يدينون به، كما اعترفَ بهذا البروفسور الملحدُ مايكل روس حينَ قال: «التطوّر يقدّم عندَ معتنقيه كشيء أكثر من مجرّد علم. التطوُّر أيديولوجية، وديانة علمانية، وبديلٌ متكامل للمسيحية، بمعنى وأخلاق... التطوّر دين. هذا يصدقُ على التطوُّر في البداية، ويصدقُ على التطوّر حتى اليوم»[١].

وسببُ ذلك ما ذكره زعيمُ الملاحدة في هذا الزمان ريتشارد داوكينز: «وإن أمكنَ الدفاع عن الإلحاد منطقيًّا قبل داروين، فإنَّ داروين جعله ممكنًا أن يكون الإنسان ملحدًا مقتنعًا عقليًّا»[٢].

---

(1) How evolution became a religion: creationists correct? National Post, pp. B1,B3,B7 May 13, 2000.

(2) p.6 The Blind Watchmaker

ويعترف بعضُ التطوُّريين أنفسهم بسرٍّ قبولهم لهذه النظرية، وهو الفرارُ من الإيمان بوجودِ الخالق الذي خلقَ الكائنات الحية. وذكر ذلك البروفسور التطوّري ديفيد واطسون في وقتٍ مبكّرٍ من ظهور النظرية - عام ١٩٢٩ م - في المجلة التطورية ناتشر إذْ قال: «نظريةُ التطوّر نفسها ليست مقبولةً عند علماء الحيوان لأنه يمكن ملاحظتها... أو يمكن إثباتُ صحَّتها بالأدلة المحكمة منطقيًّا؛ بل لأنَّها البديل الوحيد؛ فمن الواضح أنَّ الخلق الخاص لا يمكن تصديقه»(١).

بل الملاحدةُ مستعدُّون أن يؤمنوا بما يعرفون أنَّه مستحيل؛ فرارًا من الإيمان بوجود الخالق، كما كتبَ جورج والد(٢): «عندما يتعلّق الأمرُ بنشأة الحياة على الأرض، فليس هناك غيرُ احتمالين: الخلق أو النشوء التلقائي، وليس هناك احتمال ثالث، وقد دُحض النشوءُ التلقائي منذ ١٠٠ سنة، ولكنَّ ذلك سيقودنا إلى الاستنتاج الآخر وهو: الخلق الخارقُ للطبيعة. لا يمكننا قبولُ ذلك على أسسٍ فلسفية، ولذلك فقد اخترنا الإيمانَ بالمستحيل: نشوء الحياة تلقائيًّا بالصدفة»(٣).

ولذلك، فإنَّهم يئوِّلون الأدلة والحقائق بناءً على ذلك، كما قال فيليب جونسون - مؤسِّس حركة التصميم الذكي - : «**التطور ليس حقيقة، بل فلسفة. فالمذهبُ المادي يأتي أوَّلًا (كمسلَّمة) ومن ثمَّ يتمُّ تأويلُ الدليل في ضوء هذا الالتزام الفلسفي الثابت**»(٤).

فالفلسفةُ المادية قادتْهم إلى نظرية التطوّر، لا العكس، أي أنَّهم لـمّا اختاروا الإيمان بالمادية، بما في ذلك الإيمان بالمستحيل فلا بدَّ من الإيمان بنظرية التطوّر. وذلك أنَّ

---

(1) D.M.S. Watson, “Adaptation,” Nature, Vol. 123 [sic Vol. 124] (1929), p. 233

(٢) جورج والد (George Wald): بروفسور الكيمياء الحيوية في جامعة هارفارد بالولايات المتَّحدة والحائز على جائزة نوبل في الطبّ عام: ١٩٦٧م. توفي عام: ١٩٩٧م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/George-Wald

(٣) انظر: The Origin of Life, Scientific American, 191:48, May, 1954

(4) Defeating Darwinism by Opening Minds (81), by: Philip Johnson, (InterVarsity Press, 1997)

العلم التَّجريبي تقدَّم بشكلٍ هائل منذُ زمن داروين، واكتشف العلماء مزيدًا من الإتقان والإحكام في المخلوقات الحيَّة، وكلُّها شاهدةٌ بوجود الخالق. فلو تخلّى الماديون عن نظريةِ التطوّر الآن، لزمَهم السؤال: كيف وُجِد هذا الإتقان والإحكام؟ وهذا يقودهم حتمًا إلى الإيمانِ بوجود الخالق. فلا بدَّ من التمسُّك بهذه النظرية، مهما كان الثمن.

الفقرةُ الثّالثة: المرادُ بالتطوُّر:

تستخدم كلمةُ التطوُّر في معانٍ متعدّدة، ولكي نقوم بالردِّ على هذه النظرية نحتاج أن نحدِّد المرادَ بهذا اللفظ. ذكر البروفسور جون لينوكس أنَّ كلمة التطوّر تستخدم في خمسة معانٍ:

المعنى الأوَّل: التغيّر، والتنمية، والاختلاف.

المعنى الثّاني: التطوّر الصغروي (Microevolution). تحصل التباينات ضمنَ حدود موصوفةٍ من التعقيد، تباينات كمية لأعضاء موجودة مسبقة.

المعنى الثالث: التطوّر الكبروي (Macroevolution). يشير المصطلح إلى الأمورِ الجديدة التي تظهرُ على المستوى الكبير كظهور أعضاء جديدة، وبنى جديدة، وأقسام جسديَّة جديدة أو مادة وراثية جديدة بنوعها، على سبيل المثال: تطور كائنات متعددة الخلايا من بنى أحاديةِ الخلايا، وبالتالي يتضمن التطور الكبير زيادةً معتبرة في التعقيد. والتمييزُ بينَ التطور الكبير والصغير مادةٌ لكثيرٍ من الخلاف نظرًا لأن فرضية التدرج تقتضي أنَّ التطورَ الكبير يأتي ببساطةٍ من تراكم العمليات التي تقود التطور الصغير عبرَ الزمن.

المعنى الرّابع: الانتخابُ الاصطناعي في تكاثرِ النبات والحيوان. فقد أنتج مربّو الحيوانات والمزارعون كثيرًا من الأنواعِ المختلفة من الأغنام الورود ممّا امتلكوه من مخزون رئيسي من الورد والغنم بداية عبرَ اختيار دقيق لطرق التكاثر.

المعنى الخامس: التطوُّر الجزيئي. ويستخدم مصطلح «تطور جزيئي» بشكل شائع اليومَ لوصف ظهور الخلية الحية من موادّ غير حية[1].

---

(١) انظر: God's Undertaker (100 - 102)

وبسببِ هذا الاشتراك اللفظي يقع لبسٌ كبير عندَ الحديث عن التطوّر. وذلك أنَّ المعنى الأوَّل ليس فيه إشكالٌ عقدي؛ فالتغيّرات في الكائنات الحيَّة أمرٌ ملاحظ ومشاهَد؛ فالولد يختلفُ عن والديه مثلًا. وعامَّة ما يستدلُّ به التطوّريون هو أمثلة على هذا المعنى في الحقيقة، ولكنَّ اكتساب الكائن خصيصة ما دون تغيّر رصيده الجيني ليس من التطوّر الذي ينشئ التعقيدَ الأحيائي من أصل مشترك(١).

وأمّا المعنى الثاني والمعنى الثالث فهمَا محلُّ النقاش في هذا المبحث. والمعنى الرابع يحصلُ عن طريق تدخُّل إنسان ذي علمٍ وإرادة في التكاثر؛ فلا يمكن الاستدلالُ به على حصولِ تطوُّر عشوائي غير موجَّه. ويختلف التطوّريون في قضايا كثيرة متعلِّقة بالتطوّر، ولكنَّ الملاحدة التطوُّريين متَّفقون على أنَّ التطوّر عملية عشوائية غير موجَّهة(٢).

وأمّا المعنى الخامس، فسيأتي الحديثُ عنه في المبحث الخامس من هذا الفصل.

الفقرةُ الرّابعة: ردودُ علماء الغرب على أسس نظرية التطوّر:

نظريةُ التطوُّر نظريةٌ كبيرة ومتشعِّبة، وقد ألَّف علماءُ الغرب مئاتِ الكتب والمقالات في الردِّ عليها. ويستحيل ذكرُ جميع هذه الردود في مبحثٍ من مباحث هذه الرسالة. ولهذا سوف أكتفي بالردِّ على أسس هذه النظرية. فلو سقطت الأسسُ انهارت النظريةُ بأكملها. فما هي أسسُ النظرية؟ قد لخّصها البروفسور مايكل بيهي في ثلاث نقاط:

النُّقطةُ الأوّلى: أنَّ الكائنات الحية ترجع إلى سلف مشترك.

النقطةُ الثانية: الطفرات العشوائية.

النقطةُ الثالثة: الانتخاب الطبيعي(٣).

---

(١) انظر: براهين وجود الله (٤٩٢).

(٢) انظر: المصدر السابق (٥٢٣ - ٥٢٤).

(٣) انظر: God and Evolution, in God is Great God is Good (84)

- **النُّقطةُ الأولى: أنَّ الكائنات الحية ترجع إلى سلف مشترك:**

يرى التطوُّريون أنَّ جميع الكائنات الحية تنتظم في علاقةٍ شجرية كثيرة الفروع، جذعُها الأول: بكتيريا أولى. ومِن هذه البكتيريا بدأتِ الحياة. ثمَّ تطوّرت الكائنات الحيّة مِن هذا الكائن البسيط إلى ملايين الأنواع المختلفة من الكائنات الحيّة. ومنها الإنسان. ويسمُّون هذا الكائن الأوَّل بالمشترك العالمي الأخير (Last universal common ancestor). وحيث إنه لا توجَد أحفورة لهذا الكائن الأوَّل فإنَّ التطوّريين يختلفون اختلافًا كبيرًا في زمنِ ظهوره ما بين ٣,٧ إلى ٤,٢ مليار سنة قبلنا[١].

وقد ذكر داروين هذا السلفَ المشترك في كتابه: «أصل الأنواع» إذ قال: «لذلك يجبُ أن أستنتجَ من القياس أنَّ كلَّ الكائنات العضوية التي عاشت على هذه الأرض قد انحدرتْ من شكل بدائي واحدٍ نُفخت فيه الحياة أولًا»[٢].

ويؤكِّد التطوُّريون المعاصرون على أهمِّية هذه النقطة في نظريتهم؛ فقال البروفسور ريان غريغوري[٣]: «لم يُعثَر على أيِّ ملاحظة موثوقة تتناقضُ مع الفكرة العامة للسلف المشترك. لا ينبغي أن يكون مفاجئًا إذًا أنَّ المجتمع العلمي عمومًا قد قبل النزولَ التطوري كواقعٍ تاريخي منذُ زمن داروين، **ويعتبره من بين الحقائق الأكثر وثوقيَّة والأهمية الأساسية في كلِّ العلوم**»[٤].

---

(١) انظر بحث:

Evidence for early life in Earth's oldest hydrothermal vent precipitates, Nature (543), 2017, pp. 60-64

(2) On the Origins of Species (484)

(٣) ريان غريغوري (Ryan Gregory): بروفسور علم الأحياء التطوّري في جامعة غوليب بكندا. انظر: https: / /www.uoguelph.ca /ib /gregory

(4) Evolution as Fact, Theory and Path, by: T. Ryan Gregory, in Evolution: Education and Outreach (1), 46-52, (2008)

فلا توجَد أحفورة لهذا الكائن الأوَّل المزعوم، ولكنَّ داروين افترض وجوده هذا السلف المشترك بالقياس العكسي للتطوّر - كما في كلامه المذكور سابقًا - والتشابه بين الكائنات. وأمَّا دوكينز فيستدلُّ على وجود هذا السلف المشترك بأنَّ شفرة الحمض النَّووي واحدة في جميع الكائنات الحية، وتطابق شفرة الحمض النووي حجة على أنها تعودُ إلى أصل واحد[1].

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة من أوجهٍ كثيرة، ولكن أكتفي بذكر أربعة منها:

الوجهُ الأوَّل: عدمُ التسليم بأنَّ التفسير الوحيد لوجود التشابه بين الكائنات هو السلفُ المشترك. فقد يفسَّر هذا التشابه بوجود خالقٍ واحد خلقَ الكائنات بهذا التَّشابه. ولكن التطوُّريين الملاحدة لا يقرُّون بهذا التفسير لأنهم التزموا المذهب المادي الصِّرْف. وهذا هو ما قادَهم إلى القول بالسلف المشترك. وقد ذكر ذلك الدكتور وليام دمبسكي والدكتور جوناثان ويلز بقولهما: «تشترك الكائناتُ الحية في العديد من السِّمات. إنَّ العديد من هذه السمات متشابهة لدرجة أنها لا يمكن أن تنشأ إلا مِن سببٍ مشترك. السؤالُ الأهمُّ هنا يتعلَّق بحقيقة هذا السبب المشترك. هل هذا السبب هو السلفُ المشترك أو التصميم المشترك، أو ربَّما كلاهما؟ بغياب التصميم سيغدو السلفُ المشترك هو التفسيرَ الافتراضي لكلِّ هذه التشابهات التي تملأ العالم الحيوي. ستلجأ كلُّ نظرية مادية في التطوُّر لإنكار التصميم واعتناق التفسير الناتج عن السلف المشترك؛ لكنْ عندما يعود التَّصميم إلى الصورة فستلغى أهمية الأسلاف المشتركة»[2].

الوجهُ الثّاني: عدمُ التسليم بأنَّ جميع الكائنات تعود إلى سلف مشترك. قد اكتشفَ العلماءُ أنَّ القول بالسلف المشترك خطأ. وقد قدّم الدكتور شي ليو[3] بحثًا

---

(١) انظر: The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution (315), by: Richard Dawkins, (Transworld Publishers, 2009)

(٢) تصميم الحياة (٢٤٢).

(٣) شي ليو (Shi Liu): عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي من أصول صينية. حامل شهادة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من جامعة أوكلاهوما بالولايات المتّحدة. انظر: https://19january2017snapshot.epa.gov/sites/production/files/2016-05/documents/liu_shi_ced.pdf

بعنوان: «وجهة نظر مختلفة تمامًا عن أصل الحياة وتطوّرها» (A Fundamentally New Perspective on the Origin and Evolution of Life)، وكتب في مقدّمة البحث: «تزعم فرضيةُ داروين أنَّ جميع أشكال الحياة الموجودة سليلة آخر مشترك خلوي، وأنّ تنوّع أشكالِ الحياة نتيجةَ التدرُّج في الطفرات مع الانتخاب الطبيعي، وهي وجهة النظر السّائدة التي أثَّرت على البيولوجيا، وحتَّى المجتمع، لأكثر من قرن من الزمان. ومع ذلك، فإنَّ هذا الرأي الدارويني عنِ الحياة يتعارض معَ العديد من الملاحظات، ويفتقر إلى تفسيرٍ فيزيائي - وكيميائي معقول. وتشير الدلائلُ القوية إلى أن فرضية السلف المشترك هي الخللُ الأساسي في الداروينية»[1]. بل حتَّى المجلة التطوّرية «نيو سينتيست» (New Scientist) نشرت مقالًا بعنوان: «ربما لم تبدأ الحياة مرَّة واحدة، وإنما نشأت مرّات عديدة على الأرض (Life may have emerged not once, but many times on earth)، وكتبت صاحبةُ المقال بدايته: «بعيدًا عنْ كونها معجزةً وقعت مرَّة واحدة منذ أربعة مليارات من السنين، من الممكن أن تكونَ بدايات الحياة شائعة جدًّا، حتَّى أنها تكرّرت مراتٍ كثيرة»[2].

وهذا الأمرُ يمثِّل مشكلة كبيرة للملاحدة؛ فالشهادة «للحياة أنها نشأت مرّات عديدة، معَ قيام الحياة على الحمض النووي الصبغي يجعل الصدفة التطوّرية مشكلة أشدَّ إرهاقًا للتطوُّريين مما هي عليه الآن؛ لأنَّ قبول نشوء الحياة مرة واحدة بصورة عشوائية؛ أمرٌ مُشكل؛ فكيف بتكرُّرِ مظاهر هذه القدرة العشوائية مرات كثيرة»[3].

---

(1) A Fundamentally New Perspective on the Origin and Evolution of Life (1), by: Shi V. Liu

وهو موجود على الرابط:

https://arxiv.org/ftp/arxiv/papers/0811/0811.3653.pdf

(٢) انظر المقال على الرابط:

https://www.newscientist.com/article/mg23130870-200-life-evolves-so-easily-that-it-started-not-once-but-many-times/#ixzz6EEEJ8yPr.

(٣) براهين وجود الله (٥٠٤).

الوجهُ الثّالث: أنَّ العلماء اكتشفوا أنَّ الكائنات تظهر بشكل مفاجئ بدون وجود سلفٍ مشترك بينها. وقد وقع ذلك مرَّات عديدة في تاريخ علم الحياة، ولكن أشهر مثالٍ على ذلك هو المعروفُ بالانفجار الكامبري[١]. فحسبَ تحديد البيولوجيين الماديين فقدْ ظهرت كائناتٌ كثيرة ومعقَّدة قبل ٥٣٠ مليون سنة - كما يزعمون -. وكان داروين على علمٍ بذلك، وكتب في كتابه: «أصل الأنواع»: «تبقى هذه القضية غيرَ قابلة للتَّفسير في الوقت الراهن، وقد يُستخدَم كحجَّة صالحة ضدَّ هذه الآراء المقدَّمة»[٢].

وقد ألَّف الدكتور ستيفن ماير كتابَه المتميِّز في هذه القضية، وهو: «شكُّ داروين: الأصلُ الانفجاري لأصل الحياة الحيوانية والدفاع عن التصميم الذكي» (Darwin's Doubt: The Explosive Origin of Animal Life and the Case for Intelligent Design)، وتحدّث عن الكائناتِ الكثيرة التي ظهرت بشكلٍ معقَّد جدًّا فجأة في هذه الحقبة الزمنية. وتتمثّل خطورةُ هذا الانفجار على التطوّريين أنه يمثِّل البدايةَ الحقيقية لأغلب الكائنات متعدّدة الخلايا؛ إذْ من سبع وعشرين شعبة[٣] حيوانية محفوظة في سجلّ الأحافير، قد ظهرت ثلاثٌ وعشرون منْها في هذا الانفجار، منها عشرون بدون سلف مشترك[٤].

---

(١) الانفجار الكامبري (Cambrian explosion): يقدّر التطوّريون أنّ هذا التوسع الكبير في الأنواع الحيوانية حصل في فترة زمنية تقدّر قبل ٥٣٠ إلى ٥٤١مليون سنة.
انظر: https: / /www.britannica.com /science /Cambrian – explosion

(2) On the Origins of Species (269)

(٣) شعبة (Phylum): التقسيم الفرعي الأساسي لمملكة التصنيف، وتجميع جميع فئات الكائنات الحية التي لها نفس مخطط الجسم. انظر:
https://www.dictionary.com/browse/phylum

(٤) انظر:
Darwin's Doubt: The Explosive Origin of Animal Life and the Case for Intelligent Design (417-418), by: Stephen Meyer, (WA: HarperCollins, 2014)

الوجهُ الرّابع: على فرض التسليم بوجودِ هذا التشابه بين الكائنات، فلا يلزم منه الاشتراكُ في الأصل. فالتشابهُ لا يلزم منه الاشتراك في الأصل. وهذا ما نعرفه من خبراتنا في الحياة؛ قال الدكتور وليام دمبسكي والدكتور جوناثان ويلز: «إن العديدَ من الأشياء التي نعرفُها في خبرتنا الحياتية - رغمَ التَّشابهات المشتركة - لا تشتقُّ من عملية تطوّرية يمكن تتبُّعُها إلى سلفٍ مشترك. خذْ مثلًا مصنوعات الإنسان كالسيارات أو الرسومات أو الأثاث الخشبي... هي متشابهةٌ فيما بينها بسبب أنَّها من تصميم مشترك، أو فلنقل إنَّها ذاتُ نمط واحد في ذهن المصمم الذكي»[1].

وهذه الأوجهُ الأربعة كافيةٌ في نقد الأساس الأوَّل من أسس نظرية التطوّر، وهو: السَّلف المشترك.

- **النُّقطةُ الثّانية: الطَّفراتُ العشوائية:**

الطفراتُ هي خطأ في نسخِ المادة الوراثية أثناءَ عملية التضاعف، وأشهرُ صورها يقع نتيجةَ وضع نيوكيلوتيدة - وهي وحدةُ بناء المادة الوراثية التي تحمل قاعدة نيتروجينية - أو أكثر في مكانٍ خاطئ. وترى الداروينيةُ الحديثة أنَّ هذه الطفرات عشوائية (Random mutations) وهي عصبُ تنوُّع الصفات، ثمَّ يختار الانتخاب الطبيعي الملائم من هذه الصفات[2] - كما سيأتي بيانُه -.

والملاحدةُ يزعمون أنَّ هذه الطفراتِ العشوائية لها قدرةٌ خلقية عجيبة، حيث إنّها مسئولةٌ عنِ الانتقال من البكتيريا الأولى إلى الإنسانِ على مدى التاريخ. وقدّ ردَّ علماءُ الغرب على هذا القول من ثلاثة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: ذكرَ فيليب جونسون - رائدُ حركة التصميم الذكي - أنَّ القائلين بالتطوُّر يتبنَّون أحدَ القولين، وكلاهما مشكل:

---

(١) انظر: تصميم الحياة (٢٤٢).

(٢) انظر: التطوّر: نظرة تاريخية وعلمية (١٥٦)، وانظر كذلك: (٤٥) The Collapse of Evolution

القولُ الأوَّل: القولُ بالتطوّر القافز (Saltation)، وهو أنَّ الطفراتِ تحصل بقفزات كبيرة. وهذا القولُ تبنّاه بعضُ القائلين بالتطوُّر قبل داروين، ولكن داروين ردَّ هذا القول باعتبار أنَّ القفزاتِ الكبيرة تكون بمثابةِ معجزات. ولا يمكن القولُ بوجود المعجزات وفق المذهبِ المادي. وهذا اللازمُ صحيح، فلو قلنا بالتطوّر القافز لزمَ إبطالُ المذهب المادي.

القولُ الثّاني: القولُ بالتطوّر التدريبي، وهو ما أيَّده داروين، ومَن تبعه. وهُم يرون أنَّ التطوُّر يحصل بشكلٍ بطيء جدًّا، حتَّى لا يمكن ملاحظته إلّا بعد مرور زمن طويل.

وذكرَ جونسون أنَّ هذا القول ليس أقلَّ مشكلة على الداروينيين من الأوّل؛ لأنَّه يتطلَّب وجودَ طفرات نافعة كثيرة لكي تنتج الأعضاء المعقَّدة، فضلًا عن كائنات جديدة. فقد ذكر بعضُ التطوّريين أنَّ العين - على سبيل المثال - قد تطوَّرت أربعين مرّة على شكلٍ مستقلٍّ لكي تصل إلى التعقيد الموجود اليوم[1].

وهذا إشكالٌ كبير جدًّا للداروينيين، كما يتبيَّن من الوجه الثاني:

الوجهُ الثّاني: ذكرَ الدكتور هنري موريس أنَّ الطفرات أهمُّ مكوِّن للنموذج التطوُّري؛ لأنَّها مسئولة عن تقدُّم التطوّر إلى الأمام. ولهذا كان ينبغي أن يتوقّع أنّ أغلبَ الطفرات تكون مفيدة، وأنَّها تغيِّر الكائنات إلى كونها أكثر تعقيدًا. ولكن الأمر ليس كذلك، وذكر موريس أنَّ الطفرات تتَّصف بخمس صفات تناقض هذا المفهوم:

الصفةُ الأولى: الطفراتُ عشوائية وليست موجّهة.

الصفةُ الثّانية: الطفراتُ نادرة.

الصفةُ الثّالثة: الطفراتُ المفيدة نادرة جدًّا جدًّا.

الصفةُ الرّابعة: التأثيرُ الكلّي بالنظر إلى مجموع الطفرات أنّها ضارة.

---

(١) انظر: Darwin on Trial (53 - 60), by: Philip E. Johnson, (IVP Books, 2010)

الصفةُ الخامسة: الطفراتُ تؤثِّر وتتأثّر بالعديد من الطفرات الأخرى. ولهذا لا يكفي حصولُ طفرة واحدة لظهور صفةٍ جديدة. وهذا يقلِّل احتمالَ وجود طفرات مُفيدة في جميع هذه الجينات في وقتٍ واحد إلى الصفر(١).

الوجهُ الثّالث: الطفراتُ النافعة تقع، ولكنها تؤدِّي إلى فقدان المعلومات من الحمْض النووي، ولا تؤدِّي إلى زيادةِ المعلومات. وذكر الدكتور جوناثان سارفاتي أنَّ جميعَ الأمثلة المذكورة على الطفرات النافعة إنما تدلُّ على فقدان المعلومات، لا إلى زيادتها(٢). والتطوُّرُ الكبروي يستلزم إضافةَ معلومات جديدة إلى الجينات.

«وبالنظر في أدبيّات الدراونة، لا نجد مثالًا واحدًا لإضافةِ معلومة واحدة جديدة إلى عالم الأحياء عنْ طريق طفراتٍ عشوائية. وعندها تكون كلُّ المعلومات المضافة إلى جينوم الكائن الحيِّ نتاجَ استيراد لها من كائنٍ آخر حي قائم؛ وهو ما لا ينصر قضية الدراونة في شيء، إنَّنا نبحث عن إضافة لمعلومات جديدة لا تبادل معلومات قائمة داخلَ المنظومة الأحيائية. ومِن عجائب الدراونة إقرارُهم بالعجز عن البرهنة على هذا الأصلِ المركزي لدعوتهم معَ إيمانهم الدوغمائي(٣) بمذهبهم؛ ومِن ذلك إقرارُ بحث علمي حديث أنَّ ظهورَ جينٍ كامل وظيفي جديد مما يسمَّى بالحمض النووي الصبغي الخردة أمرٌ مستبعَد جدًّا، وهو أشبهُ بحلم الخيميائيين - الخرافيين - تحويل الرصاص إلى ذهب في العصور الوسطى»(٤).

---

(١) انظر:
Scientific Creationism (54-57), by: Henry Morris, (Creation Life Publishers, 1981)

(٢) انظر: The Greatest Hoax on Earth? Refuting Dawkins on Evolution (45), by: Jonathan Sarfati, (Creation Ministries International, 2010)

(٣) الدوغمائي (Dogmatic): يتميز بالتعبير عن آراء بقوة أو إيجابية شديدة كما لو أنها كانت حقائق. انظر: https: / /www.merriam – webster.com /dictionary /dogmatic

(٤) براهين وجود الله (٥٣٠). والبحث الذي أشار إليه هو:
Darwinian Alchemy: Human Genes from Noncoding RNA, Genome Research, 19 (10): 1693-5 October, 2009

الوجهُ الرّابع: قد بحثَ البروفسور دوغلاس أكس[١] والدكتورة آن غوغر[٢] عن إمكانيةِ تطوُّر إنزيم[٣] واحدٍ إلى نوع آخر، فتوصَّلا إلى أنَّ هذا التغيير يتطلَّب على الأصل سبعَ طفرات. والزمنُ المطلوب لظهور هذه الطفرات في تجمُّع بكتيري يبلغ ١٠١٥ سنة، وهو ١٠٠ ألف مرَّة أطول من عُمر الأرض - حسبَ اعتقاد القائلين بالانفجار العظيم -[٤].

فإذا كان هذا هو الحالَ في تطوُّر إنزيم إلى نوع آخر؛ فكيف بتطوّر جميع الكائنات الحية - بما في ذلك الإنسان - مِن البكتيريا الأولى عن طريق هذه الطفرات العشوائية؟!

فهذه أربعةُ أوجهٍ في الردِّ على القدرة الخالقة للطفرات العشوائية. وإضافة إلى ذلك فإنَّ «الطفرات العشوائية وعبقرية الطبيعة: كيف لنا أن نفسِّر مظاهر الإتقان التي

---

(١) دوغلاس أكس (Douglas Axe): بروفسور علم الأحياء الجزيئي في جامعة بيولا، وعمل فترة في جامعة كامبردج. وقد ألَّف عددًا من الكتب في نقد نظرية التطوّر. انظر: https: / /www.discovery.org /p /axe

(٢) آن غوغر (Ann Gauger): حاملة شهادة الدكتوراه في علم الحيوان من جامعة واشنطن بالولايات المتَّحدة. وعملت في جامعة هارفارد فترة. وتهتم بنقد نظرية التطوّر. انظر: /https: / /www.discovery.org /p /gauger

(٣) إنزيم (Enzyme): إفراز يخرج من الخلايا الحيّة؛ يساعد على حصول التفاعلات الكيميائيّة داخل جسم الكائن الحيّ بدون أن يتغيَّر. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ١٢٨).

(٤) انظر المقال: Biological Institute's Groundbreaking Peer – Reviewed Science Has Now Demonstrated the Implausibility of Evolving New Proteins

على الرابط:

https://evolutionnews.org/2015/01/biologic_instit_1/

The Evolutionary Accessibility of New Enzyme Functions:

A Case Study from the Biotin Pathway

The Evolutionary Accessibility of New Enzyme Functions:

A Case Study from the Biotin Pathway

وفيه إحالات للأبحاث المحكّمة التي قدَّمها هذان العالمان عن هذا الأمر.

عجز الإنسانُ عن مجاراتها في الطبيعة إذا كانت الطفراتُ العشوائية فعلًا بلا حكمة ولا خطة. وكانت الطبيعةُ تسيرُ في عَماء؟ كيف يتفوَّق العمل العشوائي - وإن سانده الانتخابُ الطبيعي الذي يعمل كمصْفاة على الاجتهاد والجدِّ البشريَّين؟

ومِن الأمثلة على هذا الباب: ما نلاحظُه من ألياف بصرية في الطبيعة، وما اخترعه الإنسانُ من ألياف بصرية. تعمل هذه الأليافُ على إرسال الضوء على مدى طولها، ويستعملُها الإنسان في تواصلِ الإنترنت، ورغم أنَّ المصنوع منها نتاج عبقرية بشرية عالية، وجهدٌ معملي شاقٌّ، إلّا أن الإنسان قد اكتشف أن الألياف البصرية في الإسفنجة البحرية (Venus' flower basket) أعظم صنعًا؛ فأليافها أدقُّ من الألياف المصنَّعة، وليونتها أشدّ، وتفاعلها مع البيئة أعظم، حتى قال أحدُ العلماء في جامعة (أرجن) بأمريكا: «إنها مثالٌ رائع لبيان كيف أنَّ الطبيعة الرائعة مصمّمة وبانية لأنظمة معقَّدة»، وقال عالمٌ آخر في الشأنِ نفسه: «إنَّنا في العصر الحجري مقارنة بالطبيعة»»[1].

- **النُّقطةُ الثّالثة: الانتخابُ الطبيعي:**

المرادُ بالانتخاب الطبيعي هو بقاءُ الكائن الأمثل في بيئته التي يعيش فيها على الحياة. وهو أهمُّ آلية تطوُّرية في نظرية داروين. والاسمُ الطويل الأصلي بكتاب داروين: أصلُ الأنواع هو: « أصلُ الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي - أو بقاء الأعراق المفضَّلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة»: (On the Origin of Species by Means of Natural Selection, or the Preservation of Favored Races in the Struggle for Life). ويكثر ريتشارد دوكينز مِن الحديث عنْ هذه الآلة. وقد قام الباحث بسرْد كتابه: «أعظمُ استعراض في التاريخ: الدليل للتطوّر» (The Greatest Show on Earth: The Evidence for Evolution) عن طريق محرِّك، فوجد أنَّه ذكر كلمة: الانتخاب الطبيعي حوالي ١٥٠ مرة! فلا شكَّ أنَّ هذه الآلة مهمَّة جدًّا عند التطوُّريين. وهذا الكتاب من أهمِّ كتب التطوّرين المعاصرين لبيان الأدلَّة المزعومة على نظرية التطوُّر. وقد ردَّ عليه الدكتور جونثان سارفاتي في كتاب سماه: «أعظمُ خدعة في

---

(١) براهين وجود الله (٥٣٢).

التاريخ؟ تفنيد دوكينز عن التطوّر» (The Greatest Hoax on Earth? Refuting Dawkins on Evolution) في ٣٣٨ صفحة. وحيث إنّ دوكينز أكثر من الاستدلالِ بالانتخاب الطبيعي، والدكتور سارفاتي خصَّص كتابه للردِّ عليه، فسأكثر من الاستشهادِ بهذا الكتاب، معَ إضافات أخرى. وأكتفي بذكر خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: قبلَ الخوض في الردِّ لا بدَّ من تحديد موطن الخلاف بين التطوّريين والقائلين بالخلق. وقد بيَّن الدكتور جونثان سارفاتي ذلك في ردِّه على دوكينز إذ قال: «حاولَ دوكينز خلالَ جزءٍ كبير من كتابه أن يستدلّ على أنَّ الانتخاب الطبيعي حقيقة بذكرِ تجارب عديدة. ولكنَّ أنصارَ مذهب الخلق عرفوا ذلك حتى قبل داروين، وكذلك يعرفه أنصارُه المتعلِّمون اليوم. فدوكينز يضرب الرجل القش»[1].

فلا إشكالَ في بقاء الكائن الأمثل في بيئته على الحياة؛ فالكائن الأسرع مؤهَّل لأن يبقى نسلُه على خلافِ الكائن الذي يسهل على الضواري اقتناصُه، وهكذا. فهذا ليس موطنَ الخلاف أصلًا، وإنَّما يرتكب دوكينز - ومَن معه - مغالطة الرجل القش. ولكنَّ محلَّ الخلاف في كون الانتخاب الطبيعي آليةً عمياء قادرة على إخراج حي إلى الوجود، أو أن تزيدَ في رصيده على المستوى الجيني[2].

الوجهُ الثّاني: في تحديدِ وظيفة الانتخاب الطبيعي الحقيقية. ذكر الدكتور جونثان سارفاتي أنَّ الانتخاب الطبيعي لا يخلق شيئًا جديدًا، وإنما يختار من الموجود. وبالتالي فلا يقدِّم دليلًا عن حصول التطوُّر، وإنَّما يعمل في إبعاد الجينات غير المناسبة. وأمّا داروين فزعم أنَّ الانتخاب الطبيعي هو آلة خالقة، وهي ليست كذلك[3].

وقد اجتمع ستَّة عشر عالمًا من كبارِ البيولوجيين التطوُّريين عام ٢٠٠٨م لمناقشة قضايا التطوُّر، واعترفوا في هذا الاجتماع أنَّ آلية الانتخاب الطبيعي جيدة بصورة

(1) The Greatest Hoax on Earth? Refuting Dawkins on Evolution (41)

(٢) انظر: براهين وجود الله (٥٣٥).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٢).

واضحةٍ في صياغة بقاءِ الأصلح، ولكنها ليست كذلك في صياغة ظهور الأصلح[1]. فالتطوُّريون المعاصرون الكبار يعترفونَ بهذه الحقيقة. ولهذا كانت غاية الانتخاب الطبيعي في تفسير بقاء الأمثل لا ظهوره[2].

الوجهُ الثّالث: سبق ذكرُ أنَّ نظرية داروين تستلزم أنَّ التطوّر يقع تدريجيًّا بشكل بطيء جدًّا. وذكرَ الدكتور جونثان سارفاتي أنه كلَّما كان التطوّر أصغر كانت فائدته أقل. وآليةُ الانتخاب الطبيعي هي: البقاءُ للأصلح. وهذه التغييرات الطفيفة قد لا تكون سببًا لبقاءِ الحيوان. فقد تعْدو الغزالة بسرعة حتَّى لا تتنبه أنها تأتي أمام أسد، بينما تستطيع الغزالة أقلُّ سرعةً الفرار لأسباب أخرى، وهكذا[3].

الوجهُ الرّابع: التطوُّر الكبروي يستلزم وقوعَ عددٍ كبير من الطفرات - كما سبق ذكرُه -. وأنَّ تطوّرَ إنزيم إلى نوع آخر يستلزم وجودَ سبع طفرات. وذكر الدكتور جونثان سارفاتي أنه قد دلَّ البحثُ العلمي أنَّ الانتخاب الطبيعي يمكن أن يعمل بطريقة جيِّدة معَ طفرةٍ واحدة، ولكنه دلَّ أيضًا أنه إذا تطلَّب التغييرُ طفرتين فإنه صعب جدًّا. وأما أكثرُ من طفرتين فإنّه مستحيل[4].

الوجهُ الخامس: أنَّ الملاحدة يرتكبون مغالطةً منطقية عند حديثهم عن الانتخاب الطبيعي. وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي هذه القضيةَ إذ قال: ««ابتكر التطوّر سبيلًا لتجنُّب هذه المشاكل». لقد سمعتُ عددًا من التطوّريين يقولون عبارات مشابهة لهذه الجُملة في محاولةٍ لتفسير وجودِ بعض النظم البيولوجية فائقة التصميم. ولكن من المؤكد أنَّ التطوُّر مفهومٌ ليس له عقل، ولا يمكنه أن يحلَّ أيَّ مشكلة. وهذا المثال أيضًا يخفي صعوبةَ تفسير وجودِ التصميم في الكون دونَ اعتماد على العقل كوسيلة.

---

(١) انظر:

Biological theory: Postmodern evolution? Nature, 455:284, (September 17, 2008)

(٢) انظر: براهين وجود الله (٥٣٣).

(٣) انظر: The Greatest Hoax on Earth? Refuting Dawkins on Evolution (50)

(٤) انظر: المصدر السابق (٥٩).

فهذا استعمال مُغالطة التجسيد لمفهوم مجرَّد؛ بل عبارة الانتخاب الطبيعي نموذج عن تجسيد المجرّدات، ويمكن اعتبارُها مغالطةً إنِ استعملت في حوار، إذْ ليس بمقدور الطبيعة أن تنتخب بالمعنى الحرفي. وينتشر استعمالُ هذا التعبير لدرجةِ أن لا نسمِّيها مغالطة بشرط أن يفهم المعنى من قبَل الجميع. نحن نؤمنُ بالمفهوم الذي اسمه «الانتخاب الطبيعي». هذا المفهومُ صحيح؛ فالكائناتُ جيِّدة التلاؤم معَ بيئة ما لها احتمال أكبر للبقاء من تلك غيرِ المتلائمة جيّدًا. (هذا صحيحٌ تمامًا، وهو ما يعتقده كلٌّ من أنصار التطوّر وأنصارِ الخلق) لكن، لنفترضَ أنَّنا طرحْنا سؤالًا: «لماذا تتلاءم الحيواناتُ تمامًا مع بيئتها؟». فإنْ أجاب التطوُّري بقوله: «الانتخاب الطبيعي»، فهذه مغالطةُ تجسيد المجرّدات. فإنه بطريقةٍ شعرية يحجب السببَ الحقيقي لكوْن الحيوانات مصمَّمة للبقاء - وهو الله. إنْ تأمّلَ المرء مليًّا في هذا الأمر سيجد أنَّ الاصطفاءَ الطبيعي لا يفسِّر حقيقة سبب وجود كائنات مُتلائمة معَ بيئتها. فهو يفسِّر فقط: لماذا لا نجدُ كائنات غير متلائمة مع بيئتها (السبب أنَّها ستموت). فالله - وليست «الطبيعة» - هو الذي أعطى الكائنات الحيةَ القدراتِ التي تحتاجها للبقاء[1].

وبهذه الأوْجه الخمسة يتبيَّن أنَّه يوجد شيء اسمه: الانتخاب الطبيعي، ولكنه ليس آلةً خالقة، ولا تقدِّم التطوُّر المزعوم إلى الأمام. وهذا الانتخاب إنما يحصل بإرادة الخالق - تبارك وتعالى - وليس كما يزعم الملاحدة التطوّريون - تعالى اللهُ عمّا يقولون علوًّا كبيرًا -.

ويدرك بعضُ الملاحدة ضعفَ آلية الانتخاب الطبيعي، ولكن لكون ذلك يهدِّد أهمَّ نظرية لديهم فإنهم يخفونَ ذلك عن عامَّة الناس. ومما يدلُّ على ذلك ما ذكره الملحدان البروفسور جري فودور[2] والبروفسور ماسيمو بياتلّي[3] في كتابيهما: «ما

---

(1) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 12

(٢) جري فودور (Jerry Fodor): بروفسور الفلسفة الأمريكي، ويعتبر أحد أهمِّ فلاسفة الوعي في القرنين العشرين والواحد والعشرين. توفي عام: ٢٠١٧م. انظر:
https://iep.utm.edu/fodor/

(٣) ماسيمو بياتلّي (Massimo Piatelli): بروفسور اللسانيات والعلوم المعرفية في جامعة أريزونا بالولايات المتَّحدة. انظر: https: / /massimo.sbs.arizona.edu/

الذي أخطأ فيه داروين؟» (What Darwin Got Wrong?) إذ قالا: «لقد قيل لنا من طرف أكثر مِن واحد مِن زملائنا: إنَّه حتى ولو كان داروين مخطئًا إلى حدٍّ كبير في زعمه: أن الانتخاب الطبيعي آلة التطوّر، فإنَّه ينبغي مع ذلك ألا نصرِّح بذلك، ولا بأي صورة أمام الجمهور. إنَّنا إنْ فعلنا ذلك، فسنصطف - وإن كان بغير قصد - مع قوى الظلام [يقصدان بهم: أنصار مذهب الخلق والتصميم الذكي] التي تهدف إلى القضاء على العلم»[1].

وقد تبيَّن مِن هذه النقاط الثلاث أنَّ أسسَ نظرية التطوّر أسس هشَّةٌ وضعيفة وهَزيلة. ورغمَ ذلك يتمسَّك الملاحدة بها تمسكًا يفوق تمسُّكهم بأي نظرية أخرى. وهم يعرفونَ حقَّ المعرفة أنه لو سقطتْ هذه النظرية، فيلزمهم الإقرارُ بوجود الخالق. وهذا ما لا يريدونه، وبالتالي فإنهم يعاندون ويكابرون.

- **الفقرةُ الخامسة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على نظرية التطوّر:**

ردودُ علماء الغرب على نظرية التطوّر كثيرة جدًّا، ويمكن أن يستفاد منها استفادةً كبيرة. ولكنَّ علماءَ الغرب الرادِّين على الملاحدة أصنافٌ شتى. منهم مَن يسلّم بنظرية التطوّر بأكملها معَ الإقرار بوجود الخالق مثل القائلين بالتطوّر الإلهي (Theistic evolution)[2].

ومنهم مَن يرفض أنَّ آليات التطوّر عشوائية، وأنَّ التصميم في الكائنات الحيّة يدلُّ على وجود مصمِّم. وهُم القائلون بمذهب التصميم الذكي. وهؤلاء لا يحدّدون مَن هو هذا المصمِّم الذكي، ولا يلتزمون بنصوص كتاب النصارى المقدّس في الخلق - كما سبق مرارًا -. ولهذا كان منهم مَن يقبلُ بكثير من مبادئ نظرية التطوّر، ولكنهم يرون أنَّ هذه النَّظرية قاصرة في تفسير جميع مظاهر الإتقان والإحكام[3].

---

(1) What Darwin Got Wrong (XX), by: Jerry Fodor and Massimo Piattelli-Palmarini, (Farrar, Straus and Giroux, 2010)

(٢) وعلى رأس القائلين بذلك: فرانسيس كولنز - مدير المعاهد الصحية الأمريكية وأحد أشهر علماء الأحياء -. وقد قدَّم رؤيته هذه في كتابه: لغة الإله (Language of God).

(٣) وعلى رأس هؤلاء: البروفسور ميكل بيهي.

ومنهم مَن يتقيَّد بنصوص كتاب النصارى المقدَّس، ويرون أنَّ النصوص تدلُّ على أنَّ الأرض ٦٠٠٠ سنة، وأنَّ الله خلق جميع الكائنات بخلق خاص. ومع ذلك يثبتون إمكانيةَ حصول طفراتٍ نافعة، وأنَّ الانتخاب الطبيعي له أثرٌ في بقاء الأصلح من الكائنات الحيّة.

فأيُّ مذهب من هذه المذاهب أقرب إلى الصواب؟

لا شكَّ في بطلان المذهب الأوّل، وأنَّ التسليم بنظرية التطوّر يتناقض مع نصوص الكتاب والسنَّة الدالَّة على أنَّ الله وحده الخالقُ والقادر على كلِّ شيء، إضافة إلى مخالفتِها للنصوص الدالة أنَّ الله خلق آدم ﷺ خلقًا خاصًّا - أيْ أنه خلقه بيده -، وأنه ليسَ بمتطوّر من سلفٍ مشترك مع القرد.

وأنصارُ المذهب الثاني قد قدَّموا ردودًا جيّدة في نقد نظرية التطوّر. ولكن كونهم لا يحدِّدون المصمِّم الذكي قد يفتح البابَ أمام المذهب الربوبي وغيره من المذاهب الباطلة. فنحنُ المسلمين نعلم مَن هو خالقنا بأسمائه وصفاته، كما أننا لا نسمِّيه بالمصمم الذكي.

وأنصارُ المذهب الثالث أقوى تمسُّكًا بالاعتقاد بوجود خالق عليم حكيم خلقَ هذه المخلوقات بعلمٍ وحكمة. ولكنْ يعيبهم أنهم التزموا نصوصَ كتابهم المقدّس، وهو كتاب محرَّف، فلا يبعد أنَّ النصوص التي تتحدّث عن عُمر الأرض من ضمن هذه التحريفات - كما سيأتي بيانُه في مبحث خاص عن تاريخ الأرض -.

فالظاهر أنَّ الإسلام أقربُ إلى المذهب الثالث، معَ الالتزام بنصوص الوحيين دون التقيُّد بنصوص كتابهم المقدَّس.

وأمَّا بخصوص الأسس الثلاثة لنظرية التطوُّر، فلا شكَّ أنَّ الطفرات في الجينات لا تقعُ بشكل عشوائي، كما أنَّ الطبيعة لا تنتخب شيئًا بنفسها؛ فكلّ ذلك يقع بعلم الله، وقدرته، وحكمتِه، ومشيئته. وأمّا ما يتعلَّق بالسلف المشترك العالمي، فلا شكَّ في بطلان تطوُّر الإنسان من البكتيريا الأولى، بل الله خلقَ آدم u وزوجته خلقًا خاصًّا، وجميع الناس مِن ذريتهما. فهذا ما يدلُّ عليه الوحي القطعي.

وأمَّا بقية الكائنات، فهل من الممكن أنَّ كائنًا حيًّا يتطوّر بقدرة الله ومشيئته من كائنٍ آخر؟ الظاهر أنَّ هذا مِن المسكوت عنه في الوحي، ولا توجد نصوص قطعية تدلُّ على وجود التطوّر أو عدم وجوده.

وبهذا القدْر ينتهي هذا المبحث، وسيأتي المزيدُ من الكلام عن قضايا متعلّقة بنظرية التطوُّر في المبحث الخامس عن التطوّر الكيميائي للحياة، وفي المبحث السابع عن الشُّبهات المتعلِّقة بتاريخ الأرض والإنسان.

المبحثُ الرّابع

ردودُهم على الشُّبهات المتعلقةِ بميكانيكا الكم

تقدَّم الحديثُ في المبحث السابق عن نظرية التطوُّر، وهي نظريةٌ في علم الأحياء. وأمّا في هذا المبحث فسيكون الحديثُ عن ميكانيكا الكم. وقد عرّفت موسوعةُ بريتانيكا هذا العلمَ بأنه: «العلمُ الذي يتعامل مع سلوك المادة والضوء على نطاق الذرِّي، وما دون الذرّي»[1].

وميكانيكا الكم جزءٌ من علم الفيزياء، لكنَّها في الغالب تستنتج نتائجَ غريبةً مخالفة للفيزياء الكلاسيكية. وذلك أنَّ كثيرًا من معادلات الفيزياء الكلاسيكية لا تفيد على مستوى الذرّات والإليكترونات[2].

ولصعوبةِ هذا العلم وغرابةِ نتائجه في بعض الأحيان استغلّه الملاحدةُ لترويج بعض أفكارهم وطروحاتهم، لا سيَّما فيما يتعلَّق بمبدأ السببية وإمكانية ظهور الجسيمات من لاشيء. ويبْنون على ذلك: إمكانية ظهورِ الكون من العدم. ولكن كان علماءُ الغرب لهم بمرصاد، فكشفوا هذه الشبهاتِ وردُّوا عليها بردودٍ جيِّدة ومفيدة. وهذا العلم فيه شيءٌ من الصعوبة، ولتسهيل فهمِه على القارئ سيتمُّ تقسيمُ هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ ميكانيكا الكم.

الفقرةُ الثّانية: شبهاتُ الملاحدة المتعلّقة بميكانيكا الكم.

---

(١) Encyclopedia Britannica, Quantum Mechanics, وهو موجود على الرابط:
https: / /www.britannica.com /science /quantum – mechanics – physics

(٢) انظر المقال: What is Quantum Mechanics?، وهو موجود على الرابط:
https://www.livescience.com/33816 - quantum - mechanics - explanation.html

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على الشبهات المتعلّقة بميكانيكا الكم.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلّقة بميكانيكا الكم.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ ميكانيكا الكم[1]:

وسيتمُّ تقسيمُ هذا القسم إلى قسمين:

- **القسمُ الأوَّل: علمُ الفيزياء قبل ميكانيكا الكم:**

يؤرّخ كثيرٌ من العلماء لبدايةِ عصر العلم الحديث بدءًا من القرن السادس عشر؛ بنظريةِ مركزية الشمس التي قدَّمها نيوكلاس كوبرنيكس. ثمَّ طوّر حوهانس كيبلر وغاليليو هذه الأفكار، إلى أنْ جاء إسحاق نيوتن في أواخر القرن السابع عشر وفسَّر الكواكبَ بنوعين من القوانين[2]:

النوعُ الأوَّل: قوانينُ الحركة الثلاثة.

النوعُ الثّاني: قانونُ الجاذبية.

---

(١) أغلب هذا القسم ملخّص من كتاب: Quantum Physics – Illusion or Reality, لأليتسر راي – بروفسور الفيزياء من جامعة برمنغهام –. وهذا الكتاب يعتبر أحدَ أشهر الكتب في ميكانيكا الكم منذ ٢٥ سنة، ويصدر من فترة إلى أخرى بطبعات معدّلة.
انظر:
https://www.amazon.com/Quantum-Mechanics-Fifth-Alastair-Rae/dp/1584889705
وقد قام مركز براهين بترجمة الكتاب إلى اللغة العربية، وستتمُّ الإحالةُ إلى تلك النسخة المترجمة.

(٢) قد سبق الحديثُ عن قوانين الفيزياء في المبحث الثاني من هذا الفصل. ولكن لكي تتسلسل الأفكار إلى ظهور نظريات ميكانيكا الكم في هذا المبحث تتمّ إعادة ذكر بعض ما يتعلّق بذلك هنا.

وأوضحتْ نظرياتُ نيوتن أهميةَ الرياضيات في فهم الفيزياء، حيث يمكن صياغةُ قوانين الطبيعة في صورةِ كميَّات رياضية لاستنتاج تفاصيل الحركة في الأنظمة الفيزيائية. واستطاع نيوتن أنْ يفسِّر حركاتِ القمر والكواكب بما يتَّسق مع قوانينه.

وامتدَّ هذا المنهجُ الرياضي الموضوعي في دراسة ظواهر الطبيعة إلى مجالات علمية متعدِّدة. وقد أظهرَ جيمس ماكويل في القرن التاسع عشر أنّ كل ما كان معلومًا في المجالات الكهربائية والمغناطيسية في ذلك الوقت يمكن استنتاجُه باستخدام عددٍ قليل من المعادلات. وقد عُرفتْ هذه المعادلات لاحقًا باسْم: معادلات ماكسويل (Maxwell's Equations). وقد توصّل إلى أنَّ الموجات الكهرومغناطيسية تتكوّن من مجالَيْن: مجال كهربائي وآخر مغناطيسي؛ ينتشران بسرعة الضوء. واستنتج من ذلك أنَّ موجاتِ الضوء نفسَها ما هي إلّا إحدى تلك الموجات الكهرومغناطيسية ولا تختلف عنْ بقيتها مثل: موجات الراديو، والأشعة تحت الحمراء، إلا في طولها الموجي وتردّدها.

وبدَا للعلماء في ذلك الوقت أنَّ جميعَ الظواهر الفيزيائية محكومة بميكانيكا نيوتن وكهرومغناطيسية ماكسويل. ورأى العلماءُ في ذلك الوقت أنَّ الكون محكوم بهذه القوانين الصارمة، وأنَّه يمكن التنبؤ بالمستقبل بمعرفة حالة النظام الحالي. وهذا هو المعروفُ بمبدأ الحتمية (Determinism)، الذي ينصّ على أنّ مستقبل الكون محكومٌ بصرامة القوانين الفيزيائية.

وعلى الرغم مِن أنّ كثيرًا من الظواهر الفيزيائية كانت غير مفهومة على وجه التَّفصيل في نهاية القرن التاسع عشر إلا أنّ معظم الفيزيائيين كانوا يعتقدون أنّه لا مزيدَ على القوانين الأساسية للطبيعة، واعتقدوا أنَّ الكون محكوم بقوانين حتمية. وذلك إلى أنْ ظهرت نظرياتُ ميكانيكا الكم في بداية القرن العشرين(١).

---

(١) ما سبق ذكره ملخّص من كتاب: فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال؟ (٢٤ - ٢٧)، لألستر راي، (مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، ٢٠١٦ م. ترجمة: أسامة عباس).

- **القسمُ الثّاني: ظهورُ نظريات ميكانيكا الكم:**

أطاحتِ الثورةُ العلمية في بداية القرن العشرين بفكرتين أساسيتين في القرن التاسع عشر، وهما: أنه لا مزيدَ على القوانين الطبيعية الأساسية، ومبدأ الحتمية. وذلك خلال نظرياتِ ميكانيكا الكم بعد دراسةِ ظواهر الإشعاع الكهرومغناطيسي.

وكان البروفسور ماكس بلانك[١] أوّلَ مَن قدّم نظرية في ميكانيكا الكم في عام ١٩٠٠م، ثمَّ توالت النظريات بعد ذلك[٢].

وبينما كانت النظرةُ الكلاسيكية تعتمدُ على مفاهيم الجسيمات[٣] (Particles) والقوى[٤] (Forces) والمجالات[٥] (Fields) التي تتفاعل معًا طبقًا لقوانين معلومة، فإنَّ ميكانيكا الكم؛ وفقًا للتفسيرات السائدة، لا تتبنَّى مثل هذه التفسيرات الأنطولوجية. تخبرُنا ميكانيكا الكمِّ على سبيل المثال أنَّ فعل القياس والرصد يؤدّي غالبًا إلى تغيير عميقٍ في حالة الشيء المرصود، وأنَّ الصفات التي يُحتمل أن يتّصف بها ذلك الشيء ربَّما تعتمد على ما يجري قياسُه بالفعل. ونتيجةً لذلك أصبحت صفاتُ النظام الفيزيائي المعيَّن وخصائصه المحدّدة (كموضع جسيم متحرّك أو سرعته) تسمى: قابلة للرصد (Observable)، في إشارةٍ إلى أنَّ هذه الصفات المعينة تستمدّ واقعيتها من عملية الرصد أو القياس. وهذا ما جعل بعضَ مَن اشتغل

---

(١) ماكس بلانك (Max Planck): بروفسور الفيزياء الألماني، وقد اخترع نظرية الكم وحصل بسببه على جائزة نوبل عام: ١٩١٨م. توفي عام: ١٩٤٧م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Max-Planck

(٢) انظر المقال الذي سبقت الإشارةُ إليه: What is Quantum Mechanics?

(٣) جسيم (Particle): أحد مكونات المادة الصغيرة للغاية، مثل الذرة أو النواة. انظر:
https://www.dictionary.com/browse/particle

(٤) قوة (Force): أي عمل من شأنه أن يحافظ على حركة الجسم أو يغيرها أو يشوهِّها. انظر:
https://www.britannica.com/science/force-physics

(٥) مجال (Field): منطقة تتأثر فيها كلُّ نقطة بسبب قوة. انظر:
https://www.britannica.com/science/field-physics

بهذا العلم يعتقد أن الحقيقة الوحيدة هي العقل البشري؛ وأنَّ بقية الأشياء - بما في ذلك الكون بأكمله - مجرّد وهم[١].

هناك مفهومٌ آخر مهمٌّ في هذا المقام لا بدَّ من التنبيه عليه، وهو الثنائية الموجية الجسيمة (Wave - Particle Duality). وهي تعتبر إحدى الخصائص العامة في ميكانيكا الكم، ويمكن تلخيصها بأنَّ النموذج الذي سيستخدم لوصف النظام الفيزيائي يعتمد على الأجهزة التي سترصدُ ذلك النظام. ومن الأمثلة على ذلك أنّ شعاع الضوء يتصرَّف كموجةٍ عند مروره من الشقِّ المزدوج، لكنه سيتصرّف كتيار من الفوتونات[٢] عندما يصطدم بالكاشف أو الفيلم الفوتوغرافي.

ومِن التبعات التي ترتَّبت على الثنائية الموجية الجسمية أنها وضعت حدودًا لقدر المعلومات التي يمكن معرفتُها عن النظام الكمّي في وقت واحد. فإما أن نختار رصدَ الخصائص الموجية للضوء عن طريق تمريرِه عبرَ الشاشة ذات الشقين بدون أي رصد لمرور الفوتونات من أحدهما، أو أن نختار رصدَ تلك الفوتونات وهي تمرُّ من أحد الشقين. ومن غيرِ الممكن أن نقوم بالشيئين معًا في الوقت نفسه. وكان فيرنر هايزنبيرغ[٣] ممن لاحظ هذا الأمرَ، وصاغ مبدأً عُرف بعد ذلك بمبدأ اللاحتمية (The Uncertainty Principle)[٤].

---

(١) انظر: فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال؟ (٢٧).

(٢) الفتون (Photon): جسيم يمثل كميةً من الضوء أو إشعاع كهرومغناطيسي آخر.
انظر: https: / /www.lexico.com /definition /photon

(٣) فيرنر هايزنبيرغ (Werner Heisenberg): عالم الفيزياء والفيلسوف الألماني، وقد حصل على جائزة نوبل عام ١٩٣٢م. لمساهماته في ميكانيكا الكم. توفي عام: ١٩٧٦م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Werner-Heisenberg

(٤) انظر: فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال؟ (٣٦ - ٣٧).
وعلّق مترجم كتاب: (فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال) على ترجمة هذا المبدأ إلى اللغة العربية بقوله: «هناك عدةُ ترجمات لمصطلح «The Uncertainty Principle»، منها: «مبدأ عدم اليقين»، أو «اللايقين»، و«مبدأ اللاتعيين»، و«مبدأ الريبة» أو «مبدأ الشكّ»؛ لكنني اخترت أقربها للمعنى الذي ترجَّح عندي - بعد تأمُّل طويل - أنَّ «هايزنبيرغ» أراده. وكثير من الخلاف الدائر في الأدبيات العربية حولَ هذا المبدأ الثابت إنما يرجع إلى الخلل في فهمه بسبب سوء تلقِّيهم للترجمة». حاشية فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال؟ (٣٧).

وأدَّى مبدأ اللاحتمية إلى تأثيرٍ عميق في نظرة علماء الفيزياء إلى القياسات والتجارب العلمية. وقد لوحظ منذ فترة طويلة أنَّ هناك تقييدات عملية تحدّد دقة أي عملية قياس؛ ولكن لم يكنْ هناك من الناحية النظرية - قبل ميكانيكا الكم - ما يمنع من الوصول إلى الدقَّة المطلوبة معَ تحسين تقنيات القياس. وعلى الرغم من أن مبدأ اللاحتميَّة يتعلَّق بقدرتنا على التنبؤ بنتائج التجارب والقياسات المتتالية؛ إلا أنه يضع أيضًا من الناحية العملية قيودًا أساسية على دقَّة قياس كميتين فيزيائيتين معًا في الوقت نفسه؛ مثل موضع الفوتون وكمية حركته[1].

ومِن الظواهر في العالم الكمّي: ظهورُ جسيمات افتراضية كتذبذبات عفوية للطاقة الموجودة في الفراغ تحتَ الذرّي. وقد اختلف علماءُ الفيزياء في هذه الظاهرة إلى عشرات التفسيرات، منها: «تفسير كوبنهاغن» (Copenhagen interpretation) الذي يميل إلى القول باللاحتمية. وظهرَ هذا التفسير في العشرينيات من القرن الماضي على يد عددٍ من العلماء، ومِن أشهرهم: نيلز بور[2]. وقد عارضه ألبرت أينشتاين بشدّة، ويقول مقولتَه المشهورة: «إنَّ الخالق لا يلعب بالنرد»، فيعارضه نيلز بور بقوله: «لا تخبر الخالق بما يجب عليه أن يفعل»[3]، - ونعوذ بالله ونبرأ إلى الله مِن سوء أدبهم معَ الله جلَّ في عُلاه -.

كما ظهرتْ تفسيراتٌ أخرى في الخمسينيات من القرن المنصرم مثل: تفسير دافيد بوم[4] - عالم الفيزياء الأمريكي -. ويرى هذا التفسير أنَّ لنشأة هذه الجزيئات الافتراضية أسبابًا ضمنَ آليات قانونية مستقرَّة تعود إلى أسباب أوّلية، ولهذا فإنّه يعارض القول باللاحتمية[5].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣٩ - ٤٠).

(٢) نيلز بور (Niels Bohr): عالم الفيزياء الدنماركي، ويعتبر من أعظم علماء ميكانيكا الكم. توفي عام: ١٩٦٢م. انظر: www.britannica.com /biography /Niels - Bohr

(٣) انظر: فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال؟ (١٠٦ - ١٠٧).

(٤) ديفيد بوم (David Bohm): بروفسور الفيزياء النظرية الأمريكي البريطاني، ويعتبر أحد أشهر علماء ميكانيكا الكم في العصر الحديث. توفي عام: ١٩٩٢م. انظر: www.britannica.com/biography/David-Bohm

(٥) انظر: فمن خلق الله؟ (٤٧ - ٤٩).

والجدلُ بين أنصار تفسير كوبنهاغن اللاحتمي وتفسير بوم مازال مستمرًّا إلى هذا العصر، والمسألة عندهم بينَ أخذ وردّ[1]. وسيأتي مزيدٌ من التفصيل في ذلك في ردودِ العلماء على تفسير كوبنهاغن - بإذن الله -.

الفقرةُ الثّانية: استدلالُ الملاحدة بميكانيكا الكم:

استغلَّ الملاحدة بعضَ الظواهر المرصودة في عالم الكمّ لصالحهم. وهذه الشبهاتُ متعدّدة، إلا أنَّ أخطرها ما تتعلّق بالإيمان بالله مباشرة؛ هما شبهتان[2]:

الشُّبهةُ الأولى: أنَّ ميكانيكا الكمّ قد هدمتْ مبدأ السببية، فيرى الملاحدة أنّه ليسَ في عالم الكمّ سببية، وإنَّما هناك عشوائية تامة. وقد تقدّم أنّ مبدأ السببية موجود في بعض مقدِّمات الأدلة العقلية على وجود الله، مثل: البرهان الكوني.

الشُّبهةُ الثّانية: أنَّ جُسيمات افتراضية يمكن أن تخرج من العدم، وتقترض طاقة من المستقبل بانتهاكها لقانونِ حفظ الطاقة لفترة قصيرة، فتكتسب طاقةً من لاشيء، وقد نشأ الكون من هذا الفراغ بهذه الطريقة - كما سيأتي تفصيلُه -.

وإنْ كان عددٌ من الملاحدة يستدلّون بهذه الشبهات منذُ فترة على إلحادهم، إلا أنَّ أشهرَ مُلحد من حركة الإلحاد الجديد استدلَّ بهذه الشبهات هو: لورانس كراوس في كتابه: «كون من لاشيء» (A Universe from nothing). وقد صدر هذا الكتاب في عام ٢٠١٢م، وكتبَ ريتشارد دوكينز خاتمة للكتاب، وساوى بين أهميته للمذهب الإلحادي وبينَ كتاب: أصل الإنسان لداروين[3]. فهذا الكتاب له أهميتُه الخاصَّة لدى ملاحدة الإلحاد الجديد.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥٠ - ٥١).

(٢) وقد سردَ الدكتور أحمد إبراهيم ١٨ شبهة في كتابه: اختراق عقل (٦٧ - ٦٩)، ولكن بين بعض هذه الشُّبهات تداخل، وبعضها ليس لها علاقة مباشرة بالإيمان بالله. وكذلك لا يمكن استيعابُ كلِّ ما ورد في هذا الباب في مبحث واحد. ولهذا تمَّ التركيزُ على هذه الشبهات المذكورة في هذا المبحث فقط.

(٣) انظر: A Universe from Nothing (186), by: Laurence Krauss, (Free Press, 2012)

إضافةً إلى أنَّ لوارنس كراوس أقام مناظرات عما تتعلّق بهذه الشبهات مع البروفسور وليام لاين كرايغ أكثرَ من مرَّة[1]، وكذلك أقام مناظرةً مع الداعية الإسلامي حمزة تسورتز[2].

الفقرةُ الثّالثة:
ردودُ علماء الغرب على الشبهات المتعلّقة بميكانيكا الكم:

قد ردَّ علماءُ الغرب على الشُّبهات المتعلّقة بميكانيكا الكمّ بعدد من الردود الجيّدة. وسيتمُّ تقسيمُ ردودهم حسب الشبهتين:

- **أوَّلًا: ردودُهم على الشبهةِ الأولى: أنَّ ميكانيكا الكمّ قد هدمت مبدأ السببية:**

لا شكَّ أنَّ مبدأ السببية مِن المبادئ العقلية الفطرية التي لا يمكن أن ينكرها إلّا جاحد. ومَن أنكر السببية فإنّه يطعنُ في العقل نفسِه. وقد قرّر ابنُ رشد هذه المسألة إذ قال: «والعقلُ ليس هو شيء أكثر من إدراكه الموجودات بأسبابه، وبه يفترق من سائر القوى المدركة، فمَن رفع الأسباب فقد رفعَ العقل... والمعرفةُ بتلك المسببات لا تكون على التمام إلّا بمعرفة أسبابها، فرفعُ هذه الأشياء هو مبطلٌ للعلم، ورفع له، فإنه يلزم ألا يكون ها هنا شيء معلومٌ أصلًا عمليًّا حقيقيًّا، بل إنْ كان فمظنون، ولا يكون ها هنا برهان، ولا حدٌّ أصلًا... ومَن يضع أنه ولا علم واحد ضروري، يلزمه أن لا يكون قوله هذا ضروريًّا»[3].

والملاحدةُ يدركون هذا الأمر جيّدًا، ولهذا يحثُّون الناسَ على عدم قبول مبادئ العقل المعروفة، والرجوعُ إلى العلم التجريبي في كشف الحقائق. ومن الشواهد على

---

(١) انظر مناظرة: Life, The Universe and Nothing, وهو موجود على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=mj4nbL53I-E
ومناظر: Is it Reasonable to Believe in God, وهو موجود على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=7xcgjtps5ks

(٢) انظر: Islam Vs Atheism Debate, وهو موجود على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=uSwJuOPG4FI

(٣) تهافت التهافت (٧٨٥).

ذلك أنّه لما وقعتِ المناظرة بينَ لوارنس كراوس ووليام لاين كرايغ، فتح كراوس البدلة التي لبسها وأظهرَ للجمهور الفانيلا الذي تحته، ومكتوب عليه: ٢ + ٢ = ٥. وذكر أنّ هذا الأمرَ غيرُ ممكن في مبادئ العقل ويخالفُ المنطق التقليدي، ولكنه ممكن في العلم التجريبي إذا كان لرقم ٢ قيمة عالية جدًّا[١].

وهذا الكلامُ في الحقيقة ليس سوى سفسطة، وقد ردَّت قناة البروفسور وليام لاين كرايغ على هذا الكلام بأنَّ ٢ + ٢ تساوي ٤ دائمًا وأبدًا، ولكنه يرتقي إلى ٥ إذا كانت ٢,٥ + ٢,٥. بمعنى قيمة عالية من ٢. ولكنَّ هذا ليس محلّ النقاش أصلًا، ولا يخالفُ مبادئ العقل، ولا المنطق التقليدي. فكراوس يراوغ بكلامه هذا فقط[٢].

ويدرك الملاحدةُ أهمية السببية في الاستدلال على وجود الله، ولهذا يسعون بشتى طرقٍ إلى الطعن فيها. وبينما كان ديفيد هيوم في عصر التنوير يطعن فيها من الناحية الفلسفية - كما سبقتِ الإشارة إليه -، فإنَّ الملاحدة المعاصرين يحاولون الطعن فيها من الناحية العلمية. وأدركوا أنَّ ميكانيكا الكمِّ علم عسير لا يكاد يفهمُه إلا المتخصّص، فحاولوا الطعنَ في مبدأ السببية خلال هذا العلم.

فـ«هل هدمتْ ميكانيكا الكم السببية؟ هذه هي الشبهةُ الأشهر والأعمُّ على الإطلاق، والتي يندرج تحتَها معظمُ الشبهات الأخرى التي يشغبُ بها هؤلاء على دليل السببية، وذلك لأنَّ فيزياء الكمِّ من أعقد وأقوى العلوم البشرية فلها سلطانٌ علمي كبير، فلو كان ممكنًا لها أن تعارض السببية فعلًا لكانَ لهذه المعارضة أثرٌ كبير في النفوس. ثمَّ هي مجال مليء بالعجائب التي حارت فيها أنبغ العقول. فلا عجب أن يتمَّ استخدامُها في هذا الغرض المضلل»[٣].

---

(١) انظر المقطع: Laurence Krauss Vs William Lane Craig) 5 = 2 + 2)، وهو موجود على الرابط: https: / /www.youtube.com /watch?v=NOrlIOm٦eGM

(٢) انظر المقطع: Lawrence Krauss Contradicts Himself by Denying Logic, وهو منشور على الرابط: https: / /www.youtube.com/watch?v=so0TOp1GMQE

(٣) اختراق عقل (٧١).

ولكن ما يستدلُّ به الملاحدة من تفسير كوبهاغن لهذه الظواهر غير صحيح؛ فلا يصحُّ الاستدلال به، حيث إنه لا يدلُّ على انتفاء السببية. ونجد في كلام علماء الغرب ردودًا جيّدة على ذلك. وسأكتفي بذكر خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: عالم الكمِّ يحيطه الكثيرُ من الغموض وعدم اليقين. ولهذا نرى أنَّ علماء الفيزياء لديهم اضطرابٌ شديد في قبول تفسيراته أو رفضها، ومن ذلك تفسير اللاحتمية. ومِن عجائب ذلك أنَّ الدكتور جون غريبين قرّر أنّه بإمكان الإنسان أن يفضِّل تفسيرًا في عالم الكمِّ في أوَّل الأسبوع، ثمَّ يرفضه في آخر الأسبوع، ولكنه لا يمكنُ أن يقول الإنسان إنَّ أحدًا من هذه التفسيرات الكمومية يمثّل الحقيقة[١].

الوجهُ الثّاني: قد كان تفسيرُ كوبنهاغن هو التفسيرَ المهيمن لفترة طويلة، ولكن هذا التفسيرُ في تراجع مستمرٍّ عند علماء الفيزياء. وفي عام ٢٠١٣م، قام بعضُ الباحثين بإجراء مسحٍ على ٣٣ عالمًا في فيزياء الكوانتم عن التفسير المفضّل لديهم، وبيَّن المسح أنَّ ٦٣ ٪ فضّلوا تفسير بوم - وهو القول بالحتمية -، بينما لم يفضِّل سوى ٤ ٪ - وهو شخص واحد - تفسير كوبنهاغن[٢].

لا شكَّ أنَّ الحقائق في العلم التجريبي لا يتوصَّل إليها عن طريق التصويت. ولكن أغلب الناس لا يفهمون ميكانيكا الكمّ - بما في ذلك كبير الملاحدة ريتشارد دوكينز كما اعترفَ به في خاتمة كتاب: «كون من لا شيء» - [٣]. وإنما يأخذون بهذه التفسيرات بناءً على ما يقوله علماءُ الفنّ. والقائلون بأنَّ ميكانيكا الكمّ هدمت السببية يخالفون مبدأ السَّببية، وهو مبدأ فطري وعلمٌ ضروري. فإذا كان كثيرٌ من علماء الفنّ لا يقبلون هذا التفسيرَ اللاحتمي، فكيف يقبل قولهم في هدمِ هذا الأصل الفطري؟ ومن هنا تبرز فائدةُ إيراد مثل هذا المسح.

---

(١) انظر: Q is for Quantum: An Encyclopedia of Particle Physics (320), by: John Gribbin, (Free Press, 1998)

(٢) انظر: Yet Another Snapshot of Foundational Attitudes Toward Quantum Mechanics, وهو موجود على الرابط: https: / /arxiv.org /abs/1306.4646

(٣) انظر: Universe from Nothing (185)

الوجهُ الثّالث: إضافةً إلى ما سبقَ من الوجهين السابقين، فإنَّ أسسَ تفسير كوبنهاغن نفسها أسسٌ ضعيفة، واستدلالاتهم هشَّة. وقد ذكرت البروفسورة مارا بلر[١] ذلك في ردِّها على هذا التفسير إذ قالت: «ربّما توقَّع الواحدُ منّا أنَّ أنصار تفسير كوبنهاغن يملكون عددًا من الحججِ القوية جدًّا، وإن لم تكن قاطعة للنزاع فهي على الأقلِّ وجيهة جدًّا، ولكنَّ القراءة النقدية كاشفة أنّ كلّ دعاوى الجزم الواسعة - أو لنقل بعيدة الاحتمال - قائمةٌ على حجج دائرية مضطربة، وتقريرات حدسية جذابة ولكنها خاطئة...»[٢].

الوجهُ الرّابع: ما هو السرُّ للقبول الواسع لتفسير كوبنهاغن إذًا؟ هذا يرجع لعدد من الأسباب[٣]. ومن ذلك أنَّ نيلز بور - وهو من روّاد التفسير - كان لديه حماس كبير في نشر هذا التفسير في البداية، وكان مِن أشهر العلماء في ذلك الوقت[٤]، وقد اتّهمه موراي جيلمان[٥] بغسْل دماغ جيلٍ كامل من الفيزيائيين للإيمان بأنّ مشاكل ميكانيكا الكمّ قد تمَّت حلها[٦]. فبور كانتْ لديه هيبةٌ كبيرة في نشر هذا العلم العسير

---

(١) مارا بلّر (Mara Beller): بروفسورة تاريخ العلوم وفلسفتها في الجامعة العبرية، ومتخصّصة في ميكانيكا الكم. توفيت عام: ٢٠٠٤م. انظر:
http://www.complete-review.com/reviews/bellerm/qdialogue.htm

(2) Bohm and the "Inevitability" of acausality, by: Mara Beller, in the book: "Bohmian Mechanics and Quantum Theory: An Appraisal (215), ed. J.T. Cushing, Arthur Fine and S. Goldstein, (Kluwer Academic Publishers, 1996)

(٣) ذكر الدكتور سامي عامري ستة من هذه العوامل في كتابه: فمن خلق الله؟ (٥٣ - ٥٤).

(٤) انظر: Q is for Quantum: An Encyclopedia of Particle Physics (٩٠)

(٥) موراي جيلمان (Murray Gell - Mann): بروفسور الفيزياء في جامعة نيو ميكسيكو بالولايات المتَّحدة، والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام: ١٩٦٩م. توفي عام: ٢٠١٩م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Murray – Gell – Mann

(٦) وذلك في محاضرته لحفلة نبول عام ١٩٧٦. انظر:
The Nature of Physical Universe: The 1976 Nobel Conference, by: Douglas Huff and Omer Prewett (Wiley, 1979)

بين الناس، ولهذا نبَّهت الدكتورة مارا بلر على أنَّ قبول تفسير كوبنهان يرجع إلى ضغوطات اجتماعية أكثرَ من كونه يرجع إلى أسباب علمية[1]. وفي إحصائية عام ٢٠١٣م، اعترفَ ٥٨ ٪ من علماء ميكانيكا الكم المشاركين فيها أنَّ اختيارهم العلمي نابع عن موقفهم الفلسفي الشخصي[2].

الوجهُ الخامس: تبيَّن مِن الأوجه السابقة أنّه لا يصحُّ الاعتماد على تفسير كوبنهاغن. ولكنْ على وجه التسليم بهذا التفسير، فإنه يتحدَّث عن اللاحتمية، ولا يلزمُ من القول باللاحتمية: إنكار السببية؛ فبيْن الأمريْن فرْق. وقد بيَّن ماكس بورن[3] ذلك بقوله: «الحتميةُ تفترض أنَّ الأحداث التي وقعت في أزمنة مختلفة، مرتبطة بواسطة القوانين، وبالتالي فيمكن عملُ تنبؤات في الماضي والمستقبل بمعرفة الحاضر... السببية تفترض أنّه وفقًا للقوانين يكون حدوث الكيان «ب» الذي ينتمي إلى فئة معينة، مُعتمدًا على حدوث الكيان «أ» الذي ينتمي إلى فئةٍ أخرى. بحيث يكون المقصود بكلمةِ «كيان» هو أيّ شيء فيزيائي أو ظاهرة أو وضع أو حدث. ويسمّى حينها «أ» بالسبب و«ب» بالنتيجة»[4].

واستخلص أنَّ الفيزياء الحديثة لم تتخلّ عن السببية، وإنّما تخلَّت عن بعض المفاهيم التَّقليدية، وعدَّلت فيها؛ فقال: «القول بأنَّ الفيزياء قد تخلَّت عن السببية هو

---

(١) انظر:
Bohm and the “Inevitability” of acausality, by: Mara Beller, in the book: “Bohmian Mechanics and Quantum Theory: An Appraisal (227)

(٢) انظر:
“A Snapshot of Foundational Attitudes Toward Quantum Mechanics”, in Studies in History and Philosophy of Science Part B (222-230), Modern Physics 44 (3)

(٣) ماكس بورن (Max Born): عالم الفيزياء الألماني الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٥٤م. لمساهماته في ميكانيكا الكم. توفي عام: ١٩٧٠م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Max-Born

(4) Natural Philosophy of Cause and Chance (9), by: Max Born, (The Waynflete Lectures, 1948

قول لا أساسَ له من الصحة، صحيح أنَّ الفيزياء الحديثة قد تخلّت عن بعض الأفكار التقليدية وعدَّلت فيها، لكن لو توقَّفت الفيزياء عن البحث عن أسباب الظواهر فلن تصبح حينها علمًا»[1].

فهذه خمسةُ أوجه في الردِّ على استدلال الملاحدة بميكانيكا الكمّ في نفي وجود السببية. وهذا يدلُّ على أنَّ الأصل الذي بنى عليه الملاحدة مذهبهم: قول ضعيف.

- **ثانيًا: ردودُهم على الشُّبهة الثانية: ظهور الكون من لاشيء:**

هذه الشبهةُ فيها شيء من العُسر، فقبْل ذكر الردود فلا بدَّ من فهمها جيّدًا. وحيث إنَّ مصطلحات المتخصِّصين باللغة الإنجليزية فيها دقَّة، وتحتاج إلى تحرير؛ فسوف أوردُ خلاصةَ تقرير الفيزيائي مصطفى نصر قديح[2] لهذه الشبهة حيث أحسنَ في تلخيصِها باللغة العربية.

الخلاصةُ التي ذكرها كالآتي: يعتقد الخلقيّون أنَّ الله خلق هذا الكون من العدم. وبينما كان الملاحدةُ في السابق يعتقدون أنَّ الكون أزلي تغيَّر موقفهم مع ظهور نظرية الانفجار العظيم، ولكنَّهم حاولوا تفسيرَ ظهور الكون بتفسيرات مادية بحتة. وأوَّلُ خطوةٍ في ذلك هي إعادةُ تعريف كلمة: العدم أو اللاشيء؛ فالعدم واللاشيء في المصطلح الفلسفي المتعارَف عليه بمعنى: عدم الوجود. وأما التعريف المختار عندهم في الفيزياء هو أنَّ العدم هو «الفراغ الكمومي» (Quantum vacuum). وهذا الفراغ الكمومي حالةٌ فيزيائية ذات أقلِّ طاقة ممكنة، وغيرُ محتوية على جسيمات مادية. فهو ليس عدمًا كما تشيرُ إليه الكلمة، وإنما يحتوي بفعل ظاهرة التقلّب الفراغي الكمومي على جُسيمات تأتي إلى الوجودِ لتلبثَ فترة متناهية في الصغر، ثمَّ تذهب. وهذه الجسيمات تسمَّى «جسيمات افتراضية» (Virtual particles). وهذه الجسيمات تختلف عن الجسيمات الحقيقية حيث لا يمكن ملاحظتُها بمكتشف الجسيمات، إلا أنه يمكن قياسُ تأثيرها غيرِ المباشر،

---

(١) المصدر السابق (٤).

(٢) مصطفى نصر قديح: عالم الفيزياء المصري، والمتخصِّص في نقد شبهات الملاحدة المتعلّقة بالإلحاد. من مؤلفاته: الصنع المتقن - دلالات فيزيائية على وجود الخالق -.

مثل: تغييرات طفيفة في طاقة مدارات الإليكترون. والجسيمات الافتراضية ذات طاقةٍ سلبية والجسيمات الحقيقية ذات طاقة موجبة.

وبالتالي، فإنَّ الجسيم الذي يزعم الملاحدةُ أنه نشأ من لاشيء لا يمثّل «خلقًا من عدم»، وإنَّما هو انتقالٌ من حال فيزيائي إلى حال فيزيائي آخر، فهو تحوّل للشيء من حال الطاقة إلى حال المادة.

فيروْن أنَّه في عالم الكوانتم يحدث في حالة الفراغ تغيّر مؤقّت في كمية الطاقة عند نقطةٍ ما في الفضاء بفعلِ مبدأ اللاحتمية، وذلك في فترات زمنية متناهية في الصغر، وبسببِ هذا التغيُّر اللحظي تنشأ أزواجٌ من الجسيمات والجسيمات المضادة. وتعرَف هذه الظاهرةُ بـ«التموجات الكمومية» (Quantum Fluctuations). ويقولون إن الفراغَ الكمومي يحتوي على كمٍّ هائل من الجسيمات الازدواجية (حقيقية - افتراضية) تظهر للوجودِ وتختفي بشكلٍ متواصل وبسرعة هائلة.

ويروْن أنَّ الكون نشأ بفعلِ ظاهرة تموجات الفراغ الكمومي؛ إذ إنَّ هذه الجسيمات التي تظهر بشكلٍ مُستمر تحدِث تغييرًا في الطاقة الموجودة في نقطة ما في هذا الفراغ[1].

وقد استطردَ لوارنس كرواس في شرح هذه المسألة في مواطن عديدة من كتابه: «كون مِن لاشيء»[2]، ولكنْ خلاصةُ كلامه يرجع إلى ما سبق.

فهذا ملخَّص شبهة الملاحدة في ظهور الكون من اللاشيء. وقد ردَّ عليه علماءُ الغرب من أوْجه كثيرة، ألخّصها في أربعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: هذا القولُ يزعم وجودَ جسيمات افتراضية. ولكن هذا لا يسلّم به، بل اعتبره بعضُ العلماء خرافة. وقد ألَّف هيفروجي نوكوليج[3] مقالاً علميًّا بعنوان:

---

(١) انظر: الصنع المتقن - دلالات فيزيائية على وجود الخالق - (٩٩ - ١١٥).

(٢) انظر على سبيل المثال: A Universe from Nothing (١٠٨ - ١٠٩)

(٣) هيفروجي نوكوليج (Hrvoje Nicolic): حامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء من جامعة زاغريب بكرواتيا، والمتخصِّص في ميكانيكا الكم. انظر:

https://www.fetzer-franklin-fund.org/media/hrvoje-nikolic/

«ميكانيكا الكم: الخرافات والحقائق» (Quantum Mechanics: Myths and Facts) في مجلّة «أسس الفيزياء» (Foundations of Physics). وذكر في مقاله أنّ القول بوجود جسيمات افتراضية مجرَّد خرافة، ولا يمكن قبولُ قول الفيزيائيين عن ذلك حرفيًّا، بل نقل الإجماع على ذلك؛ فقال بعدَ الحديث عن التفاعل بين الجسيمات الحقيقية والجسيمات الافتراضية: «عددٌ من الفيزيائيين، وخاصَّة غير الخبراء منهم، يأخذون هذه الصورة حرفيًّا كأنَّها شيء حقيقي يحصلُ في الطبيعة. في الحقيقة أنا لم أرَ كتابًا من الكتب المختصة بتقديم علم فيزياء الجسيمات للجمهور من غير المتخصّصين، إلا وقدَّم هذه الصورة على أنها شيء حقيقيٌّ يحصل في الواقع. لذلك فإنّ صورة التفاعلات الكمومية التي تبْدو فيها على أنها عملية يحصل فيها تبادلٌ للجسميات الافتراضية هي واحدة من أسوأ الخرافات، ليس فقط في فيزياء الكم؛ وإنَّما في الفيزياء كلها. في الواقع هناك إجماع بين الخبراء... على أنَّ هذه الصورة لا ينبغي أن تؤخَذ حرفيًّا. المبادئ الأساسية للفيزياء الكمومية لا تحتوي حتَّى على مفهوم الحالة «الافتراضية»...»[1].

وهذا الكلامُ مهمٌّ للغاية في هذا المقام؛ لأنَّ صاحبَ الكلام عالم متخصّص في ميكانيكا الكم، وهو ينقل إجماعَ الفيزيائيين على عدم قبول هذا القول حرفيًّا، وأنَّ الصورة المقدَّمة للجمهور صورة مُضللة. وفي مثل هذا الموطن تبرز أهميةُ الاستفادة من علماءِ الغرب المتخصّصين في هذه العلوم. فكتاب مثل كتاب لوارنس كراوس مترجَم إلى اللغة العربية للجمهور، ولمكانتِه العلمية يأخذ غيرُ المتخصّص والمتأثّر بالخطاب الإلحادي كلامَه بالتسليم، ولكنَّه يمارس تضليلًا للقراء بزعم وجودِ هذه الجسيمات الافتراضية؛ لأنَّها غير حقيقية.

الوجهُ الثّاني: على فرضِ التَّسليم بوجود هذه الجسيمات الافتراضية، فالقول بأنها تخرجُ من العدم يخالف القانونَ الفيزيائي المعروف بقانون: «حفظ الطاقة»

---

(1) Quantum Mechanics: Myths and Facts Foundations of Physics, 31 (11), 1563-1611, by: Hrvoje Nicolic

(Law of Conservation of Enery). وهذا القانونُ ينصُّ على أنَّ الطاقة لا تفنى ولا تستحدَث من العدم؛ وإنما يمكن تحويلها من صورة لأخرى[1].

فـ «طاقةُ الفراغ مثلها مثل أيِّ مجال كمومي سوف تهتز وتضطرب، فهذا الاهتزاز مِن ضمن خصائص المجالات الكمومية، وهذه الاهتزازات (Quantum fluctua-tions) سوف تولِّد جسيمات افتراضية (Virtual Particles) يفترض أنها تخرج إلى العالم ثمَّ يفني بعضُها بعضًا في وقتٍ قصير جدًّا يحدِّده قانون عدم الدقة[2]. وهناكَ مَن يجادل بأنَّ هذه الجسيمات تنتهكُ قانونَ حفظ الطاقة؛ لأنَّ طاقتها تكون أكبر بكثير من الجسيمات الحقيقية التي انحلَّت أو انبثقت منها. أو أنَّها تقترض الطاقة من المستقبل ثمّ تعيدها سريعًا لأنها يُفني بعضُها بعضًا. وقد تمَّ استخدامُ هذه المفاهيم في وضع افتراضات لنشأة الكون بالفعل...»[3].

ولكنَّ الحقيقة أنَّ قانون حفظ الطاقة من أشهر القوانين الفيزيائية في الفيزياء الكلاسيكيَّة، وأنَّ ميكانيكا الكمّ تؤكّد هذا القانون، ولا تخترقه. وقد بيّن لوبس موتل[4] ذلك إذْ قال: «ميكانيكا الكم تعمل بامتياز. إنما تعمل بدقَّة على جميع الأنظمة في الكون، وقد أدَّت إلى العديد من الظواهر التي لم تكن ممكنة في أي نظرية كلاسيكية.

---

(١) انظر موسوعة بريتانيكا مقال: (Conservation Law)، وهو موجود على الرابط:
https://www.britannica.com/science/conservation-law
هذا قانونٌ علمي عام، ولا يتنافى مع اعتقادنا أنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يفني الطاقة ويحدثها إذا شاء. كما أنه لا يتنافى هذا التقريرُ الذي سيأتي مما سبقَ في نقد هذا القانون بأنه ليس على إطلاقِه مع وجودِ بداية للكون؛ لأنَّ الحديث هنا يتعلّق بكون هذا القانون محفوظًا حتى في ميكانيكا الكم. وقد سبق الحديثُ عن هذا القانون في مبحث: بيان مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي.

(٢) الذي أترجمه بـ(مبدأ اللاحتمية) كما سبق.

(٣) اختراق عقل (١٠٧).

(٤) لوبس موتل (Luboš Motl): عالم الفيزياء الشيكي، وحامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء النظرية، وعمل أستاذًا في جامعة هارفاد المرموقة. انظر:
https://physicsworld.com/a/blog-life-the-reference-frame/

ومعَ ذلك فإنها أكَّدت ١٠٠ ٪ بعض القوانين التي كانت موجودة بالفعل في الفيزياء الكلاسيكية. وقوانين الحفظ في الزخم والطاقة تنتمي إلى هذه الفئة الأخيرة»[١].

والملاحدةُ يزعمون أنَّ خرقَ هذا القانون يمكن تفسيره بمبدأ اللاحتمية الذي تمَّ نقدُه في الحديثِ عن الشبهة السابقة. ولكنْ مع التسليم بهذا المبدأ، فلا يصحُّ القولُ بخرق قانون حفظ الطاقة. وقد بيَّن ستيف لوتريل[٢] ذلك بقوله: «مازلت أرى قانونَ اللاحتمية لهيزينبرج يوصَف في المجالات الجماهيرية التي تخاطب غير المتخصّصين على أنه يسمحُ بانتهاكٍ مؤقت لقانون حفظ الطاقة (أو قانون حفظ الحركة). الحجة التي سبّبت هذا الضجيجَ هي القول بأنَّه يسمح لك بأن تقرض الطاقة أو تقترضها طالما ستسدّد هذا قريبًا جدًّا. وهذا الترتيبُ يمثّل انتهاكًا مؤقتًا لقانون حفظ الطاقة. الحقيقة أنه لا يوجَد أيُّ انتهاك لقانون حفظ الطاقة. إقراض الطاقة والحركة أو اقتراضهما يحدث دائمًا بطريقة تحترم حفظ الطاقة والحركة»[٣].

الوجهُ الثّالث: على فرضِ التسليم بكلِّ ما سَبق، فإنَّ ظهور الكون بالطريقة التي يذكرُها الملاحدةُ يستلزم وجودَ تعقيد وإتقان وضبط دقيقٍ للغاية. وقد اعترض عليهم البروفسور كيث وارد بهذا إذْ قال: «في فرضية التذبذب الكمومي، لا يمكن للكون أنْ يظهرَ للوجود إلّا بوجود مجموعة متوازنة تمامًا من القوى الأساسية، واحتمال محدّد دقيق لتذبذبات معينة تقع ضمنَ هذه المجموعة، ووجود الزمكان الذي قد تقع فيه هذه التذبذبات. إنَّه (لاشيء) بالغ التعقيد والضبط»[٤]. ولا شكَّ أنَّ هذا التعقيد لا يأتي بنفسه، وإنَّما يستلزم وجودَ خالق خلق هذه الشروط الأساسية.

---

(١) مقال: Is the Vacuum Empty and Boring, وهو موجود على الرابط:
https://motls.blogspot.com/2015/05/is-vacuum-empty-and-boring.html

(٢) ستيف لوتريل (Steve Luttrell): عالم الفيزياء البريطاني، وحامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء النظرية، ومتخصِّص في ميكانيكا الكم. انظر:
http://luttrellica.blogspot.com/

(٣) مقال: Heinsberg's Uncertainty Principle, وهو موجود على الرابط:
http://luttrellica.blogspot.com/2005/10/heisenbergs-uncertainty-principle.html

(4) God, Chance and Necessity (40)

والمذكورُ هنا هي الشروطُ الأساسية لظهور الكون في التذبذب الكمومي، ولكن علماء الكون يقولون إنَّ التعقيد كان موجودًا منذ اللحظة الأولى بعد ظهور الكون أيضًا. وهذا تعقيدٌ فوق التعقيد. وقد سبق أنَّ البروفسور بول ديفيز بحث عن مسألة مدى دقَّة مطابقة قوى التمدُّد بقوى الجاذبية في الثانية الأولى من وجود الكون. واستنتج ديفيز أنَّ زمن بلانك كان مطابقًا بدقة ١ في ١٠^٦٠. فلو اختلف هذا المعدّل بجزء واحد مِن ذلك فقط؛ فلن توجَد حياة(١).

ومِن هنا يبرز سؤالٌ للملاحدة: لماذا كانت هذه الظروفُ الأساسية موجودة؟ ولماذا هذا التعقيدُ من أوَّل ظهور الكون؟ الملاحدة يكرهون هذا السؤال لأنهم يعرفون لوازمه. وقد ذكر لوارنس كراوس ذلك بقوله: «في الوقت نفسه، فإنه يجب علينا في العلم أنْ نكون حذرينَ بشكل خاص عن أسئلة «لماذا». فعندما نسأل «لماذا؟» عادة ما نعني «كيف؟» إذا تمكنّا من الإجابة على هذا الأخير، فهذا يكفي بشكلٍ عام المقاصد»(٢).

فالإجابةُ عن سؤال: «لماذا؟» تقودُ إلى سؤال أخطر: «مَن خلق الكون وفق هذه الخصائص المضبوطة؟». ويعلم الملاحدةُ مثل: كراوس هذه اللوازم، ولهذا يحاولون جاهدينَ في صرف أتباعِه عن سؤال: «لماذا؟» قبل أن يصلوا إلى هذا السؤال الخطير المميت للخطاب الإلحادي.

الوجهُ الرّابع: فرحَ الملاحدة - كريتشارد دوكينز - كثيرًا بكتاب لوارنس كراوس حتى إنَّه كتب له خاتمةً كما سبق. ومعَ أهمية الشبهات المتعلّقة بميكانيكا الكم للخطاب الإلحادي، وأنَّ دوكينز من رموز هذا الخطاب؛ إلّا أنه اعترف أنه لا يفهم هذا العلم(٣). وذلك لم يمنعه من أنْ يثني على الكتاب بثناءٍ عطر في خاتمته، وكأنَّه يجيب عن ألغاز الكون والحياة.

---

(1) God and the New Physics (179), by: Paul Davies,

(2) A Universe from Nothing (146)

(٣) انظر: A Universe from Nothing (186)

ولكنَّ هذا الأمرَ كان لحاجةٍ في نفسه حيث انتصر هذا الكتابُ للإلحاد. إلا أنَّ المتخصِّصين في ميكانيكا الكم قد انتقدوا الكتابَ بشدَّة. ومِن ذلك ما قاله البروفسور جورج إيليس[1] في مقابلته معَ المجلة العلمية المشهورة «سايتيفيك أميركان» (Scientific American) حيث بيَّن أنَّ لوارنس كراوس لم يجب عن بعض أهمِّ الأسئلة في هذا المجال، ومِن ذلك:

السؤالُ الأوَّل: كيف وُجدت الأشياءُ التي تكوّن منها الكون؟

السؤالُ الثّاني: لماذا وُجدت هذه الأشياءُ ابتداء؟

السؤالُ الثّالث: لماذا يحمل الكونُ الشكل الحالي؟

السؤالُ الرّابع: ما هو البرهانُ التجريبي أو ما يمكن ملاحظته لاختبار دعاويه عن آلية نشأة الكون؟

السؤالُ الخامس: كيف يمكن اختبارُ ما وُجد قبل وجود الكون؟

وإضافةً إلى ذلك بيَّن البروفسور إيليس أنَّ ما قدَّمه كراوس ليس من العلم التجريبي في شيء، وإنَّما هي دعوى فلسفية يتبنّاها بحماسةٍ إلى درجة أنه لا يقدر أن يثبتها بأدلة تجريبية. وانتهى البروفسور إيليس في نقده لكرواس أنّ ما زعمه من إمكان فهم الواقع بصورةٍ كاملة خلال الفيزياء ومعادلاتها؛ ليس إلّا وهمًا[2].

---

(١) جورج إليس (George Ellis): بروفسور الرياضيات التطبيقية من جنوب أفريقيا، وأحدُ أبرز علماء الكون في العالم، وقد نشر أكثر من ٥٠٠ بحث علمي. انظر:
https://royalsociety.org/people/george-ellis-11396/

(٢) انظر المقابلة بعنوان:
Physicist George Ellis Knocks Physicists for Knocking Philosophy, Falsification, Free Will
وهي موجودة على الرابط:
https://blogs.scientificamerican.com/cross-check/physicist-george-ellis-knocks-physicists-for-knocking-philosophy-falsification-free-will/

فالملاحدةُ السذَّج يعتقدون أنَّ هذا الكتاب أجاب عن ألغاز وجود الكون عن طريقِ علم ميكانيكا الكم، وأنَّ هذا العلم يؤيِّد الإلحاد. ولكن الواقع أنَّ هذا الكتاب كتابٌ فلسفي في صورةِ كتاب علمي. فشبهاتُ الملاحدة في هذا المجال تساقطت كأوراق الشجر واحدة تلو الأخرى.

الفقرةُ الرّابعة:

تقييمُ ردود علماء الغربِ على الشُّبهات المتعلقة بميكانيكا الكم:

ردودُ علماء الغرب على شبهاتِ الملاحدة المتعلِّقة بميكانيكا الكم ردودٌ علمية في المقام الأوَّل، ومدعومةٌ ببعض الردود العقلية الصحيحة. ولا يكاد يظهر أيُّ أثر من آثار العقيدةِ النصرانية في هذا الباب، ولهذا يمكن الاستفادةُ منها كثيرًا. وهو في مثل هذه المجالات العلمية الدقيقة التي تظهر أهميةَ الاستفادة من كلام علماء الغرب. فعلى سبيل المثال ما يتعلَّق بكتاب لوارنس كراوس، فإنَّه قد تُرجم إلى اللغة العربية ويباع في الأسواق في دولٍ إسلامية. ويفتتن بعضُ المسلمين إذا رأوا أنَّ أحد علماء الكون يقدّم دعاوى أنّه يمكنُ عن طريق علم ميكانيكا الكم أن يفسِّر وجودَ الكون من العدم بدون خالق. وقد لا يستمع بعضُ المسلمين المفتونين بهذه العلوم التجريبية إلى ردود العلماء المسلمين غير المتخصِّصين في هذه العلوم. ولكن معَ إبراز ردود علماء الغرب المتخصّصين في هذا المجال يمكن نقدُ هذه الشبهات، وبيانُ أنها ضعيفة للغاية، ثمّ تأتي المسئولية على العالم المسلم أو الداعية الإسلامي أن يبيِّن الحقَّ والهدى في هذه القضية المتوافق مع الوحي المنزَّل والعقل الرصين والعلم التجريبي الصحيح البعيد عن خرافات الملاحدة.

المبحثُ الخامس

ردودُهم على الشُّبهات المتعلقة بالكيمياء

هذا المبحث يتناول شبهاتِ الملاحدة المتعلّقةَ بالكيمياء. وشبهاتهم فيها أقلُّ من الشبهات المتعلِّقة بعلم الكون، وعلم الأحياء والفيزياء. وأكثر هذه الشبهات تتعلّق بأصلِ الحياة على الأرض، وهو معروفٌ بالتطوّر الكيميائي؛ فجلُّ الملاحدة المعاصرين يؤمنون بالتطوّر البيولوجي الداروينى - كما سبق -، ولكنهم يعترفون أنّه لا بدَّ من وجود كائنٍ حيٍّ أوَّلي قبلَ حصول التطوّر البيولوجي؛ لأنَّه لا يمكن أن تعمل الطفرات العشوائية والانتخابُ الطبيعي إلّا في كائن حيّ. وظهورُ الحياة من اللاحياة حيَّر الملاحدةَ كثيرًا، ولكنه لم يمنعهم من إيرادِ بعض الشبهات المتعلقة بهذه المسألة. وهذا ما سأذكرُه في هذا المبحث. ولتسهيل فهْمِ المبحث فسوف أقسِّمه إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهات الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شُبهات الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء:

اعتقد بعضُ الفلاسفة اليونانيين أنه يمكن أنْ تظهر نباتات وحيوانات بنفسها من الجمادات، وظلَّ هذا الاعتقاد موجودًا لدى بعض المتفلسفة. وفي عصر النهضة حاول بعضُ العلماء إحياءَ هذه الأفكار بإجراء تجارب علمية تثبت أنه يمكن للفأرة أن تتولّد تلقائيًّا من القماش المتّسخ، أو تتولَّد العقرب من الريحان. وعُرفت هذه الأفكار بالتولّد الذاتي (Spontaneous generation).

وكانت هذه التجاربُ محلَّ أخذ وردٍّ بين العلماء إلى أنْ جاء العالم الفرنسي لويس باستوير في عام ١٨٥٩م، وأبطلَ هذه الفكرة بتجارب علمية[1]. وقال باستور عقب هذه التجارب: «لا يمكن أن تتعافى عقيدةُ التولّد الذاتي بعد الضربة القاتلة لهذه التجربة البسيطة أبدًا»[2].

وتزامنَتْ تلك التجربة معَ نشر داروين لنظريته، وكانت مسألة: ظهور الحياة الأولى تشكِّل مشكلةً أساسية لنظريته، فحتى لو سُلِّم بصحَّة نظريته فإنه يفسّر تطوّر الكائنات الحيَّة الموجودة فقط، ولا تفسِّر ظهورَ الكائنات الحيّة من المادة غير الحيّة. وكانت نظرية التولُّد الذاتي حديثةَ عهدٍ بضربة باستور، فكان داروين يستصعبُ هذا الأمر. وكتب رسالةً إلى أحد أصدقائه وذكرَ فيها تجارب باستور، ثمّ قال: «إن كنَّا – نعم، ما أعظم كلمة «إن» هنا – نستطيع أن نتصوَّر نوعًا من البِركة الصغيرة الدافئة فيها جميع أنواع الأمونيا وأملاح الفوسفور، وضوء، وحرارة، وكهرباء، والكربون، وأن

---

(١) انظر المقال:

Louis Pasteur and the History of Spontaneous Generation, http://www.pasteurbrewing.com/louis-pasteur-and-the-history-of-spontaneous-generation/

خلاصةُ تجربة باستور: أن باستور أظهرَ أنَّ سبب عملية التخمر يرجع إلى نمو الكائنات الحية الدقيقة، وأنَّ النمو الناشئ للبكتيريا في سوائل المغذيات لا يعود إلى التولد الذاتي، وإنما يعود إلى النُّشوء الحيوي خارجَ الجسم، حيث قام بتعريض السائل المغلي في الهواء في أوعية تحتوي على فلترٍ لمنع جميع الجزيئات من الوصول إلى مرحلة النمو المتوسط مع إدخال الهواء عبر أنبوبٍ متعرِّج طويل لا يسمح لجزيئات الغبار بالمرور. لاحظ باستور عدم نمو أي شيء في السائل إلّا إذا تمَّ كسرُ وفتح القوارير، لذا توصل إلى أن الكائنات الحية كجراثيم الغبار التي نمتْ في السائل جاءت من الخارج بدلًا من تولدها تلقائيًّا داخل السائل. انظر:

https://www.wikiwand.com/ar/%D9%84%D9%88%D9%8A%D8%B3_%D8%A8%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D9%88%D8%B1

(٢) كما نقله عنه ألكسندر أوبارين في:

The Origin of Life (196), by: Alexander Oparin (Dover Publications (1953)

مركّب البروتين تمَّ تكوينُه كيميائيًّا، وعلى استعداد للخضوع لتغيّرات أكثر تعقيدًا. في هذا الزمان فإنَّ مثل هذه المادة سوف تلتهمُ أو تمتصُّ على الفور، ولكنَّ هذا ليس هو الحال في الزمن قبل تكوُّن الكائنات الحيّة»[1].

ولكنْ لم يخرج هذا التفكيرُ عندَ داروين عن تخيُّلاته المعتادة لوجود مثل هذه البركة. وبقيَ موضوع تشكُّل الحياة الأولى معلّقًا، وشكَّل معضلةً في حياة داروين وبعد وفاته.

في عام ١٩٢٤م، ألّف ألكسندر أوبارين[2] كتابًا بعنوان: «أصل الحياة» (The Origin of Life)، وقدَّم فرضيةً مَفادها أنَّ تكوُّن الخلايا الحيّة من المادة غير الحيّة ممكنٌ عنْ طريق التفاعلات الكيميائية مع الصواعق ومصادر طاقة أخرى. ولكنها كانت فرضيةً مجرَّدة بدون استناد إلى تجارب علمية. وفي عام ١٩٥٢م، استنتج هارولد أوري[3] أنَّ الجوَّ الأوَّلي للأرض تكوَّن بصفة أساسية من الهيدروجين والميثان والأمونيا وبخار الماء. ويوافق ذلك فرضيةَ أوبارين عند ظهور أصل الحياة.

ثمَّ أجرى ستانلي ميلير[4] اختبارًا عمليًّا بإشراف أوروبي لصحة فرضية أوربارن؛ فأعدَّ جهازًا زجاجيًّا مغلقًا في مختبرِ أستاذه، وفرَّغه من الهواء ووضع فيه بدلًا من الهواء مزيجًا من الميثان والأمونيا والهيدروجين والماء، ثمَّ سخَّن ميلر هذا الماء، وجعل خليطَ الغازات يمرُّ على شرارة كهربائية قوّية تحاكي البرق.

---

(1) https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-7471.xml

(٢) ألكسندر أوبارين (Alexandr Oparin): بروفسور الكيمياء الحيوية السوفيتي. توفي عام: ١٩٨٠م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Aleksandr-Oparin

(٣) هارولد أوري (Harold Urey): بروفسور الكيمياء الأمريكي، والحائز على جائزة نوبل في الكيمياء. توفي عام: ١٩٨١م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography / Harold – Urey

(٤) ستانلي ميلير (Stanley Miller): بروفسور الكيمياء الحيوية في جامعة سان ديغو بالولايات المتَّحدة. توفي عام: ٢٠٠٧م. انظر:

https://www.nature.com/articles/nchembio0807-437

وفي عام ١٩٥٣م، نشرَ ميلر نتائجَ تجاربه المبدئية، وبإعادة التجربة من قِبله ومن قِبل غيره من العلماء أمكنهم الحصولُ على مردودٍ ضئيل من أغلب الأحماض الأمينية الهامَّة حيويًّا، بالإضافة إلى بعض المركبات العضوية التي توجد في الكائنات الحية. وبهذه الطريقة صارتْ هذه التجارب تأكيدًا - في نظرهم - لفرضية أوبارين.

وبعدَ ذلك، اكتشف العلماءُ أنَّ تجاربهما لم تكن مبنيَّة على التصوّر الصحيح للجوِّ البدائي للأرض، فظلَّ لغزُ أصل الحياة قائمًا[١].

ومع ذلك فلا تزال تجاربُ ميلير وأوري تتصدَّر المراجع العلمية والمجلات والأفلام الوثائقية العلمية كإحدى أيقونات التطوّر[٢].

الفقرةُ الثّانية:

ردودُ علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء[٣]:

قد ردَّ علماءُ الغرب على شبهاتِ الملاحدة المتعلِّقة بالتطوّر الكيميائي للحياة بردودٍ عديدة. وسوف ألخِّص أهمَّ الردود في أمرين:

الأمرُ الأوَّل: بيانُ استحالة ظهور الحياة الأولى عشوائيًّا من حيث العموم.

الأمرُ الثّاني: بيانُ بطلان فرضية ظهور أصل الحياة على وجْه التفصيل.

---

(١) انظر المقال: Abiogenesis
على الرابط:
https://www.allaboutscience.org/abiogenesis.htm

(٢) انظر: أيقونات التطوّر (٣٣).

(٣) من أفضل مَن رأيت أنه يلخِّص الردودَ المختلفة على شبهات الملاحدة المتعلقة بالتطوّر الكيميائي لأصل الحياة هو دين أوفيرمان في كتابه: قضية ضدَّ العشوائية والتنظيم الذاتي (A Case Against Accident and Self – Organization)، ولهذا سوف أكثِرُ من النقل عن هذا الكتاب في هذا المبحث.

الأمرُ الأوَّل: بيانُ استحالة ظهورِ الحياة الأولى عشوائيًّا من حيث العموم:

محلُّ البحث عن أصل الحياة ليس نوعيَّة الحدث؛ فالمؤمن والملحد يتَّفقان على أنّه لا بدَّ من ظهور الكائنات الحيَّة الأولى على كيفية معيّنة. المؤمن بوجود الخالق يعتقد أنَّ الخالقَ خلق هذه الكائنات، بينما يعتقد الملحدُ أنَّ هذه الكائنات ظهرت عن طريق الصُّدفة؛ قال البرفوسور الفرنسي جاك موند: «الصدفة وحدها هي مصدرُ كلِّ هذا الابتكار في جميع المخلوقات، الصدفةُ المحضة الحرَّة تمامًا - لكنَّها عمياء - هي الجذرُ العميق للتطوُّر، المفهوم المركزي للبيولوجي... في يومنا هذا هي التصوّرُ المقنع الوحيد، والممكنُ مقارنته مع الملاحظات والاختبارات العلمية. إنَّ جميعَ أشكال الحياة نتيجة للصدفة...»[1].

وإذا كانت جميعُ أشكال الحياة نتيجةً للصدفة فإنَّ هذا يعني أن الكائنات الحيّة ظهرتْ من المادة غير الحيِّة مصادفة. ومِن باب مناقشة الملحد يقال: إن للصدفة حدودًا؛ فهل ظهورُ الكائنات الحيَّة من المادة غير الحيِّة في داخل إطار الصدفة أو في إطار المستحيل؟

قد بحثَ العلماءُ المتخصِّصون مدى إمكانيةِ ظهور الحياة من المادة غير الحيّة، وتبيَّن لهم أنَّه خارج إطار الصدفة بمراحل عديدة. وقد اهتمَّ عددٌ من العلماء بهذه القضية، وذكروا حساباتٍ مختلفة في إمكانية ظهور الحياة. ومن ضمن هذه الحسابات:

- **أوَّلًا: حساباتُ هويل وويكراماسنجي[2]:**

هذان العالمان مِن أكبر علماءِ الفلك في هذا الزمان؛ ففريد هويل بروفسور في علم الفلك ومدير المعهد الفلكي في جامعة كامبردج، وشاندرا ويكراماسنجي

---

(1) Chance and Necessity (110, 137, 167)

(٢) تشاندرا ويكراماسنجي (Chandra Wickramasinghe): بروفسور علم الأحياء الفلكي في جامعة بوكنيغهام ببريطانيا، ومدير قسم هذا العلم في تلك الجامعة. انظر:
https://www.buckingham.ac.uk/directory/professor-chandra-wickramasinghe/

بروفسور في الرياضيات التطبيقية وعلم الفلك ومؤلِّف أكثر من ٣٠ كتابًا في الفيزياء الفلكية. وأدرك هذان العالمان أنَّ أبسط خليةٍ حية كالبكتيريا هي في الواقع معقّدة جدًّا، وتحتوي على كثيرٍ من الأحماض الأمينية، والإنزيمات، والجزيئات. وهذه الأشياء كلّها مكوَّنة من آلافِ الذرَّات، وهي مرتبطةٌ معًا في تتابع دقيق. ورغم أنَّ هويل كان تطوّريًّا وملحدًا[١] فإنَّه أدرك الصعوبةَ الإحصائية الرياضية لظهور الحياة من اللاحياة مصادفة؛ ففي حساباتِه عن احتمالية ظهور الحياة من التفاعلات الكيميائية بالصدفة افترض أن أوّلَ خليةٍ حية كانت أبسطَ بكثير مما نعرفه اليوم من البكتيريات. ورغم ذلك تشير حساباته إلى أنَّ إنزيمًا بسيطًا جدًّا يمكن أن يظهر في وقت ومكان مناسبين باحتمال واحد في ٢٠١٠ = ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠.

ولأنَّ ظهورَ أبسط خلية يتطلَّب آلافًا من الإنزيمات المختلفة ذات الوظائف المتنوعة؛ قامَ هويل بحساب ٢٠٠٠ إنزيم، كل واحد منه لديه وظيفة معينة ليكوّن خلية بكتيرية وحيدة كالإشريكية القولونية (Escherichia coli). وبحساب احتمالات ظهور هذه الإنزيمات في مكانٍ وزمن واحد، وتنتج بكتيريا واحدة، وجد هويل وزميله ويكراماسنجي أنَّ النتيجة: ١ في ٤٠,٠٠٠١٠. وهذا الرقم عظيم جدًّا، وأيُّ عالم الرياضيات سيتعبره مستحيلًا استحالةً تامَّة. فواحد في المليون هو ١٠٦ وواحد في مليار ١٠٩، فكيف بـ١٠ وخلفه ٤٠ ألف من الأصفار!

استنتج هويل وزميله أنَّ الحياةَ لا يمكن أن تظهر بعمليات عشوائية، حتى ولو كان الكونُ كلُّه قد تكوَّن من هذا الحساء البدائي؛ فمحتوى المعلومات الهائلة لأبسط نظام حيوي يستحيل إنتاجه عشوائيًّا[٢].

وبناءً على ذلك أكَّد هويل وزميله ويكراماسنجي بأنَّ الحياة لا يمكن أن تظهر على الأرضِ بعمليات عشوائية؛ فقالا: «مهْما كانت مواصفات البيئة التي ظهرت فيها الحياةُ

---

(١) انظر المقال: Fred Hoyle – An Atheist for ID, وهو منشور على الرابط: https://uncommondescent.com/intelligent-design/fred-hoyle-an-atheist-for-id/

(٢) انظر: A Case Against Accident and Self – organization (58 - 59)

فلا يمكن أن تبدأ الحياةُ بشكل عشوائي... هناك حوالي ٢٠٠٠ إنزيم، وفرصةُ وجودهم عشوائيًّا ١ في $١٠^{٤٠٬٠٠٠}$، وهي فرصةٌ صغيرة للغاية لدرجة أنها لن تأتي حتى لو كان الكونُ بكامله حساءً عضويًّا؛ فلو أنَّ هناك رجلًا غير متأثّر بالمعتقدات المجتمعية أو التَّحريض العلمي فسيجد بحسابٍ بسيط أنَّ فكرة ظهور الحياة على الأرض مصادفة فكرةٌ مستبعَدة تمامًا... إنَّ المحتوى العظيم لمعلوماتٍ أبسط الخلايا الحية لا يمكن - في نظرنا - أن يتولَّد مما يسمَّى بـ«عمليات طبيعية»... لكي تظهر الحياة على الأرض فلا بدَّ بشكلٍ واضح من وجود توجيهٍ لهذا التجمُّع... فلا سبيل لتجنّب الحاجة لوجود معلومات، ولا سبيلَ للحصول ببساطة على أكبر وأفضل حساء عضوي[١]...»[٢].

البروفسور هيول والبروفسور ويكراماسنجي مِن أكبر علماء الفلك في هذا الزمان، وليسا متديِّنين، بل هويل كان ملحدًا كما سبق. ورغمَ ذلك بيَّنَا أنَّ ظهور الكائنات الحيَّة من المادة غير الحيَّة مستحيلٌ قطعًا.

وإذا كان ١ في $١٠^{١٥٠}$ يعدُّ مستحيلًا - حسب تقدير وليام ديمبسكي كما سبق وخارجَ حدود الصدفة؛ فكيف بـ١ في $١٠^{٤٠٬٠٠٠}$؟! هذا الرقم يتجاوز المستحيل بـ٢٦٦ مرَّة! وإذا كان تقديرُ المستحيل ١ من $١٠^{٥٠}$ [٣] - حسبَ تقدير إيميل بوريل - فإنّه يتجاوز المستحيل بـ٨٠٠ مرّة!

وإذا كان يصعبُ إدراكُ هذه الأرقام الكبيرة، فقد مثّل لها البروفسور ويكراماسنجي في جملةٍ موجَزة للغاية فقال: «فرصةُ ظهور الحياة عشوائيًّا كفرصة بناءِ طائرة من طراز بوينج من مخلَّفات شاردة جلبها إعصار»[٤].

---

(١) حساء عضوي (Primordial soup): مزيج من الجزيئات العضوية في النظرية التطورية التي تفترض أنَّه نشأت منها الحياة على الأرض. انظر: https://www.merriam-webster.com/dictionary/primordial%20soup

(٢) انظر: Evolution from Space (148, 24, 150, 30, 31)، Quoted from A Case against Accident and Self - Organization (59)

(٣) راجع مبحث: تعظيم الصدفة، في الفصل الأول من الباب الأوّل.

(4) Threats on Life of Controversial Astronomer, New Scientist, January 21, 1982, (p. 140)

ولا يشكُّ عاقلٌ أنَّ بناء طائرة من مخلّفات شاردة جلبها إعصار مستحيل، فكذلك ظهورُ الكائنات الحيَّة من المادة غير الحيَّة على كوكب الأرض. بل لا بدّ من وجود خالقٍ عليم حكيم خلق هذه المخلوقات الحية.

- **ثانيًا: حساباتُ هوبرت يوكي:**

الأمرُ لا يتوقَّف على ما سبق، بل من العلماء مَن توصَّل إلى أرقام أكبر بكثير من الأرقام التي توصَّل إليها البروفسور هويل والبروفسور ويكراماسنجي. ومن هؤلاء العلماء: البروفسور هوبرت يوكي[١]؛ قال دين أوفرمان: «ربما أكثرُ الحسابات دقةً وإجادةً هي التي قدَّمها هوبرت يوكي... قدَّم احتمالية رياضية لظهور الحياة بالصدفة من الحساء البدائي، وكانت النتيجةُ أنَّ هويل كان متفائلًا جدًّا! لأنَّ احتمالية الأحماض الأمينية ليست متساوية، والحساب الصحيح لا يمكن ببساطة أن يُضرَب في عدد الأحماض الأمينية في كلِّ موقع لنصل إلى عدد التتابع»[٢].

وقال البروفسور يوكي عن حساباته: «حتى لو كنّا نعتقد أنَّ «كتل البناء» متوفّرة، فهذا لا يسمحُ لها بتكوين البروتين من تلقاءِ نفسها، على الأقلِّ ليس بالصدفة؛ فتولّد الحياة من الحساء البدائي مستحيلٌ بنفس احتمالية وجودِ آلة متحرِّكة منذ الأزل. إنَّ هذه الاحتمالاتِ المستبعدةَ للغاية التي شرحناها في هذا الفصل ليست تثبيطًا للمعتقدين بالصدفة... أو للمعتقدين بأنَّ الكون أزلي لا بداية له ولا نهاية، فمثلُ هذا الكون لا يوجَد فيه شيء يستحيل حدوثه. في الواقع نحن نعيش في كونٍ صغير ذي عُمر قصير... **إذًا، أيُّ إنسانٍ عملي سيستنتج أنَّ الحياة لا يمكن أن تظهر بالصُّدفة**»[٣].

---

(١) هوبرت يوكي (Hubert Yockey): بروفسور النظريات المعلوماتية الأمريكي، والمتخصِّص في أصل الحياة. توفي عام: ٢٠١٦م. انظر:

http://www.hubertpyockey.com/hpyblog/about/

(2) A Case Against Accident and Self-Organization (60-61)

(3) Information Theory and Molecular Biology, by: Hubert P. Yockey, BioEssays 17, 85 (1995)

• ثالثًا: حساباتُ هارولد مورروفيتز:

وتوصَّل هارولد مورروفيتز[١] إلى أرقامٍ أكبرَ من ذلك بكثير؛ فقد حسب هارلود الصعوباتِ المواجهة لتجميع خلية فوجَد احتمال تجميعها هو ١في $١٠^{١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠}$، وهذا الرقمُ يعني ١ مع ١٠٠ مليار صفر! وهو أكبر من الأرقام التي توصَّل إليها البروفسور هويل والبروفسور ويكراماسنجي بـ٢,٥ مليون مرّة!

وقد علَّق البروفسور مورروفيتز على حساباتِه بقوله: «ليس هناك حيلةٌ عادية أو برهانٌ عن عُمر الكون، أو حجم النظام الممكن أن يكون كافيًا للقيام بمثل هذا التقلّب الحادث في النظام المتَّزن عقلًا، الذي مِن الممكن دائمًا أن نناقش أن حدثًا فريدًا حدَث. **وهذا خارجُ الاحتمالات المُعتبرة، وخارج العلم**. يمكن أن نستخلص أنَّ باعتبارات الطاقة وحدها واحتمالية تجميع خلية حية في اتزان ما؛ هوَ صغير للغاية. من المهمِّ أن نكرِّر هذه النقطة، فقد غابَ عن عددٍ من منظِّري أصل الحياة دلالة الاحتمالات الصغيرة للغاية؛ فقدِ افترضوا أنَّ الاحتمالات النهائية ستكون كبيرة بشكل منْطقي بحكم حجمٍ وعُمر النظام. أمّا الفقرة السابقة فتبيّن أن الأمر ليس كذلك: **فالقيمُ المحسوبة لاحتمالِ ظهور للحياة تلقائيًّا ضعيفة جدًّا بالنسبة للاحتمال النهائي الصَّغير بشكل ساحق**»[٢].

فقبلَ النظر في الفرضيات التي قدَّمها العلماء عن أصل الحياة، يتبيَّن أنّها كلها مُستحيلة، وأنه لا يمكن أن تكونَ الحياة قد تطوَّرت تطوّرًا كيميائيًّا عن طريق الصدفة مطلقًا.

وإضافةً إلى ما سبق، فإنَّنا نجد أنَّ الملاحدة لبّسوا على الناس عند تقديمهم الفرضيات التفصيلية لنشأة الحياة أيضًا، وهو ما سيأتي ذكرُه الآن.

---

(١) هارولد مورروفيتز (Harold Morowitz): بروفسور الفيزياء الحيوية في جامعة جورج ماسون بالولايات المتَّحدة، وهو متخصِّص في أصل الحياة. توفي عام ٢٠١٦م. انظر:
https://scrc.gmu.edu/finding_aids/morowitz.html

(2) Energy Flow in Biology (12), by: Harold J. Morowitz, (Ox Bow Press, 1979)

الأمرُ الثّاني: بيانُ بطلان فرضيَّة ظهور أصل الحياة على وجه التفصيل:

معَ أنَّ العلماء يشكِّكون في فرضية أوبارن مع تجارب ميلير وأوري منذ الستينيات مِن القرن الماضي، إلّا أنَّ هذه الفرضية تقدّم للجمهور باعتبارها نظرية صحيحة ومقْبولة. فما هي أبلغُ الردود على هذه الفرضية مع التجارب المؤكدة لها؟ يمكن تلخيصُ ردودِ علماء الغرب عليها في سبعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: الملاحدةُ يزعمون أنَّ الحياة ظهرت عشوائيًّا، وليس عن طريق الخلق الإلهي - وهو ما يسمَّى في النقاش المعاصر بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله: بالتصميم -. وأمّا تجربة ميلر فلم تكنْ عشوائية، بل حصلت عن طريق تصميم كائن ذي علمٍ وإرادة صمَّم هذه الظروف المزعومة، ثمَّ زعموا أنَّ الكائنات الحية الأولى ظهرت خلالها. فهذه التجربةُ خارج عن محلِّ النزاع أصلًا؛ فقال مؤلفو كتاب: «المنشأة وظهور الأنظمة الحية» (Origins and the Development of Living Systems): «هذه التجارب... التي تدَّعي التصنيعَ اللاأحيائي هي في الواقع صمّمت وأنتجت بفعل كائن ذكي جدًّا وحيوي للغاية»[١].

الوجهُ الثّاني: على فرْض التسليم بصحَّة هذه التجارب فإنهم لم ينتجوا كائنات حيَّة في مختبراتهم، وغايةُ ما أنتجه هؤلاء العلماء هو أحماضٌ أمينية. والأحماض الأمينية هي أسسُ البروتينات، والبروتينات هي أسسُ الخلايا، والخلايا هي أصل الكائنات الحيَّة. فلا يقال إنَّ هذه التجارب أنتجت حياة من المادة، ولا قريبًا من ذلك؛ قال سكوت هيوس: «وإنْ كانت هذه التجربة تبيِّن بوضوح إمكانية إنتاج مواد عضوية صناعيًّا؛ إلا أنَّ هذه المواد العضوية لا تقارب - ولوْ من بعيد - تركيب الحياة»[٢].

ولوْ جمعنا بينَ الوجه الأوَّل والوجه الثاني، فإنه يظهر أنَّ هذه التجارب دليل على الملاحدة، لا لهم؛ قال دين أوفرمان: «وإنْ كان الباحثون يستخدمون جميع مهاراتهم

---

(1) Origins and Development of Living Systems (212), by: Jim Brooks and Gordon Shaw, (Academic Press, 1973)

(2) The Collapse of Evolution (153)

التِّقنية والعلمية للحصول على الحياة من أحماض أمينية ولم يستطيعوا ذلك. يجب أن نتساءل: كيف تكوَّنت الحياة قبل ظهور كائن عاقل أثّر في البيئة؟»[1]. أي: كيف يمكن للطبيعة الصمّاء أن تنتج الحياةَ من اللاحياة، إذا عجز عن ذلك جميع الباحثين معَ توفُّر الإمكانيات الهائلة؟! كان ينبغي للملاحدة أن يراجعوا أنفسهم عند ذلك، وألا يتمادوا بالباطل بالاستدلال بهذه التجارب على ما لا تدلُّ عليه.

الوجهُ الثّالث: فرضيةُ أوبارن مع تجربة ميلر / أورو تفترض وجود حساء قبل أحيائي (Prebiotic soup) ظهرتْ فيه الحياة. ويفترضون أنَّ هذا الحساء وُجد قبل حوالي ٣٩٠٠ مليون سنة. ولكن هذا مجرَّد افتراضٍ افترضوه بدون أيِّ دليل. وقد بيَّن الدكتور مايكل دينتون ذلكَ بقوله: «وجودُ الحساء قبلَ الأحيائي ضروري للنموذج بأكمله، وبدون تجمُّعات غير أحيائية للمواد المكوِّنة للخلية فلا يمكن للحياة أن تطوّر. ولو كانت القصة التقليدية حقيقيةً فيجب أن يوجَد خليط غني من مركبات عضوية عبر ملايين السنين في المحيطاتِ القديمة. ومن المرجَّح جدًّا أن تبقى في الصخور المترسّبة الموجودة في البحار خلالَ هذه المدة الطويلة. ولكن تمَّ فحصُ الصخور القديمة جدًّا خلال العقود الأخيرة ولم نجدْ أيَّ مركبات عضوية تمَّ إنتاجها بشكل غير حيوي... فبالنظر إلى طريقة تكوّن الحساء قبلَ الأحيائي المفضَّل في كثير من المناقشات المتعلقة بأصل الحياة كحقيقة مؤكّدة؛ نجدُ أنَّ هناك صدمة لهذه الطريقة؛ فلا وجود لدليل إيجابي لوجوده»[2].

الوجهُ الرّابع: إشكاليةُ الغلاف الجوي المبكّر. افترضت تجربة ميلر وأوري وغيرها مِن سلسلة التجارب المشابهة اختزاليةَ الغلاف الجوي المبكّر الخالي من الأكسجين. ولكنَّ العلماء المتخصِّصين في هذا المجال يروْن اليوم أنَّ الغلاف المبكّر لم يكن شديدَ الاختزال، ومِن المحتمل أن يحتوي على كمياتٍ ظاهرة من الأكسجين. ووجودُ كمية ولو صغيرة من الأكسجين - في التجارب يتمُّ تجنُّب هذه الكمية في المعمل - ستمنع

---

(1) A Case Against Accident and Self-Organization (48)

(2) Evolution: A Theory in Crisis (260-261)

من تكوينِ أحماض أمينية ونوكليوتيدات؛ لأنَّ الذرات والجزيئات سترتبط مع أنوية الأكسجين بدلًا من الهيدروجين. وحتَّى لو تكونت أحماض أمينية فستتسبب في تحللها سريعًا، وينهي أيّ عملية عشوائية أخرى يمكن أن تنتج الحياة. لو أن غلافَ الأرض المبكر به شروطٌ مؤكسدة، فمِن المستحيل أن يحدُث تولد عشوائي[١].

وقد حسبَ البروفسور جون كارفير[٢] كميةَ الأكسجين التي أنتجها التحلل الضوئي في الغلافِ المبكر للأرض، وتوصَّل إلى أنَّ تركيز الأكسجين الحرِّ وصلَ إلى ١٠ ٪ من المستوى الحالي. وأنَّ ذلك كافٍ في منع تكوين الأحماض الأمينية[٣]. ولكن، حتى على فرضِ خلوِّ الجوِّ المبكّر من الأكسجين، فإنَّه مشكل أيضًا. وقد بيّن دين أوفرمان ذلك بقوله: «حتى لو لم يوجَد الأكسجين في غلاف الأرض المبكر فغيابُ الأكسجين سيتسبَّب في عوائقَ تمنع تكوُّن الحياة؛ فهو مطلوب لطبقة الأوزون التي تحمي سطح الأرض من الأشعة فوقَ البنفسجية المميتة، وبدون الأكسجين ستتسبب هذه الأشعة في انهيارِ المركبات بمجرد تكوُّنها، وتدفُّق هذه الأشعة المميتة هي جزء من المشاكل المستعصية ضدَّ التولد العشوائي»[٤].

فهذا يدلُّ على أنَّ القائلين بالتطوّر الكيميائي للحياة بين أمرين في تكوُّن الغلاف الجوّي المبكر: أحلاهما مُرّ!

الوجهُ الخامس: استعملَ ميلر وأوري شرارات كهربائية في تجربتهما لمحاكاة البرق. ولكنْ ذكرَ سكوت هيوس أنَّ هذه الشرارات الكهربائية خفيفة

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (41)

(٢) جون كارفير (John Carver): بروفسور الفيزياء ومدير مدرسة الأبحاث في العلوم الفيزيائية في الجامعة الوطنية الأسترالية. توفي عام ٢٠٠٤م. انظر:

https://www.eoas.info/biogs/P000298b.htm

(٣) انظر:

“Prebiotic Atmospheric Oxygen Levels”, by: J.H. Carver, Nature (292), 136, (1981)

(4) A Case Against Accident and Self-Organization (42)

جدًّا مقارنة مع البرق، وأنَّ الأرجح أنَّ البرق سوف يدمِّر أيَّ مكوِّنات عضوية لو كانت موجودة[١].

فلا دليلَ على وجود الحساء قبل الأحيائي أصلًا، ولو كان موجودًا فالغلاف الجوّي سوف يدمِّر المكوّنات العضوية، ولو لم يدمِّره الغلاف الجوّي لدمَّره البرق. وكلّ ذلك يدلُّ على الإشكاليات الكبرى في هذه الفرضية مع تجربتها. وهذا ما جعل كثيرًا من العلماء المتخصِّصين في أصل الحياة يعترفون بأنَّهم لا يعرفون كيف حصل التطوّر الكيميائي للحياة الأولى. وهو ما سيأتي في الوجه السادس.

الوجهُ السّادس: اعترفَ العلماءُ المتخصِّصون أنَّ أصل الحياة مازال لغزًا إلى يومنا هذا. استمرَّ العلماءُ في إجراء أبحاث علمية عن أصل الحياة بعد تجربة ميلر / أورو بدون نتيجةٍ مقنعة، حتَّى كتب العالم التطوّري كلاوس دوز[٢] بعد ثلاثين سنة من أبحاث العلماء في هذا المجال مقالًا علميًّا بعنوان: «أصل الحياة: الأسئلة أكثر من الأجوبة» (The Origin of Life: More Questions Than Answers)، وقال فيه: «لقد أدّت أكثرُ من ثلاثين سنة من إجراء التجارب عنْ أصل الحياة في مجالات التطوّر الكيميائي والجزيئي إلى الوصول إلى إدراكٍ أفضل لضخامة مشكلة أصل الحياة على الأرض بدلًا من حلّها. وفي الوقت الحالي، فإنَّ المناقشات الدائرة عن نظريات وتجارب أساسية في هذا المجال إمّا أن تنتهي إلى طريق مسدود، أو إلى اعتراف بالجهل»[٣].

وقد اعترف زعيمُ الملاحدة ريتشارد دوكينز في مقابلته مع الصحفي بين ستين عام ٢٠٠٧م، أنَّه لا يوجد أحدٌ يعرف كيف بدأت الحياة، وإنّما تُعرف نوعية الحدث وهي ظهور أوّل جزيء متكرّر ذاتيًّا[٤].

---

(١) انظر: The Collapse of Evolution (153)

(٢) كلاوس دوز (Klaus Dose): بروفسور الكيمياء الحيوية، ورئيس معهد الكيمياء الحيوية في جامعة ماينز بألمانيا، ومتخصِّص في أصل الحياة. انظر:
https://prabook.com/web/klaus.dose/252009

(3) The Origin of Life: More Questions Than Answers, Interdisciplinary Science Reviews, (Vol 13, No 4, 1988, p. 348)

(٤) انظر المقابلة: https: / /www.youtube.com /watch?v=GlZtEjtlirc

فالملاحدةُ لديهم إيمانٌ أعمى بظهور الحياة بطريقة عشوائية بدون أي أدلة مقنعة عنْ كيفيتها. وهُم يعلمون جيّدًا أنَّ هذا أمر مستحيل وغير ممكن. وهذا ما جعل بعضَهم يتبَّنون فرضيةً علمية في غاية السخافة، كما سيأتي بيانه في الوجه السابع.

الوجهُ السّابع: حين اعترفَ بعضُ الملاحدة بأنَّ التطوّر الكيميائي العشوائي للحياة على الأرض مستحيلٌ لجأوا إلى القول بـ«نظرية التبذّر الشامل» (Panspermia Theory). قد عرَّفها قاموس أكسفورد بأنّها: «النظرية بالقائلة بأن أصل الحياة على الأرض من كائناتٍ دقيقة أو سلائف كيميائية من الحياة الموجودة في الفضاء الخارجي، ولديها قدرةٌ على بدء الحياة إذا وصلت إلى بيئة مناسبة»[1].

كان الفيلسوف اليوناني أناكساغوراس أوّلَ مَن دعا إلى ما يشبه هذه النظرية في القرن الخامس قبل الميلاد، ثمَّ رجع هذا القول إلى المشهد العلمي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولكنَّها صيغَت بصياغةٍ علمية في بداية القرن العشرين[٢]. وقد تلقّى بعضُ العلماء الملاحدة هذه النظرية بقبول، ولكنّهم اختلفوا فيما بينهم على نظريات فرعية[٣].

وهذه النظرياتُ الفرعية كلّها - باستثناء واحدة منها - لا تجيبُ عن أصل السؤال: كيف تكوَّنت الكائنات الحيَّة من المادة غير الحيَّة مصادفة؟ والنظرية الوحيدة التي تجيب عنْ هذا السؤال هي: «التبذّر الشامل الموجّه» (Directed Panspermia). وملخّص هذه النظرية أنَّ كائنات فضائية من كواكب أخرى زرعوا الحياة على كوكب

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/panspermia

(٢) انظر لمقال: Over Our Heads: History of Panspermia
https://cosmosmagazine.com/biology/over-our-heads-a-brief-history-of-panspermia

(٣) انظر المقال:
What is the Origin of Life on Earth-Panspermia: Life from Outer Space.
https://science.howstuffworks.com/life/evolution/origin-of-life-on-earth4.htm

الأرض. ورغم غرابةِ هذا القول فقد ذهب إليه عددٌ من مشاهير علماء الملاحدة مثل: البروغسور فرانسيس كريك بعدَ اكتشافه تعقيد الحمض النووي، وأنه لا يمكن أنه قد ظهر مصادفة[1]. وقد مالَ ريتشارد دوكنيز إلى هذا القول في مقابلته مع بين ستين – المشار إليها آنفًا –.

وهذه النظريةُ تافهة إلى حدٍّ أنَّها لا تستحقُّ النقد؛ لأنَّه لا دليل على وجود هذه الكائنات الفضائية ألبتة، فضلًا عن كونهم بذروا الحياة الأولى على الأرض. ثمّ إنه سيردُ سؤالٌ آخر: مِن أين جاءت هذه الكائنات الفضائية؟ وغاية ما في هذه النظرية محاولة الهروب من الإيمان بالله، ولهذا قد علَّق بين ستين على مقابلته مع دوكينز بقوله: «إذًا، البروفسور دوكينز ليس ضدَّ التصميم الذكي، وإنما هو ضدَّ مصمّمين معيّنين، مثل: الإله»[2].

ويستغربُ البروفسور نيجل بروش من تبنّي هؤلاء العلماء هذه النظرية، وذكر أنَّ هذه النظرية من الأمثلة الجيدة التي تُبيِّن إلى أيٍّ مدى قد يذهب العلماء لتجنّب معرفة الإله. وأنَّ رسالة الإله عن التصميم الهادف مكتوبة بالفعل على واجهة الخلق بأحرف واضحة جليَّة، وأنَّ من العيب المأساوي أن عددًا من العلماء قد فشلوا في رؤية أو سماع هذه الرسالة[3].

فهذه النظريةُ تدلُّ دلالةً قاطعة على أنّ الملاحدة يعترفون باستحالة ظهور الحياة عشوائيًّا، وأنه لا بدَّ من وجود الخالق، ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على الشُّبهات المتعلقة بالكيمياء:

قدْ أورد الملاحدةُ بعضَ الشبهات المتعلِّقة بالتطوّر الكيميائي للحياة، ولكنَّ هذه الشُّبهات ضعيفة وهزيلة، وقد ردَّ عليها علماءُ الغرب بردودٍ قيّمة ومفيدة وبيّنوا

---

(١) انظر المقال: History of Directed Panspermia

http://www.panspermia-theory.com/panspermia-theories/directed-panspermia

(٢) https: / /www.youtube.com /watch?v=GlZtEjtlirc

(٣) انظر: Limitations of Scientific Truth (234)

هشاشة تلك الشُّبهات. ونظرية التطوُّر نفسها تستندُ إلى حصول تطوّر كيميائي للحياة الأولى، وإلّا فإنه لا يمكن حصولُ تطوُّر بيولوجي أصلًا. ولقوَّة الردود على هذه الشبهات لجأ الملاحدةُ إلى نظرياتٍ أضحكت العقلاء على عقولهم مثل: نظرية التبذّر الشامل الموجّه، آنفةِ الذكر.

وردودُ علماء الغرب في هذا الباب علميَّة محْضة، ولا يُلمس منها روائح العقائد النصرانية الباطلة. ففي مثل هذا الباب يُستفاد من ردودهم، ويمكن استخدامها في الردِّ على شبهات الملاحدة التافهة.

وينبغي التوقُّف في هذه القضية على بيان أنَّ تكوُّنَ الحياة من اللاحياة مصادفة مستحيل. أمّا الخوض في بيانِ كيفية خلق الكائنات الأولى فهوَ من الغيب الذي لا يعلمُه إلّا الله. وعليه، فليس للحسِّ، ولا العقل، ولا العلم التجريبي؛ فيه مجال.

المبحثُ السّادس
ردودُهم على الشُّبهات المتعلقة بعلم النفس

هذا المبحث يتناول شبهاتِ الملاحدة المتعلِّقة بعلم النفس. وتمَّ تقسيمُه إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: بيانُ حقيقة شبهاتِ الملاحدة المتعلقة بعلم النفس.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلقة بعلم النفس.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلقة بعلم النفس.

الفقرةُ الأولى: بيانُ حقيقة شبهاتِ الملاحدة المتعلقة بعلم النفس:

قد تقدَّم أنَّ قاموس أكسفورد عرَّف علمَ النفس بأنه: «الدراسة العلمية للعقل البشري ووظائفه، لا سيَّما المؤثّرة في السلوك في سياق معيّن»[١]. وهذا العلم يتفرّع إلى علومٍ متعدّدة، مثل: علم النفس المعرفي، وعلم النفس التربوي، وعلم النفس السلوكي، إلخ[٢]. ومِن ضمن أنواع علم النفس: ما يسمى بعلم نفس الأديان (Psy-chology of Religion). ويتناول هذا العلم ثلاثةَ محاور رئيسة:

المحورُ الأوَّل: التوصيفُ الممنهج للظواهر والتجارب الدينية.

المحورُ الثّاني: شرحُ أصل نشأة الدين والتديُّن، سواء في تاريخ الجنس البشري أو في حياة الأفراد.

---

(١) قاموس أكسفورد على الرابط: https: / /www.lexico.com /definition /psychology

(٢) انظر المقال: The Major Branches of Psychology في موقع جامعة الملك (King University) على الرابط: https://online.king.edu/about/our-history/

المحورُ الثّالث: تحديدُ عواقب المواقف والسلوكيات الدينية، سواء أكان للفرد أو للمجتمع ككل[١].

وشبهاتُ الملاحدة المتعلقة بعلم النفس تأتي في الغالب من المحور الثاني، حيث يسعونَ إلى تفسير نشأة أصلِ الدين بفرضيّات مادية، وأنَّ المعتقدات الدينية مبنيَّة على تخيُّلات الإنسان وليس أنها حقيقة.

الفيلسوفُ اليوناني إكزينوفانيس مِن أوائل مَن تكلّم عن أصل المعتقدات الدينية. وذلكَ في مقولته المشهورة: «يعتبر البشرُ أنَّ الآلهة قد ولدت مثلهم، ولديهم ملابس مثلَ ملابسهم، وصوتًا وشكلًا. ولكن إذا كانت الماشية والخيول والأسود لديها أيدٍ أو يمكن أن ترسم بأيديها، وتبتكر أعمالًا مثل الرجال، فإنَّ الخيول مثل الخيول والماشية مثل الماشية ستصوّر أيضًا أشكال الآلهة، وتجعل أجسادهم من هذا النوع... يقول الإثيوبيُّون إنَّ آلهتهم فُطس الأنف وسوداء. التراقيون[٢] يقولون إنَّ آلهتهم شاحبون وذَوُو شعور حمراء... يوجد إلهٌ واحد أعظمُ من الآلهة والبشر، لا يشبه البشرَ، لا في الشكل ولا في الفكر»[٣].

وهذه المقولةُ اشتهرتْ بينَ علماء النصارى الأوائل وكانوا يتناقلونها في كتبهم[٤]. ومقولةُ الفيلسوف إكزينوفانيس تفرِّق بين الديانات الشركية وبين الإيمان

---

(١) انظر:

Psychology of Religion, by: D.M. Wulff, in Encyclopedia of Psychology and Religion (732-735), ed. D.A. Leeming, K. Madden and S. Marian (Springer, 2010)

(٢) التراقيون: شعوب هندو – أوروبية سكنوا في منطقة تراقيا، وهي حاليًا في جنوب شرق أوروبا. انظر:

https://www.historyhit.com/the-strongest-nation-on-earth-who-were-the-thracians/

(3) Xenophanes of Colophon: Fragments (124) trans. J. H. Lesher (University of Toronto Press, 2001)

(4) Miscellanies Book VII, Chapter IV, by: Clement of Alexandria, Trans. Fenton John Anthony and Joseph B. Mayor, (Macmillian and Co, 1902)

بالإله الحقّ. فالظاهر أنَّه كان يرى أنَّ المعتقدات الوثنية مبنية على تخيّلات الإنسان. فالمعتقد الوثني إسقاطٌ نفسي، وتجسيدٌ لهذا الإسقاط وتلك التخيُّلات، بينما رأى الفيلسوف إكزينوفانيس ومَن تبعَه مِن علماء النصارى أنَّ الإيمان بالإله الحقِّ حقيقة موضوعية ثابتة.

ولكن تغيَّر هذا النوع مِن النقد في القرن التاسع عشر في ألمانيا. والذي تولّى كبرَه أوَّلًا: الفيلسوف الألماني جورج هيغل حينَ انتقد مَن اعتقد أنَّ الإله خارج عن الطبيعة، وبعيدٌ عن الإنسان. وذكر أنَّ هذا النوع من الإيمان في الحقيقة هو إسقاطٌ نفسي من طبيعة النفس غير السعيدة.

ذكرَ الفيلسوف بيتر سنغر في وصفِه لفلسفة هيغل أنه قد يظنُّ أنَّه يوجّه هذا النقد إلى مُعتقدات اليهود والنصارى، وأنه لا يسلم مِن هذا النقد إلّا أتباع المذهب الإنساني - الذي يؤلِّه الذات الإنسانية - والقائلون بوحدة الوجود؛ ولكنَّ هيغل نفسه كان نصرانيًّا لوثريًّا كما بيَّنه في بعض المواضع الأخرى من كتبه. فانقسم أتباع هيغل إلى تياراتٍ مختلفة في فهمهم لنقد هيغل. وكان مِن ضمن هذه التيارات ما عُرف بالتيار المتطرِّف من أتباع هيغل، واستنتج أتباعُ هذا التيار أنه كان ينتقد المعتقداتِ الدينية عمومًا[١].

وعُرِف التيارُ المتطرِّف بالهيغليين الشباب (Young Hegelians) وكانوا يتبنَّون المذهبَ المادي المعادي للدين. وكان لودفيغ فيورباخ مِن أبرز تلاميذ هيغل وأتباع هذا التيار. وألَّف كتابه المشهور: «جوهر المسيحية» (Das Wesen des Christentums)، وقدّم فيه فرضية الإسقاط المشهورة.

ذكرَ فيورباخ في هذا الكتاب أنَّ البشرية اخترعت فكرةَ الإله كتعزية وإلهاءٍ عن الأحزانِ في العالم. الفكرةُ الأساسية التي طوَّرها فيورباخ هي فكرة: «إسقاط» أو

---

(١) انظر:
Hegel: A Very Short Introduction (84-85), by: Peter Singer, (Oxford University Press, 2001)

«تجسيد» العواطف والمشاعر والأماني الإنسانية؛ فالعقل البشري، دون أن يكون مدركًا لما يفعله، يسقط رغبتَه في الخلود، ووجود المعنى للحياة؛ إلى أفكار خيالية، ويزعم أن الإله موجود[١].

وكان كارل ماركس مِن أتباع التيار المتطرِّف لهيغل، ومتأثّرًا بفلسفة فيورباخ. وفي عام ١٨٤٣م، ألَّف ماركس رسالة: «مساهمة في نقد فلسفة الحقّ عند هيغل» (A Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Religion)، ومما قاله فيها: «أساس النقد اللاديني هو: أنَّ الإنسان يصنع الدين، والدين لا يصنع الإنسان. الدين... المعاناة الدينية هي التعبير عنْ معاناة حقيقية، واحتجاج ضدَّها. الدينُ هو ألم الإنسان المظلوم، وكيان الظروف العَدَمي الروح، إنَّه أفيون الشعب. إلغاءُ الدين كسعادة وهمية للناس هو مطلب سعادتهم الحقيقية. إنَّ دعوتهم للتخلي عن أوهامهم حول حالتهم هي دعوة لهم للتخلي عن حالة تتطلب الأوهام»[٢].

وحيث إنَّ المذهب الشيوعي هو في الأصل مذهبٌ اقتصادي، ومبنيٌّ على الصراع بينَ الطبقات، فسَّر أتباع هذا المذهب نشأة الأديان في هذا الإطار، ورأوا أنَّ الدينَ أحدثته الطبقةُ المالكة لاستغلال الطبقات الكادحة الضعيفة[٣].

---

(١) انظر:

The Twilight of Atheism: The Rise and Fall of Disbelief in the Modern World (56-57), by: Alister McGrath (Doubleday, 2004).

هذا الكتاب من أدقِّ وأفضل الكتب، وقفتُ عليها في سرْد تاريخ الشبهات الإلحادية من علم النفس، ولهذا أعتمدُ عليه هنا. والكتابُ لألستر ماكغراث، البروفسور في جامعة أكسفورد، والمتخصِّص في نقد خطاب الإلحاد المعاصر.

(٢) رسالة: A Contribution to the Critique of Hegel's Philosophy of Religion, وهي منشورة على الرابط:

https://www.marxists.org/archive/marx/works/1843/critique-hpr/intro.htm#05

(٣) انظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢ / ٤٢٨).

وكانت هذه التفسيراتُ لأصل الدين في زمن هيغل، وفيورباخ وماركس ضمن المباحث الفلسفية. ولكن تغيّر ذلك مع سيغموند فرويد - مؤسسة التحليل النفسي -؛ فكان فرويد متأثّرًا إلى حدٍّ كبير بفلسفة فيورباخ، بل صرّح أنه من أكثر الفلاسفة الذين يحترمهم ويبجِّلهم، ولكنَّه أعاد فلسفته في نشأة الأديان بفرضية الإسقاط إلى نظرية علمية في علم النفس. وكان فرويد يرى أنَّ الطبيعة في الإنسان أنه لا يؤمن بوجود أي إله، وأنَّ الدين أمرٌ طارئ على الإنسان. وعليه، فكان يرى أنَّ الدين بحاجة إلى التفسير لأنَّه انحراف عن الحالة الطبيعية للبشرية[١].

في مقالته: «ليوناردو دافنشي وذاكرة طفولته» (Leonardo da Vinci and a Memory of His Childhood) عام ١٩١٠م، حدَّد فرويد شرحه للتديّن الفردي. ومما قاله في هذا الكتاب: «لقد جعلنا التحليلُ النفسي على دراية بالعلاقة الحميمة بين العقدة الأبوية والإيمان بالإله؛ فقد أظهر لنا أنَّ الإله الشخصي - من الناحية النفسية - ليس سوى أب جليل، وهو يقدِّم لنا دليلًا كلَّ يوم على كيف أن الشباب يفقدون معتقداتهم الدينية بمجرَّد أنْ تنهار السلطة الأبوية. وعليه، فإننا ندرك أنَّ جذور الحاجة إلى الدين تكمن في العقدة الأبوية»[٢].

ويمكن العثورُ على أوَّل بيان رئيسي لوجهات نظر فرويد عن أصل الأديان، أو «التكوين النفسي»، في كتابه: «الطوطم والتابو» (Totem and Taboo) عام ١٩١٣م. طوَّر فرويد ملاحظتَه السابقة بأنَّ الطقوس الدينية تشبه التصرفات الوسواسية للمرضى العصابيين؛ فأعلن أنَّ الدين كان في الأساس سببه العصاب الوسواسي. وجادل أن العناصرَ الأساسية في جميع الأديان هي تبجيلُ شخصية الأب (مثل: الإله أو يسوع المسيح)، والإيمانُ بقوة الأرواح، والاهتمام بالطقوس المناسبة. وذكر أنه يمكن تفسيرُ ذلك على المستويين التاريخي والنفسي[٣].

---

(١) انظر: The Twilight of Atheism (68 - 69)

(2) 'Leonardo da Vinci and a Memory of his Childhood', in Complete Psychological Works Vol.11, p.123

(٣) انظر: The Twilight of Atheism: (70 - 71)

ويمكن تلخيصُ نظرية فرويد الغريبة هذه بأنْ يقال: «أوَّل أشكال المجتمعات البدائية كان قبليًا، وكان الأبُ (رئيس القبيلة) عنيفًا شرسًا وغيورًا، لذلك كان يستحوذ على نساءِ القبيلة، ويمنعهنَّ أبناءَ الذكور عندما يكبرون، كما كان يستأثر بكل السلطات. لذلك تحالف أبناؤه على قتلِه ثمَّ التهموه. وبالتهام الأب تمثّل به الأبناء، وأخذ كلٌّ منهم قدرًا من قوَّته؛ لذلك وضع الإنسانُ في الديانات التي ابتكرها طقسَ تقديم الأضحيات والأكلِ منها، وجعلوا الأب طوطمًا[1] يتوجَّهون إليه بالتقديس.

لقد أشبعَ الأبناء البدائيون كرهَهم لأبيهم بقتله، واحتلال مكانته والتمثّل به بالتهامه. أمَّا الإحساسُ بالندم فقد عالجوه بأن ربطوا بين أبيهم وبين القوة السماوية الغيبية (الإله) التي افترضوا وجودَها لتدعهم ضدَّ الطبيعة.

هكذا استطاع الأبناءُ مجتمعين أن يفعلوا ما كانوا عاجزين عنه فرادى، وأدركوا أهمية الاجتماع حولَ شيء معيّن، ومن هنا كان اجتماعهم حول الدين.

ويتتبَّع فرويد نشأة الديانات، ويتبنَّى أنها كانت بدائية تعددية، ثمّ تدرجت وتعقدت حتَّى وصلت إلى الديانات التوحيدية، التي يتّصف فيها الإله بصفات أبوية. ولا شكّ أنَّ التعامل مع الإله الواحد يكفل تحقيقَ الحميمية والقرب المتمثلين في العلاقة بين الابن وأبيه.

وهكذا تقوم نشأةُ الأديان عند فرويد على أساسين نفسيين رئيسيين: الخوف من الطبيعة (كعنصر خارجي) والشعور بالذنب (كعنصر داخلي)...»[2].

وألَّف فرويد كتبًا أخرى عن التحليلات النفسية لنشأة الدين. «مستقبل الوهم» (Die Zukunft einer Illusion) الذي صدر عام ١٩٢٧م، وخصّص هذا الكتابَ لادِّعاء أنَّ أصل الدين مجرَّدُ أوهام وأماني ورغبات لدى الإنسان، وتطوّرت حتى أصبحت معتقدات دينية[3].

---

(١) الطوطم: هو كيان يحترمه مجموعة من الناس، خاصة لأسباب دينية.
انظر: https: / /dictionary.cambridge.org /dictionary /english /totem

(٢) انظر: الإلحاد مشكلة نفسية (٦٦ - ٦٧).

(٣) انظر: The Twilight of Atheism: (74)

كما ظهرتْ تفسيراتٌ وتحليلات نفسية أخرى لنشأة الأديان، ولكنَّها في نهاية الأمر ترجعُ إلى ما سبق. ولهذا نجد أنَّ الملاحدة يردّدون هذه العبارات والتحليلات في كتبهم؛ فكبيرُ الملاحدة في القرن العشرين: برتراند راسل يفسِّر الدين بأنه ظاهرة مرضية سببها الخوفُ من الطبيعة[١]. وكبيرُ الملاحدة في القرن الواحد والعشرين: ريتشارد دوكينز يسمّي كتابَه الأشهر: «وهم الإله»، وهو اسمٌ قريب من اسم كتاب فرويد: مستقبل الوهم الذي زعم فيه أنَّ الإيمان بالإله مجرّد وهم. وكريستوفير هيتشن يذكر فرويد في ثمانية مواضع في كتابه الأشهر: «الإله ليس عظيمًا»[٢]. وهيتشن نفسه نشأ متأثّرًا بماركس - كما سبق بيانُه -، ونقل مقولته القبيحة: «الدين أفيون الشعوب» في ذلك الكتاب أيضًا[٣].

وهذا يدلُّ على أنَّ الفرضيات التي قدّمها فرويد ومن سبقه ما تزال مؤثرة في أطروحاتِ الملاحدة المعاصرين، وأنَّ نظرتهم لنشأة الدين ترجع إلى من سبقهم من الملاحدة.

الفقرةُ الثانية:

ردودُ علماءِ الغرب على شُبهاتِ الملاحدة المتعلقة بعلم النفس:

قد وصفَ محرّرو موسوعة بريتانيكا - وهي من أشهر الموسوعات العلمية في الغرب على الإطلاق - سيمغموند فرويد بقولهم: «قد يُطلق بحقٍّ على فرويد أنَّه أكثرُ مشرّع فكري تأثيرًا في عصره»[٤]. وكان فرويد مؤسِّس التحليل النفسي وأثّر في

---

(١) انظر:

Why I Am Not a Christian: And Other Essays on Religion and Related Subjects (22), by: Bertrand Russel (Simon and Schutser, 1957)

(٢) انظر:

God is Not Great (4), (10), (103), (155), (247), (256), (259), (273)

(٣) انظر: المصدر السابق (٩ - ١٠).

(٤) انظر سيرته في موقعهم على الرابط:

https://www.britannica.com/biography/Sigmund-Freud

الملاحدة بعده، ولا سيَّما فيما يتعلَّق بتحليلاته النفسية لنشأة الدين. ولذلك سيتمّ التركيزُ على نقد أطروحاته في هذا المقام دون التفسيرات الأخرى لنشأة الدين.

وقد ردَّ علماءُ الغرب على فرضياته في نشأة الدين من أوجه كثيرة جدًّا. أختار منها الأوجهَ الستّة الأهمّ:

الوجهُ الأوَّل: شبهاتُ الملاحدة في هذا الباب مبنية على افتراضه أنّ الإلحاد صحيح. وفرويد قد تأثَّر بفلسفة فيورباخ الإلحادية إلى حدٍّ كبير كما سبق. وقد قال البروفسور ألستر ماكغراث في ردِّه على فيورباخ: «كانت هناك مشاكل في نهج فيورباخ، حيث لم يكنْ منتقدوه بطيئين في الإشارةِ إلى ذلك. وكانت دائرية الحجة مصدر قلق خاصّ: يفترض فيورباخ أنه لا يوجَد إله، ثمَّ يتحوَّل إلى السؤال عن سبب رغبة أيِّ شخص في الإيمان بالإله. بعد أن تمَّ الافتراضُ المسبق للإلحاد، فإنه من السهل أن يجعله نتيجةَ الحجة»[1]. فالمنهجية عندَ فيورباخ - الذي يعدُّ من أعظم القدوات لفرويد - كانت خاطئةً من أصلها؛ لأنَّه افترض أنَّ الإلحاد صحيح قبل إقامة حجّته أصلًا. وهذا يجعل حجتَه دائرية، والحجج الدائرية غير مقبولة.

وفرويد نفسُه اتَّبع هذه المنهجية في دراساته؛ قال البروفسور ماكغراث: «قبل الانتقال لاستكشاف مزيج الأفكار المعقّد والمتغيّر الذي يشكّل النقد الهائل للدين لدى فرويد؛ فمِن المهمِّ أن نلاحظ أنَّ إلحاد فرويد كان الافتراض، وليست النتيجة لنظرياته. تسبق نظرية فرويد للتكوين النفسي للدين دراسته للأديان. في الواقع، كان قد قرَّر بالفعل نظريتَه قبل البدء في التعامل مع الأدبيات المتعلقة بهذا المجال»[2].

ففرويد تأثَّر بالخطاب الإلحادي أوّلًا، وقرَّر أنَّ الإلحاد هو الأصل، وأنّ الدين بحاجة إلى تفسير، ثمَّ ذهب يبحث عن المبررات لهذا الافتراض من علم النفس. ولكن الواقع أنَّ العكس صحيحٌ تمامًا؛ لأنَّ الإنسان مفطورٌ على الإيمان بالله وليس مفطورًا على الإلحاد. وقد سبقَ بيانُ ذلك بالتفصيل في المبحث المخصص للحديث

---

(1) The Twilight of Atheism: (58)

(٢) المصدر السابق (٧٠).

عن الفطرة. فقد بنى فرويد نظرياتِه على أصل فاسد. وعليه، فلا يمكن الوثوقُ بها ولا الاعتماد عليها.

الوجهُ الثّاني: لا شكَّ أنَّ فرويد أثّر كثيرًا في المجتمعات الغربية بنظرياته في مجال التَّحليل النفسي، ولكن هل يعني ذلك أنَّ دراساته - ولا سيَّما دراساته عن نشأة الأديان - كانت صحيحة؟ الواقع أنَّ الأمر ليس كذلك. وقد تعالت الأصوات بين العلماء في الغرب بنقدِ نظريات فرويد في علم النفس. ومن ذلك أن الدكتور ماكس شارينبيرغ[(١)] ذكر مدى انتشار النقد الموجَّه لفرويد في بحث بعنوان: «انتقاد فرويد والتحليل النفسي» (Criticism of Freud and Psychoanalysis)، وقال في ملخّص البحث: «يُعتقد عمومًا أنَّ النقد الحديث لفرويد والتحليل النفسي قد بدأ في التسعينيات. صحيح أنَّه في هذا العقد **انفجر النقدُ بزيادة مفاجئة وملحوظة** في الكمية. ولكن تمَّ نشرُ عددٍ قليل من الكتابات النقدية عالية الجودة من عام ١٩٦٠ فصاعدًا»[(٢)].

وقد ألَّف ريتشارد ويبستير[(٣)] كتابه: «لماذا كان فرويد مخطئًا» (Why Freud was Wrong) وذكر فيه أنَّ نظريته في التحليل النفسي أعقد نوع من العلم الزائف وأكثره انتشارًا في التاريخ[(٤)].

---

(١) ماكس شارينبيرغ (Max Scharnberg): أستاذ مساعد في قسم التربية والتعليم في جامعة أوبسالا في السويد. وهو متخصِّص في نقد نظريات فرويد. انظر:
http://www.psychiatrie-und-ethik.de/infc/1_gesamt_en.html

(٢) بحث: Criticism of Freud and Psychoanalysis, وهو منشور على الرابط:
http://www.diva-portal.org/smash/get/diva2:231452/FULLTEXT01.pdf

(٣) ريتشارد ويبستير (Richard Webster): الروائي النيوزيلندي المشهور، فقد بيع ملايين من النسخ من كُتبه. وهو مهتمٌّ بقضايا نفسية. انظر:
https://www.encyclopedia.com/arts/educational-magazines/webster-richard-1946

(٤) انظر:
Why Freud was Wrong: Sin, Science and Psychoanalysis (12), by: Richard Webster, (The Orwell Press, 2005).

وإذا كان هذا النقد ينطبقُ على فرضيات فرويد عمومًا، فإنّ فرضياته المتعلقة بنشأة الدين أبعدُ عن الصواب. وقد ذكر البروفسور ألستر ماكغراث أنّ فرضية فرويد للأصول التاريخية للدين تُعتبر الآن بشكل عامٍّ غيرَ موثوق بها تمامًا[١]. ومن أسباب ذلك كما ذكرَه البروفسور ماكغراث أنَّ فرويد كان يستخدم النصوص المؤيدة لأفكاره بطريقة عشوائية وانتقائية للغاية[٢].

ولكنْ ما السببُ في منهجه الانتقائي؟ قد نجد الجوابَ في سيرة حياة فرويد، حيث تذمَّر فرويد من الاضطرار إلى قراءته في العديد من المجلدات المملة المتعلقة بالدين. وهو يعلِّق على ذلك بأنه لا طائلَ من ورائها لأنه يعرف بالفعل إجابة سؤاله عن أصل الدين؛ فقال: «أنا أقرأ الكتبَ دون أن أهتمَّ بها حقًّا، لأنني أعرف النتائج بالفعل؛ غريزتي تقول لي ذلك»[٣].

وبذلك نفهم أنَّه لا يوثق بدراساتِ فرويد عمومًا، وبفرضياته المتعلقة بأصل الدين خصوصًا. فهو ملحدٌ يريد أن يبرِّر لإلحاده فقط. والغريب في الأمر أنّ كريستوفر هيتشن - الذي أكثرَ من الاستشهاد بكلام فرويد وماركس - يقول في كتابه: «الإله ليس عظيمًا» عنهما: «يجب الاعترافُ بأنَّ ماركس وفرويد لم يكونا طبيبين ولا عالمين بالمعنى الدقيق. مِن الأفضل التفكير فيهما على أنهما من كتَّاب مقالات، وأنهما من الخياليين العظماء وغير المعصومين»[٤]. وقد صدقَ وهو كذوب؛ ففرويد ليس بعالم بمعنى الكلمة، وليس بمعصوم، ويكتبُ الخيالات. ولكن السؤال يطرح نفسه: لماذا يتمسّك الملاحدةُ بخيالاته إذًا؟!

---

(١) انظر: The Twilight of Atheism: (71)

(٢) انظر: المصدر السابق (٧٠).

(3) Sigmund Freud: Life and Work. Vol 2: (123), by: Ernst Jones, (London: Hogarth Press, 1953-7)

(4) God is not Great (10)

الوجهُ الثّالث: ادَّعى فرويد أنَّ الإيمان مجرّدُ وهْم، واستند في ذلك إلى نظريته في العقدة الأبوية. وقد ذكرَ البروفسور بول فيتز أنَّ فرويد محقّ في أن الإيمان قد يكون وهمًا - مثل المعتقدات الفاسدة الوهمية -، ولكنَّه ذكر أيضًا أن النظرية التي استند إليها فرويد قد توفِّر من غير قصد وسيلةً جديدة لإدراك أن الوهم هو الأساس النفسي للإلحاد[1]. وبرهنَ البروفسور فيتز على ذلك في كتابه: «إيمان فاقد الأب: نفسية الإلحاد» (Faith of the Fatherless: The Psychology of Atheism)، وذكر عشرات الأمثلة على أنَّ كبارَ الملاحدة نشأوا بدون آباء، أو كانت لديهم مشاكل كبيرة مع آبائهم، وأنَّ ذلك كانَ من أسباب إلحادهم. وقد سبقتِ الإشارةُ إلى هذه الدراسة عند الحديث عن الحجج على وجود الله من علم النفس.

وبذلك يمكن أن نقلبَ الدليلَ على فرويد، ونستخدم نظريته - على فرض صحّتها - في بيانه أنَّ الإلحاد مجرَّدُ وهم.

الوجهُ الرّابع: حاول فرويد أنْ يبرهن على فرضيته في أصل الدين تاريخيًّا بالديانات البدائية، كما سبق. ولكنَّ الاستشهاد بكيفية نشأة الديانات البدائية فيه إشكال كبير؛ لأنَّ نشأةَ هذه الديانات محاطةٌ بكثير من الغموض. وقد ذكر البروفسور مايكل ج. موراي[2] أنَّ كثيرًا من العلماء ينتقدون التفسيرات التطوّرية لنشأة الأديان لكونها مبنية على تخمينات، وأنه لا يمكن اختبارُ صحتها بشكل واضح[3].

---

(١) انظر: نفسية الإلحاد - إيمان فاقد الأب - (٣١).

(٢) مايكل ج. موراي (Michael J. Murray): بروفسور الإنسانيات والفلسفة في كلية مارشال بالولايات المتّحدة. انظر:

God is Great, God is Good (261)

(٣) انظر:

Evolutionary Explanations of Religion, by: Michael J. Murray, in: God is Great, God is Good (94)

وعليه «فقدِ اعتمدَ المعترضون على الأديان في دراستهم للمجتمعات الإنسانية القديمة على بياناتٍ ناقصة ومعلومات فقيرة جدًّا، فمن المعلوم أن المراحل الأولية من حياةِ الشعوب الإنسانية لا نكاد نملك عنها إلّا النزر اليسير من المعلومات، والباحثون في أحوالها يعتمدون كثيرًا على الظنِّ والتخمين؛ ونتيجة لذلك اختلفت النتائج التي توصَّل إليها الدارسون حول تلك المجتمعات، وتضاربت أقوالهم في توصيفها وتحديد معالمها»[1].

ولا شكَّ أنَّ المجتمعات البدائية الأولى لم تكن تدوّن معتقداتها، فضلًا عن بيان سببِ نشأتها. ومع ذلك فقد يُقال إنه يمكن دراسة معتقدات الأمم المنعزلة اليوم، وإنّها تمثِّل الديانات البدائية الأولى. ولكنَّ هذا المنهج مُشْكل أيضًا، وقد بيّن الدكتور محمد عبد الله دراز[2] (رحمه الله) وجهَ الإشكال في ذلك إذ قال: «... وأمّا من حيث المنهج وهو الاستدلالُ على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية، فلأنَّه مبني على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التي وصل إليها بحثنا، وأنها لم تمرّ بها أدوارٌ متقلّبة. وهو افتراض لم يقم عليه دليل، بل الذي أثبته التاريخ، واتَّفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية؛ هو أنَّ فترات الركود والتقهقر التي سبقتْ مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقةً بمدنيات مزدهرة، وأن هذه المدنيات قامت بدوْرها على أنقاض مدنيّات بائدة، قريبة أو بعيدة، في أدوار تتعاقب على البشرية، كما تتعاقبُ الفصول السنية على الطبيعة بحيث يصبح من العسير أن نحكم بصفة قاطعة بأيِّهما بدأت دورةُ الزمان. وليس تعيينُ أحد الأمرين للابتداء الحقيقي بأثبتَ تاريخيًّا من مُقابله. فكذلك نقول في شأنِ العقائد الدينية: إنه من الممكن أن تكون الخرافات القديمة بدايةَ ديانات، كما يمكن أن تكون نتيجة تحلّل وتحريف لديانة صحيحة سابقة مزَّقت أهلها الحروب، أو أفسدتهم الآفاتُ الاجتماعية، فقلّت عنايتهم بأصول دينهم،

---

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢/ ٤١٣).

(٢) محمد عبد الله دراز: فقيه مصري أزهري. كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر. من مؤلفاته: الدين - بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، وموارد الدولة. توفي عام: ١٣٧٧هـ. انظر: الأعلام (٦/ ٢٤٦ - ٢٤٧) للزركلي.

وتلقّوا بالتسليم والقبول كلَّ ما سمعوه من أفواه الأدْعياء والدجالين، وشاعت بينهم هذه الرواياتُ حتى أصبحت سننًا مقدّسة»[١].

وتقلُّبات الأمم في عقائدها هي ما تدلُّ عليه نصوص الكتاب والسنة. ومن الأمثلة على ذلك: ظهورُ الشِّرك في قوم نوح بعد أن كانوا على التوحيد، ووقوع بني إسرائيل في الشِّرك في زمن موسى، وتبديل دين إبراهيم وإسماعيل في جزيرة العرب. وعليه، فإنّنا نفهم أنَّ دراسة تاريخ نشأة الأديان محاطة بكثير من الغموض من حيث العموم. وعليه؛ فهل يصحُّ ادِّعاء فرويد أنَّ الديانات تتطوّر من الديانات الوثنية إلى التوحيد؟

الوجهُ الخامس: بنى فرويد فرضيتَه في نشأة الأديان على أن الأصل في الإنسان: الإلحاد، ثمَّ ظهرت المعتقدات الدينية الأولى ممثلة في الديانات الوثنية، وتطوّر الأمرُ بعد ذلكَ إلى أنْ ظهرت الديانات التوحيدية. ورغمَ ما في دراسة الديانات الأولى من الغموض من النّاحية التاريخية المحضة[٢] إلا أنَّ كثيرًا من علماء الغرب بيّنوا أن الديانات الأولى كانت قائمةً على التوحيد. ومن هؤلاء العلماء:

العالم الأوَّل: توصّل ويلهلم شميدت[٣] في كتابه: أصل الأديان وتطوّراتها (The Origin and Growth of Religion) بعد دراسة موسَّعة إلى أنّ جميع الديانات ترجع في الأصل إلى عبادات توحيدية[٤].

---

(١) الدين - بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان (١٠٨ - ١٠٩)، للدكتور محمد عبد الله دراز (دار القلم، ١٩٩٠م).

(٢) وسيأتي أنَّ الوحي يدلُّ دلالة قاطعة على أن الأصل في البشرية: التوحيد، إلا أن الملحد لا يسلِّم بربانية النصوص، فلذا أذكرُ هذه الدراسات التاريخية. وسيأتي الحديث عن دلالة الوحي بعدَ ذلك إن شاء الله.

(٣) ويلهلم شميدت (Wilhelm Schimdt): قسيس كاثوليكي وعالم الأنثروبولوجيا والأجناس، ومؤرخ الأديان الألماني. توفي عام: ١٩٥٤م. انظر: https: / /www.anthropos.eu / anthropos /heritage /schmidt.php

(٤) انظر ملخّصًا عن كتابه على هذا الرابط:

https://www.amazon.com/Origin-Growth-Religion-Wilhelm-Schmidt/dp/0990738604

العالِمُ الثّاني: ألَّف أندرو لانج[1] كتابه: «صنع الدين» (The Making of Religion)، وبيَّن فيه أن الإنسان البدائي كان يؤمن بإله أعلى، وهو إله السماء. واستند في ذلك إلى دراساتٍ في الأنثروبولوجيا عن القبائل في وسط أفريقيا، وبعض قبائل الأمريكتين وأستراليا الجنوبية الشرقية[2].

العالِمُ الثّالث: وافقَ البروفسور إدوين جيمس[3] ما توصّل إليه ويلهلم شميدت وأندرو لانج في كتابه: الدين قبل التاريخ: دراسة في علم الآثار قبل التاريخ (Prehistoric Religion: A Study in Prehistoric Archeology)، وذكر فيه أن الإله الواحد الأعلى هو الأصل عند الإنسان البدائي إذا لم يتأثّر بأفكار أخرى[4].

وذكرَ البروفسور فيتز أنَّ في ذلك ردًّا على فرويد في تحليلاته لديانة الإنسان البدائي في كتابه: الطوطم والتابو[5].

وقد أخبرَ الوحي القطعي بأنَّ الإنسان الأوّل كان موحّدًا، بل كان نبيًّا من أنبياء الله؛ وهو آدم. وكان الناسُ أمة واحدة، ثمَّ اختلفوا إلى ديانات مختلفة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣]. وأولى تفسير بالصواب لهذه الآية، هو ما قاله حبرُ هذه الأمَّة ابن عباس (رضي الله عنهما): (كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعةٍ من الحقّ، فاختلفوا، فبعثَ اللهُ النبيين مبشرين ومنذرين)[6].

---

(١) أندرو لانج (Andrew Lang): عالم الأنثروبولوجيا الأسكتلندي، درس في جامعة أكسفورد العريقة، وتخصَّص في أساطير القوميات القديمة. توفي عام: ١٩١٢م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Andrew-Lang

(٢) انظر: الإلحاد مشكلة نفسية (٧٨ – ٧٩).

(٣) إدوين جيمس (Edwin James): بروفسور تاريخ الأديان وفلسفتها في جامعة ليدز ببريطانيا. وقد تخصّص في دراسة الأديان البدائية. توفي عام ١٩٧٢م. انظر:
https://www.encyclopedia.com/environment/encyclopedias-almanacs-transcripts-and-maps/james-e-o

(٤) انظر: الإلحاد مشكلة نفسية (٧٩).

(٥) انظر: نفسية الإلحاد (٣٤).

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣/ ٦٢١).

ومما يجدرُ التنبيه عليه في هذا المقام، أنَّه لا ينبغي إطلاق كلمة: الإنسان البدائي على أتباعِ هذا الدين الأوَّل؛ لأنَّ في مقدِّمة البشر الأوائل: الأنبياء وأتباعهم من الصالحين.

الوجهُ السّادس: ادَّعى فرويد - ومَن تبعه من الملاحدة - أنَّ الدين مبني على أمنياتٍ كاذبة في الأمان، وغير ذلك. وقد تطوَّرت بعد ذلك في صورة معتقدات دينية تتعلَّق بالإله. وقد ردَّ البروفسور ماكغراث على هذا الادّعاء بأنه يمكن قلب هذا الادّعاء على عقيدةِ الملحد؛ فقال: «وأشيرُ أيضًا إلى أنه إذا كان الإيمان بالله استجابة لتوْقِ الإنسان إلى الأمان، فهل لا يمكن أيضًا القولُ بأن الإلحاد كان استجابة لرغبة الإنسان في الاستقلال»[١]. يشيرُ بذلك إلى رغبةِ الملاحدة إلى الاستقلال عن الأوامر الإلهية والانْسلاخ عنها، وأنَّ ذلك من أسباب وقوع الناس في الإلحاد. وهذا كلام صحيح.

ومِن أجمل ما قيل في الردِّ على ادِّعاء ماركس أنّ الدين أفيون الشعوب: ما قاله الشاعر البولندي شيسواو ميووش[٢]: «... الأفيون الحقيقي للناس هو الإيمان بالعدم بعدَ الموت: العزاء الكبير، والراحة الهائلة في التفكير بأن لن نحاسب على خياناتنا، وجشعنا، وجبننا، وقتلنا»[٣].

وهذا كلامٌ صحيح، ويبيّن أنَّ الإلحاد معتقد زائف مبني على أمنيات كاذبة في عدم المحاسبة على فعْل الشر. وعليه؛ فالملحد أمام أمرين:

إمّا أن يقول: مجرَّد تمنّي الشيء دليلٌ على أنه وهم. ولو قال ذلك قلَبنا الحجة عليه.

وإمّا أن يقول: مجرَّد تمنّي الشيء ليس دليلًا على وجوده أو على عدم وجوده. إذًا، سقطت حجته.

---

(1) The Twilight of Atheism (58-59)

(٢) شيسواو ميووش (Czesław Miłosz):الشاعر البولندي الحاصل على جائزة نوبل في الأدب. توفي عام: ٢٠٠٤م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Czeslaw-Milosz

(٣) مقال: Discreet Charm of Nihilism, by: Czeslaw Milosz وهو موجود على الرابط:
https://www.nybooks.com/articles/1998/11/19/discreet-charm-of-nihilism/

الفقرةُ الثّالثة:
تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهات الملاحدة المتعلقة بعلم النفس:

قد تبيَّن في هذا المبحث أبرزُ شبهات الملاحدة المتعلقة بعلم النفس، وردود علماء الغرب على هذه الشبهات. والردودُ الموجودة في هذا الباب جيّدة ومفيدة ويستفاد منها من حيث العموم. وكلامُ علماء الغرب في هذا الباب لم يختلط مع عقائدهم الفاسدة. اللهمَّ إلّا ما جاء في هذا الباب من دراسات البروفسور فيتز فيما يتعلّق بالعلاقة بين الإله وفقدانِ الأب، وأنه ربطَ ذلك بمعتقد النصارى في الإيمان بالأب السماوي. وقد تمَّ التنبيهُ على ذلك في المبحث المتعلق بحجج علماء الغرب على وجود الله من علم النفس.

ولكنْ يبقى سؤال: هل كلُّ ما قاله الملاحدة في هذا الباب باطل؟ الجواب أن الأمرَ فيه تفصيل؛ لأنَّ الديانات على قسمين:

القسمُ الأوَّل: دينُ الله الحق. وهذا الدين مبنيٌّ على الوحي الإلهي، وهو موافق للفطرة.

القسمُ الثّاني: الأديانُ الباطلة. وأسبابُ ظهور هذه الديانات كثيرة، مثل: وسوسة الشيطان، واتِّباع الهوى، وغير ذلك. ويمكن لعلماء النفس أن يستنبطوا بعضَ الأسباب النفسية لنشأةِ هذه الأديان الباطلة. وقد يكون سببُ الاعتقاد في الآلهة: الخوف من الطبيعة؛ فنسبَ هؤلاء المشركون صفاتٍ إلهية للطبيعة وادّعوا أنها إله من الآلهة. واللهُ تعالى يحذّر من عبادة الشمس والقمر في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[فصلت:٣٧].

كما أنه يوجد كثيرٌ من الدجالين الذين استغلوا الديانات الباطلة لأكل أموال الناس بالباطل؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤].

فلا يقال: إنَّ هذه الفرضيات كلّها باطلة ولا أساس لها من الصحة، بل يمكن أنْ تكون صحيحة في حدودٍ ضيّقة، ويمكن تطبيقُها على الأديان الباطلة، إلا أن فرضياتِ

فرويد نفسها مُنتقدة من ناحية علم النفس - كما سبق بيانُه -،كما أَنّها باطلة من الناحية التاريخية.

ولكنَّ الخطأ الكبيرَ عند الملاحدة أنّهم يستدلّون بهذه الفرضيات على أنّ الأديان كلَّها باطلة، وأنَّ الإيمان بالله وهم. بل قد لا يوجد وهمٌ أكبر من الوهم الإلحادي، ولا توجَد حقيقة راسخة أكبر من الإيمان بالله الأحد الصمد.

المبحثُ السّابع
ردودُهم على الشُّبهات المتعلقةِ بالتاريخ

هذا المبحثُ يتناول شبهاتِ الملاحدة التاريخية المتعلقة بوجود الله. والمقصود بالشبهاتِ التاريخية هو تحديدُ عُمر الكون والأرض والأحفورات بأعمار مديدة. وحيث إنَّ الملاحدة التطوُّريين يدَّعون أنَّ تطوُّر الكائنات يتطلّب وقتًا طويلًا جدًّا، فإنهم يدْعمون نظريتهم هذه بنظرياتٍ من الجيولوجيا وعلم الآثار. وليس المقصود أنّ الملاحدة يستدلّون بوقائع تاريخية على إلحادهم.

وقسَّمت هذا المبحثَ إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: بيانُ حقيقة شبهاتِ الملاحدة التاريخية.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغربِ على شبهات الملاحدة التاريخية.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماءِ الغرب على شبهات الملاحدة التاريخية.

الفقرةُ الأولى: بيانُ حقيقة شبهات الملاحدة التاريخية:

الإلحادُ المعاصر نشأ في بيئةٍ نصرانية؛ فمَن أراد أن يفهم الإلحادَ فإنه يحتاج أن يفهم الديانةَ النصرانية وكتابها المقدَّس. هذا الكتاب يشتمل على عددٍ من الموضوعات المختلفة كالشَّرائع والعقائد والآداب، ولكنَّ الجزءَ الأكبر من الكتاب يتعلّق بالتاريخ. أوَّلُ آية من السفْر الأوَّل في العهد القديم هي: (في البدء خلق الله السماوات والأرض)[1]. ثمَّ يذكر تفصيل الخلق في ستة أيام، وتتبع ذلك قصة خلق آدم ﵇ وزوجه، ثمَّ سردَ أسماء ذريتهما. وينصُّ الكتاب على ذرية آدم بدقّة مع ذكر

---

(١) سفر التكوين (١:١).

أعمارهم. تأتي بعدَ ذلك قصة نوح ﷺ والطوفان، ثمّ يذكر الكتاب ذريته بالتفصيل إلى زمن إبراهيم ﷺ، ويفصِّل في ذكر حياته وحياة أبنائه وأحفاده إلى زمن موسى. ومعظمُ الأسفار الأربعة الباقية من العهد القديم يتحدَّث عن حياة نبي الله موسى ﷺ. وبقية كتبِ العهد القديم تتحدَّث عن تاريخ بني إسرائيل إلى قرب حياة عيسى ﷺ. وبناء على هذا السَّرد التاريخي المفصَّل استنبط بعضُ أحبار اليهود من كتّاب التلمود[1] أنَّ الله خلقَ آدم في تشرين الأوّل عام ٣٧٦٠ قبل الميلاد[2].

وتبعَ بعضُ آباء الكنيسة الأوائل هذا النهجَ في استنباط تاريخ الخلق؛ فذكروا أن الله خلقَ السماوات والأرض عام ٥٥٢٩ قبل الميلاد[3]. وهذا الاختلاف الكبير مبنيٌّ على أنَّ اليهود يعتمدون على النسخة العبرية للعهد القديم، بينما النصارى الكاثوليك يعتمدونَ على النسخة اليونانية. وبين النسختين فروقات عديدة، منها فروق في تحديد السنوات والأعمار[4].

فاللاهوتيون مِن اليهود والنصارى حاولوا استنباط تاريخ بداية الخلق منذ حوالي ألْفَي سنة، واستمرَّ الأصوليون من اليهود والنصارى على هذا النهج إلى هذا العصر

---

(١) التلمود: هو تعليمُ ديانة وآداب اليهود. وهو يتكوَّن من جزئين:
١) متن: ويسمى (المشناة) بمعنى المعرفة أو الشريعة المكررة.
٢) شرح: ويسمى (جمارا) ومعناه الإكمال. انظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (١٢٢).

(٢) انظر:
The Jewish Time Line Encyclopedia, a year-by-year-from Creation to Present (107), by: Mattis Kantor, (Jason Aronson Inc, 1992)

(٣) انظر على سبيل المثال:
Theophilius of Antioch to Autolycus, Book III, Chapter XXVIII
وهذا الباب من الكتاب مترجم إلى اللغة الإنجليزية على هذا الرابط:
https://www.ccel.org/ccel/schaff/anf02.iv.ii.iii.xxviii.html

(٤) انظر:
Some Remarks Preliminary to Biblical Chronology, in Journal of Creation 12, 1, (98-106)

أيضًا. ففي الموقع الرسمي لحركةٍ يهودية أصولية كُتب أنَّ عام ٢٠٢١م هو عام ٥٧٨١ في تاريخهم[١]؛ لأنَّ خلقَ السماوات والأرض حصل في عام ٣٧٦٠ ق.م. والنصارى الأصوليون يؤلِّفون كتبًا[٢] خاصَّة في الانتصار للأرض الفتية، ويبيِّنون ذلك في مواقعهم في إنترنت[٣].

ولكنْ لم يكن هذا موقفَ اللاهوتيين من اليهود والنصارى فحسب، بل كان علماءُ الطبيعة في عصر النهضة يتبنون هذا الرأيَ كذلك. ومن الأمثلة على ذلك أن كبارَ علماء الفلك مثل: جوهنس كيبلر وإسحاق نيوتن كانا يريان هذا الرأي[٤].كما أنَّ وليام ويستون[٥] أصدرَ كتابه: «نظرية جديدة للأرض» (A New Theory of the Earth) عام ١٦٩٦م. وجادل بطريقةٍ علمية عن صحّة ما ذهب إليه كتاب النصارى المقدّس من عُمر الأرض، وتلقَّى علماءُ عصره كتابه بقبول[٦]. وإذا كان علماء الفلك والأرض يرون أنَّ عُمر الكون والأرض ليس إلّا بضعة آلاف سنة؛ فمِن الطبيعي أنَّ العلماء في ذلك الوقت رأوا أنَّ تاريخ البشر لا يتجاوز تلك الفترة.

---

(١) انظر: https: / /www.chabad.org /calendar /view /month.htm

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب: آلاف وليس ملايين (Thousands, not millions) لدون دي يونغ - بروفسور الفيزياء الأمريكي -.

(٣) انظر على سبيل المثال في اثنين من أكبر مواقع النصارى الأصوليين في الإنترنت:
https://creation.com/6000-years
https://answersingenesis.org/age-of-the-earth/how-old-is-the-earth/

(٤) انظر المقال: How does the Bible teach 6000 years? الذي جمع آراء العلماء في هذه المسألة على الرابط: https: / /creation.com/ ٦٠٠٠ - years

(٥) وليام ويستون (William Whiston): القسيس الأنجليكاني وعالم التاريخ والرياضيات البريطاني الذي اشتهر بمحاولته الجمع بين النصرانية والعلم التجريبي. توفي عام: ١٧٥٢م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /William – Whiston

(٦) انظر المقال: Whiston's Flood في موقع جامعة ستانفورد، وهو موجود على الرابط:
http://web.stanford.edu/~meehan/donnelly/whiston.html

ولكنْ بدأ ذلك يتغيَّر في عصر التنوير؛ فقد أصدر عالمُ الطبيعة الفرنسي جورج دي بوفون كتابه: «التاريخ الطبيعي» (Histoire Naturelle) عام ١٧٤٩م في ٣٦ مجلّدًا، وكان تاريخُ الأرض مِن ضمن ما ناقشه في هذا الكتاب. وهاجم ما ذهب إليه كتّابُ النصارى المقدَّس من أنَّ عُمر الأرض حوالي ٥٠٠٠ سنة، وقرّر أنّ عمر الأرض حوالي ٧٥ ألف سنة بناءً على بعض الأدلة الجيولوجية. وصار لهذا الكتاب صدى في الأوساط العلمية[١].

حاول العلماءُ المتديّنون تداركَ الأمر في القرن العشرين، وقدَّموا نظرية جديدة تسمى بنظرية الكارثة (Catastrophism)، وهي نظرية تنصّ على أنّ الأرض تشكَّلت خلال أحداثٍ عنيفة ومفاجئة وقصيرةِ الأمد. وذكر هؤلاء العلماء أنّ العصور الجيولوجية انتهتْ بكوارث طبيعية عنيفة، وانقرضتِ النباتات والحيوانات بسبب هذه الحوادث. وأشهرُ حادث تسبَّب في انقراض هذه الحيوانات والنباتات هو طوفان نوح حسب هذه النظرية[٢].

وفي تلك الحقبة الزمنية، بدأ علماءُ الطبيعة يستخدمون المبدأ العلمي المسمى بالوتيرة الواحدة (Uniformitarianism)، وهو الافتراض أنّ قوانين الطبيعة تعمل الآن كما كانت تعملُ في السابق. وهو مبدأ علميٌّ عام في أنواع العلوم المختلفة من أجل استنباط المجهول من المعلوم[٣].

وتنبثقُ من هذا المبدأ فرضيةٌ جيولوجية تسمى: «التدريجية» (Gradualism). وخلاصة هذه الفرضية هي أنَّ التغيير يحدث في الطبيعة تدريجيًّا خلال فترة زمنية

---

(١) انظر:

A History of Geology (92), by: Gabriel Gohau, translated by: Albert V. Carozzi and Marguerite Carozzi, (Rutgers University Press, 1990)

(٢) انظر المقال: Catastrophism على صفحة Encyclopedia.com على هذا الرابط: https://www.encyclopedia.com/earth-and-environment/geology-and-oceanography/geology-and-oceanography/catastrophism

(٣) انظر:

Is Uniformitarianism Necessary? By: Stephen J. Gould, in American Journal of Science 263 (3), (223-228)

طويلة جدًّا. وهذه الفرضيةُ الجيولوجية أثَّرت في تفكير علماء الأحياء من التطوّر التدريجي للكائنات الحية[1].

وقد تبنَّى العلماءُ العلمانيون مبدأ «الوتيرة الواحدة» ونظرية «التدريجية» لأنهما يتَماشيان مع المذهب الطبيعي المادي، بينما تبنى العلماءُ المتديّنون في تلك الفترة «نظرية الكارثة» إذْ هي أقربُ إلى الإيمان من حيث التدخُّل المباشر للخالق في الكون.

وفي هذه الأجواء العلمية، قدَّم تشارلز داروين نظرية التطوّر. وكانت نظرية التدريجية تعدُّ ركنًا أساسيًّا في نظريته، حيث يستحيلُ أن يحصل هذا التنوّع الكبير بين الكائنات الحيَّة عن طريق الانتخاب الطبيعي الأعمى إلّا في فترة زمنية طويلة جدًّا[2]. فلو صحَّ قولُ العلماء المتديِّنين من أنَّ عُمر الأرض ليس سوى ٦٠٠٠ سنة؛ فإنَّ نظرية داروين تسقط تلقائيًّا.

وقد سبقتْ نبذةٌ عن تاريخ نظرية داروين وقبولها في الأوساط العلمية. وتزامن مع ذلك قبولُ مبدأ الوتيرة الواحدة ونظرية التدريجية.

في عام ١٨٦٢م - يعني ثلاث سنوات من صدور كتاب: أصل الأنواع - قدَّم بارون كلفن نظريةً تفيد أنَّ عُمر الأرض ما بين ٢٠ إلى ٤٠٠ مليون سنة. ومع اكتشاف «التحلل الإشعاعي» (Radioactive decay) في نهاية القرن التاسع عشر قدّم العلماءُ نظرياتٍ مختلفةً في عمر الأرض، إلى أنِ استقرَّت آراء العلماء المتبنّين لمبدأ الوتيرة الواحدة في أوساط القرن العشرين بأنّ عمر الأرض حوالي ٤,٥ مليار[3].

---

(١) انظر المقال: Gradualism في موقع: Futura - Science, على الرابط:
http://www.futura-sciences.us/dico/d/geology-gradualism-50005396/

(٢) انظر: The Collapse of Evolution (53)

(٣) انظر المقال: How Science Figured Out the Age of Earth, في مجلة سينتفيك أمريكان. وهو موجود على الرابط:
https://www.scientificamerican.com/article/how-science-figured-out-the-age-of-the-earth/

وخلالَ القرن العشرين اكتشف العلماءُ مستحاثات بشرية عديدة، وبناء على التَّحلل الإشعاعي قدَّروا أنَّ عُمر أقدم مستحاثات بشرية حوالي ٣٠٠ ألف سنة، بينما مُستحاثات أسلاف البشر تقدَّر بملايين السنين[١].

وقد سبقَ في مبحث: نظرية الانفجار العظيم أنّ العلماء الذين يتبنّون هذه النظرية يعتقدونَ أنَّ عمر الكون ٧ , ١٣ مليار سنة.

وهذا ما استقرَّ عليه المجتمع العلمي الذي يتبنّى المذهب الطبيعي. ولا شكّ أنَّ هذا يُخالف تمامًا القراءةَ الحرفية لكتاب النصارى المقدّس. فحسب القراءة الحرفية لهذا الكتاب خلقَ اللهُ السماوات والأرض في ستة أيام حقيقية، وخلق آدم في اليوم السادس، ثمَّ يسرد تاريخَ ذريته، ويقدَّر بحوالي ٥٧٠٠ - ٧٥٠٠ سنة؛ بناءً على النسخ المختلفة للعهد القديم.

وبذلك أصبحت هذه شبهةً تاريخية لوجود الله، حيث إنَّ كتاب النصارى المقدس ربطَ بينَ خلق الخالق للكون، والأرض، والبشر؛ وبينَ هذا التاريخ. وذكر البروفسور جون لينوكس أنَّ الملاحدة يشكّكون في الوجود الإلهي، وكتاب النصارى المقدّس بناءً على هذه الشُّبهة[٢]. ودعاةُ الإلحاد الجديد أمثال ريتشارد دوكينز يكثرون من الاستهزاء بالنَّصارى الأصوليِّين الذين يعتقدون ما دلَّ عليه ظاهرُ كتاب النصارى المقدَّس في قصة الخلق[٣].

---

(١) انظر المقال: Human Evolution في موسوعة بريتانيكا، على الرابط:
https://www.britannica.com/science/human-evolution

(٢) انظر: Seven Days That Divided the World (11 - 12)

(٣) وقام ريتشارد دوكينز بهذا مرارًا وتكرارًا. ومن الأمثلة على ذلك استهزاؤه بالأصوليين النصارى في حواره مع البروفسور لورينس كراوس. والحوار موجود على هذا الرابط:
https://www.scientificamerican.com/article/should-science-speak-to-faith-extended/

الفقرةُ الثّانية:
ردودُ علماءِ الغرب على شبهات الملاحدة التاريخية:

هذه الشبهةُ ليست موجَّهة ضدَّ الإيمان بوجود الخالق عمومًا، ولكنّها موجّهة ضدَّ اليهودِ والنصارى في المقام الأوَّل. وذلك بسبب ما سبقَ ذكرُه من التنصيص في كتابهم المقدَّس على عمر الخلق.

وخلاصةُ هذه الشُّبهة: أنَّ ظاهرَ نصوص الكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى تخالفُ ما استقرَّ عليه المجتمعُ العلمي العلماني المعاصر في تاريخ الكون، والأرض، والبشرية. فإمَّا أنَّ ظاهرَ نصوص كتابهم المقدّس غير صحيحة، وإما أنَّ ما استقرَّ عليه المجتمعُ العلمي العلماني غيرُ صحيح. وقد اتَّخذ اليهود والنصارى مسلكين رئيسين في التعاملِ مع هذا التعارض الظاهر، وهما:

المسلكُ الأوَّل: تأويلُ ظاهر نصوص كتابهم المقدَّس.

المسلكُ الثّاني: نقدُ موقف المجتمع العلمي من تاريخ الأرض.

وتفصيلُ ذلك كما يلي:

- **المسلكُ الأوَّل: تأويلُ ظاهر نصوص كتابهم المقدَّس:**

وأمَّا المسلكُ الأوَّل فليس بوليدِ الساعة، بل ثمَّة خلاف قديم في أوساط اليهود والنَّصارى في قراءة قصةِ الخلق في العهدِ القديم؛ وقد خصَّص البروفسور جون لينوكس فصلًا من كتابه: «الأيام السبعة التي فرّقت العالم» (Seven Days that Divided the World) في مناقشةِ هذا الخلاف، وبيَّن أنه خلافٌ قديم لدى اليهود والنصارى. وأنّ عددًا من اللاهوتيّين اليهود والنصارى منذُ حوالي ألفين سنة كانوا يئوِّلون قصة الخلق في العهد القديم. وذلك بناءً على نصٍّ في كتابهم المقدَّس: (ولكن لا يخفى عليكم هذا الشيء الواحد أيُّها الأحبة أنَّ يومًا واحدًا عند الربِّ كألفِ سنة، وألف سنة كيوم واحد)[1]. وهذا الرأيُ، ومثلُه مِن الآراء المقاربة

(١) بطرس (٣:٨).

تبنّاه عددٌ من اللاهوتيين المشهورين، بينما ذهبَ غيرُهم إلى القراءةِ الحرفية لهذه النصوص، وأنَّ الأيام الستة هي أيام مثل أيامنا العادية. وهذا ما ذهبَ إليه لوثر وكلفن من البروتستانت[١].

والنقاشُ بينَ الطوائف النصرانية في تفسير هذه النصوص مازال حادًّا إلى هذا العصر حتَّى تُقام مناظرات خاصَّة في هذه القضية بين أنصار الأرض القديمة وأنصار الأرض الفتية[٢].

ومَن سلك هذا المسلكَ في تأويل ظاهر النصوص في كتابهم المقدّس، فلا يرى أنَّ اعتراضَ الملاحدة هذا يعدُّ شبهة أصلًا؛ لأنَّ الشبهة موجَّهة تجاه التاريخ المذكور في كتابِهم المقدَّس، وليست موجَّهة تجاه وجود خالق خلق الكون؛ فلا يوجد مانعٌ عقلي يمنعُ أنَّ الخالق خلقَ الكون قبل ١٣,٧ مليار سنة، وخلق الأرض قبل ٤,٥ مليار سنة.

- **المسلكُ الثّاني: نقدُ موقفِ المجتمع العلمي العلماني من تاريخ الأرض:**

بينما يقبل أنصارُ الأرض القديمة موقفَ المجتمع العلمي العلماني من قدم الأرض؛ فيرفضُ أنصارُ الأرض الفتيَّة هذا الموقف رفضًا تامًّا، لتعارضه مع ظواهر النصوص في كتابهم المقدَّس. ولكنهم لم يكتفوا بالقول بأنَّ هذا الموقف يعارض كتابهم المقدّس، بل نقدوا موقفَ المجتمع العلمي العلماني من الناحية العلمية البحتة أيضًا. وقد ألّفوا عددًا مِن المقالات، وأجزاء من كتبٍ في ذلك، ولكن تميّز البروفسور دونالد دي جونغ[٣] بتأليف كتابٍ علمي كامل في ذلك بعنوان: آلاف

---

(١) انظر هذا الفصل: Seven Days that Divided the World (39 - 66)

(٢) ومن هذه المناظرات: مناظرة الدكتور جاسون ليزلي والدكتور هيو روس على هذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=L1VU7kw04Os
ومناظرة كين هام وجيف سويرينك على هذا الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=aNmuB9EF_vk

(٣) دونالد دي جونغ (Donald De Young): البروفسور ومدير قسم دراسات الفيزياء في كلية غرايس بالولايات المتحدة. وهو من أنصار نظرية الأرض الفتية. انظر:
https://creation.com/dr-donald-deyoung

وليس مليارات (Thousands not Billions). والبروفسور دي جونغ متخصِّص في الفيزياء، والرياضيات وعلم الفلك، وكان يعمل ضمنَ فريق RATE - وهذا الفريق مجموعة من علماء الفيزياء والأرض من أنصار الأرض الفتية -. وأبوابُ هذا الكتاب مبنيَّة على دراسات علماء فريق RATE, وكلهم من حملةِ شهادة الدكتوراه في تخصُّصهم[١]. وعليه، فيعتبر هذا الكتابُ من أهمِّ الكتب في الانتصارِ لنظرية الأرض الفتية، فسيتمُّ التعويلُ عليه إلى حدٍّ كبير في هذه الردود. وقد سبقَ في المبحث المخصَّص بنقد نظرية الانفجار العظيم ذكر الردود على موقف المجتمع العلمي من عُمر الكون، وفي هذا المبحث سيتمُّ التركيزُ على عمر الأرض.

وهذه المسألةُ في غاية الأهمية؛ لأنَّه يكثر الحديث أثناءَ النقاش في مسائل متعلّقة بنظرية التطوُّر عن عُمر الأرض والمستحاثات. كما أنَّه يكثر في وسائل الإعلام ذكرُ أخبارٍ عن اكتشاف علماءِ الآثار لأحفورات جديدة للبشر أو الحيوانات. ويأخذ عددٌ مِن المسلمين هذه الأخبارَ معَ تحديد هذه الأعمار كمسلّمات التي لا تقبل الجدل. ولكنْ كما سيتبيَّن من كلام البروفسور دي جونغ في هذه المسألة أنها بعيدةٌ عن كونها مسلَّمات علمية.

وفهمُ هذه المسائل يحتاج إلى عددٍ من المقدِّمات، وقد يستثقل القارئ قراءتها، ولكنَّها ضرورية لفهم الردود.

وقد بدأ البروفسور دي جونغ كتابَه بنبذةٍ عن كيفية حساب عمر الأرض، وملخَّص ما ذكره في ثلاث نقاط:

- **النُّقطةُ الأولى: نبذةٌ مختصرة عن دراسة الإشعاع:**

مَن أراد أن يفهمَ كيفية حسابِ عُمر الأرض أو المستحاثات، فلا بدَّ أن يفهم حقيقةَ جسيمات الإشعاع من الذرات التي يتمُّ قياسها في الحسابات. وللمساعدة في فهْم جسيمات الإشعاع، فمِن المفيد إجراءُ مراجعة موجزة للكيمياء: يوجد حاليًا ١١٨ عنصرًا معروفًا في

---

(١) انظر:

Thousands not billions (17-19), by: Dr. Don DeYoung, (Master Books, Fifth Edition, 2010)

الجدول الدوري. ومِن إجمالي العناصر المعروفة، يوجد ٩٨ عنصرًا بشكلٍ طبيعي، وأحدُ أثقل العناصر يسمى باليورانيوم.

يوجَد معظمُ العناصر نفسها أيضًا في أنواعٍ مختلفة تسمى النظائر، وجميعُ نظائر عنصرٍ معيَّن متشابهة كيميائيًّا، وتحتلُّ المساحة نفسها في الجدول الدوري. على سبيل المثال: هناك ثلاثةُ نظائر موجودة بشكل طبيعي لعنصر الكربون - الكربون ١٢ و١٣ و١٤. وهذه الأرقامُ هي الأوزانُ الذرية، أو كتلُ النظائر مقارنة بالهيدروجين، وهو أخفُّ العناصر. يعتبر الكربون ١٣ أثقل قليلًا من الكربون ١٢ لأنَّ صنف الكربون ١٣ يحتوي على نيوترون إضافي واحد في نواته: سبعة بدلًا من ستة نيوترونات عادية من الكربون ١٢. غالبًا ما تكون النظائرُ التي تمتلك نيوترونات إضافية مثل: الكربون ١٤ غير مستقرَّة، وتتعرَّض في النهاية للاضمحلال الإشعاعي. وفي هذه العملية، يشعُّ النظيرُ الطاقةَ والجسيمات بعيدًا.

هناك أكثرُ من ٢٠٠٠ نظيرٍ معروف بين جميع العناصر. يحتوي اليورانيوم وحده على ٢٨ نوعًا مختلفًا من النَّظائر المشعة. غالبيةُ النظائر مشعَّة، لها نطاقٌ كبير من الأعمار المتفاوتة، مِن ميكروثانية إلى مليارات السنين. ومع ذلك، فإن أكثرَ النظائر شيوعًا في الطبيعة مستقرِّة.

كشفتِ الدراسات عنْ خاصية أساسية للاضمحلال الإشعاعي، وتسمى: نصف العُمر النووي. هذا هو طولُ الفترة الزمنية اللازمة لكي تتحلل ٥٠ ٪ من كمية المواد المشعَّة. لنفترض أننا تركنا سهمًا يمثل نصفَ عُمر لمادة مشعَّة، ونبدأ بإجمالي عدد ذرات N. ثمَّ ستنخفض الكمية المتبقية أو المتبقية من المادة مع مرور الوقت بزيادات نصف العمر.

$$N \rightarrow N/2 \rightarrow N/4 \rightarrow N/8 \rightarrow N/16 \rightarrow N/32 \rightarrow \dots$$

لاحظ أنَّه في الرياضيات غير المعتادة للتحّلل النووي، فإن نصف عمر مرّتين لا يساوي حياةً كاملة. وبدلًا من ذلك، فإنَّ مرورَ نصفِ عُمر من الوقت مرَّتين يترك ربع العدد الأصلي للذرات المتبقية، وهكذا.

في هذه المرحلة، قد يسألُ المرء: ما الذي يحدِّد عُمر ذرَّة مشعَّة معينة بالنسبة للراديوم[1] - ٢٢٦، على سبيل المثال؟ ولماذا تتحلَّل ذرةٌ معينة خلال الثانية التالية بينما قدْ تستمرُّ ذرةُ الراديوم المتطابقة لآلاف السنين؟ الجوابُ البسيط: لا نعرف السبب! التحللُ النووي وخصائصُ نصف العُمر المرتبطة به هي مفاهيمُ إحصائية وتجريبية بحْتة. يعدُّ الهيكل الداخلي وسلوكُ نواةِ الذرة أحدَ حدود فهْم الفيزياء الحديثة[2].

- **النُّقطةُ الثّانية: نبذةٌ مختصرة عن تحديد العمر بالنظائر المشعَّة:**

ذكرَ البروفسور دي جونغ أنَّ «ساعة الطبيعة» تبدأ في الظهور عندما تكون النظائرُ المشعَّة مغلقة داخلَ صخور نارية متبلورة حديثًا، كما تشير إليه كلمة إشعال (Ignite) الصخور النارية التي تتشكَّل عندما تبرد المادةُ المنصهرة الساخنة، وتسمى الصخور المنْصهرة بالصُّهارة، وهي تحتَ الأرض، وتصبح حممًا إذا وصلت إلى سطح الأرض. يعتبرُ النوعان الأساسيان الآخران من الصخور - وهما الصخور الرسوبية (Sedimentary) والمتحولة (Metamorphic) - أقلَّ فائدة في تحديد العُمر لأنَّ أصلهما صخور موجودة مُسبقًا، ومُعادٌ تشكيلها. يتطلب تحديدُ العمر بالنظائر المشعة قياسَ كمية الذرات البنت التي تنتج عن تحلُّل الذرّات الأمِّ المشعة داخل عينة الصخور النارية.

على سبيل المثال، يتحلَّل نظيرُ الأم المشع البوتاسيوم[3] 40 - K، 40 -، إلى الابنة الأرجون 40 - Ar، 40 -، مع عمر نصف يبلغ ٢٥ , ١ مليار سنة.

---

(١) الراديوم (Radium): عنصر معدني مُشِع أبيض لامع، يستخدم في الصناعات النوويّة، وتعالج به الأمراض، وهو ذو نشاطٍ إشعاعي، وزنه الذَّرِّي ٢٦، وعدده الذَّرِّي ٨٨، وهو عنصر نادرُ الوجود، اكتُشف سنة ١٨٩٨م. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٢ / ٨٤١).

(٢) انظر: (30 - 22) Thousands not billions

(٣) البوتاسيوم (Potassium): عنصر فلزّي ليّن من مجموعة القلويّات لامِع كالفضّة، يتأكسد ويمتزج بالكلور والكبريت وغيرهما، فينتج تراكيب مختلفة، تُستعمل لتغذية النَّبات بعنصر البوتاس. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ٢٦٠).

افترضْ أنَّ صخرة تتشكَّل بمحتوى أولي من K - ٤٠، ولكن لا يوجد Ar - ٤٠. ثمَّ تمَّ العثورُ عليه لاحقًا لاحتواءِ ذرّات كبيرة من الأرجون - ٤٠. نتيجة لذلك، قد يُفترض أنَّ العيِّنة قديمة. وفي المقابل، إذا تراكمَ القليل من Ar - ٤٠، فسيتمُّ تحديدُ عمر العينة على أنها صغيرةٌ أو حديثة. يعتمد عمرُ العينةِ الفعلي على كمية K - ٤٠ الأولية، ونصف عمرها، وعوامل المعايرة الأخرى. يُطلق على العُمر المحسوب لعينةٍ واحدة عمر النموذج (Model age). وهذا ليس بالضرورة العمرَ المطلق والصحيح للصخرة.

هناك مفهومٌ إضافي مهمٌّ للغاية للتأريخ بالنَّظائر المشعَّة يسمى بخطٍّ تساوي الزمن (Isochron)، وهو رسمٌ بياني للبيانات يحاول معالجةَ ثلاث قضايا متعلّقة بتحديد العمر:

القضيةُ الأولى: تتعلَّق بما إذا كانت أيُّ ذرّات ابنة موجودة في الصخر عندما تتبلور لأوَّل مرةٍ من الصُّهارة، قبلَ أن تتحلل أيُّ ذرات أصلية بعد. إذا كانت ذراتُ الابنة موجودةً ولم يتمُّ حسابها، فسيكون للصخرة مظهرٌ مُضلل للعمر.

القضيةُ الثّانية: تتعلَّق بما إذا كانتِ العينة قد ظلَّت نظامًا مغلقًا أم لا خلالَ تاريخها. إذا لم يتمّ إغلاقُها، يمكن للذرات المختلفة أن تهاجرَ إلى العينة أو تخرج منها بمرورِ الوقت، وتبطل حساب العمر.

القضيةُ الثّالثة: التي تناولها خطٌّ تساوي الزمن تتعلَّق بالعمر المحسوب على الأرجح لجسمٍ صخري، استنادًا إلى المتوسط الإحصائي لعدد من قياسات النظائر المشعة. يُستخدم خطٌّ تساوي الزمن اليوم في كلِّ تجربة تحديد العمر بالنظائر المشعة تقريبًا[١].

وبناءً على خلاصةِ هاتين النُّقطتين ننتقل إلى النقطة الثالثة التي تبيّن أنَّ تحديد العمر بالنَّظائر المشعَّة مبنيٌّ على ثلاثة افتراضات مشكوك فيها.

---

(١) انظر: (42 - 34) Thousands not billions

- **النقطة الثالثة: الافتراضات في تحديد العمر عن طريق النظائر المشعة**

هناك ثلاثةُ افتراضاتٍ أساسية في طريقة التأريخ بالنظائر المشعة:

الافتراضُ الأوَّل: أنَّ الشروطَ الأولية للعينة معروفة بدقّة. وهذا يشمل أيَّ ذرّات نظائرية بنت (Daughter isotope atoms) موجودة في الصخور وقت تكوينها. وقد تساعد مخطَّطات خطِّ تساوي الزمن في الإشارة إلى وجود هذه النظائر الابنة.

الافتراضُ الثّاني: أنَّه يمكننا معرفة ما إذا كانت الصخرة قد تبادلت الذرات مع المناطقِ المحيطة خلالَ تاريخها أم لا. وقد تساعد مخططاتُ خطِّ تساوي الزمن في تحديد الطبيعة المغلقة أو المفتوحة للصخور.

الافتراضُ الثّالث: أنَّ معدَّل التحلُّل النووي أو نصف العمر للنظير الأصلي ظلَّ ثابتًا منذُ تشكُّل الصخر. ومع ذلك، إذا تغيَّر معدَّل التحلُّل خلال تحديد عمر عينة الصُّخور، على غِرار الساعة التي تعمل إمّا بسرعة أو ببطء، فمن الواضح أن عمر النظائر المشعَّة المحسوب سيكون غيرَ صحيح. **وطرقُ خطِّ تساوي الزمن ليست حسّاسة لاختبار صحة هذا الافتراض.**

وذكرَ البروفسور دي جونغ أنّ فريق RATE وجد عددًا من الأمثلة التي فشل أوّل افتراضيْن في تطبيقها. ومعَ ذلك، ربما تكون أهم نتائج مشروع RATE تتعلّق بالافتراض الثّالث، يعني: ثبات التحلُّل النووي خلال ماضي الأرض. وقد اكتشف هذا الفريقُ عددًا من الأدلَّة المادية الموضوعية على أن معدَّلات التحلل النووي كانت أعلى بكثير في الماضي مما نقيسُه اليوم. ويمكن أن تفسِّر هذه الأدلةُ سببَ تحديد طرق النظائر المشعة القياسية في الغالب بأعمارٍ تتراوح بين ملايين أو بلايين السنين[١].

ويمكن أن نستخلصَ مِن هذه المقدِّمات المهمَّة أنَّ تحديد عمر الأرض أو المستحاثات مبنيٌّ على قياسات علمية دقيقة، ولكن هذه القياسات نفسها مبنية

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٢).

على افتراضات. وبينما يوجَد بعض الأدلة العلمية تؤيّد مصداقية الافتراضين الأوّل والثاني ويوجَد أدلة أخرى تشكِّك فيهما، فإنَّ الافتراض الثالث ليس مبنيًّا على أدلة علمية، بل توجَد أدلةٌ علمية كثيرة تشكِّك في مصداقية هذا الافتراض. ولو تبيّن فعلًا أنّ هذا الافتراضَ الثالث غيرُ صحيح، فليست هناك قيمةٌ علمية قوية للأدلة العلمية في تحديد عُمر الأرض والمستحاثات بالعمر الطويل المزعوم.

الأدلةُ العلمية على الأرض الفتية:

كما أنَّ الافتراضات في تحديد العمر عن طريق النظائر المشعة مشكوك فيها؛ فإنّه يوجَد عددٌ من الأدلة يشيرُ إلى أنَّ عُمر الأرض ليس مليارات السنوات، بل أصغر من ذلك بكثير. وقد سردَ سكوت هيوس - المتخصّص في نقد نظرية التطوّر - عددًا كبيرًا مِن الأدلة التي تشيرُ إلى أنَّ الأرض فتية، أي أنَّ عمرها أقصر مما يزعمون. وهذه الأدلة مهمَّة في نقد نظرية التطوّر المبنية على الأرض القديمة؛ قال سكوت هيوس: «هناك أبحاثٌ متراكمة كثيرة تقترح أنَّ الأرض والنظام الشمسي حديثان نسبيًّا، وليسا قديمين كما افترضَه التطوّريون، الذين غربلوا العملياتِ التالية انتقائيًّا لأنها تشير إلى عمرٍ صغير نسبيًّا للأرض والنظام الشمسي. وهذه الأدلةُ تحرمهم من إطارهم الزمني التطوّري»[1].

ومِن أهمِّ الأدلة التي ذكرها العلماءُ لإثبات أنَّ عمر الكوت والأرض والبشرية صغيرٌ، أربعة أدلة:

- **الدَّليلُ الأوَّل: الحقلُ المغناطيسي للأرض:**

تمَّ قياسُ قوة الحقل المغناطيسي للأرض لأكثر من قرن، ما وفّر للعلماء سجلًّا جيّدًا استثنائيًّا. وقد تخصَّص البروفسور توماس ج. بارنيس[2] في هذا المجال لعقود

---

(1) The Collapse of Evolution (66)

(٢) توماس ج. بارنيس (Thomas G. Barnes): بروفسور الفيزياء في جامعة تكساس بالولايات المتَّحدة، ومن علماء مذهب الخلق. توفي عام: ٢٠٠١ م. انظر:
https://christiananswers.net/creation/people/barnes-tg.html

من الزمن، وأوضَح في دراسة علمية مهمة أنَّ قوة الحقل المغناطيسي للأرض تضمحل أضعافًا مضاعفةً بمعدَّلٍ يتوافق معَ نصف العمر كلَّ ١٤٠٠ سنة. يعني: أنّ قوته قبل ١٤٠٠ سنة كانت ضعفَ قوته اليوم. فإذا قمْنا بالتقدير استقرائيًّا عودةً إلى ١٠,٠٠٠ سنة سابقًا؛ فسنجد أنَّ حقلَ الأرض المغناطيسي كان يعادل الحقل المغناطيسي للنجوم! وبالاعتماد على معدَّل التلاشي الحالي للحقل المغناطيسي للأرض، تبيّن للبروفسور بارنيس أنَّ الأرض لا يمكن أن تكون أكبر من ١٠,٠٠٠ سنة[١].

- **الدَّليلُ الثّاني: تكوُّن النفط والغاز الطبيعي:**

ذكرَ الدكتور روبيرت كوفال[٢] أنه يتكبّت النفط والغاز الطبيعي تحت ضغوطات عالية في مستودعات تحتَ سطح الأرض في طبقات صخرية مُحكمَة نسبيًّا، وتكون الضغوطاتُ عالية جدًّا في عددٍ من الحالات، وتكشف الحسابات المستندة إلى النفوذية المحسوبة للطبقات الصخرية أنّه لا يمكن المحافظة على الضغوط للغاز والنفط لأكثر من ١٠,٠٠٠ سنة في عددٍ من الاقتراحات. وعليه، فافتراض احتجاز مثل هذه المستحاثات المزوَّدة بالوقود المتراكمة لملايين السنين، دون أي تتسرب عبر طبقاتها الصَّخرية، هو افتراض مناف للعقل[٣].

وذكرَ سكوت هيوس أنَّ التجارب الحديثة أثبتت قطعيًّا - إضافة لما ذكره الدكتور كوفال - أنّه يمكن تحويلُ المواد النباتية والمائية إلى النفط والغاز في وقت قصير بشكل مفاجئ؛ فعلى سبيل المثال، فقد تحوَّلت الموادُّ المشتقة من النباتات إلى درجات جيّدة

---

(١) انظر:

"Depletion of the Earth's Magnetic Field", Impact No. 100, Institute of Creation Research, California, October 1981, p. 4.

(٢) روبيرت كوفال (Robert Kofahl): عالم الفيزياء الأمريكي المهتمُّ بنقد نظرية التطوُّر. وقد أخذ شهادة الدكتوراه من معهد كالفورنيا التقنية. توفي عام: ٢٠٠٩م. انظر:

http://c-src.org/about/

(٣) انظر: Handy Dandy Evolution Refuter (122 - 123).

مِن النفط في حوالي ٢٠ دقيقة تحتَ الظروف المناسبة من حرارة وضغط، كما تحوّلت الموادُّ الخشبية والسلليوزية[١] إلى الفحم أو مواد شبيهة بالفحم في غضون بضعة ساعات. وتثبتُ هذه التجارب أنَّ تشكيل الفحم والنفط والغاز لم يتطلّب بالضرورة ملايينَ السنين كما يفترض الجيولوجيون الذين يتبنون نظرية الوتيرة الواحدة.

وذكرَ سكوت هيوس أنَّ أنصار الأرض الفتية يعتقدون أنّ التراكمات الهائلة من الفحم في العالم؛ هي البقايا النباتية الممتدة المنقولة والمتحولة لعالم ما قبل طوفان نوح.

أضافَ هيوس أنَّ التطوّريين يزعمون أنّ الفحم الحجري قد تشكّل قبل تطوّر الإنسانِ بملايين السنين، لكن وجدت هياكلُ بشرية ومصنوعات بشرية، كسلاسل الذَّهب معقَّدة البناء، في تراكمات الفحم. وهذا دليل على أنّ البشر عاشوا في تلك الفترة[٢].

- **الدَّليلُ الثّالث: الهليوم الجوّي:**

هناك دليلٌ آخر للأرض الفتيةِ ذكرَه الدكتور راندي ويسونغ. وهذا الدليل يتعلَّق بالكميةِ الصغيرة للهيليوم في الجوِّ اليوم؛ فقد حافظَ التطوّريون على أنّ عمليات التلاشي الإشعاعي لليورانيوم والتوريوم التي تنتج الهيليوم قد ظهرتْ في قشرة الأرض لمليارات السنين، لكن إذا كانَ هذا التلاشي يعودُ إلى مليارات السنين الماضية، فيجب أن يحتوي جوُّ الأرض على أكثرَ بكثيرٍ من الهيليوم اليوم (جزء من ٢٠٠٠٠٠ جزء). والتفسير الشّائع المقدَّم لغياب الهيليوم المطلوب هو أنّه قد تسرَّب عبرَ طبقة الإكسوسفير (Exosphere) – وهي أعلى طبقةٍ في الغلاف الجوي –. لكنْ ذكرَ الدكتور ويسونغ أنه لا دليلَ يدعم هذا الافتراض. وتشير البياناتُ الحديثة إلى أن الهيليوم لا يستطيع أن يتسرّب إلى الفضاء كما هي حالُ الهيدروجين، ولجعل

---

(١) سليلوز (Cellulose):مادة موجودة في جدران خلايا النباتات، وتستخدم في صناعة الورق والبلاستيك والأقمشة والألياف المختلفة. انظر:

https://www.collinsdictionary.com/dictionary/english/cellulose

(٢) انظر:

The Collapse of Evolution (69)

الأمر أسوأ للتطوّريين، فمن المحتمل أيضًا أنَّ الهيليوم يدخل إلى جوِّ الأرض من الفضاء الخارجي عبر إكليل الشمس، حيث كشفتِ الحساباتُ الواقعية المعتمدة على المخططات المتوفرة أنّ مقدار الزمن المطلوب لعمليات التلاشي الطبيعية ألفا التي أنتجت الهيليوم الملاحظة حاليًا؛ هو تقريبًا ١٠,٠٠٠ سنة[١].

- **الدَّليلُ الرّابع: النموُّ السكاني:**

يقدِّم النموُّ السكاني دليلًا آخرَ عن الأرض الفتية نسبيًّا، حيث يعتقد التطوّريون أنَّ الإنسان قد عاش على الأرض منذ ملايين السنين على الأقلّ، بينما يعتقد أنصارُ الأرض الفتية أنَّ الإنسان عاش بضعة آلاف سنين فحسب. والسؤال هو: «أي احتماليةٍ هي المدعومة أكثرَ ببيانات إحصائيات النمو السكاني؟».

لقد حسبَ البروفسور هنري موريس أنَّ متوسِّط النمو السكاني هو نصف بالمائة كلَّ سنة فقط، وهو ربع المعدَّل الحالي. وسينتج تعددًا سكانيًّا حاليًا قدره ٤٠٠٠ في السَّنة فحسب، مما يسمح بفراغٍ واسع لفترات من الزمن، بسبب الحرب والمرض، كان معدَّل النمو السكاني فيها أقلّ من المتوسّطات الطبيعية. ويشير البروفسور موريس إلى أنَّه من غير المقنع إحصائيًّا أنْ يكون ٥,٤ مليار شخص[٢] فقط قد نتج من مليون سنة في التاريخ التطوُّري، فحتى لو تزايدَ التعداد السكاني بمقدار نصف بالمائة كلَّ سنة فقط لمليون سنة، فسيتجاوز عددُ السكان في العالم في الجيل الحالي $١٠^{٢١٠٠}$ نسمة! ولكي نقدِّر تمامًا الطبيعةَ الهزلية للنموذج التطوّري في هذه النظرة، يجب أن نأخذ بعين الاعتبارِ حقيقةَ وجود $١٠^{١٣٠}$ إليكترونًا فقط في الكون كله! استنتج البروفسور موريس أن تاريخ الإنسان يعودُ إلى آلاف السنوات فحسب لا ملايين[٣].

---

(١) انظر: The Creation – Evolution Controversy (161 - 163)

(٢) هذا عدد السكان في الأرض حين ألّف هذا الكتاب عام ١٩٧٤م.

(٣) انظر: Scientific Creationism (167 - 169)

فهذه أربعةُ أدلة ضمنَ أدلة كثيرة ذكرها علماء الغرب من أنصار الأرض الفتية على أنَّ تاريخ الأرض والبشرية يقدَّر بآلاف السنين فقط، وليس ملايين. والخلاصة أنّ الأدلة العلمية المتعلّقة بفتية الأرض أو قدمها؛ مُتضاربة.

فيوجَد بعضُ الأدلة تشير إلى أنَّ الأرض قديمة، ولكن هذه الأدلة مبنية على افتراضاتٍ مشْكوك فيها. وفي المقابل فهناك أدلَّة تشير إلى أنَّ الأرض فتية، وليست قديمة. ويكفي في سقوطِ شُبهات الملاحدة المتعلّقة بالتاريخ تعارض الأدلة المتعلقة بهذا الموضوع.

الفقرةُ الثّالثة:
تقييمُ ردودِ علماء الغرب على الشُّبهات المتعلقة بالتاريخ:

قضيةُ عُمر الأرض وعُمر البشرية من أهمِّ الشبهات العلمية التاريخية التي يثيرها الملاحدةُ ضدَّ كتاب النصارى المقدَّس. وقد تبيَّن أنَّ النصارى أنفسهم مختلفون في هذه المسألة؛ فمنهم مَن يوافق على أنَّ عمر الأرض ٤,٥ مليار سنة، وتاريخ أسلاف البشر يعودُ لملايين السنوات، وتاريخ الإنسان الحالي يعود لمئات الآلاف من السنين. ومن النَّصارى مَن يرى أنَّ عُمر الأرض - وكذلك البشرية - يقدَّر بآلاف السنين فقط. وعليه، فلا يمكن أنْ يقال: إنَّ هذه الشبهة موجَّهة ضدَّ الإيمان بالله، حيث يوجد كثيرٌ من المؤمنين بالله يوافقونَ في الوقت نفسه بأقدمية الأرض. ولكنّ هذه الشبهة موجّهة إلى ظاهرِ النصوص الدينية لدى اليهود والنصارى.

والسؤالُ الذي يطرح نفسَه هو: هل يمكن توجيهُ هذه الشبهة ضدَّ نصوص القرآن الكريم أيضًا؟ لا شكَّ أنَّه يوجد توافقٌ كبير بين القصص المذكورة في القرآن والسنة وبعض القصص المذكورة في الكتاب المقدّس. ولكنّ الله تعالى أخبرنا أنّ أهل الكتاب قدْ حرَّفوا كتابهم إذْ قال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦]. وقد رسم النبي ﷺ منهجًا في التعامل معَ أخبار أهل الكتاب إذ قال: «ما حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم، ولا تكذّبوهم، وقولوا: آمنّا بالله ورسله، فإن كان باطلًا لم تصدّقوه، وإن كان حقًّا لم تكذبوه»[1].

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٦٤٤)، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، من حديثِ أبي نملة الأنصاري (رضي الله عنه)، وصحّحه الألباني شيخ الإسلام ابن تيمية، كما في مجموع الفتاوى (١٢ / ٥٨).

فهل هذه الأخبارُ التي تذكر عُمرَ الأرض والبشرية بتواريخ محدّدة من قبيل هذا التحريف؟ هذا ما جزمَ به الحافظ ابن حزم (رحمه الله) إذ قال: «وأما اختلاف النّاس في التّاريخ، فإنَّ اليهود يقولون: للدنيا أربعة آلاف سنة. والنّصارى يقولون: للدنيا خمسة آلاف سنة، **وأمّا نحنُ فلا نقطع على علم عددٍ معروف عندنا**. ومَن ادَّعى في ذلك سبعة آلاف سنة، أو أكثر أو أقل، **فقد كذَب**، وقال ما لم يأتِ قطُّ عن رسول الله ﷺ فيه لفظة تصح، **بل صحَّ عنه ﷺ خلافه، بل نقطع على أنّ للدنيا أمدًا لا يعلمه إلّا اللهُ عزَّ وجلّ**، قال اللهُ تَعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الكهف:٥١] وقول رسول الله ﷺ: «مَا أَنْتُم في الْأمم قبلكم إِلّا كالشعرة البيضاء فِي الثور الأسود، أَو كالشعرة السَّوْدَاء فِي الثور الْأَبْيَض»[1] هذا عنه ﷺ ثابت، وهو ﷺ لا يقول إلاّ عين الحق، ولا يسامح بشيء من الباطل لا بإعياءٍ ولا بغيره، فهذه نسبةٌ مَن تدبرها وعرفَ مقدار أعداد أهل الإسلام، ونسبة ما بأيديهم من معمور الأرض وأنه الأكثر؛ علم أنَّ للدنيا عددًا لا يُحصيه إلّا اللهُ تعالى... إلّا أنَّ لكل ذلك أولًا ومبدأ، ولا بُدَّ من نهاية، لم يكن شيء من العالم موجودًا قبلها، ولله الأمرُ من قبل ومن بعد»[2].

ويُضاف إلى ذلك أنَّ قصص الأمم السابقة عمومًا وقصص الأنبياء خصوصًا من أنباء الغيب؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٨ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٤٩ ﴾ [هود: ٤٨ - ٤٩] وحقيقة الغيب لا يعلمها إلّا الله؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥].

وأخبرنا اللهُ عن شيء من قصصهم، ولكنه لم يخبرنا عن هذه التواريخ، بل أخبرنا بوجود حقبٍ تاريخية مجهولة لدينا؛ مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ ﴾[الإسراء:١٧].وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣١]. وقال الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٢٨)، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنِّحَل (٢ / ٢٥٧ - ٢٥٨).

تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

وهذا فيما يتعلَّق بتاريخ البشرية. ومن الممكن أنّ الأرض كانت موجودة قبل ذلك بفترةٍ طويلة؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]. وقد حاول بعضُ المفسّرين تحديدَ هذا الحين بمدَّة زمنية معيّنة، ولكن الإمام القرطبي رحمه الله ذكر من ضمنِ الأقوال: «وقيل: الحينُ المذكور ها هنا لا يُعرف مقداره»[1]. ولعل ذلك أرجحُ الأقوال حيث لم يردْ في ذلك نصٌّ عن الرسول ﷺ، والأقوال عن السلف متعارضة[2]. ولا يكون قولُ أحد من السلف حجة على الآخر إذا اختلفوا.

وقد سبقَ ذكرُ اختلاف العلماء في تحديد المراد بالأيام في أيام الخلق، وأنّه لا يلزم أنَّها أيام كأيامنا نحن. وبذلك يمكن أن يقال إنَّ الأرض قديمة، وإنَّ البشرية عاشت أطولَ من بضعة آلاف من السنين. ولكن لا يعلم هذا العددَ إلا الله. وأما الرجوع إلى الاكتشافات العلمية، فقد سبق أنَّ الأبحاث والدراسات في ذلك متضاربة. وأنّ كلَّ مَن يذكُر سنوات معينة يتبنّون رؤية العالم المشتقة، إمّا من المذهب المادي وإمّا من التفسير الحرفي لكتاب النصارى المقدَّس. والمسلم لا يلتزم بالمذهب المادي، ولا بما يسمّى بالكتاب المقدَّس المحرَّف. وعليه، فإنّه يتوقَّف في تحديد عُمر الأرض وعمر البشرية، وَيَكِلِ علمَ ذلك إلى الله. ومهْما كان الصوابُ في المسألة، فإنَّ شبهات الملاحدة المتعلقة بالتاريخ متهافتة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢١ / ٤٤٤).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣ / ٥٣٠).

المبحثُ الثّامن
نقدُ ردودِ علماءِ الغربِ
على شُبهات الملاحدة العلمية

قد ذكرتُ في هذا الفصل ردودَ علماء الغرب على شبهات الملاحدة العلمية. والشبهاتُ العلمية المذكورة تتعلَّق بالموضوعات الآتية: نظرية الانفجار العظيم، وقوانين الطبيعة، ونظرية التطوّر، ميكانيكا الكم، والكيمياء، وعلم النفس والتاريخ.

وعلماءُ الغرب متخصِّصون في هذه العلوم والنظريات، ولهذا كان لديهم ردودٌ قوية ومُقنعة في عددٍ كبير من المسائل، ويمكن الاستفادةُ منها إلى حدٍّ كبير. وردودهم على بعضِ الشبهات المتعلقة بميكانيكا الكم والتطوّر الكيميائي للحياة؛ كلامٌ علمي محض، ولم يختلطْ معَ عقائدهم الباطلة في الجملة. كما أنَّ ردودهم على شبهات الملاحدة المتعلقة بعلم النفس ردودٌ قوية ومقنعة بدون إقحام اللاهوت النصراني إلا في مسألة إيمان فاقدِ الأب التي تمَّت الإشارة إليها. ولكنْ لا يخلو بعض ردودهم في هذا الفصل من إشكاليات، وأهمّها أربعة:

الإشكاليةُ الأولى: أنَّ علماءَ الغرب انقسموا إلى قسمين رئيسين في موقفهم من خلق الكون؛ فمنهم مَن قبِلَ القصة الواردة في كتابهم المقدّس، ومنهم مَن قبِلَ تقريرات علماءِ الكون المبنيَّة على المذهب الطبيعي. وفي الحقيقة فإنّ الموقفين يتضمنان قولًا على الله وخلقِه للكون بلا علم. فالكتاب المقدَّس لدى اليهود والنصارى كتاب محرّف، ولا يمكن الاعتمادُ عليه في هذا الباب. وما ذكرَه القائلون بنظرية الانفجار العظيم عندما يصفونَ طريقة خلق الكون يتعارض مع ظواهر نصوص الكتاب والسنة؛ فلا يمكنُ الاعتمادُ على كلامهم أيضًا. ولذلك لا يمكن معرفة كيفية خلق السماوات والأرض إلا بما دلَّ عليه الوحي. وما لم يأتِ به الوحي أو الحقائق

العلمية الثابتة فلا يمكن الجزمُ به، وعليه فلا ينبغي الخوضُ فيه. وأمّا علماءُ الغرب من الفريقين فقد خاضوا في هذا الباب، وضلّوا السبيل.

الإشكاليةُ الثّانية: كما أنَّ علماءَ الغرب انقسموا قسمين في موقفهم من كيفية خلق الكون، فإنَّهم انقسموا إلى هذين القسميْن أيضًا في موقفهم من عمر الكون الأرض. وبينما اعتمدَ الفريقُ الأوَّل على ظواهر نصوص كتابهم المقدّس من أنّ عمرَ الكونِ والأرض لا يتعدَّى بضعة آلاف سنة، فإنّ الفريق الثاني اعتقدوا أنّ عمر الكون ١٣,٧ مليار سنة، وعُمر الأرض ٤,٥ مليار سنة. وكما سبقَ بيانه، فلا يمكن الاعتمادُ على كتابهم المقدَّس في هذا الباب، كما أنه لا يمكن الاعتماد على الاستنتاجات المبنية على المذهب الطبيعي المادي. ولهذا، فإنَّه لا يعوَّل على كلام علماء الغرب من الفريقين في هذه المسألة، بل يتوقَّف المسلم في قضية عمر الأرض لأنه مما استأثر اللهُ بالعلم به.

الإشكاليةُ الثّالثة: قد تقدَّم أنَّ شبهات الملاحدة المتعلقة بقوانين الطبيعة ظهرت كردَّة فعلٍ لتقريراتِ اللاهوتيين النصارى. ولهذا يمكن أن يقال إنَّ النصارى تسبّبوا بطريقةٍ غير مباشرة لظهورِ هذه الشبهات من أصلها. ولكن يوجد لدى بعض المتأخّرين منهم ردودٌ جيِّدة في نقدِ هذه الشبهات. وقد بيَّنتُ في المبحث أنَّ العقيدة الإسلامية هي القادرةُ فقط عن تقديم صورة صحيحة عن الكون وقوانين الطبيعة.

الإشكاليةُ الرّابعة: نظريةُ التطوّر أهمُّ نظرية علمية عند الملاحدة، وقد اختلف النصارى فيما بينَهم في مدى صحَّة هذه النظرية؛ فمنهم مَن سلّم ببعض مبادئها، ومنهم مَن رفضها رفضًا قاطعًا. والذين رفضوها رفضًا تامًّا استندوا في الغالب إلى كتابهم المقدَّس. وهذا الكتاب محرَّف، وفيه كثيرٌ من المخالفات للحقائق العلمية. والذين سلّموا ببعضِ مبادئها اعتمدوا على نظرية التصميم الذكي. والاعتماد على الكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى، أو نظرية التصميم الذكي، فيه إشكالياتٌ كما بيَّنته في ذلك المبحث. ولهذا ينبغي للمسلمين أن يستفيدوا من ردودهم على نظرية التطوّر، وأنْ يكوِّنوا لديهم نظريةً علمية خاصَّة متوافقة مع نصوص الكتاب والسنة والحقائق العلمية الثابتة. وأمّا التسليم بكلِّ ما قاله النصارى في ردودهم على نظرية التطوّر؛ ففيه إشكال.

الفصلُ الثّالث

ردودُهم على شُبهات الملاحدة العاطفية

وفيه تمهيدٌ، وستَّةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: ردودُهم على شُبهة مشكلة الشَّر.

المبحثُ الثّاني: ردودُهم على شُبهة مشكلة جهنم.

المبحثُ الثّالث: ردودُهم على شُبهة سلب الإرادة.

المبحثُ الرّابع: ردودُهم على شُبهة الشرور المترتِّبة على وجود الأديان.

المبحثُ الخامس: ردودُهم على شُبهة مصير الجاهل.

المبحثُ السّادس: نقدُ ردودِهم على شُبهات الملاحدة العاطفية.

تمهيد

هذا هو الفصلُ الثّالث والأخيرُ من الباب الثالث، والأخير في هذه الرسالة. وموضوعُ هذا الفصل: ردودُ علماء الغرب على شبهات الملاحدة العاطفية. وسأذكر خمسَ شُبهات رئيسة في هذا الفصل: مُشكلة الشَّر، ومُشكلة جهنم، وشُبهة سلب الإرادة، وشُبهة الشُّرور المترتِّبة على الأديان، وشُبهة مصير الجاهل. وهذه الشبهات في الأصل شبهاتٌ عاطفية أكثرَ من كوْنها شبهاتٍ عقلية أو علمية. وهذا لا يمنع أنَّ الملاحدة يوردون بعضَ هذه الشبهات بصياغات منطقية في بعض صورها كما أنَّ لها طابعًا فلسفيًّا. ولكنَّ الباعث الأساس لدى أغلب الملاحدة للتأثّر بهذه الشبهات هو العاطفة، وليس العقل أو العلم. وسأبيِّن ذلك بتفصيلٍ في كلِّ مبحث - إن شاء الله -. وهذا سببُ إيراد هذه الشُّبهات تحت مسمّى: الشبهات العاطفية.

المبحثُ الأوَّل
ردودُهم على شبهة مشكلة الشَّر

أوَّلُ شبهةٍ وأخطرُها في هذا الفصل: مُشكلة الشَّر، وهي من أكثر الشبهات انتشارًا، ومتشعِّبة، وتتَّخذ صورًا متنوِّعة وكثيرة. ولخطورتها وتشعّبها سيتمُّ تقسيم هذا المبحث إلى سبع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تعريفُ مشكلة الشَّر.

الفقرةُ الثّانية: تاريخُ مشكلة الشَّر.

الفقرةُ الثّالثة: مكانةُ مشكلة الشَّر في الخطاب الإلحادي المعاصر.

الفقرةُ الرّابعة: أنواعُ مشكلة الشَّر.

الفقرةُ الخامسة: موقفُ علماء الغرب من مشكلة الشرِّ عمومًا.

الفقرةُ السّادسة: ردودُ علماء الغرب على مشكلة الشرِّ تفصيلًا.

الفقرةُ السّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على مشكلة الشَّر.

الفقرةُ الأولى: تعريفُ مشكلة الشَّر:

«مشكلةُ الشَّر» مكوَّنة من كلمتين: «مشكلة» و«الشر». وقد ذكر الدكتور مايكل هيكسون[1] في مقاله: «تاريخ موجز لمشاكل الشرّ» (A Brief History to the Problems of Evil) أنَّ المقصود بالشرِّ عندَ الفلاسفة المعاصرين: «جميع الأشياء

---

(١) مايكل هيكسون (Michael Hickson): أستاذ مساعد في الفلسفة جامعة سانتا فيه بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في مذهب الشَّك ومشكلة الشَّر. انظر:

https://www.trentu.ca/philosophy/faculty-research/michael-hickson

السيئة». ومن الأمثلة على ذلك: المعاناة الجسدية والعقلية، والاعتداءات المتعمّدة، والفقر[1].

وذكر البروفسور بيتر وان إينفاغنفي كتابه: «مشكلة الشرّ» (The Problem of Evil) أنَّ كلمة «مشكلة» في مصطلح مشكلة الشرّ مفردة، ولكنها في الحقيقة تشير إلى جملة مِن التَّحديات للإيمان بإلهٍ رحيم وقدير[2]. فالمصطلحُ المتعارف به مفرد، ولهذا سأستمرُّ في ذكْره، ولكنَّهم يقصدون: مشاكل الشَّر. وينبغي التنبيه أيضًا على أنّ «مشكلة» الشَّر ليست مشكلةً حقيقية - كما سيأتي بيانُه بالتفصيل في هذا المبحث -، ولكنَّ بعض الناس استشكل وجودَ الشَّر في العالم مع وجود الخالق، فأُطلق هذا الاسم.

والخلاصة أنَّ مشكلة الشَّر هي الاحتجاج بجميع أنواع السيئات في العالم على أنَّ الخالقَ العليم القدير الودود غير موجود. وتتّخذ هذه الشبهة صورًا مختلفة. ولكي نفهم هذه الصورَ المختلفة نحتاج أن نقفَ على تاريخ هذه المشكلة في الفكر الغربي أوّلًا.

الفقرةُ الثّانية: تاريخُ مشكلة الشَّر:

ذكرَ الدكتور مايكل هيكسون أنَّه إذا فهمنا الشَّر بعمومه فإنّ جميع الفلاسفة الغربيين قد استشكلوه، وحاولوا شرحَ أصوله وكيفية التغلّب عليه. وذلك موجود في التاريخ الفلسفي الأوروبي منذ ٢٥٠٠ سنة[3]. ولتسهيل استعراض تاريخ مشكلة سأقسِّمه إلى أربع مراحل:

---

(١) انظر:
"A Brief History to the Problems of Evil", by: Michael W. Hickson, in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (3), ed. Justin P. McBrayer and Daniel Howard-Snyder (Wiley Blackwell, 2013)

(٢) انظر:
The Problem of Evil (4-10), by: Peter Van Inwagen, (Clarendon Press, 2006)

(٣) انظر:
"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (3)

- **المرحلةُ الأولى: مشكلةُ الشَّر في العصرين اليوناني والروماني:**

كان أفلاطون أوَّلَ فيلسوف اشتهر بأنه كتب عن العلاقة بين الخير والشرِّ وبين الإله[1]، وذلك في كتابه: «الجمهورية» (Πολιτεία) حين قال: «بما أن الإله خيّر، فهو ليس - كما يزعم معظمُ الناس - سببًا لكلِّ ما يحدُث للبشر، ولكنّه السبب لأشياء قليلة فقط؛ لأنَّ الأشياء الجيدة أقلُّ من الأشياء السيئة في حياتنا. إنَّه وحده المسئول عن الأشياء الجيدة، لكن يجب أن نجدَ سببًا آخر للأشياء السيئة، وهذا السببُ الآخر ليس إلهًا»[2].

وكان أفلاطون يتبنَّى مذهبًا فلسفيًّا ثنائيًّا في موقفه من أصل المخلوقات، بمعنى أنه رأى أنه يوجَد سببان رئيسان لأصل الكون، هما: العقل (Mind) والضرورة (Necessity). والعقلُ يعمل على الضرورة[3]، ويسعى لتوجيهها إلى ما هو أحسن. ويؤمن أفلاطون أنَّ الديميروغوس[4] ركَّب المادة في هذا الكون الموجود. وهو الإله

---

(١) انظر:

Moira: Fate, Good and Evil in Greek Thought (298), by: Greene W. Chase, (Harper Torchbooks, 1998)

(2) Plato: Complete Works (1018), (379c), Edited with an Introduction and Notes by John M. Cooper. (Hacking Publishing Company, 1997)

(٣) مفهومُ الضرورة عند أفلاطون حيَّر الفلاسفة، ورجَّح بعضُ الباحثين أنَّ أفلاطون يرى أنّ لدى الأشياء المادية قوّى بنفسها كيف تتصرَّف. وتنسب إليها الفوضى والصدفة.
انظر البحث:

"Plato on Necessity and Chaos", by: Andrew S. Mason, in Philosophical Studies (2006), 127:283-298

(٤) الديميروغوس (Demiurge): يعتبر الديميورغوس في الأفلاطونية، والبيثاقورية المحدثة، والأفلاطونية الوسطى ومدارس الشك الفلسفية، كأحد الحرفيين المسئول عن تشكيل والحفاظ على الكون المادي. انظر:

https://www.kachaf.com/wiki.php?n=5ed62ba0aac03f44cf42a4e2

الخيّر، ولكن ليس عنده قدرة محيطة بكلّ شيء. ولهذا نسبَ أفلاطون الشرورَ إلى الضرورة، وليس إليه[١].

هذه خلاصةُ عقيدة أفلاطون في أصل الكون ونظرته إلى مشكلة الشرّ. وذلك بالاعتقاد أنَّ الإله خيِّر، ولكنه ليس قديرًا. وقد أثَّرت هذه الفلسفة كثيرًا في أتباع بعض الفلسفات والعقائد بعده - كما سيأتي ذكرُه -.

وأوَّل مَن تُنسَب إليه مشكلة الشَّر كاعتراض على وجود الخالق هو الفيلسوف اليوناني إيبيقور[٢] في القرن الثالث قبل الميلاد. والذي نسب هذا الاعتراض إليه هو ديفيد هيوم الذي عاش في القرن الثامن عشر - أي: بعد إيبيقور بألفي سنة -. والاعتراضُ الذي نسبه إليه هو قولُه عن الإله: «هل يريد منعَ الشَّر ولا يقدر؟ إذًا هو عاجز. هل هو قادرٌ ولكنه لا يريد؟ إذًا هو شرير. هل عنده قدرة وإرادة؟ إذًا، فمن أين الشَّر؟»[٣]. ولكن هذه النسبة غير دقيقة؛ فرغم أنّ إيبيقور من أكثر فلاسفة اليونان تأليفًا - فقد ألَّف أكثر من ثلاثمائة كتاب - إلّا أنّه لم يبق من هذه الكتب سوى شذراتٍ قليلة. ولا يوجَد هذا الاعتراض مما بقي من تراثه. وإضافة إلى ذلك فالمحفوظ عنْ إيبيقور أنه كان يؤمنُ بوجود آلهة، ولم يكن ملحدًا[٤].

---

(١) انظر:

“A Brief History to the Problems of Evil”, in ”The Blackwell Companion to the Problem of Evil” (4-5)

(٢) إيبيقور (Epicurus): فيلسوف يوناني، وتبنى فلسفة مادية ونظرية المعرفة الحسية. توفي عام: ٢٧١ ق.م. انظر:

https://iep.utm.edu/epicur/

(3) Dialogues concerning Natural Religion and Natural History of Religion (100), by: David Hume, (Oxford University Press, 1993)

(٤) انظر:

“A Brief History to the Problems of Evil”, in ”The Blackwell Companion to the Problem of Evil” (5-6)

طرح الفيلسوف المتشكِّك سيكستوس إمبيريكوس[١] مشكلة الشَّر كاعتراض على وجودِ الآلهة؛ فقال: «إذا وفَّرت الآلهة جميع الأشياء، فلن يكون هناك شيء سيّئ، وشرٌّ في الكون؛ ولكن الناس يقولون: إنَّ كلَّ شيء مليء بالشر. لذلك لا يقال: إن الآلهة توفِّر كلَّ شيء... وعليه، فإنَّ الآلهة لا توفِّر الأشياء الموجودة في الكون. لكن إذا لم تكنْ لديها عنايةٌ إلهية، وليست لديها وظيفة أو تأثير، فلن نتمكَّن من إدراك أنها آلهة، لأنَّ الإيمان بها ليس ظاهرًا بحدِّ ذاته، ولا يظهر عن طريق الآثار. ولهذا السبب فلا يمكن أنْ نعرف إذا كانت آلهة موجودة»[٢].

وبناءً على هذا الكلام، فقد يقال إنَّ إمبيريكوس أوّل من استخدم مشكلة الشرِّ كاعتراضٍ على وجود آلهة. ولكنْ ذكر الدكتور مايكل هيكسون أن إمبيريكوس لم يكن ملحدًا، وإنما كان لاأدريًّا متشكّكًا، ويمكن أن يوصف ما طرحه بأنه مشكلة الشرِّ اللاأدرية، وليس مشكلة الشَّر الإلحادية. وذلك لأنَّ خلاصة كلام إمبيريكوس أنه لا يمكنُ أن نعرف ما إذا كانت الآلهة موجودة، ولم يجزم بإنكار وجودها[٣]. وإضافة إلى ذلك فإنَّ إمبيريكوس اعترض بمشكلة الشرّ على وجود آلهة وثنية باطلة، ولم يعترض بهذه المشكلة على وجود الخالق الإله الحقّ. ومعَ ذلك، فقد جاء بعدَه مَن استخدم الاعتراضَ نفسه على وجود الخالق الواحد.

- **المرحلةُ الثّانية: مشكلةُ الشَّر في عصر النصارى الأوائل:**

ذكر بعضُ الباحثين أنَّ الكتاب المقدَّس لدى النصارى يشتمل على بعض الإشارات إلى مشكلة الشَّر ووجود الله، ولكنّه لا يقدّم حلولًا لهذه المشكلة. وأوّل

---

(١) سيكستوس إمبيريكوس (Sextus Empicurus): فيلسوف يوناني، وقد تبنى فلسفة الشكّ ونشرها. توفي في القرن الثالث بعد الميلاد. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Sextus-Empiricus

(2) Outlines of Scepticism (145-146), by: Sextus Empiricus, ed. By: Barnes J. and Annas J. (Cambridge University Press, 2000)

(٣) انظر:

"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (8)

مَن تكلَّم عن هذه المشكلة من اللاهوتيين النصارى هو الأسقف إيرينيئوس[1] في القرن الثاني. وكانت طريقةُ حلِّه لهذه المشكلة: أنّ الإله خلق الإنسان على صورته، ولكن الإنسان في الوقت ذاته غيرُ كامل، بل يحتاج إلى السعي من أجل الترقّي في الخير والفضل. وذكر أنَّ الإله خلق الشرور في الطبيعة مثل: الزلازل، لكي يترقّى الإنسان في أخلاقه. كما أنَّ الإله يسمح بقيام الإنسان بالشرور لأن لديه إرادة حرّة[2].

وعندما انتشرتِ النصرانية في القرن الرابع وقعَ نقاشٌ عن مشكلة الشرِّ بين اللاهوتيين النصارى وبينَ أتباع الديانة المانية[3] الذين يتبنّون عقيدة ثنائية؛ فكان المانويون يؤمنونَ بوجود إله خيِّر وذي قدرة، ويؤمنون أيضًا بوجود «أمة الظلام» منذ الأزل. واعتقدوا أنَّ أمة الظلام تمرّدت على الإله الخيّر، وأنّ هذا التمرّد يفسّر وجود الخير والشَّر في العالم. وكان القديس أغسطين مانويًّا في أوَّل حياته، ثمَّ تنصَّر وردَّ على أتباع هذه الديانة. وكان مِن ضمن المسائل التي ناقشهم فيها: مشكلة الشَّر[4].

---

(١) إيرينيئوس (Irenaeus): الأسقف في مدينة ليون بفرنسا، وأحد اللاهوتيين الكبار في القرن الثاني. وقد ألَّف كتابَه المشهور: ضد الهرطقة في الردّ الغنوصية. توفي عام: ٢٠٠ أو ٢٠٣ م. انظر: www.britannica.com /biography /Saint – Irenaeus

(٢) انظر:
"A Brief History of Theodicy" by: René von Wounderberg, in: "Blackwell Companion to the Problem of Evil" (178)

(٣) المانوية (Manichaeism): حركة دينية فارسية في القرن الثالث بعد الميلاد من أتباع رجلٍ اسمه ماني، وادَّعى خاتم الأنبياء بعد آدم، وبوذا، وزردشت وعيسى. وانتهت الحركة من الوجود في القرن الخامس أو السادس بسبب كثرة الهجوم عليها من الكنيسة ودولة الروم. انظر: https: / /www.britannica.com /topic /Manichaeism

(٤) انظر:
"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (8-9)

وكان أبرز ردِّ القديس أغسطين على مشكلة الشرِّ أنَّ الإنسان ممكن الوجود وليس واجبَ الوجود. وإذا كان ممكنَ الوجود فيمكنه التغيّر والفساد، وهو الانحراف عما كان ينبغي أن يكون عليه. وبعدَ ذلك ذكر أنَّ ماهية الشرِّ هي: «فقدان الخير» (Privatio Boni). فالشرُّ ليس له وجودٌ ذاتي، وإنما هو فقدان الخير. فالمرض على سبيل المثال: فقدانُ الصحة. وعليه، فإنَّ الإله خلق جميع الأمور الوجودية، ولكنه ليس مسئولًا عن وجودِ الشرور لأنَّها عدمية. ثمَّ ذكر أنَّ الإنسان مسئول عن وجود الشرور؛ فالشرُّ نتيجة لاختيارات سيئة لكائنات حرّة[١].

فطُرحتْ مشكلة الشرِّ في هذه الفترة، ولكن ليست كاعتراض إلحادي على وجود الله؛ وإنَّما كنقاش بين مَن يؤمن بإله واحد[٢] ومن يؤمن بإلهين.

ذكرَ الدكتور مايكل هيكسون أنَّ أوّلَ مَن طرح مشكلة الشرِّ - حسب علمه - كاعتراضٍ على وجود الإله الخالق هو اللاهوتي النصراني توما الأكويني في كتابه المشهور: «الخلاصة اللاهوتية» (Summa Theologica). وهذا في حدود عام ١٢٦٦م. وقال توما الأكويني عن هذه المشكلة: «يبدو أنَّ الإله غير موجود، لأنه إذا كان أحد النقيضين لانهائيًّا، فسيتمُّ تدميرُ الآخر تمامًا. لكن كلمة «الإله» تعني أنه خيّر بلا حدود. وإذا كان الإله موجودًا فلن يكون هناك شرٌّ يمكن اكتشافه؛ ولكن يوجد شرٌّ في العالم. إذًا، الإله غيرُ موجود»[٣].

ولكنَّ توما الأكويني لم يكنْ ملحدًا؛ بل كان أحدَ أشهر اللاهوتيين في التاريخ النَّصراني. فلماذا طرحَ هذه المشكلة بهذا الشَّكل؟ الظاهر أنه مشى على طريقة

---

(١) انظر:

"A Brief History of Theodicy", in: The Blackwell Companion to the Problem of Evil (178-179)

(٢) النصارى يزعمون أنَّهم يؤمنون بإله واحد ولكن هذا الإله له ثلاثة أقانيم: الأب، والابن وروح القدس. ورغم أنَّنا معشر المسلمين نصف هذه العقيدة بأنّها عقيدة شركية إلا أنّ علماء الأديان - النصارى منهم وغير النصارى - في الغرب يصنّفون الديانة النصرانية بأنّها ديانة توحيدية.

(3) Summa Theologica (13; ST I, q. 2, a. 3, obj. 1)

المدرسية اللّاهوتية المعروفة بين النصارى في العصور الوسطى. والمدرسية اللاهوتية شبيهةٌ بعلم الكلام لدى بعضِ المسلمين، حيث يطرح اللاهوتي الاعتراضاتِ على وجود الله، ثمَّ يجيبُ عنها بعد ذلك. وهذا ما يظهر أنَّ توما الأكويني فعلَه عندَ إيراده لهذه المشكلة. ولكنْ يبدو أيضًا أنَّه لم يكن يستشكلُ هذه الشبهةَ إلى حدٍّ كبير؛ لأنَّه أوردها عرضًا، ولم يفردْها بمصنَّف، مع أنه كان كثيرُ التأليف[١]. ورغم ذلك، فهذه أوّلُ مرّة طرحت هذه الشبهةُ اعتراضًا على وجود الإله الخالق.

وقد ألَّف توما الأكويني تفسيرًا لسفْر أيوب في العهد القديم. وتحدّث في هذا التَّفسير عنْ معاناة النبي أيوب ﷺ وتطرَّق إلى مشكلة الشَّر. وذكر أنه لا يمكن حلُّ هذه المشكلة إلّا في ظلِّ الإيمان بالحياة الأخروية؛ فالإله يسمح بوجود هذه الشرور في الدنيا كامتحانٍ واختبار، ثمَّ يحاسبهم على ما فعلوا في الحياة الدنيا، ويكون مسيرهم إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار[٢].

- **المرحلةُ الثّالثة: مشكلةُ الشَّر في عصري النهضة والتنوير:**

ضعفتْ سيطرةُ الكنيسة الكاثوليكية في عصر النهضة والإصلاح - كما سبق ذكره -، وفي تلكَ الحقبة الزمنية ألَّف الفيلسوف المتشكّك الفرنسي بيير بايل[٣] كتابه: «القاموس التاريخي النقدي» (Dictionnaire Historique et Critique)، وذلك في عام ١٦٩٧م،

---

(١) انظر:

"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (9-11)

(٢) انظر:

"Aquinas on the Suffering of Job", by: Eleonore Stump, in "The Evidential Argument from Evil" (49-51), edited by: Daniel Howard-Snyder, (Indiana University Press, 1996)

(٣) بيير بايل (Pierre Bayle): فيلسوف فرنسي ومؤلف القاموس التاريخي النقدي، وانتقدته الكنيسةُ الكاثوليكية بسبب كثيرًا، وادَّعت أنه يحاول هدم العقائد النصرانية. توفي عام: ١٧٠٦م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Pierre-Bayle

وعُرف هذا القاموس بـ«ترسانة عصر التنوير» لتأثيره الكبير في الفلاسفة الماديين في هذا العصر[1]. ورغم أنَّ بايل نشأ في بيئة نصرانيةٍ فإنه قد تأثّر بمشكلة الشرِّ، وذكرَها في قاموسه؛ فقال: «الطريقة التي تمَّ بها إدخالُ الشَّر في ظلِّ حكم كائن سام - خيِّر بلا حدود، مقدَّس بلا حدود، وقوي بلا حدود - ليس فقط غير قابل للتفسير، ولكنَّه أيضًا غير مفهوم»[2].

طرحَ بايل هذه الشبهة، وذكر أنَّ وجودَ الشَّر في العالم، ووجود الخالق المتّصف بهذه الصِّفات في الوقت نفسه؛ غيرُ قابل للتفسير وغير مفهوم. ومع ذلك فإنه لم يصرّح بإنكارِ وجود الخالق بناءً على هذه الشبهة، ولكنَّ الطرح الموجود في القاموس أثّر فيمَن جاءَ بعده لإظهار الشبهة.

أدركَ غوتفريد ليبنز خطورة الشبهة في القاموس وألّف كتابه: «مقالات عن ثيوديسيا: خيرية الإله، وحرية الإنسان وأصل الشرّ» (Essais de Théodicée sur la bonté de Dieu, la liberté de l'homme et l'origine du mal)، وردَّ فيه على الشبهة المثارة في قاموس بايل بطريقةٍ معقَّدة لم تشفِ العليلَ، ولم ترو الغليل، بل أدَّى ردُّه إلى إظهار المشكلة أكثر فيما بعد.

أوَّلُ مَن أظهر مشكلة الشرِّ بصياغتها المنطقية بناء على قاموس بايل شخصان:

الشخصُ الأوَّل: مؤلِّف مجهول لكتاب فرنسي بعنوان: «نظام المذهب المادي» (Jordanus Brunus Redivivus) بين عامي: ١٧٦٠ - ١٧٧٠م. وقد خصَّص الباب الخامس من كتابِه لمشكلة الشَّر، وهو أوَّلُ كتاب قدَّم مشكلة الشَّر بصياغة منطقية للتشكيك في وجود الخالق[3].

---

(١) انظر: Reading Bayle (٧), by: Thomas Lennon, (University of Toronto Press, 1999)

(2) Historical and Critical Dictionary: Selections (168-169), by: Pierre Bayle. Translated, edited, and introduced by Richard H. Popkin with assistance from Craig Brush, (Hacket Publishing, 1991)

(٣) انظر:
"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (14-15)

الشخصُ الثّاني: ديفيد هيوم في كتابه: «محاورات في الدين الطبيعي» (Dialogues concerning Natural Religion) في عام ١٧٧٩ م[١]. وديفيد هيوم هو الذي نسبَ مشكلةَ الشَّر إلى إيبيقور كما سبق ذكره.

- **المرحلةُ الرّابعة: مشكلةُ الشَّر في العصر الحديث:**

وبعدَ هذين الكتابين تمسَّك الملاحدةُ بشبهة مشكلة الشَّر، حتَّى أضحت شبهتهم المفضَّلة في إنكار وجود الخالق. وكان الفيلسوف الملحد جون ماكي أكبر منظِّر لهذه الشُّبهة في القرن العشرين، لا سيَّما في مقاله: «الشرّ والقدرة المحيطة» (Evil and Omnipotence) الذي صدر في عام ١٩٥٥م. وذكر بعض الباحثين المتخصّصين أنَّ حجَّة ماكي تعتبر أشهرَ صياغة منطقية لمشكلة الشرّ حتى اليوم[٢].

وبعدَ ماكي كان الفيلسوف وليام روو[٣] مِن أشهر مَن تولّى كبرَ نشْر شبهة مشكلة الشَّر؛ حيث كتب عدَّة مقالات ابتداءًا من عام ١٩٧٩م، واستقرَّ على هذا خمسًا وثلاثين سنة[٤]. وقدَّم ما عُرفت بمشكلة الشَّر البرهانية - وسيأتي الحديثُ التفصيلي عن مشكلتي الشَّر المنطقية والبرهانية لاحقًا بإذن الله -.

---

(١) توفي ديفيد هيوم عام ١٧٧٦م. فنشرَ هذا الكتاب لأوَّل مرةٍ بعد وفاته بثلاث سنوات.

(٢) انظر:

"The Logical Problem of Evil: Mackie and Plantinga", by: David Howard-Snyder, in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (19)

(٣) وليام روو (William Rowe): بروفسور الفلسفة في جامعة بوردو بالولايات المتَّحدة. وكان نصرانيًّا، ثمَّ ألحد وكان مِن أبرز مَن نظَّر لمشكلة الشَّر كاعتراض على وجود الله. توفي عام ٢٠١٥م. انظر:

https://philosophynow.org/issues/47/William_Rowe

(٤) انظر:

"Rowe's Evidential Arguments from Evil", by: Graham Oppy, in: "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (49)

ومِن أشهر مَن ردَّ على مشكلة الشَّر في هذه الحقبة الزمنية: البروفسور ألفن بلانتغا؛ فقدْ ألَّف كتبًا ومقالات عن ذلك منذ عام ١٩٧٤ إلى عام ٢٠٠٤م، وهو يعتبر رمزًا عندَ المهتمين بنقد هذه المشكلة[١].

ولكنْ لم يتوقَّفِ الملاحدةُ عنِ استخدام هذه المشكلة؛ ففي عام ١٩٩٠م، ألّف البروفسور مايكل مارتن كتابه: «الإلحاد: تبرير فلسفي» (Atheism: A Philosophical Justification) - وهو مِن أشهر كتبِ الإلحاد في نهاية القرن العشرين -، وخصّص أكثرَ من مائة صفحة لتقريرِ مشكلة الشَّرِّ، والرَّد على اعتراضات علماء الغرب على هذه المشكلة[٢].

ومشكلةُ الشَّر حاضرةٌ في خطاب الملاحدة الجدد؛ فقد ذكرها ريتشارد دوكينز في كتابه: وهْم الإله[٣]، وطرحَ سام هاريس هذه الشبهة في مناظرته مع البروفسور وليام لاين كرايغ[٤]، كما أنَّ مايكل شيرمر عقد مناظرة عنها[٥].

وبهذا العرض الموجَز يتبيَّن تاريخُ مشكلة الشَّر في الخطاب الإلحادي، وأنَّ جذورَ هذه المشكلة قديمة، ولكنَّها لم تظهرْ كاعتراض على وجود الخالق إلا قبل نحو ٢٥٠ سنة، أيْ مع بروز الإلحاد في الغرب.

---

(١) انظر:

"A Brief History to the Problems of Evil", in "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (187-188)

(٢) انظر: Atheism: A Philosophical Justification (334 - 352)

(٣) انظر: The God Delusion (107 - 108)

(٤) انظر الجزء من المناظرة في مقطع بعنوان:

Sam Harris-God is either impotent or evil

على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=QuPsxFklxaw

(٥) انظر المناظرة بعنوان: If God, Why Evil على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=qH4jIHlMunw

الفقرةُ الثّالثة: مكانةُ مشكلةِ الشَّر في الخطاب الإلحادي المعاصر:

مشكلةُ الشَّر من أهمِّ الشبهات الإلحادية على الإطلاق. ويتبيّن ذلك مما سبقَ من العُمق التاريخي لهذه الشُّبهة في الخطاب الإلحادي. ومما يدلُّ على ذلك أيضًا أن بعضَ أئمَّة الإلحاد صرَّحوا أنَّ مشكلة الشرِّ هي السبب الرئيس لإلحادهم. ومن هؤلاء الملاحدة: أنطوني فلو - الأب الروحي للإلحاد في القرن العشرين قبل تراجعه -[١]، وكذلك البرفسور الملحد مايكل روس[٢].

وذكرَ البروفسور الملحد مايكل تولي[٣] أنَّ مشكلة الشرِّ تعتبر الحجةَ المركزية للإلحاد[٤]، كما أنَّ الشاعر الألماني الملحد جورج بوخنر[٥] وصفها بأنّها: صخرة الإلحاد[٦].

---

(١) انظر: (١٣) There is a God

(٢) وذلك في مناظرته مع الدكتور فزالا رانا بعنوان:

The Origin of Life: Evolution Vs. Design

وهي موجودة على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=2CnZ3n8I5b8

(٣) مايكل تولي (Michael Tooley): بروفسور الفلسفة في جامعة كولورادو بالولايات المتحدة. وهو متخصِّص في نظرية المعرفة وفلسفة الدين. انظر:

https://www.colorado.edu/philosophy/people/michael-tooley

(٤) انظر مناظرة: Debate: Is God Real? على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=OBEKUBOMA_0

(٥) جورج بوخنر (Georg Büchner): الشاعر وكاتب المسرحيات الألماني في القرن التاسع عشر. توفي: ١٨٣٧م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Georg-Buchner

(٦) انظر نقلاً عن كتاب:

God and Evil: The Case for God in a World Filled with Pain (298), by: Chad Meister and James K. Dew, (IVP Books, 2013)

وقد لخَّص البروفسور رونالد ناش[1] هذا الأمرَ بقوله: «الاعتراضات على المذهب الألوهي تظهرُ وتختفي؛ الحجج التي اعتقد كثيرٌ من الفلاسفة أنها مُقنعة قبل خمسٍ وعشرين سنة قد اختفتْ من الظهور. وبعضُ المشاكل لا تزال تتلقَّى آذانًا صاغية في دائرةٍ دون أخرى. ولكنَّ جميعَ الفلاسفة الذين أعرفهم يؤمنون أنَّ أهمَّ تحدٍّ جاد للإيمان بالإله كان في الماضي والحاضر، وكذلك في المستقبل؛ هو مشكلة الشَّر»[2].

ولا يعني ذلك أنَّ علماءَ الغرب وقفوا مكتوفي الأيدي أمامَ هذه الهجمات، بل النقاش الفلسفي اللاهوتي بينَ الملاحدة والنصارى حادّ جدًّا في الغرب، ويدلّ على ذلك كثرةُ التأليفات عنها؛ فحسب كتاب: «ثيوديسيا[3]: ببليوجرافيا[4] مشروحة عن مشكلة الشرّ بين عامي ١٩٦٠ - ١٩٩٠ م» (THEODICY: An ANNOTATED BIBLIOGRAPHY on the PROBLEM OF EVIL, ١٩٦٠ - ١٩٩١). فيوجد عناوين ٤٣٠٠ لمواد علمية عن مشكلة الشرِّ في هذه الفترة الزمنية الوجيزة[5].

---

(١) رونالد ناش (Ronald Nash): بروفسور الفلسفة واللاهوت الأمريكي، وقد ألّف عددًا من الكتب في مجال تخصُّصه. توفي عام: ٢٠٠٦م. انظر:

https://www.biblicaltraining.org/speaker/ron-nash

(2) Faith and Reason (177), by: Ronald H. Nash, (Zondervan, 1988)

(٣) سيأتي بيانُ المراد بهذه الكلمة لاحقًا في المبحث - إن شاء الله -.

(٤) ببليوجرافيا: يُطلق على معنيين:

أ) علم التَّسجيل المنظّم للمعلومات عن الكتب.

ب) فهرس بالمراجع والمصادر حولَ موضوع معيَّن.

انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ١٥٦).

(٥) ذكر ٤٢٠٠ مادة علمية في الطبعة الأولى، ثمَّ زاد إلى ٤٣٠٠ في الطبعات المتأخّرة. انظر صفحة البروفسور باري ويتني في جامعة ويندسور عن كتابه:

http://web2.uwindsor.ca/courses/cmllc/whitney/theodicy.htm

وهذا كلُّه يدلُّ على مكانة مشكلة الشَّر في الخطاب الإلحادي المعاصر، وأنّها من أهمِّ شبهاتهم على الإطلاق. ووجودُ هذه المؤلفات والأبحاث الإلحادية استدعى ردودًا كثيرة لنقدِ شبهاتهم المتعدّدة المتعلقة بمشكلة الشَّر.

الفقرةُ الرّابعة: أنواعُ مشكلة الشَّر:

مشكلةُ الشَّر لا تتضمَّن شبهة واحدة، بل شبهات. ولا تقدّم مشكلة الشرِّ بصياغة واحدة؛ بل صياغات. ولا تتعلَّق هذه المشكلة بنوع واحد من الشرّ، بل بأنواع من الشُّرور. وقبلَ الخوض في الردِّ نحتاج أنْ نفهم حقيقة الأسئلة والاعتراضات التي يقدّمها الملاحدة؛ فإنَّ «أعسر ما في الجواب عن مشكلة الشَّر هو معرفةُ السؤال لا الجواب! وأقصدُ بذلك أنَّ شبهةَ الشرِّ لا تطرحُ سؤالًا واحدًا بسيطًا، وإنما هي تطرح أسئلة كبرى تعبِّر عن أوْجه المشكلة، ثمَّ إنَّ هذه الأسئلة تتشظّى بعد ذلك إلى إشكالات أصغر وأغْزر؛ إذ إنَّ أنصارَ الإلحاد كثيرًا ما يفرِّعون أسئلة جديدة كلما جاءهم الجوابُ عن أسئلتِهم الكبرى، ولذلك كانت أبرزُ اعتراضاتهم هي أنَّ مخالفهم لم يستوعب في جوابه جميعَ مظاهر المشكلة»[١].

ومعَ ذلك، فلا يمكن أن يستوعبَ هذا المبحثُ جميعَ شبهات الملاحدة المتعلقة بالشَّر، وكذلك لا يمكن إيرادُ جميع ردودِ علماء الغرب على هذه الشبهات؛ فقد سبق أنَّ عددَ الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع خلال ثلاثين عامًا تزيد عن ٤٣٠٠ دراسة. ولكنْ سيتناول هذا المبحثُ أهمَّ الشبهات في نظري، ثمَّ أقوى الردود عليها.

ومشكلةُ الشَّر تنقسم إلى قسمين رئيسين:

- **القسمُ الأوَّل: مشكلة الشَّر المنطقية (Logical problem of evil):**

هي المشكلة التي قدَّمها البروفسور جون ماكي، وزعمَ أنَّ وجود إله كامل القدرة والخيرية يتناقض معَ وجود الشَّر[٢]. ويمكن تلخيصُ المشكلة في مقدّمتين ونتيجة على الشكل الآتي:

---

(١) مشكلة الشَّر ووجود الله (٣٢).

(٢) انظر:
"Evil and Omnipotence. Mind", by: John Mackie, in "A Quarterly Review of Psychology and Philosophy" 64: (200-201), (1955)

١. لا يستقيم منطقيًّا أنْ يسمح الإله الكامل في علمه وقدرته وخيريته للشرِّ بالوجود.

٢. الشرُّ موجود.

٣. إذًا، الإلهُ غيرُ موجود[١].

- **القسمُ الثّاني: مشكلةُ الشَّر البرهانية (Evidential problem of evil):**

هي المشكلةُ التي قدَّمها البروفسور وليام روو في سلسلة من المقالات. وكان يزعم فيها أنَّ وجودَ الشَّر برهانٌ على عدم وجود خالق عليم قدير رحيم. ولا يقصد بذلك أنَّه يستحيل وجودُ هذا الخالق منطقيًّا، ولكنْ بالنظر إلى كثرة الشَّر في العالم يرجِّح عدم وجود هذا الخالق.

ويتلخَّص هذا القسمُ بالصياغة المنطقية الآتية:

١. توجد في العالم معاناةٌ شديدة، كان يمكن لأيِّ كائنٍ عليم قدير أن يوقفها بدون أنْ يُقرن ذلك بحرمان البشر من أيِّ خيرٍ أكبر، أو السماح بوجود شرٍّ أسوأ.

٢. إنْ وُجد كائن عليمٌ، وذو خيرٍ مطلق، فإنه سيمنع ما يمكنه حدوثَ أي معاناة شديدة، ما لم يفقد بذلك خيرًا أكبر، أو يسمح لشرٍّ مماثل أو أسوأ.

٣. إذًا، لا يوجد كائنٌ قدير، عليم، ذو خير مطلق.

وكان يسترسل مِن إيراد أمثلة عاطفية على هذه المعاناة ليدعم حجته المزعومة[٢]. وكثيرٌ من الأمثلة التي ذكرها هي من باب: المعاناة الشديدة (Gratuitous suffering) أو الشرّ المجاني (Surplus suffering). والمقصود بذلك: أنواع الشرور والمعاناة التي لا هدف من ورائها - في نظرهم -[٣].

---

(١) انظر: مشكلة الشَّر ووجود الله (١٠٩).

(٢) انظر:
"Rowe's Evidential Arguments from Evil", by: Graham Oppy, in: "The Blackwell Companion to the Problem of Evil" (49-51)

(٣) انظر: مشكلة الشرِّ ووجود الله (١٤٤ - ١٤٦).

كيف يمكن التفريقُ بين هذين القسمين؟ ذكر بعضُ الباحثين أنَّ مشكلة الشرِّ المنطقية استنتاجية (Deductive) وبديهية (A priori)؛ فلا تحتاج إلى إيراد أمثلة واقعية عليها؛ فمجرَّد وجود الشَّر - حسبَ هذه الصياغة - يتناقض منطقيًّا مع وجود خالق عليمٍ رحيم، بينما مشكلةُ الشَّر البرهانية استقرائية (Inductive) واستدلالية (A posteriori)؛ فتعتمد على الاستدلال بوقائع وأحداث حصلت فيها معاناة وشرورٌ، على أنَّ الأرجح أنه لا يوجد خالق متَّصف بهذه الصفات المذكورة[١].

ولهذا كان هذا القسم من مشكلة الشَّر أقربَ إلى كونه شبهة عاطفية من كونه شبهةً عقلانية - وإن صيغت بصياغة منطقية - ؛ لأنَّ أصحاب هذه الشبهة يكثرون من إيرادِ قصص عاطفية عن المعاناة في العالم تخاطب عواطف الناس.

والأمثلةُ على الشُّرور التي يذكرونها ترجع إلى نوعين رئيسين:

النوعُ الأوَّل: الشرُّ الأخلاقي: ويشمل أنواعَ المعاناة التي تحصل نتيجة لتصرّفات البشر[٢]. ومِن الأمثلة على ذلك: الحروب، والقتل، والاغتصاب، إلخ.

النوعُ الثّاني: الشرُّ الطبيعي المادي: ويشمل المعاناة التي لا تحصل نتيجة لتصرُّفات البشر. وهي أنواعٌ كثيرة، منها الكوارث في الطبيعة مثل: الزلازل، والقحط، والفيضانات. وكما يدخل فيها أيضًا: التشوهات الخلقية، والأمراض الجسدية والعقلية. والقائمةُ تطول من الأمثلة التي يذكرها الملاحدة من هذا النوع[٣].

---

(١) انظر:
"The Argument from Evil", by: Andrea M. Weisberger, in: The Cambridge Companion to Atheism (167)

(٢) انظر: المصدر السابق (١٧٤).

(٣) انظر:
The Many Faces of Evil: Theological Systems and the Problems of Evil (191-192), by: John S. Feinberg, (Crossway Books, 2004)

ويبدو أنَّ مِن أسباب هذا التقسيم هو أنَّ مِن أشهر أجوبة النصارى عن وجود الشَّر هي أنَّ الله منحهم إرادةً وقدرة على هذه الأفعال - كما سيأتي ذكرُه -. وعليه، فالذي يُلام على هذه الشرور هو الإنسانُ بسبب تصرّفاته الخاطئة. ولعل ذلك مِن أسباب أنَّ أغلب الأمثلة التي يذكرها الملاحدة من القسم الثاني، لا الأوَّل[1].

الفقرةُ الخامسة: مواقفُ علماء الغرب من مشكلة الشَّر عمومًا:

تقدَّم ذكرُ نبذة تاريخية موجزة عن مشكلة الشَّر، وأشرت إلى بعض ردود النصارى على هذه المشكلة. وفي هذه الفقرة، سيتمُّ بيانُ أبرز مواقف علماء الغرب من هذه المشكلة عمومًا. ومشكلةُ الشَّر تكمُن في محاولة الجمع بين الإيمان بإله عليم قدير رحيم وبينَ وجود الشَّر. وبتتبُّع ما كتبه علماءُ الغرب وجدتُ أنَّ ثمة ثلاثةَ مواقف فلسفية ولاهوتية رئيسة في حلِّ هذه المشكلة:

- **الموقفُ الأوَّل: الادِّعاء أنَّ الشرَّ وهم:**

وهذا الموقفُ ذهبت إليه اللاهوتية ماري باكر إيدي[2]، ومن تبعها حيث ادّعوا أنَّ الشرّ وهْم، بمعنى خطأ في الفكر، وهو خطأ شخصي. ويتبع ذلك أنه يمكن القضاءُ على الشَّر من أيِّ نوع من خلال الانخراط في «التفكير الصحيح»، والاعتراف بالطبيعة الوهمية للشَّر[3].

وهذا القول - معَ غرابته وبطلانه - فلا يوجد تعارض بين الإيمان بوجود الخالق العليم القدير الخيِّر وبينَ وجود الشَّر؛ لأنَّ الشرّ غير موجود.

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٩١)، وكذلك: مشكلة الشَّر ووجود الله (١٢١ - ١٢٢).

(٢) ماري باكر إيدي (Mary Baker Eddy): الكاتبة الأمريكية وزعيمة حركة العلم المسيحي، وهي فرقةٌ نصرانية لها عشرات الآلاف من الأتباع. توفيت عام: ١٩١٠م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Mary-Baker-Eddy

(٣) انظر المقال:
Evil as an Illusion: The American Mind-Cure Movement, by: W. Kaufman
وهو موجود على الرابط:
http://faculty.uml.edu/whitley_kaufman/problem%20of%20evil/evil_as_illusion.htm

- **الموقفُ الثّاني: إنكارُ اتِّصاف الخالق بقدرة مطلقة:**

وهذا ما ذهبَ إليه أتباعُ مذهب العملية اللاهوتية[1]. ويرى أتباع هذا المذهب أنَّ قدرةَ الخالق محدودة، وعليه، فإنّهم رأوا أنَّه لا تعارض بين وجود الخالق ووجود الشَّر؛ لأنَّ الخالق - وتعالى اللهُ عن ذلك - غيرُ قادر على منع الشرور الحاصلة في العالم[2].

- **الموقفُ الثّالث: المذهبُ الألوهي التقليدي:**

ويتخلَّص هذا الموقفُ بالإقرار بأنَّ الله متّصف بالقدرة المطلقة، والعلم المحيط، والخيريَّة الكاملة مع الاعتراف بوجود الشرِّ في العالم وبيان الحِكم في وجوده. وهذا الموقفُ يُعرف في علم اللاهوت النصراني بثيوديسيا (Theodicy). وأصل هذه الكلمة من اللغة اليونانية. وهي مكوَّنة من جزئين: Theos بمعنى: الإله، و Dike بمعنى: العدالة. فالمقصود بثيوديسيا: العدالة الإلهية. وذكر البروفسور ريني وان واندينبيرغ أنّ القولين الأوَّلين لا يُعدَّان من الثيوديسيا[3]، كما أنَّهما يخالفان اللاهوت التقليدي عند اليهود والنصارى، كما همَا بعيدان كلَّ البعد عن العقيدة الإسلامية. ولهذا سيكون الاعتمادُ على الموقف الثالث في الردود.

---

(١) العملية اللاهوتية (Process theism): يشير هذا المذهب عادةً إلى مجموعة من الأفكار اللاهوتية التي نشأت في التوجه الميتافيزيقي للفيلسوفين ألفريد نورث وايتهيد (١٨٦١ - ١٩٤٧) وتشارلز هارتشورن (١٨٩٧ - ٢٠٠٠) أو مستوحى منه أو يتفق معه. ومن السمات الأساسية في هذا المذهب أنَّ الإله يشارك بشكل كامل في العمليات الزمنية ويتأثر بها. انظر: https://plato.stanford.edu/entries/process-theism/

(٢) انظر تلخيص هذا المذهب في مقال: Process Theodicy and the Concept of Power للبروفسور Nelson Pike وهو موجود على الرابط:

https://www.religion-online.org/article/process-theodicy-and-the-concept-of-power/

(٣) انظر:

“A Brief History of Theodicy”, in: The Blackwell Companion to the Problem of Evil (178)

الفقرةُ السّادسة: ردودُ علماء الغرب على مشكلة الشرّ تفصيلًا:

حيث إنَّ مشكلة الشرِّ من أهمِّ شبهات الملاحدة على الإطلاق فقد اهتمّ علماءُ الغرب بالردِّ عليها أكثرَ من الشبهات الأخرى. ولا يمكن استيعاب جميع ردودهم في هذا المبحث، ولكن سأركِّز على ذكر أهمها. وذلك من ثمانية أوجه:

- **الوجهُ الأوَّل: الردُّ على عقيدة الملاحدة الفاسدة في الخالق:**

مشكلةُ الشَّر مبنيَّة على التعارض المزعوم بين أمرين:

الأمرُ الأوَّل: الإيمانُ بالخالق العليم القدير الرحيم.

الأمرُ الثّاني: وجودُ الشَّر.

ومِن أسباب توهُّم الملاحدة أنَّه يوجد تعارض بين هذين الأمرين: العقيدة الفاسدة في الخالق. وقد ذكرتِ البروفسورة إليونور ستومب[1] خلال تناولها للأخطاء في الموقف الإلحادي من مشكلة الشرِّ أنَّ إنكار تناسق منظومة ما، قد يرجع إلى عجز المخالف عن فهْمِها؛ لأنه لم يقرأ جميعَ مقولاتها ضمنَ نسق مترابط يصل أولها بآخرها[2]. «وهذا هوَ في الحقيقة الواقع من الملاحدة عندما يردُّون على المؤمنين بإله في مسألة وجود الشر؛ فإنَّهم كثيرًا ما يجمعون هؤلاء «المؤمنين» في ضغث واحد، على أنهم جماعة واحدة، لها لونٌ واحد، وعمق واحد، وامتدادٌ واحد، دون مراعاة للمقولات الكبرى والتفصيلية لكلِّ منظومة دينية على حدة»[3].

---

(١) إليونور ستومب (Eleonere Stump): بروفسورة الفلسفة في جامعة ساينت لويس بالولايات المتَّحدة. انظر:

https://www.slu.edu/arts-and-sciences/philosophy/faculty/stump-eleonore.php

(٢) انظر:

“The Problem of Evil” by: Eleonere Stump, in: Philosophy of Religion: A Reader Guide (400), edited by: William Lane Craig (Rutgers University Press, 2002)

(٣) مشكلة الشَّر ووجود الله (٧٦).

ومِن هنا تنشأ شبهةُ مشكلة الشرِّ البرهانية، حيث زعم وليام روو - كما سبق ذكره - في المقدِّمة الثانية: «إنْ وُجد كائنٌ عليم وذو خيْر مطلق؛ فإنه سيمنع حدوثَ أيِّ معاناة شديدة، يمكنه...». فهو يتحكَّم فيما سيفعله الخالق أو لا يفعله، ولا يدرك أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يدرك حِكَمَ أفعال الخالق، بل الاعتراض على حِكَم الخالق بهذه الطريقة ليس له أيُّ معنى. ذكر البروفسور وليام هاسكر[1] بعض المفاهيم الخاطئة لدى الملاحدة عنِ الخالق، ثمَّ قال: «المفهوم [الصحيح] هو أن الإله عظيم جدًّا، وأكثر حكمةٍ وأفضل منّا بكثير، وأنَّ الفكرة أننا مؤهلون لإصدار الحكم عليه لا معنى لها»[2]. وهذا التقريرُ صحيح، ويتضمَّن أمرين مهمّين:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ الإله متَّصف بالعظمة والحكمة: فالملحدُ يحصر الصفات الإلهية في مشكلةِ الشَّر في ثلاث: القدرة، والعلم، والرحمة. ولكن الحقيقة أنه سبحانه متّصفٌ بأكثر من هذه الصفات. ومِن هذه الصفات: صفة العظمة؛ فلا يمكن قياس الخالق بقياس تمثيل أو بقياس شمول. ولهذا كانت طريقةُ الملاحدة في تقديم مشكلة الشرِّ خاطئة. فهُم يتكلَّمون عن الإله كما يتكلّمون عن الإنسان. وعليه، فإنهم يذكرون هذه المقدِّمات المنطقية عمّا كان ينبغي أن يفعله الخالق أو لا يفعله.

وإضافةً إلى ذلك، فإنَّ الخالق متَّصف بصفة الحكمة؛ فلا يخلقُ إلّا لحكمة. وعليه، فيتيقَّن المؤمن أنّه ما من شرٍّ من الشُّرور في العالم إلّا وفي خلقه حكمة بالغة.

الأمرُ الثّاني: أنَّ الإنسانَ قاصرٌ عن إدراك حكمة الخالق فيما يفعله ويخلقه: العقلُ يوصل الإنسانَ إلى أنَّ الخالق متَّصف بالحكمة من حيث العموم، ولكن العقل قاصرٌ عن إدراك جميع الحِكم التفصيلية.

---

(١) وليام هاسكر (William Hasker): بروفسور الفلسفة في جامعة هونتينغتون بالولايات المتَّحدة، وهو متخصِّص في فلسفة الدين، ولا سيَّما مشكلة الشَّر. انظر:
https://www.huntington.edu/meet-the-faculty/william-hasker

(2) "D.Z. Phillips' Problems with Evil and with God", by: William Hasker, in Philosophy of Religion, Vol 61, No. 3, p. 156.

وقد قرَّر شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) هذين الأمرين بطريقة بديعة إذ قال: «... فكلُّ ما فعله [الله] عَلِمْنا أنَّ له فيه حكمة، وهذا يكفينا من حيث الجملة، وإنْ لم نعرفِ التفصيل، وعدم عِلْمنا بتفصيل حكمته بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته، وكما أنَّ ثبوتَ صفات الكمال له معلوم لنا، وأمّا كُنْهُ [- أي حقيقة -] ذاته فغيرُ معلومة لنا: فلا نكذبُ بما علمناه؛ أي من كماله ما لم نعلمه؛ أي من تفاصيل هذا الكمال، وكذلك نحن نعلم أنَّه حكيم فيما يفعله ويأمر به، وعدم علْمنا بالحكمة في بعض الجزئيات لا يقدحُ فيما علمناه من أصلِ حكمته، فلا نكذب بما علمناه من حكمته ما لم نعلمه من تفصيلها.

ونحنُ نعلم أنَّ مَن علم حذق أهل الحساب والطب والنحو ولم يكن متّصفًا بصفاتهم التي استحقوا بها أن يكونوا من أهل الحساب والطب والنحو؛ لم يمكنه أنْ يقدحَ فيما قالوه لعدم علمِه بتوجيهه، والعبادُ أبعدُ عن معرفة الله وحكمته في خلقه من معرفةِ عوامِّهم بالحساب والطب والنحو، فاعتراضهم على حكمته أعظم جهلًا وتكلّفًا للقول بلا علمٍ من العامي المحض إذا قدحَ في الحساب والطب والنحو بغير علمٍ بشيءٍ من ذلك»[١].

الخلاصةُ أنَّ الله - تعالى - متَّصف بالحكمة والعظمة، ولا يقدر الإنسان أن يحيط بجميعِ الحِكم الإلهية، وذلك لقصورِ عقله. وقد ردَّ البروفسور وليام ألستن على مشكلة الشرِّ البرهانية - التي سبقتِ الإشارة إليها -، وبيَّن أنَّ العقل الإنساني ليس قادرًا على إصدارِ نحْو هذه الأحكام؛ لأنه أسيرُ ستّة معوّقات تمنع من الإحاطة بالحكم الإلهية لوجود الشرور، وهي:

المعوِّقُ الأوَّل: قصورُ المعلومات (Lack of data): فالإنسانُ لا يحيط بكلِّ شيء علمًا، بل لا يعلم كلَّ شيء في الحاضر، فضلًا عن معرفة الماضي المجهول أو المستقبل، كما أنه لا يعلم أسرارَ القلب إلى تفاصيل مكوّنات الكون.

المعوِّقُ الثّاني: تعقيد أكبر من إمكانية الإدراك (Complexity greater than we can handle): المسائلُ المتعلّقة بوجود الشَّر هي قضايا تفصيلية متداخلة العناصر على صورة أعظم من طاقتنا على الاستيعاب.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٢٨).

المعوِّقُ الثّالث: صعوبةُ تحديد ما هو ممكن أو ضروري ميتافيزيقيًّا (Difficulty of determining what is metaphysically possible or necessary): العالم الميتافيزيقي هو عالمُ ما وراء المادة، والإنسانُ لا يملك العلمَ عنه إلا بما دلَّ عليه الوحي المعصوم، أو ما دلَّت عليه الآثار في العالم المادي.

المعوِّقُ الرّابع: جهلُنا بالقائمة التامة للممكنات (Ignorance of the full range of possibilities): هذه المشكلةُ تواجهنا عندما نبحث عن النتائج السلبية للنفي؛ فنحن مُطالَبون باستحضار جميعِ الممكنات لاستنباط نتيجة من نفيها. وهذا الأمرُ في غاية الأهمية عندَ الحديث عن الحِكم الإلهية في أفعال الله وفي مخلوقات الله.

المعوِّقُ الخامس: جهلُنا بالقائمة التامة للقيم (Ignorance of the full range of values): لو أردنا أن نستخلصَ دلالةً إيجابية من الأفعال البشرية أو الأحداث الكونية لنفيِ أنَّه شرٌّ، أو النظر إليه سلبًا بالإثبات أنَّه شرٌّ؛ فإنَّه يقتضي إدراكًا لجميع القيم الإيجابية أو السلبية التي يمكن أن تتصل بهذا الفعل.

المعوِّقُ السّادس: حدودُ ملكاتنا في شأن تقديم أحكام قيمية كاملة (Limits to our capacity to make well considered value statements): والمثالُ الأساس لذلك هو صعوبةُ إصدار أحكام مقارنة بشأن القضايا المعقّدة(١).

وخلاصةُ هذا الوجه أنَّ الملاحدة يتعاملون مع الإيمان بالله بطريقة ساذجة، ويحصرونَ الصفاتِ الإلهيةَ في ثلاث صفات فقط، بينما الصواب أنّ الله متَّصف بصفاتٍ كثيرة، مِن ضمنها: العظمة، والحكمة، والعدل، والعزة وغيرها من الصفات. والإنسانُ عاجزٌ عن إدراك الحِكم الإلهية، وعليه فليس للمقدّمة الثانية في مشكلة الشرِّ البرهانية أي معنى.

واليهود والنصارى يتحمَّلون المسئولية عن هذه المفاهيم الخاطئة إلى حدٍّ كبير، كما سيأتي ذكرُه عندَ تقييم ردودهم على مشكلة الشرّ في آخر المبحث - إن شاء الله -.

---

(١) انظر:
"The Inductive Problem of Evil" by: William Alston, in "Philosophical Perspectives" 5, (59-60), (1991)

- **الوجهُ الثّاني: الردُّ على تصوُّر الملاحدة للوجود:**

الملحدُ ينطلق من منطلقٍ مادي في نظرته للوجود، ثمَّ يحاول أن يفرض هذا المنطلقَ على المؤمن بوجودِ الخالق عندَ حديثه عن مشكلة الشَّر. ومن ذلك أن كثيرًا من الملاحدة يتبنّون مذهب اللذة[1]، ثمَّ ينطلقون من هذا المذهب في نظرتهم إلى مشكلة الشَّر. وقد نبَّه البروفسور جون هيك[2] على ذلك بقوله: «يفترض الكُتّاب المناهضون للمذهب الألوهي دائمًا مفهومًا للهدف الإلهي يتعارض مع التصور المسيحي، حيث يفترضون أنَّ الغرض من الإله المحب يجب أن يكون خلق جنة اللذة (Hedonistic paradise). وبالقدْر الذي يختلف العالم عن هذا التصوّر، فإنه يثبت لهم أن الإله إمّا لا يحبُّ بما يكفي، أو ليس قويًّا بما يكفي لخلقِ مثل هذا العالم. إنهم يفكّرون في علاقة الإله بالأرض على غرار بناءِ الإنسان قفصًا لحيوان أليفٍ يسكن فيه. إذا كان إنسانيًّا، فسوفَ يجعل أماكنَ إقامة حيوانه الأليف بشكل طبيعي ممتعة وصحية بقدر ما يستطيع. أي احترام يقصر فيه القفص عن مستوى الطبيب البيطري، ويحتوي على احتمالات وقوع حادث أو مرض؛ فهو دليلٌ إمّا على الإحسان المحدود أو القدرات المحدودة أو كليهما. أولئك الذين يستخدمونَ مشكلة الشَّر كحجة ضدَّ الإيمان بالله يفكِّرون دائمًا في العالم بهذه الطريقة»[3].

وهذا الإلزامُ للملاحدة صحيح؛ فالملحدُ يريد إلزامَ المؤلهة وفق تصوّره الفلسفي. وأما المسلمُ فيعتقد أنَّ الله خلق السماوات والأرض ليتعرَّف إليه عباده؛

---

(١) مذهب اللذة (Hedonism): العقيدة القائلة بأن المتعة أو السعادة هي الشيء الطيب الوحيد أو الرئيس في الحياة. انظر:

https://www.merriam-webster.com/dictionary/hedonism

(٢) جون هيك (John Hick): بروفسور الفلسفة في جامعة كامبردج ببريطانيا، ويعتبر أحدَ أهمِّ فلاسفة الدين في القرن العشرين. توفي عام: ٢٠١٢م. انظر:

https://iep.utm.edu/hick/

(3) "The Soul-Making Theodicy" by: John Hick, in "Readings in the Philosophy of Religion" (311-312), ed. Kelly James Clark, (Broadview Press, 2008, 2ed)

قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢].

وأخبر اللهُ تعالى أنّه خلقَ الجن والإنس من أجل العبادة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

كما أنَّ الله ذكر أنَّه يبتلينا في هذه الدنيا؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الملك: ٢].

فالغايةُ من الخلق: معرفةُ الله وعبادته، واللهُ يختبرنا في هذه الحياة إذا قمنا بذلك. ووفقَ هذا التصوُّر الإسلامي يتَّضح سببُ وجود الشَّر.

ولكنَّ التصوُّرَ الإلحادي للوجود يختلف من ناحية أخرى، وهي حصرهم الحياة في هذه الدنيا، وإنكار الوجود الأخروي. وهذا يؤثِّر في نظرتهم إلى مشكلة الشَّر. وأمّا إذا آمنَ الإنسان بالحياة الآخرة، فإنَّ الأمر يختلف تمامًا.

وقد سبق أنَّ توما الأكويني فسّر المعاناة التي وقعت لنبي الله أيوب في ظلّ الإيمان بالحياة الأخروية. فـ«بدون هذا المنظور الأبدي، نفترض أنَّ الأشخاص الذين يموتون صغارًا، أو الذين يعانونَ من إعاقات، أو الذين يعانون من سوء الحالة الصحية، أو الذين لا يتزوجون أو ينجبون أطفالًا، أو الذين لا يفعلون هذا أو ذاك؛ سيفقدون أفضلَ حياة ممكنة. لكنَّ اللاهوت الذي تقوم عليه هذه الافتراضات به عيب فادح. إنه يفترض أنه يوجَد شيء سوى أرضنا الحالية وأجسادنا وثقافتنا وعلاقاتنا وحياتنا...[لكن] الجنة ستأتي بأكثر بكثير من مجرَّد تعويض عن معاناتنا الحالية».

وهذا يتوافقُ مع العقيدة الإسلامية؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقال النبي (ﷺ): «يودُّ أهلُ العافية يوم القيامة حين يُعطَى أهلُ البلاء الثواب؛ لو أنَّ جلودَهم كانت قُرضت في الدنيا بالمقاريض»[1].

---

(1) If God Is Good: Faith in the Midst of Suffering and Evil (294), by: Randy Alcorn, (Random House of Canada, 2009)

والملحدُ المنكر للحياةِ الأخروية يغيب عنه هذا الأمر، ويظهر له كثيرٌ من المعاناة والآلام على أنها عبثية، وتتنافى معَ الرحمة الإلهية. ولكنَّ الحقَّ أنَّ إثبات الحياة الأخروية تسقطُ به شبهة مشكلة الشرِّ تمامًا.

- **الوجهُ الثّالث: بيانُ حقيقة الشَّر:**

سبقَ ذكرُ أنَّ مشكلةَ الشَّر مبنيَّة على أمرين: الإيمان بوجود خالق عليم قدير خيِّر، وبينَ وجود الشَّر. وقد تقدَّم الردُّ على الأمر الأوّل. وأمّا الأمر الثاني، فهو الحديثُ عن حقيقة الشَّر. ويختلف الفلاسفة في هذه القضية إلى قولين رئيسين:

القولُ الأوَّل: أنَّ الشَّر حقيقة موضوعية.

القولُ الثّاني: أنَّ الشَّر ليس إلا غيابًا للخير[1].

والقولُ الثاني هو ما ذهب إليه أتباعُ الفلسفة الأفلاطونية المحدثة[2]، وتبعهم على ذلك بعضُ اللاهوتيين النصارى مثل: أغسطين - كما سبق ذكرُه -.

وبناءً على هذا المفهوم لماهية الشَّر، فإنَّ شرَّ المرض هو في الحقيقة: فقدان الصحّة. ومَن التزم بهذا القول، فإنَّ نظره إلى مشكلة الشَّر سوف تختلف. ذكر محرّرو قاموس ستانفورد للفلسفة هذا القولَ، ثمّ كتبوا أنه: «يوفِّر حلًّا لمشكلة الشَّر؛ لأنَّه إذا كان الشرُّ حرمانًا من الجوهر والشكل والخير، فلا يخلق الله شرًّا. كلُّ خلق الله جيد، والشرُّ نقصٌ في الوجود والصلاح»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٢٤٠٢)، كتاب الشهادات عن رسول الله r, باب (لم يذكر له اسمًا)، من حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما). وحسّنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٢٠٦).

(٢) انظر: مشكلة الشَّر ووجود الله (٩٤).

(٣) انظر المقال:

The Concept of Evil, in: Stanford Encyclopedia of Philosophy Archive

وهو موجود على الرابط:

https://plato.stanford.edu/archives/sum2020/entries/concept-evil

وقد وضَّح البروفسور جون ستاكهوس[1] المقصود بذلك أكثر بقوله: «ما هو الشرّ؟ يجبُ أن نبدأ بتعريف ما ليس بِشَرّ. في كلِّ مرَّة تقريبًا أناقش هذه القضية، سواء في الفصول الجامعية أو المحاضرات العامة أو المحادثات أثناء تناول القهوة، أجد نفسَ الافتراض عنْ طبيعة الشر. تظهر بشكلٍ خاصٍّ في السؤال الشائع: «لماذا خلق الله الشَّر؟» هناك جوانبُ يكون فيها هذا سؤالًا منطقيًّا تمامًا. لكن الكامن بداخله، كما أعتقد، هوَ مغالطة لما يسمِّيه الفلاسفة «تجسيد المجردات»... لأنَّ الشَّر ليس «شيئًا» يمكنُ أن «يخلقه» الله. إنَّه ليس نوعًا من الجزيئات أو الفيروسات أو مجال القوة أو السَّديم الأسود العملاق الذي يمرّ عبر الكون ويصيب أو يؤثّر في كلّ شيء يواجهه. لم يكنْ هناك وقتٌ عندما قال الإله: «ليكن الشر»، وكان هناك شَر. ولم يكن الشَّر موجودًا إلى الأبدِ كنوع من النظير الثنائي للإله. أؤكد أنه لا يوجد شيء [له وجود مستقلٌّ] اسمه الشَّر. الشرُّ هو في المقام الأول صفة، ويصبح اسمًا عند التجريد. يمكن أن يكونَ الفعل شريرًا، أو يمكن أن يكون الحدث شريرًا، أو يمكن أن تكون الخاصية شريرة، أو يمكن أنْ يكون الكائن شريرًا. ويمكننا أن نجمع كلَّ هذه الشرور الخاصة معًا في أذهانِنا، ونخرج بفئةٍ تسمّى بـ«الشَّر». يمكننا حتى أن نواصل مناقشتها كما لو كانت هذه الفئةُ شيئًا معينًا، طالما أنَّنا لا ننسى أننا نتعامل دائمًا مع فئة أو مجموعة من الأشياء الشريرة المعينة، وليس شيئًا بحد ذاته»[2].

هذا هو ما ذكرَه أتباعُ الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، ومَن تبعها مِن اللاهوتيين النصارى. ولكن هل يصحُّ هذا الردُّ وفق العقيدة الإسلامية؟

مِن أحسن مَن تكلَّم عن ماهية الشرِّ من علماء المسلمين هو الإمام ابن القيم (رحمه الله) في كتابه: شفاءُ العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. ولهذا سوف أستطردُ قليلًا في نقل تقريره لهذه القضية المهمَّة.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) جون ستاكهوس (John G. Stackhouse): بروفسور الدراسات الدينية، وعميد الكلية في جامعة كرانديل بكندا. انظر:
https://www.crandallu.ca/staff/samuel-j-mikolaski-professor-religious-studies-dean-faculty-development/

بدأ - رحمه الله - في تقسيم الشرِّ؛ إذْ قال: «وتحقيق الأمر أنَّ الشرَّ نوعان: شرٌّ محْض من كلِّ وجه، وشرٌّ نسبي إضافي من وجه دون وجه. فالأوّل لا يدخل في الوجود، إذْ لو دخلَ في الوجود لم يكن شرًّا محضًا، والثاني هو الذي يدخُل في الوجود. فالأمورُ التي يُقال هي شرور، إمّا أن تكون أمورًا عدمية، أو أمورًا وجودية.

فإنْ كانت عدمية فإنَّها إمّا أن تكون عدمًا لأمورٍ ضرورية للشيء في وجوده، أو ضرورية له في دوامِ وجوده وبقائه، أو ضرورية له في كماله، وإمّا أن تكون غير ضرورية له في دوامِ وجوده ولا بقائه ولا كماله، وإنْ كان وجودها خيرًا من عدمها. فهذه أربعةُ أقسام:

فالأوَّل: كالإحساس والحركة والتنفّس للحيوان.

والثّاني: كثرة الاغتذاء والنمو للحيوان المغتذي النامي.

الثّالث: كصحته وسمعه وبصره وقوّته.

والرّابع: كالعلم بدقائق المعلومات التي العلم بها خير من الجهل، وليست ضرورية له.

وأمّا الأمورُ الوجودية فوجودُ كلِّ ما يضادُّ الحياة والبقاء والكمال كالأمراض وأسبابها، والآلام وأسبابها، والموانع الوجودية التي تمنع حصول الخير؛ ووصوله إلى المحلِّ القابل له؛ المستعدِّ لحصوله كالمواد الرديئة المانعة من وصول الغذاء إلى أعضاء البدن وانتفاعها به، وكالعقائد الباطلة، والإرادات الفاسدة المانعة لحصول أضدادها للقلب»[1].

وبعدَ ذكرِ هذا التَّقسيم بيَّن حقيقةَ الشَّر بالذات والشَّر بالعَرَض؛ إذ قال: «إذا عُرِف هذا فالشرُّ بالذات هو عدمُ ما هو ضروري للشيء في وجوده أو بقائه أو كماله، ولهذا العدم لوازم هي شرٌّ أيضًا، فإنَّ عدم العلم والعدل يلزمهما من الجهل والظلم ما هو شرورٌ وجودية، وعدم الصحة والاعتدال يلزمهما من الألم والتضرّر ما هو شرٌّ وجودي...

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (٢/ ٥١٥)، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية، (مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ ت. عمر بن سليمان الخفيان).

فظهرَ أنَّ الشرَّ لم يترتَّب إلّا على عدم، وإلّا فالموجود من حيث وجوده لا يكون شرًّا ولا سببًا للشَّر، فالأمور الوجودية ليست شرورًا بالذات، بل بالعرض من حيث إنها تتضمَّن أمورًا ضرورية أو نافعة فإنَّك لا تجد شيئًا من الأفعال التي هي شرٌّ إلّا وهي كمالٌ بالنسبة إلى الفاعل، وجهة الشَّر فيه بالنسبة إلى أمور أخرى»[1].

وبناءً على هذا التأصيل المهمِّ لماهية الشرِّ يمكن الجمع بين الإيمان بالخالق القدير العليم الرحيم، وبينَ وجود الشرِّ في العالم. فمع أنَّ الله خالق كلِّ شيء، فلا ينسب الشرُّ إليه؛ قال رسولُ الله (ﷺ): «والشرُّ ليس إليك»[2].

ووضَّح الإمام ابن القيّم (رحمه الله) ذلك بقوله: «فتبارك الله وتعالى عن نسبة الشرِّ إليه، بل كلُّ ما نُسب إليه فهو خير، والشرُّ إنما صار شرًّا لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلوْ أضيف إليه لم يكن شرًّا... وهو سبحانه خالق الخير والشَّر، فالشرُّ في بعض مخلوقاته لا في خلقِه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره كلّه خير.

ولهذا تنزَّه سبحانه عنِ الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه... فلا يضعُ الأشياء إلّا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خيرٌ كلُّه، والشرُّ وضع الشيء في غير محلِّه، فإذا وُضع في محلّه لم يكنْ شرًّا، فعُلم أنَّ الشرَّ ليس إليه»[3].

وخلاصته: أنَّ الشرَّ المحض معدومٌ وغير موجود، والموجود في هذا الكون هو الشرُّ النسبي - أي: الذي يتضمَّن خيرًا بوجهٍ من الوجوه -، وعليه، فالتقرير الفلسفي السابق غيرُ صحيح. وننتقل إلى نقدِ مشكلة الشرِّ عند الملاحدة بصياغتيها: المنطقية والبرهانية.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٥١٥ - ٥١٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٧١)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) شفاء العليل (٢/ ٥٠٩ - ٥١٠).

- **الوجهُ الرّابع: الردُّ على مشكلة الشَّر المنطقية:**

الملحدُ الذي اشتهر بإيراد مشكلة الشرِّ المنطقية هو البروفسور جون ماكي كما سبقَ ذكره. وكان يدَّعي أنّه يستحيل منطقيًّا الجمعُ بين أمرين:

الأمرُ الأوَّل: الإيمانُ بوجود خالق عليم قدير رحيم.

الأمرُ الثاني: وجودُ الشَّر.

ولكنَّ هذا الادِّعاء غيرُ صحيح؛ لأنَّه لا يوجد أي تناقض منطقي بين الأمرين. وكان البروفسور وليام روو - صاحب صياغة مشكلة الشرّ البرهانية - ممن بيَّن ذلك بطريقةٍ جيِّدة. فذكر أوّلًا طريقةَ بيان التناقض في المنطق بقوله: «كيف يمكننا إثبات أنَّ عبارتين متناقضتان؟ في بعض الأحيان لا يلزم إثبات أيِّ شيء، لأنَّ البيانين متناقضان بشكلٍ صريح. فعلى سبيل المثال، عبارة: «إليزابيث يزيد طولها عن خمسة أقدام» وعبارة: «إليزابيث لا يزيد ارتفاعها عن خمسة أقدام» متناقضتان. ومع ذلك، ففي كثيرٍ من الأحيان، لا يوجد تناقضٌ واضح بين عبارتين متضاربتين. في مثل هذه الحالات، يمكننا إثباتُ أنها غير متَّسقة خلال استنباط عبارتين متناقضتين بشكل واضح»[1].

وضربَ مثالًا على ذلك بهاتين الجمْلتين: «هذا الشيء أحمر» و»هذا الشيء غير ملوَّن»، فلإثباتِ التناقض بينهما فلا بدَّ من عبارة ثالثة، وهي: «كلُّ شيء أحمرِ هو ملوَّن». ثمَّ ذكر شرطًا مهمًّا لهذه العبارة المضافة لبيان التناقض بين العبارتين الأوليتين بقوله: «الآن، النقطةُ التي تحتاج إلى عناية فائقة هي: لكي يعمل هذا الإجراء، فإنه يجبُ ألّا تكون العبارة أو العبارات التي نضيفها صحيحة فحسب (Just true)، بل يجب أنْ تكون صحيحة بالضرورة (Necessarily true)»[2].

---

(1) Philosophy of Religion: An Introduction (114), by: William Rowe, (Wadsworth, Cengage Learning, 2007, 4:th edition)

(٢) المصدر السابق.

ثمَّ طبَّق هذا التقرير على مشكلة الشرِّ المنطقية فذكر أنَّ عبارة: «الإله موجود، وهو قدير، عليم، وذو خيرٍ مطلق» وعبارة: «الشرُّ موجود» ليستا متناقضتين بشكل صريح، فلا بدَّ من إضافة عبارة أخرى لبيان التناقض المزعوم مثل: «الكائن القدير، العليم وذو الخير المطلق سيمنع جميعَ أنواع الشرور». ولو كانت هذه العبارة صحيحة ضرورةً فإنَّ العبارتين الأوليتين متناقضتان. وبعدَ ذلك ذكر أنَّ هذه العبارة ليست صحيحة ضرورة، لأنَّه قد يكون الإله يسمح بوجودِ بعض الشرور لأنَّها تؤدّي إلى خير أعظم مثلًا. وإذا لم تكنْ هذه العبارة صحيحة ضرورة فلا يمكن أن يقال: إنّه يوجد تناقض بين العبارتين الأوليتين[١].

وختمَ ذلك بقوله: «في ضوء ذلك، فمن المعقول أن نستنتج أن الشكل المنطقي لمشكلة الشرِّ لا يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة للإيمان بالله»[٢].

وبناءً على هذا الضَّعف الظاهر اعترف البروفسور جون ماكي أنّ مشكلة الشرِّ المنطقية لا تتعارض معَ المعتقدات الأساسية في المذهب الألوهي. وذلك في كتابه: «معجزة المذهب الألوهي» (The Miracle of Theism) الذي طُبع بعد وفاته بسنة؛ فقال فيه: «بعدَ هذا كلّه، فإنَّ مشكلة الشَّر لا تبيِّن أن العقائد المركزية للمذهب الألوهي متناقضة منطقيًّا»[٣]. وهذا الكلام يحمل شيئًا من التراجع عما قرّره سابقًا.

وبعدَ ذلك اتَّفق المتخصِّصون في مشكلة الشَّر - من الملاحدة والمؤمنين بوجود الله - أنَّ مشكلة الشرِّ المنطقية لا تتعارض مع الإيمان بالله. وقد نقل البروفسور تشاد ميستير هذا الإجماعَ بقوله: «لا يدرك معظم الناس الذين يكتبون على مستوى شعبي أن فلاسفةَ الدين المتخصِّصين - ملحدهم ومؤمنهم على حدٍّ سواء - قد أجمعوا في السنوات الأخيرة بأنَّ هذا الشكل من مشكلة الشر قد دُحض تمامًا. وعليه، فإنّه غير ناجح. ولا يحصلُ هذا النوع من الإجماع في الفلسفة عادةً! فلا يوجد تعارض منطقي

---

(١) انظر: المصدر السابق (١١٥ - ١١٦).

(٢) المصدر السابق (١١٧).

(3) The Miracle of Theism (154)

بين الادِّعائين؛ لأَنَّه يمكن أن يكون للإله القدير العليم وذي الخير المطلق أسبابٌ وجيهة للسماح بوجود الشَّر واستمراره لشخص واحد أو أكثر»[1].

وبذلك يتبيَّن أنَّ مشكلة الشرِّ المنطقية لم يعدْ لها وزن في الساحة الأكاديمية الغربية لضعفِها. وبناءً على ذلك، ننتقل إلى الصياغة الثانية لمشكلة الشَّر، وهي: مشكلة الشرِّ البرهانية.

- **الوجهُ الخامس: الردُّ على مشكلة الشرِّ البرهانية:**

قد تبيَّن أنه لا يوجد أيُّ تعارض منطقي بين الإيمان بالخالق العليم القدير الرحيم، وبينَ وجود الشَّر. ولكنْ لا يعني ذلك أنَّ مشكلة الشرِّ ليست مؤثّرة في شريحة كبيرة من الناس. والسببُ في ذلك أنَّ الإنسانَ كائنٌ حسّاس عاطفي، ووجود الشرور والآلام والمعاناة يلمس أعماقَ الإنسان - لا سيَّما إن شعر في نفسه أو أحد قريب منه -.

ومشكلةُ الشرِّ البرهانية في الحقيقة شبهةٌ عاطفية، حيث يقوم الملاحدة الذين يذكرونَ هذه الصياغة بذكْر وقائع مؤثّرة مثل: قتل الأطفال، ثمّ يقولون: كيف يسمح إله عليمٌ قدير رحيم بهذا الأمر؟ وهذا ما ركَّز عليه البروفسور وليام روو - الذي اعترف بسقوطِ مشكلة الشَّر المنطقية -، وكانت صياغته البرهانية - كما سبق - كالآتي:

١. توجَد في العالم معاناةٌ شديدة، كان يمكن لأيِّ كائنٍ عليم قدير أن يوقفها بدون أنْ يقرن ذلك بحرمان البَشر من أيّ خيرٍ أكبر أو السماح بوجود شرٍّ أسوأ.

٢. إنْ وُجد كائن عليم وذو خير مطلق فإنه سيمنع حدوثَ أي معاناة شديدة، ما لم يفقدْ بذلك خيرًا أكبر أو يسمح لشرٍّ مماثل أو أسوأ.

٣. إذًا، لا يوجد كائنٌ قدير، عليم، ذو خير مطلق.

فجمعَ بين هذه الصياغة المنطقية والحديث عن الشرِّ المجاني - بمعنى: الشَّر الذي لا يقودُ إلى خير يوازيه أو يربو عليه -.

---

(1) “God, Evil and Morality”, by Chad Meister, in God is Good, God is Great (108)

ومعَ قوَّة تأثير هذه الشبهة عاطفيًّا على بعض الناس إلا أنَّ علماء الغرب قد ردّوا عليها ببعض الرُّدود القيِّمة التي تبيّن أنّها أيضًا شبهةٌ ساقطة وضعيفة. وذكر البروفسور مايكل موراي والبروفسور مايكل ريا أنَّ الألوهيين عندهم ثلاث طرق رئيسة في الإجابة عن مشكلة الشرِّ البرهانية[١]:

الطريقةُ الأولى: تحويلة جي. إي. مور (The G.E. Moore shift):

سمِّيتْ هذه الحجة باسْم البروفسور جي. إي. مور[٢] الذي كان ينتقد كثيرًا من الحججِ المشهورة التابعة لمذهب الشَّك. وتقوم تحويلة مور بتحويل النتيجة إلى المقدّمة الثانية، وجعل المقدِّمة الثانية هي النتيجة. وضربَ على ذلك مثالًا بنقد مذهب الشَّك، وهي ما يأتي:

حجَّة المشكّك:

المقدِّمة الأولى: إن كان المشكِّك محقًّا، فلا أدري إنْ كانت هناك يد أمامي.

المقدِّمة الثانية: المشكِّك محقّ.

النتيجة: إذًا، لا أدري إن كانت هناك يد أمامي.

الحجَّة ضدَّ مذهب الشَّك:

المقدِّمة الأولى: إن كان المشكِّك محقًّا، فلا أدري إن كانت هناك يد أمامي.

المقدِّمة الثانية: أعلمُ أنَّ اليد أمامي.

---

(١) انظر:

An Introduction to the Philosophy of Religion (165-178), by: Michael Murray and Michael Rea, (Cambridge University Press, 2008)

(٢) جي. إي. مور (G.E. Moore): بروفسور الفلسفة في جامعة كامبردج، وقد تخصَّص في الميتافيزيقية ونظرية المعرفة. توفي عام: ١٩٥٨. انظر:

https://iep.utm.edu/moore/

النتيجة: إذًا، المشكِّك غيرُ محق.

اشتركَ المشكِّك وخصمه في المقدِّمة الأولى، ولكن خصمه قلبَ نتيجة المشكّك إلى مقدِّمة ثانية بطريقة معْكوسة، ثمَّ اختلفت نتيجته مع نتيجة المشكّك. إذا واجهنا حجتيْن مثلهما فلا بدَّ أن ننظر إلى المقدِّمة الثانية في كلٍّ من الحجتين ونرجّح أيتهما أصوب، ثمَّ نستنتج النتيجة.

واستخدمَ علماءُ الغرب هذه التحويلة في نقدِ حجَّة مشكلة الشَّر البرهانية المبنية على وجود الشرِّ المجاني؛ فبينما يقول الملحد:

المقدِّمة الأولى: إن كان هناك إله، فلا يوجد شرٌّ مجاني.

المقدِّمة الثانية: الشرُّ المجاني موجود.

النتيجة: إذًا، لا يوجد إله.

فيحوِّل علماءُ الغرب الحجة لتكون:

المقدِّمة الأولى: إن كان هناك إله، فلا يوجد شرٌّ مجاني.

المقدِّمة الثانية: الإلهُ موجود.

النتيجة: إذًا، لا يوجد شرٌّ مجاني.

وعلماءُ الغرب يبنون المقدِّمة الثانية على حججٍ راسخة مثل: البرهان الكوني، وحجَّة التوافق الدقيق للكون. وهذه الحجج أقوى من الحجج على وجود الشرِّ المجاني[1].

والخلاصة أنَّ الإيمان بوجود الخالق العليم القدير الرحيم مبني على حجج يقينية لا تقبُّل الشَّك، بينما الحديث عن وجود الشرِّ المجاني حسب تعريفهم أمر مشكوك فيه. والقاعدةُ المقرَّرة تقول: اليقينُ لا يزول بالشَّك. وحجةُ تحويلة مور في نقد مشكلة الشرِّ البرهانية جيِّدة وقوية؛ لأنها تقلبُ الحجة على الملحد.

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٦٥ – ١٦٧) بتصرّف يسير.

فالصوابُ أنَّ «الصورة المنطقية للتفكير التصاعدي لا بدَّ أن تبدأ بيقين ثابت؛ حتَّى لا يتيه المفكِّر في فرضيات الممكنات. ولذلك لا يصحُّ أن ننطلق من افتراض وجود شرٍّ مجاني لأنَّ القطع بمجانيته هو مجرّدُ احتمال عقلي لا يمكن القطع به في مبتدأ النظر، أمّا القول بوجود خالق أخرجَ المادة من العدم إلى الوجود وصوّر الكونَ فأحسن تصويره؛ فهوَ حقيقة مادية ثابتة يشهدُ لها الحسُّ والمعادلات العقلية. إنّ مسلكنا في ترتيب الأفكار لا يلغي الحقائق - على خلاف المنطق الأوَّل الذي ينفي ما يقطع به العقل من وجود إله -، وإنما هو يثبتُ المدركات اليقينية الكبرى، ثمّ يقيم على أعمدتها فهمًا مدركًا لغوامض الكون»[1].

الطريقةُ الثّانية: الردُّ على حجج عدم الرؤية (Noseeum arguments):

الملاحدةُ الذين يستخدمون مشكلةَ الشَّر البرهانية يذكرون أمثلة على وجود الشرِّ المجاني، وأنهم لا يروْن أيَّ حكمة من وجود هذا النوع من الشَّر. فالملحدُ يعتمد على جهلِه بمعرفة الحكمة أو عدم رؤيته لها على أنّ الحكمة منعدمة.

وقد ردَّ علماءُ الغرب على حجج عدم الرؤية لدى الملاحدة بطريقة بديعة، وخلاصتُها أنَّ: حجج عدم الرؤية قد تكون جيّدة وسيئة بحسب الحالة:

الحالةُ الأولى: إمكانيةُ استخدام هذه الحجة: ومن الأمثلة على ذلك أنَّ شخصًا ما يطلب منك أن تأخذَ علبة من الحليب من الثلاجة، وعندما تنظر في الثلاثة بعنايةٍ لا ترى أيَّ علبة، فتستنتج من ذلك أنه لا توجد علبة حليب في الثلاجة.

الحالةُ الثّانية: عدمُ إمكانية استخدام هذه الحجة: ومن الأمثلة على ذلك أنَّ طبيبًا يريد أن يحقنكَ بإبرة، ولكنَّ الإبرة تسقط من يده على الأرض، ثمّ يأخذها الطبيبُ للحقنة. فتقول: «دكتور! قد تكون العبرة وسخة وتلوّثت بجراثيم». فيقول الطبيب: «لا بأس باستخدامها، فلا أرى عليها أيَّ جرثومة». فهذا طبعًا غير ممكن، حيث إنَّ الجراثيم أصغرُ من أن تراها العين. وعليه، كان كلام الدكتور في غير محلِّه.

---

(١) مشكلة الشَّر ووجود الله (١٥١ - ١٥٢).

إذًا، ما الفرقُ بين حجج عدم الرؤية الجيّدة والسيئة؟ الجواب أنه لا بدَّ أن يتوفّر لها شرطان لقبولها:

الشَّرطُ الأوَّل: أنْ تبحث في المكان الصحيح. فلو طلب صديقك أن تبحث عن علبةِ الحليب في الثلاجة، وبحثت في الفرن، فلن تجدها.

الشَّرطُ الثّاني: أن تستطيع إدراكَ الشيء المطلوب إن كان موجودًا في ذلك المكان. فلوْ سألك شخص وأنتَ في الشقة: «هل توجد نملة في العشب في خارج الشقة؟» فنظرتَ من النافدة، وقلت: «لا، ما أرى أيَّ نملة». فليس في قدرتك أن تشاهد النمل في العشب، لأنها صغيرة، ونظرت من بعيد.

ولو طبَّقنا هذين الشرطين في نقدِ مشكلة الشَّر البرهانية ووجود الشرّ المجاني، نرى أنَّه ليس بإمكان الملحد أن يقول: «إنَّ هذا الشرَّ مجاني، وليست فيه حِكم ولا أي خير»، وذلك لسببين:

السببُ الأوَّل: بالنظر إلى ضخامة الخير الإلهي ومحدودية ملكاتنا المعرفية والأخلاقية البشرية، فقد يكون هناك بعضُ أنواع الخير، وربما العديد منها، بدون معرفتنا بها. إذا لم نتمكَّن حتى من فهْم النطاق الكامل للخير الذي قد تهدف الشرور إلى تأمينِه، فإنَّ محاولاتنا لإصدار أحكام عما إذا كانت الشرور لا مبرر لها ستكون عقيمة.

السببُ الثّاني: حتى لو كنّا نعتقدُ أننا على درايةٍ بموضوع الخيرات، فهناك سببٌ وجيه للشَّك في أنه سيكون لدينا أي فكرة عما قد تفعله شرور معينة في تحقيق تلك الخيرات. كيف يمكننا أنْ نعرف ما هي أنواعُ الغايات الجيدة النهائية التي يمكن أن تتحقَّق بسبب هذا الشر أو ذاك؟[1].

وهذه الحجَّة قويةٌ وجيِّدة في نقد مشكلة الشَّر البرهانية مع الشرِّ المجاني. ويضاف إلى هذا ما سبقَ من أوجه قصور العقل الإنساني الستة. ويتبيّن من ذلك أنَّ

---

(١) انظر: An Introduction to the Philosophy of Religion (167 - 169)

الإنسان ليسَ قادرًا على أن يحكم على أنَّ واقعة معيّنة تعتبر شرًّا مجانيًّا، أو ينفي أن تكون شرًّا وفيه حِكم، وأنه سوف يؤدّي إلى خير أعظم.

الطريقةُ الثّالثة: الردُّ بثيوديسيا (Theodicy):

هذا النوعُ من الردِّ يرجع إلى بيان الحِكم التفصيلية للخالق حين يسمح بوجود هذه الشُّرور. وذكر البروفسور مايكل موراي والبروفسور مايكل ريا أنّ هذه الطريقة تختلف عنِ الطريقتين السابقتين. وذلك أنَّ الطريقتين السابقتين: دفاع (Defense)، بينما هذه الطريقة تسمَّى ثيوديسيا. والفرق بين الدفاع وثيوديسيا أنّ الدفاع يهدف إلى شرح إمكانية وجود الخالق العليم القدير الرحيم مع وجود الشرور، وأنه لا تناقض بينهما، بينما تهدف طريقة ثيوديسيا إلى تسويغ سماح الخالق بوجود هذه الشرور[1].

وقد أورد علماءُ الغرب أنواعًا مختلفة من ثيوديسيا، وهي تختلف إذا كانت الشرور المذكورةُ من الشرِّ الأخلاقي، أو الشرِّ المادي الطبيعي؛ ولذلك أؤجّل الحديثَ عن هذه الأنواع إلى الوجهين السادس والسابع - إن شاء الله -.

وهذه الطُّرق الثلاث جيِّدة في الردِّ على مشكلة الشَّر البرهانية والشرِّ المجاني، مع ملاحظة أمرين:

أوَّلًا: أنَّنا «لا نرى أنَّ هذه الإجابات تتنافى؛ فإنْ قبلنا واحدةً رفضنا الجوابين الآخرين، وإنما نرى أنها تتكامل، فمثلًا نحن نرى قصورَ العقل في فهمه لدقائق العالم، لكنَّنا نعتقد مع ذلك أننا إنْ قَلَبنا السؤالَ على الملحد، وتحدّيناه أن يجزم أن شرًّا بعينه لا يمكن أن يكون سببَ وجوده حكمة من الحِكم التي أوردناه، فلن يحر جوابًا. وهو ما يعني أننا حتى لو تنزَّلنا في الجواب، وقلنا بقدرة العقل على إصابة الحكمة التي وراء كلِّ شرٍّ فلن يتمكّن الملحدُ من إقامة اعتراضه.

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٧٠).

وثانيًا: نحن نرى أنْ نرتِّب مباحثَ الحديث في موضوع الشرّ المجاني بصورة واضحة؛ لأنَّنا بذلك نحيط بأوجه الخلل في الاعتراض الإلحادي، مع استيعاب - في نفس الآن - الصيغةِ التقليدية للردّ. وهذه الاعتراضات هي:

١ - السؤال الملغوم في داخله بأسئلة محرجة للملحد[١].

٢ - يقوم الاعتراضُ على التسليم بيقينية الشرِّ المجاني، وقد كان عليه أن يجعله موضع استشكال ونظر.

٣ - الإشكال يفترض كمالَ العقل الإنساني وبساطة الكون، وبالتالي قدرة الإنسان على كشف حقائق الكون.

٤ - ينفي الاعتراضُ الإلحادي الحكمة من عجز العقل عن سبْر كلِّ حقيقة.

٥ - يرى الاعتراضُ الإلحادي أنَّ سنن الكون المادية التي ينجم عنها كثير من «الشرّ المجاني» أمرٌ عارضي، وأنَّ من الحكمة الاستغناء عنها.

٦ - يرى الاعتراضُ الإلحادي أنَّ ثبوت مجانية الشرِّ مرهون بحقيقته في الحياة الدنيا دونَ افتراض تتمة لقصة الوجود في الآخرة.

٧ - يتجاهل الاعتراضُ الإلحادي مشكلة الخير المجاني[٢]»[٣].

وبهذه الأوجه كلِّها يتبيّن بجلاءٍ أنَّ مشكلة الشَّر البرهانية ساقطة أيضًا مثل أختها: مشكلة الشرِّ المنطقية. ولكن يبقى النقد لنوعي الشرِّ اللذيْن يعترض بهما الملاحدةُ على وجود الخالق. وبيانُ ذلك في الوجهين السادس والسابع.

---

(١) سيأتي بيانُ ذلك في الوجه الأخير من أوجه الردّ على مشكلة الشَّر - إن شاء الله -.

(٢) سيأتي الحديثُ عن مشكلة الخير المجاني في الوجه الأخير - إن شاء الله -.

(٣) مشكلة الشَّر ووجود الله (١٤٧).

- **الوجهُ السّادس: تفسيرُ وجود الشرِّ الأخلاقي:**

سبقَ أنَّ الملاحدة يقسِّمون أنواعَ الشرور - عند حديثهم عن مشكلة الشرّ - إلى نوعيْن رئيسين: الشَّر الأخلاقي والشَّر المادي الطبيعي. ويندرج تحت الشرِّ الأخلاقي جميع أنواع الشُّرور التي يقوم بها الإنسان كالظلم، والطغيان، والقتل، والحروب، والاغتصاب، إلخ.

وقد بيَّن علماءُ الغرب الحِكم الإلهية من وراء هذه الشرور، ومن أبرز هذه الحِكم:

الحكمةُ الأولى: الإرادةُ الحرَّة:

مِن أشهر أنواع ثيوديسيا لدى علماء الغرب للشرّ الأخلاقي هو أنّ الله منحَ الإنسانَ إرادة حرَّة. فالإنسان الذي يعمل الأعمالَ الشريرة يفعل ذلك بإرادته وقدرته، فهوَ الذي يُلام على أفعاله. وحيث إنَّ الله خلق هذه الحياة امتحانًا واختبارًا، ثمّ يجازي الإنسانَ على عمله، فلا يتأتى ذلك إلّا إذا كان للإنسان إرادة حرّة. وهذا القول انتصر له عددٌ كبير من اللاهوتيين النصارى عبر التاريخ، مثل: أغسطين، وليبنز، والبروفسور ألفن بلانتغا في هذا الزمان[1].

وهذه الحكمة صحيحةٌ من وجه؛ فلا شكَّ أنَّ الله خلق في الإنسان قدرة وإرادة ومشيئة. ولكنْ ينبغي للمسلم السني أن يتوقَّى إطلاقَ القول بأنّ هذه الإرادة «حرّة». والسببُ في ذلك أنَّ كثيرًا من النصارى قدرية في باب مشيئة العبد، ولهذا قد يقصدون بلفظ «إرادة حرّة» معنى باطلًا. بينما المسلم يعتقد أنَّ الله خلق في الإنسان مشيئة، ولكنَّ هذه المشيئة ليست مستقلّة، بل هي تحت مشيئة الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وسيأتي تفصيلُ هذه المسألة في المبحث الثالث في هذا الفصل بعنوان: ردودُ علماء الغرب على شبهة: سلب الإرادة.

---

(١) انظر:

Many Faces of Evil (67)

الحكمةُ الثّانية: عقوبةٌ إلهية:

مِن أنواع الحِكم التي ذكرها علماءُ الغرب لوجود الآلام والمعاناة أنّها قد تكون عقوبة إلهيةً للمجرمين والفاسدين. وذكروا أنَّ هذه العقوبات تأتي بأربعة أنواع من الخيرات، وهي: إعادة تأهيل الفاسدين، وردعهم عن الاستمرار، وحماية المجتمع من شرورهم، وعقوبة لإجرامهم(١).

وهذه الحكمةُ من حيث العموم صحيحة، وقد ذكرها اللهُ في القرآن الكريم في غير ما آية، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

الحكمةُ الثّالثة: النتيجةُ الطبيعية للأعمال:

المرادُ بهذه الحكمة أنَّ مَن عاش حياته باتِّباع جميع أنواع الشهوات والإساءة للآخرين؛ فالنتيجةُ الطبيعية لأعماله أنَّ الناس يتركونه، ويُصاب بأمراض، وغير ذلك. وهذه نتيجةٌ طبيعية لتلك التصرّفات. وفرَّقوا بين هذه الحكمة والحكمة السابقة بأنّه لا يلزم أنْ يقال: إنَّ كلَّ مَن يصاب بذلك قد تعرَّض لعقوبة إلهية، وإنما هي نتيجة طبيعية حتميَّة من جنس عمله، بينما العقوبة الإلهية فقد تختلف في النوع والكيف(٢).

هذا وإن كان قصدُهم مفهومًا، إلا أنَّه لا تعارض بين كون هذه النتيجة الحتمية للعمل، وبينَ كوْنها عقوبة إلهية؛ فكلُّ شيء يحصل بمشيئة الله. ولا مانع أن تكون العقوبةُ الإلهية من جنْس العمل، بمعنى أنَّ مَن أساء إلى الناس أساء الناس إليه، جزاءً وفاقًا.

فهذه ثلاثةُ أنواع من الحِكم لوجود الشَّر الأخلاقي التي ذكرها علماءُ الغرب.

- **الوجهُ السّابع: تفسيرُ وجودِ الشَّر الطبيعي المادي:**

النوعُ الثّاني من أنواع الشرِّ التي يستدلُّ بها الملاحدة هو الشرُّ الطبيعي المادي. ويدخُل في هذا النوع جميعُ أنواع الشرور التي لم يتسبَّب فيها الإنسانُ بشكل مباشر مثل: الزلازل، والفيضانات، والقحط، والأمراض.

---

(١) انظر: An Introduction to the Philosophy of Religion (170 - 171)

(٢) انظر: المصدر السابق (١٧١ – ١٧٢).

ولا يمكن تفسيرُ وجود هذه الشُّرور بالإرادة «الحرّة»، ولكن يمكن تفسيرها بأنها عقوباتٌ إلهية، ونتيجةٌ طبيعية للعمل. وإضافةً إلى ذلك ذكر علماء الغرب بعض الحِكم الأخرى، أكتفي بذكر اثنتين منها:

الحكمةُ الأولى: لا يحسُّ الإنسانُ بالخير إلّا إذا عرف الشَّر:

هذا الأمر معروفٌ ومسلَّم به. وقد ذكر البروفسور نينيان سمارت هذه الحكمة بقوله: «مفهوم الحسن (Good) في تعلّقه بالإنسان مرتبط بمفاهيم أخرى مثل: الإغراء، والشجاعة، والكرم، إلخ. وليس لهذه المفاهيم مجالٌ للوجود إذا خُلق الإنسان كاملًا بلا نقص»[1].

وهذه الحكمةُ صحيحة، فالشرُّ لا يُعرف إلّا بعامَّة الخير. كما أنّ الإنسان لا يستشعر نعمةَ العافية إلّا إذا عرف المرض. وقد نبّه الإمام ابن القيّم (رحمه الله) على ذلكَ بكلام في غاية الجمال إذ قال: «قد استقرَّت حكمتُه سبحانه أنّ السعادة والنعيم والراحةَ لا يوصل إليها إلّا على جسر المشقة والتعب، ولا يدخل إليها إلا من باب المكارِه والصبر وتحمُّل المشاقّ، ولذلك حفَّ الجنةَ بالمكاره، والنار بالشهوات... وقد سبقتِ الحكمة الإلهية أنَّ المكاره أسباب اللذات والخيرات كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]... العقلاءُ قاطبة متَّفقون على استحسان إتعابِ النفوس في تحصيل كمالاتها، من العلم النَّافع والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، وطلب محمدة من ينفعهم حمده، وكلّ مَن كان أتعبَ في تحصيل ذلك كان أحسنَ حالًا وأرفع قدرًا، وكذلك يستحسنون إتعاب النفوس في تحصيل الغنى والعزِّ والشرف، ويذمُّون القاعدَ عن ذلك، وينسبونه إلى دناءة الهمَّة، وخسة النفس، وضعة القدر»[2].

---

(1) “Omnipotence, evil and supermen”, by: Ninian Smart, in “Philosophy (Vol. 36), (No. 137) (188), (Cambridge University Press, on behalf of Royal Institute of Philosophy, 1961)

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٢١ – ٦٢٢).

الحكمةُ الثّانية: صناعةُ النَّفس:

هذه الحكمةُ تلخِّص ما سبقَ من الحِكم في وجود الشرور الأخلاقية والمادية. وهي حكمةٌ ذكرها اللاهوتي إيرينيوس في القرن الثالث الميلادي، وطوّرها البروفسور جون هيك في نهايةِ القرن العشرين. والمقصود بهذه الحكمة: أنَّ هذه الشرور موجودة لتنمية النفوس البشرية والأخلاق البشرية. وذكروا أربعةَ شروط لكي تتحقّق الصناعة النفسية:

الشَّرطُ الأوَّل: لا بدَّ من وجود كائنات قادرة على الاختيار بين الطيّب والخبيث.

الشَّرطُ الثّاني: أنَّ هذه الكائنات تعيش في بيئة تسمح لها بحرية الاختيار.

الشَّرطُ الثّالث: يجب أن تحتوي البيئةُ على تحديات لطابع الفرد من النوع الذي يسمحُ بالردود الفاضلة وغير الفاضلة.

الشَّرطُ الرابع: يجب أن يكونَ لدى الكائنات فرص كافية للاستجابة لجعل بناء الشَّخصية ممكنًا(١).

وهذه الشروطُ تجمع بعضَ الأوجه السابقة مثل: الإرادة «الحرة»، وأنه لا يُعرف الخير إلّا بوجود الشَّر. وقد تقدَّم الكلام عن ذلك من المنظور الإسلامي.

فهذه بعضُ أنواع الحِكم التي ذكرها علماء الغرب في بيان سبب سماح - كما يعبّرون عنه - الخالق العليم القدير الرحيم بوجود هذه الشرور. وإضافة إلى ذلك أضيف بعض الحِكم التي وردت بها النصوص الشرعية وذكرها علماء الإسلام:

الحكمةُ الأولى: خلقُ المُتضادات، وظهورُ أثر الصفات الإلهية:

وقد لخَّص الإمام ابن القيِّم (رحمه الله) هذه الحكمة بقوله: «أن الحكمة إنما تتمُّ بخلق المتضادات والمتقابلات كالليل والنهار، والعلو والسفل، والطيب **والخبيث**، والخفيف والثقيل، والحلو والمرّ، والحرِّ والبرد، **والألم** واللذة، والحياة والموت،

---

(١) انظر: An Introduction to the Philosophy of Religion (177 - 178)

والداء والدواء؛ فخلقُ هذه المتقابلات هو محلُّ ظهور الحكمة الباهرة، كما هو محلُّ ظهور القدرة القاهرة، والمشيئة النافذة، والملك التام.

فتوهُّم تعطيل خلقِ هذه المتضادات تعطيل لمقتضيات تلك الصفات وأحكامها وآثارها، وذلك عينُ المحال، فإنَّ لكلِّ صفة من الصفات العليا حكمًا ومُقتضًى وأثرًا هو مظهرُ كمالها، فلا يجوز تعطيله، فإنَّ صفة القادر تستدعي مقدورًا، وصفة الخالق تستدعي مخلوقًا، وصفةَ الوهّاب، الرزّاق، المعطي، المانع، الضار، والنافع، المقدّم، المؤخّر، المعزّ، المذلّ، العفو، الرؤوف؛ تستدعي آثارها وأحكامها»[1].

فذكر مِن ضمن المتقابلات والمتضادات التي خلقها الله: الخبيث، والألم، والداء. وهذه من الأمور التي توصَف بالشُّرور عندما يتحدّث الملاحدة عن مشكلة الشَّر.

الحكمةُ الثّانية: الرجوعُ إلى الله:

مِن الحِكم مِن وجود الآلام والمعاناة: الرجوع إلى الله، والتوبة والاستغفار. فالإنسان المريضُ والضعيف قد يستشعر حاجتَه إلى خالقه أكثر من صحيح البدن والقويّ. وقد ذكر اللهُ ذلك في القرآن مرّات عديدة، مثل قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[السجدة: ٢١].

وهذا الأمرُ ملاحَظ عند كثيرٍ من المسلمين، بل إنَّ المشركين كانوا يلجئون إلى الله وحدَه وقت الشدَّة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[العنكبوت: ٦٥].

الحكمةُ الثّالثة: اختبارُ إيمان العباد:

هذه الدنيا اختبارٌ وامتحان، ومن ضمن ذلك أنَّ الله يختبر إيمان العبد بصعوبات. ولا يتأتّى ذلك إلّا بوجود آلام ومعاناة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٠٧ - ٦٠٨).

يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت:٢ - ٣]. وقال اللهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

الحكمةُ الرّابعة: تكفيرُ الخطايا:

المسلمُ لا يعتقد أنَّ الأمراض والآلام والمعاناة عبث، بل يعتقد أنه لو أصابه أذى، فإنَّ الله يكفِّر عنه السيئات والذنوب والخطايا؛ قال رسول الله (ﷺ): «ما يصيب المؤمن مِن نَصَب ولا وَصَب ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أذًى، حتَّى الشوكة يشاكها، إلّا كفّر اللهُ بها خطاياه»[1]. فالنَّصب، والوَصب، والهمّ، والحزن، والأذى كلّها «شرور» في نظر الملحد، ولكنَّها في الحقيقة نعمةٌ إلهية لأنّ تؤدّي إلى مغفرة الله ورحمته.

وبهذه الأوجه كلِّها يتبيَّن أنَّ الآلام والمعاناة والشدّة والضيق والأمراض فيها من الحِكم الإلهية ما يصعبُ الإحاطةُ به. فكيف يدَّعي الملحد أنَّ هذه الشرور لا تقود إلى الخير؟!

- **الوجهُ الثّامن: قلبُ المشكلة على الملحد:**

الوجهُ الأخير المستنبط من كلام علماء الغرب في نقد مشكلة الشَّر هو قلبُ هذه المشكلة عليهم؛ فوجودُ الشُّرور والآلام والمعاناة تحدٍّ كبير للمذهب الإلحادي. وذلك من جهتين:

الجهةُ الأولى: وجودُ الشرِّ دليلٌ على وجود الله:

ويمكن أنْ يستدلّ بنوعين من الأدلة، وهما:

النوعُ الأوّل: دلالةُ الأخلاق الموضوعية على وجود الخالق: سبق البيان أنَّ الحجةَ الأخلاقية من الحجج التي يستدلُّ بها علماءُ الغرب على وجود الله. وهذه الحجة مبنيَّة على وجود أخلاق موضوعية، وأنّه لا يمكن الإقرارُ بها إلا في ظلِّ الإيمان بوجود الخالق.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٤١)، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض. وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٣)، كتاب البرّ والصلة والآداب، بابُ ثواب المؤمن فيما يصيبه مِن مرض أو حزن، أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة (رضي الله عنهما).

والملحدُ عندما يتحدَّث عن وجود الخير والشَّر، وأنَّ الشَّر يمثّل مشكلة تتحدَّى الإيمانَ بالخالق العليم القدير الرحيم، فإنّه لا يتكلَّم عن الأخلاق الذاتية (Subjective morals)، بمعنى: أنه بنفسه يعتقد أن قتل الأطفال مثلًا شَرّ، بل هو يتكلّم عن الأخلاق الموضوعية (Objective morals)، بمعنى: أن هذا العمل شرٌّ بغضِّ النظر عن آراء الناس. والملحدُ لا يجد أرضيةً صلبة للحديث عن الأخلاق الموضوعية، بل لا بدَّ أن يعترف بوجودِ خالق مشرِّع متعالٍ لهذه الأخلاق؛ قال البروفسور تشاد ميستر: «وأعتقد أنه حانَ الوقت لقلب الطاولةِ عليهم، لأنَّه ليس المؤمن بالله من لديه مشكلة واضحة مع الشرِّ فقط. فيجبُ على الجميع أن يفسِّر وجودَ الشَّر في العالم. وبالنسبة لخيارات الرؤية الكونية المتنوعة، فإنَّه يبدو لي بكلِّ وضوح أنَّ التفسير الإلحادي هو الأقل نجاحًا. وبالنَّظر للأمر بشكلٍ منطقي فعندما يتعلَّق الأمر بوجود الشرّ في عالمنا، فإن الملحدين هُم مَن يجب أن يكونوا في موقفٍ دفاعي! فإن كان الشرُّ موجودًا حقًّا (ما يمكن أن نسمِّيه «الشَّر الموضوعي») فإذن، يوجد قيمٌ أخلاقية موضوعية؛ فالقيم الأخلاقية ملازمة لجميع الناس، سواءً أقرّوا بها على هذا النحو أم لا. فإذا كان الاغتصاب، والعنصرية، والتَّعذيب، والقتل، والإبادة الجماعية... وغيرها من الأمور تعدُّ شرورًا بطريقة موضوعية، فما الذي يجعلُها كذلك؟ ما الذي يجعلها شرًّا حقًّا بدلًا من مجرد أنشطة لا نحبّها؟ ما الذي جعل الفظائعَ التي ارتكبها النازيون شريرة، على الرغم من أن هتلر وأتباعه كانوا يصرُّون على أنَّها ليست كذلك؟ لا يمكن للمرء أن يؤكّد باستمرار أنه لا توجد قيمٌ أخلاقية موضوعية، من ناحية، وأنَّ الاغتصاب والتعذيب وما شابه ذلك هي شرٌّ أخلاقيًّا بشكل موضوعي من ناحيةٍ أخرى. إذا كانت هناك قيمٌ أخلاقية موضوعية، فلا بدَّ من وجود أساس ما - أساس ميتافيزيقي - لوجودها»(١).

النوعُ الثّاني: دلالةُ الجهاز العصبي على وجود الخالق: مِن أعظم الأدلة على وجودِ الله: دليلُ التصميم في المخلوقات الحيّة، وما يدخل فيه من الأدلة الفرعية مثل: التَّعقيد غير القابل للاختزال. والشواهد على وجود هذا التعقيد الذي يتحدَّى

---

(1) “God, Evil and Morality”, in “God is Great, God is Good” (108-109)

الإلحاد المبنيَّ على نظرية التطوُّر كثيرة جدًّا. ومِن ضمن هذه الشواهد: الجهاز العصبي في داخل الإنسان. والآلام التي يشعر بها الإنسانُ في الحقيقة نتيجة لوجود هذا الجهاز. وقد ألَّف براد هاروب[1] - حامل شهادة الدكتوراه في علم الأعصاب - مقالًا في جزئين بعنوان: «الجهاز العصبي لدى الإنسان: دليل على التصميم الذكي» (The Human Nervous System: Evidence of Intelligence Design)، وبيَّن مِن أوجه كثيرة شدَّة تعقيد الجهاز العصبي في الإنسان، وأنه يستحيل أن يكون نتيجة لتطوُّر عن طريق طفرات عشوائية والانتخاب الطبيعي[2].

الجهةُ الثّانية: مشكلةُ الخير المجاني:

الملحدُ يكثر الحديثَ عن الشُّرور في العالم، ولكن ينسى في الوقت نفسه كثرة الخير الموجود، بل إنَّ الخير هو الأصلُ، والشَّر نشوزٌ عن هذا الأصل. فالأصل في الإنسان: الصحة، لا المرض. والأصل في الأرض: الثبات، لا الزلازل. والأمثلة على ذلك لا حصرَ لها. وقد ذكر البروفسور ديفيد بيك[3] في ردِّه على الملاحدة أنَّ هذا الأمر لا يتوافقُ مع الإلحاد[4].

---

(١) براد هاروب (Brad Harrub): عالم الأعصاب الأمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في علم الأعصاب والتشريح. وهو نصراني مهتمٌّ بذكر أدلة وجود الله من العلوم التجريبية. انظر:
https://www.focuspress.org/about/writers/brad/

(٢) انظر المقال:
The Human Nervous System: Evidence of Intelligent Design, by: Brad Harrub
والمقال بجزئيه موجود على هذين الرابطين:
http://apologeticspress.org/apPubPage.aspx?pub=1&issue=568&article=573
http://apologeticspress.org/apPubPage.aspx?pub=1&issue=569&article=583

(٣) ديفيد بيك (David Beck): بروفسور الفلسفة في جامعة ليبيرتي بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في الدفاع عن النصرانية. انظر
https://www.ivpress.com/w-david-beck

(٤) انظر:
"Evil and the New Atheism" by: David Beck, in "The Case for God in a World full with Pain" (219), ed. Chad Meister and James K. Dew Jr. (IVP Books, 2013)

لأنَّنا «لن نفهم المعنى الوجودي (الاستثناء) حتى نقرَّ بالمعنى الوجودي للخير (الأصل). فإذا أجيبَ عن سؤال: «لِمَ؟ من أين ومن أين هذا الخير؟» الجواب الموفّق، صارَ سهلًا أن نجيبَ على سؤال: «من أين هذا الشرّ؟» لأننا استطعنا أن نفهم «القاعدة»، فسندرك بسهولة حقيقة «الشذوذ!»»(١).

فعلى الملحد أن يجيبَ أوّلًا عن سببِ وجود الخير المجاني قبل الحديث عن الشرِّ الشاذِّ في الكون. إذا كان الكون وُجِد نتيجة الصدفة، فلماذا هذا الخير العميم؟ لماذا الأصلُ في كلِّ شيء النظام؟ لماذا كانت الأرض ثابتة في أغلب الأوقات والزلازل قليلة جدًّا؟ لماذا الأصلُ في الإنسان الصحة والعافية، والأمراض قليلة نسبيًّا؟ والأسئلة من هذا النَّوع لا تنتهي. وينبغي للمؤمن أن يقلبَ النقاش مع الملحد إلى هذه الأسئلة، ولا يكتفي بالإجابة عن سببِ وجود الشَّر. إنه إذا زعم الملحدُ أن الشرَّ «القليل» دليل على نفي وجود الله - وهذا ما تمّ إبطالُه - ؛ فعليه أن يعترف أنَّ الخير «الكثير» أولى أن يكون دليلًا على وجوده.

الفقرةُ السّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على مشكلة الشَّر:

أطلتُ الحديثَ عن مشكلة الشَّر في هذا المبحث لأنّها صخرةُ الملاحدة المزعومة. ولكنْ تبيَّن من هذه الردود أنَّها ليست صخرة، بل سراب لا قيمة له. وقد أحسن علماءُ الغرب في الردِّ على هذه الشبهة بنقد أصولها وفروعها. والطابع العام لهذه الردود أنها جيِّدة، وتتَّفق في الجملة مع الردود التي ذكرها علماء الإسلام كما نبّهت عليه أثناءَ المبحث. ولطولِ المبحث جعلت تقييم كلام علماء الغرب بعدَ سردِه مباشرة.

ولكن تبقى نقطةٌ مهمَّة، وهي أنَّ الديانة النصرانية تتحمَّل مسئوليةً كبيرة عن ظهور هذه المشكلة أساسًا. وذلك أنَّ جمهور اللاهوتيين النصارى التزموا بأنّ الخالق عليم بكلِّ شيء، وقادر على كلِّ شيء، ومطلق الخيرية - كما يقولون -. ولكن بالنظر إلى كتابهم المقدَّس يظهر غير ذلك، وهو من ثلاثة أوجه:

---

(١) مشكلة الشَّر ووجود الله (٥٩).

الوجهُ الأوَّل: بعضُ النصوص في هذا الكتاب توحي أنَّ الإله أشبه ما يكون بإنسانٍ خارق للعادة، ليس عليمًا بكلِّ شيء. على سبيل المثال ما جاء في قصة أكل آدم وحواء: (وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ **مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ** عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «**أَيْنَ أَنْتَ؟**» فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ» فَقَالَ: «**مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟**» فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ» فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «**مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟**» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ»)[1].

هذه القصةُ المستقبَحة في بداية السِّفر الأوَّل من العهد القديم في كتابهم المقدّس. وهي قصَّة معروفة؛ حيث إنَّها تتحدَّث عن الأبوين للبشرية جمعاء، وبداية العلاقة بين الخالق والإنسان. وهذا الحوار يعطي انطباعًا أنَّ الخالق - جلَّ جلاله وتقدّست أسماؤه وصفاته - أشبهَ ما يكون بإنسان يمشي في الجنة، ويبحث عن آدم وزوجته، ثمّ يستفسر عنْ وجوده وأفعاله. فمثلُ هذه النصوص - وغيرها كثير - لا تعطي انطباعًا عن خالق عالٍ على كلِّ شيء، وعليم بكلِّ شيء، وقادر على كلِّ شيء.

الوجهُ الثّاني: يؤكّد العهدَ الجديد فيما يسمُّونه الكتاب المقدَّس أنَّ الإله ليس متّصفًا بصفة المحبَّة فحسب، بل هو المحبَّة نفسها؛ ففي رسالة يوحنا الأولى: (أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا، لأَنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ.وَمَنْ لاَ يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ، لأَنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ)[2]. ولكن مَن قرأ كتابهم المقدَّس لا يشعر بذلك إطلاقًا؛ ففيه كثيرٌ من النصوص الدالة على أنَّ الربَّ نفسه يأمر بالإبادةِ الجماعية بما في ذلك قتل النساء والأطفال والحيوانات. ومن الأمثلة على هذه النُّصوص: (وَقَالَ صَمُوئِيلُ لِشَاوُلَ: إِيَّايَ أَرْسَلَ الرَّبُّ لِمَسْحِكَ مَلِكًا عَلَى شَعْبِهِ إِسْرَائِيلَ. وَالآنَ فَاسْمَعْ صَوْتَ كَلاَمِ الرَّبِّ. هكَذَا يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ: إِنِّي قَدِ افْتَقَدْتُ

---

(١) سفر التكوين (٣: ٨ - ١٣).

(٢) رسالة يوحنا الأولى (٤: ١٦).

مَا عَمِلَ عَمَالِيقُ بِإِسْرَائِيلَ حِينَ وَقَفَ لَهُ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ صُعُودِهِ مِنْ مِصْرَ. فَالْآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلَا تَعْفُ عَنْهُمْ **بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا.**)[1].

فالربُّ - كما يزعمون - يأمر بني إسرائيل باستئصالِ العماليق كلّهم. وفرق بين ذلك وبينَ الأمر بالجهادِ الشرعي الذي يقصد به إيصال الرسالة إلى الآخرين. فهذه النَّصوص - وغيرها كثير جدًّا في كتابهم المقدَّس - يأمر فيها الربّ - حسب زعمهم - بالإبادةِ الجماعية الشاملة. والجمعُ بين هذه الحقيقة، وبين الإيمان بأنَّ الإله نفسه هو المحبَّة فيه تناقض. ولهذا لا تقتصر مشكلةُ الشَّر عند النصارى على أنَّ الإله يسمح بوجود الشُّرور، بل هو يأمرُ بذلك بنفسه.

الوجهُ الثّالث: كتابُ النصارى المقدَّس يتحدَّث عن أنبياء استشكلوا مشكلة الشرِّ نفسها، وخاطبوا الربَّ تعالى بكلام في غاية الوقاحة، كما ذكروا عن النبي حبقوق[2] أنه قال في دعائه لربِّه: (حَتَّى مَتَى يَا رَبُّ أَدْعُو وَأَنْتَ لَا تَسْمَعُ؟ أَصْرُخُ إِلَيْكَ مِنَ الظُّلْمِ وَأَنْتَ لَا تُخَلِّصُ؟ لِمَ تُرِينِي إِثْمًا، وَتُبْصِرُ جَوْرًا؟ وَقُدَّامِي اغْتِصَابٌ وَظُلْمٌ يَحْدُثُ)[3].

فإذا كان نبيٌّ مِن أنبياء الله يستشكل هذا، فليس بغريب أن يشتكله من هو دون النبي. فهذا النصُّ يوحي بأنَّ الربَّ تعالى يعلم عن هذه الشرور، ولكنه لا يفعل شيئًا في إزالتها. والنبيُّ حبقوق موقنٌ بوجودِ الإله، بل يتلقَّى منه الوحي الإلهي[4]، فكيف بمن دونه؟ فكأنَّ هذا النصَّ يمهِّد لمن يأتي بعدَ الأنبياء، ولديهم شكوك أن يتأثّروا بهذه الشبهة.

---

(١) صامويل ١ (١٥: ١ - ٣).
أمَّا نحن - معشرَ المسلمين - فنعتقد أنَّ الله تعالى متَّصف بالصفات العظيمة - ومنها المحبة -؛ فالصفاتُ قائمة به سبحانه؛ لا أنها هو الصفات أو بعضها.

(٢) هكذا ذُكر في كتابهم، ولا أعلم دليلاً في الكتاب والسنة على نبوَّة رجل يسمَّى حبقوقًا؛ فاللهُ أعلم.

(٣) حبقوق (١: ٢ - ٣).
واللهُ تعالى قدْ يشاء بقاءَ ظلم مرَّة فيقدِّره سبحانه لحكمة يعلمها، وهو تعالى يمهل ولا يهمل.

(٤) انظر: حبقوق (١: ١).

وكما سبقَ بيانُه في بداية المبحث، فإنَّ كتاب النصارى المقدّس لا يقدّم حلًّا لمشكلة الشَّر، وإنما تحدَّث عنها اللاهوتيون بعد تدوينه. وهذا كلُّه يوحي بعجز الديانة النَّصرانية نفسها عن حلِّ هذه المشكلة، وإنْ كان بعضُ علماء الغرب أجادوا وأفادوا في نقدها.

وفرقٌ بينَ ذلك وبينَ الديانة الإسلامية؛ ففي القرآن والسنة كثير من النصوص التي تحلُّ مشكلة الشَّر، وقد سبقَ ذكر عددٍ منها في هذا المبحث. ثمّ جاء علماء الإسلام بزيادةِ التوضيح في نقدِ هذه المشكلة بردود متَّزنة وصحيحة مبرّأة من إشكالات اللاهوت النصراني.

المبحثُ الثّاني
ردودُهم على شُبهة مشكلةِ جهنم

المبحثُ الأوَّل مِن هذا الفصل تناول مشكلةَ الشَّر بالتفصيل. والمقصود بالشرِّ في المصطلح الغربي المعاصر - كما تقدَّم - : الآلامُ والمعاناة في الدنيا. ويستشكل الملاحدةُ الجمعَ بين وجودِ هذه الشرور والآلام والمعاناة وبينَ الإيمان بوجود خالق عليم قدير رحيم. وتقدَّم أنَّ النقاشَ في هذه المشكلة حادٌّ جدًّا بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله. وبيَّنت أنَّ ردود علماء الغرب على هذه الشُّبهة قويَّة من حيث الجملة، إلّا أنَّ الديانة النَّصرانية سببٌ أساسٌ في ظهور هذه المشكلة.

وتفرَّع عن مشكلة الشَّر مشكلةٌ أخرى، وهي ما تسمَّى في مصطلحهم بـ"مشكلة جهنَّم" (The Problem of Hell). وهي مبنيَّة على استشكال الجمع بين الإيمان بوجود الخالق الرحيم وبينَ أنَّه خلق جهنمَ للعذاب الأليم - عياذًا بالله من عذابه -. وبينما تتعلَّق مشكلة الشَّر بالآلام في الدينا، فتتعلَّق هذه الشبهة بالآلام في الآخرة. وسيتمُّ تقسيمُ هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تقريرُ مُعتقد النصارى في جهنم.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ الملاحدة لمشكلة جهنَّم.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على مشكلة جهنم.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على مشكلة جهنَّم.

الفقرةُ الأولى: تقريرُ مُعتقد النصارى في جهنم:

باعتبار أنَّ جلَّ علماء الغرب الذين تناولوا هذه الشُّبهة بالردِّ كانوا نصارى يحسُن أن أقدِّم ابتداءً تقريرَ مُعتقد النصارى في جهنم قبلَ عرض المشكلة؛ لأنَّ الملاحدة

اسْتشكلوا هذه الشُّبهة بناءً على معتقد النصارى. ويمكن تقسيمُ مُعتقد النصارى في جهنَّم إلى قسيمين رئيسين:

- **القسمُ الأوَّل: المعتقدُ التَّقليدي لدى الطوائف النصرانية الكبرى:**

أصحابُ هذا المعتقد يقولون: إنَّ جهنم حقيقة وليست مجازًا. وهو المعتقد الذي دافعَ عنه كبارُ اللاهوتيّين النصارى مثل: أغسطين وتوما الأكويني، وتبعهم على ذلك أكثرُ النصارى، ولهذا سمِّي بالمعتقد التقليدي(١).

وقد لخَّص البروفسور جون فينبيرغ(٢) هذا المعتقدَ في خمس نقاط:

النُّقطةُ الأولى: جهنم مكانٌ محدَّد، وليست مجرَّد رمز للعقاب. المكان الذي يقع فيه بالضبط ليس واضحًا تمامًا، ولكن هناك مكان حقيقي للعذاب.

النُّقطةُ الثّانية: العذابُ في جهنَّم جسدي وروحي معًا. وأصحابها يعذَّبون، ولكن النار لا تأكل أجسامَهم لكي يستمرَّ العذاب.

النُّقطةُ الثّالثة: أنَّه لا يدخل جهنم إلا الأشرار.

النُّقطةُ الرّابعة: أنَّ العذاب في جهنم أبدي، إلّا أنَّ الطائفة الكاثوليكية تعتقد أنه يوجَد ما يسمَّى بالمطهِّر، وهو المكانُ الذي يدخلُه العصاة، ويتطهَّرون بالعذاب قبل دخول الجنة. وأمّا الطوائف النصرانية الأخرى، فينكرون ذلك.

النُّقطةُ الخامسة: أنَّ دخول الإنسان في النار عملٌ من أعمال الإله الجزائية، ونابعٌ مِن قداسته وعدله(٣).

فهذا يلخِّص المعتقدَ التقليدي في جهنَّم بين طوائف النصارى.

---

(١) انظر:

A Theodicy of Hell (24-25), by: Charles Seymour, (Springer Science Business Media, 2000)

(٢) جون فينبيرغ (John Feinberg): بروفسور علم اللاهوت النظامي والدراسات في الكتاب المقدّس الأمريكي. انظر: https: / /www.tiu.edu /faculty /john – s – feinberg/

(٣) انظر: The Many Faces of Evil (399 - 404)

- **القسمُ الثّاني: المعتقداتُ الشاذَّة لدى النصارى:**

هي معتقداتٌ مختلفة، إمّا بتأويلِ النصوص الدينية المتعلِّقة بجهنم نفسها، وإمّا إنكار أبديَّة النار. أمّا القول بتأويل النُّصوص الدينية المتعلِّقة بجهنم فكان موجودًا بين بعض اللّاهوتيين النصارى القدامى، ورأوا أنَّ عذاب النار المذكور في كتابهم المقدَّس مجاز وليس بحقيقة. والمرادُ بهذا العذاب الانفصالُ عن الإله(١). وهذا ما ذهبَ إليه بعضُ الفلاسفة النَّصارى في دفاعهم عن معتقدِ جهنَّم أمام شبهات الملاحدة وغيرهم(٢).

وذهبَ بعضُ المعاصرين إلى ما هو أبعدُ من ذلك من أنَّ الإله يبعث الصالحين يوم القيامة ليجازيهم فقط، وأمّا الذين يستحقّون العقاب فإنه يبيدهم(٣).

القولُ بإنكار أبدية النار يُعرَف بـ«المسيحية العالمية" (Christian Universalism). وخلاصةُ هذا المعتقد اللاهوتي: أنَّه لا يخلَّد أحدٌ في النار، ومَن دخل فيها يعذَّب عذابًا مؤقتًا، ثمَّ يدخل الجنةَ بعد ذلك. فما من إنسانٍ مهما كان معتقده أو أعماله إلا وسيدخُل الجنة في نهاية الأمر. وذكروا أنَّ هذا المعتقد مبنيٌّ على أنه لا يمكن لإله كامل المحبَّة أن يخلِّد أحدًا في النار(٤). وكان بعضُ اللاهوتيين القدامى يميلون إلى هذا الرأي(٥).

وشبهةُ مشكلة جهنَّم عند الملاحدة تستهدف المعتقدَ التقليدي لدى النصارى في المقام الأوَّل، ولا تستهدف هذه المعتقدات الشاذة. وحيث إنَّ المعتقد التقليدي لدى النَّصارى في جهنَّم أقربُ إلى العقيدة الإسلامية - معَ وجود فوارق سيتمُّ التَّنبيه عليها إن شاء الله - فسأركِّز في بقية المبحث على مشكلةِ جهنم وفق المعتقد التقليدي.

---

(١) انظر: A Theodicy of Hell 25

(٢) انظر: المصدر السابق (١٦ - ١٧).

(٣) انظر: The Many Faces of Evil (407 - 408)

(٤) انظر المقال: Universalism في موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https://www.britannica.com/topic/Universalism

(٥) انظر: A Theodicy of Hell ٢٩

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ الملاحدة لمشكلة جهنّم:

سبقَ أن بعض النصارى كانوا يؤولون النصوص الدالة على وقوع عذاب جهنم، ويذهبون إلى أنَّ جميع الناس يدخلون الجنة. وإنْ كان هذا القول صادرًا من علماء نَصارى متديِّنين إلّا أنَّه في الحقيقة يعتبر أوّلَ اعتراض على معتقد جهنم. ولكن تغيَّر هذا الأمرُ في عصر التنوير عندَ اشتهار المذهب الربوبي والإلحادي في الساحة الفلسفية والدينية. فانتقلتِ الشُّبهة من كوْنها نقاشًا لاهوتيًّا بين علماء النصارى إلى أن أصبحتْ شُبهة لنقد الديانة النصرانية من قبَل أعدائها.

فقدْ أنكر الفيلسوف الفرنسي فولتير وجودَ جهنَّم، وزعمَ أنه اختراع إنساني، بينما قرَّر الفليسوف ديدرو أنه ينتظرُ من اللاهوتيّين أن يجدوا حلًّا للجمع بين الإيمان بوجود جهنَّم وبينَ الإيمان بالرَّحمة الإلهية. كما ذهب الفيلسوف بيير بايل إلى أنَّ الجمع بينهما غيرُ ممكن[١]. وهكذا ظهرتْ شُبهة مشكلة الشَّر في عصر التنوير على يد الربوبيين والملاحدة.

وفي هذا العصر، استشكل كبارُ الملاحدة أمثال برتراند راسل الإيمانَ بالجحيم؛ حيثُ ذكره ضمنَ الأسباب التي جعلته يرفضُ الديانة النصرانية؛ فقال: «هناك عيبٌ خطير للغاية في ذهني في شخصية المسيح الأخلاقية، وهو أنَّه كان يؤمن بالجحيم. لا أشعرُ أنَّ أي شخص إنساني بعُمق يمكن أن يؤمنَ بالعقاب الأبدي»[٢].

وذكرَ ريتشارد دوكينز في مقابلته معَ أحد المذيعين أنَّ تعليم الأطفال أنه بالإمكان أنْ يبقى أحدُ أصدقائهم في الجحيم للأبد أخطر على نفسيتهم من التحرُّش الجنسي[٣].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣١).

(2) Bertrand Russell on God and Religion (67), ed. Al Seckel (Buffalo, New York: Prometheus Books, 1986)

(٣) انظر هذه الجزئية من المقابلة بعنوان:

Dawkins on Religion-Extra: Heaven and Hell

وهي موجودة على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=7eiHbXYS9nI

وبينما كان هذا الكلام سطحيًّا، ولا يعدُّ شبهة مؤصّلة، إلّا أنه يدلُّ على البُعد العاطفي لهذه الشُّبهة. فبرتراند راسل يخاطب النَّصارى قائلًا إنَّه ترك ديانتهم بسبب شخصيَّة المسيح – الذي هو أحبُّ الناس إليهم – لأنَّه قاسٍ ويؤمن بالعذاب الأبدي، بينما يعتقد كثيرٌ من النصارى أنَّ المسيح رمزُ المحبَّة والرحمة. ودوكينز يثير قضية التحرُّش الجنسي بالأطفال، ويقارن بينَ آثاره النفسية وبين الآثار النفسية للإيمان بالجحيم. وهذا الخطابُ العاطفي قد يؤثِّر في بعض ضعاف النفوس.

ولكنَّ بعض فلاسفة الملاحدة أصَّلوا لهذه الشبهة بطريقة فلسفية تشبه صياغتهم لمشكلة الشَّر[١]؛ فمنهم مَن ذكر هذه الشبهة بالصياغة المنطقية، ومنهم مَن ذكرها بالصياغة البرهانية[٢].

ومشكلةُ جهنَّم المنطقية مبنيَّة على استحالة الجمع بين عبارتين – في زعمهم – :

العبارةُ الأولى: الإلهُ موجود، وهو كلِّي القدرة، وكلِّي العلم، وكلِّي الخيرية.

العبارةُ الثّانية: بعضُ المخلوقين سيذهبون إلى الجحيم للأبد.

ولتوضيحِ استحالة الجمع بين العبارتين يذكرون الصياغة المنطقية الآتية:

إنْ كان الإلهُ موجودًا وقديرًا، فإنَّه يقدر على تجنّب مضامين العبارة الثانية.

إنْ كان الإلهُ موجودًا وعليمًا، فإنَّه يعلم كيفية تجنُّب مضامين العبارة الثانية.

إنْ كان الإلهُ كلّي الخيرية فإنَّه يريد تجنُّب مضامين العبارة الثانية.

إنْ كان الإلهُ موجودًا، فلن يذهب أحدٌ إلى عذاب جهنم المؤبّد[٣].

---

(١) انظر:

"Eliminating the Problem of Hell" (1), by: James P. Sterba, in Religious Studies (p. 1-13), (Cambridge University Press, 2018)

(٢) انظر: The Many Faces of Evil (397 - 398)

(٣) انظر:

"Hell and the Problem of Evil", by: Andrei A. Buckareff and Allen Plug in: "Blackwell Companion to the Problem of Evil (129)

فالقائلون بمشكلة جهنَّم المنطقية يزعمون أنَّ الجمعَ بين العبارتين مع هذه المقدِّمات مستحيلٌ منطقيًّا. بينما يدَّعي القائلون بمشكلة جهنم البرهانية أنَّ الجمع بين هاتين العبارتين بهذه المقدِّمات ليس مستحيلًا، ولكنه يستبعد أنَّ الخالق العليم القدير الخيِّر يخلق الجحيمَ ويرسل بعضَ الناس إليه ليعذِّبهم عذابًا أبديًّا[١].

وكما هوَ واضح من مشكلةِ جهنَّم بصياغتيْها أنها تشبه مشكلة الشَّر إلى حدٍّ كبير، وقد تمَّ تقرير تلك المشكلة في المبحث الماضي باستيفاء، فلا يحتاج الأمرُ إلى زيادة توضيح هنا.

وكما أنَّ مشكلة الشَّر أثَّرت في نفوس كثيرٍ من الغربيين، فإنَّ مشكلة جهنَّم تركت أثرًا كبيرًا حتَّى لدى النصارى أنفسهم. فحسب إحصاء عام ١٩٧٧م، ذكر ثلث العوام الكاثوليك أنَّهم لا يؤمنون بجهنَّم. وأنكرت الطائفة السبتية البروتستانتية وجودها كليًّا[٢]. وذكرَ البروفسور جون فينبيرغ عندَ حديثه عن مشكلة جهنَّم أنه قلَّما تسمع خطبة في كنيسة إنجيليَّة تتحدَّث عن الجحيم[٣]، إشارةً إلى مدى تأثير هذه الشبهة.

فهذه الشبهة أدَّت ببعض الناس إلى إنكار وجود الخالق العليم القدير الرحيم، وأدَّت بآخرين إلى التمسُّك بإيمانهم بالخالق مع إنكار وجود الجحيم.

الفقرةُ الثالثة: ردودُ علماءِ الغرب على مشكلة جهنَّم:

حاولَ بعضُ النصارى الردَّ على هذه المشكلة بتبنِّي المعتقدات الشاذَّة في جهنم، وزعموا أنَّ هذا يُلغي هذه المشكلة بطريقتها المنطقية والبرهانية. ولكنَّ هذه الطرق تتعارض معَ المعتقدات التقليدية لدى النصارى[٤] فضلاً عن معارضها للعقيدة الإسلامية. وعليه، فلن ألتفتَ إلى تلك الردود هنا.

(١) انظر: The Many Faces of Evil (397 - 398)

(٢) انظر: A Theodicy of Hell (31)

(٣) انظر: The Many Faces of Evil (396)

(٤) انظر: المصدر السابق (٣٩٨).

وسأقسِّم ردودَ علماء الغرب على مشكلة جهنَّم إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الردُّ على مشكلة جهنَّم بصياغتها المنطقية.

القسمُ الثّاني: الردُّ على مشكلة جهنَّم بصياغتها البرهانية.

القسمُ الثّالث: الأسبابُ والحِكم لوجود عذاب جهنم.

- **القسمُ الأوّل: الردُّ على مشكلة جهنم بصياغتها المنطقية:**

الردُّ على هذه المشكلة يتفرَّع عن الردِّ على مشكلة الشَّر المنطقية. وذلك أنّه لكي يزعم الملحدُ أنه يستحيل منطقيًّا أن يجمع بينَ الإيمان بوجود الخالق العليم القدير الخيِّر وبينَ وجود عذاب جهنَّم فإنَّه يحتاج أن يبرهن على أنَّ هذا الأمر مستحيل ضرورةً.

وقد ردَّ البروفسور جون فينبرغ على هذه الشُّبهة، وذكر أمرين مهمّين:

الأمرُ الأوَّل: إذا ادَّعى الملحدُ أنه يوجد تناقضٌ بين المذهب الألوهي وبين وجود عذاب جهنم، فلا بدَّ أن يحدِّد أيَّ نوع من أنواع المذهب الألوهي الذي يقصده، لأنَّ المعتقدات تختلف[1].

وهذا الردُّ صحيح، وإن كان هذا الفيلسوف النصراني تخبَّط في محاولة بيان المعتقد النصراني الذي يمكن به الخروجُ من هذا التناقض المزعوم. ولكن يمكن للمسلم الاستفادة من أصل الردِّ؛ لأنَّ الملحد يلبِّس عندما يذكر أنَّ الخالق متّصف بهذه الصِّفات الثلاث فقط؛ لأنَّ الله - تبارك وتعالى - متَّصف بصفات أكثر من ذلك. فالملحدُ يقصِّر عندما يذكر هذه الشبهة مبنيَّة على أنَّ الإله متَّصف بثلاث صفات فقط، وأنه لا يمكن الجمعُ بين الإيمان بالخالق المتَّصف بهذه الصفات الثلاث وبين وجود جهنم. وحيث إنَّ الله سبحانه متَّصف بصفات أكثر من ذلك، ويظهر ذلك خلال خمْس نقاط:

النُّقطةُ الأولى: الإيمانُ بربوبية الله الكاملة: «وهو الإقرار بأنَّ الله تعالى ربُّ كلِّ شيء، ومالكه وخالقه ورازقه، وأنَّه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرِّد بإجابة

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٠٥).

الدعاء عندَ الاضطرار، الذي له الأمر كلّه، وبيده الخير كلّه...»[1]. فالله خالق البشر ومالكهم ورازقُهم، وكلُّ شيء بأمره ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد:٤١]. فالذي يدخل النار هو في الحقيقة مخلوقٌ من مخلوقات الله، وملكٌ له. ولكن لا يعني ذلك أنَّه لا يعذّب أحدًا بدون عدل، كما هو موضَّح في النقطة الثانية.

النُّقطةُ الثّانية: الإيمانُ بعدل الله: من صفاتِ الله تبارك وتعالى: العدل؛ فقد قال رسولُ الله (ﷺ): «فمَن يعدل إذا لم يعدلِ اللهُ ورسوله»[2]. «وهو سبحانه موصوفٌ بالعدل في فعله، فأفعاله كلُّها جارية على سُنن العدل والاستقامة، ليس فيها شائبة جور أصلًا؛ فهي دائرةٌ كلها بين الفضل والرحمة، وبين العدل والحكمة... وما ينزله سبحانه بالعُصاة والمكذِّبين من أنواع الهلاك والخزي في الدنيا، وما أعدَّه لهم من العذاب المهين في الآخرة، فإنما فعلَ ذلك بهم ما يستحقُّونه، فإنه لا يأخذ إلّا بذنب، ولا يعذِّب إلا بعدَ إقامة الحجة»[3]. واللهُ تعالى يؤكِّد مرَّة تلو الأخرى في كتابه العزيز أنه تنزَّه عن الظلم؛ فقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. فاللهُ - تبارك وتعالى - عندما يعذِّب مَن يعذِّب، فإنه لا يظلمه، بل يعامله بعدله.

النُّقطةُ الثّالثة: الإيمانُ بأنَّ الله هو الحكيم: «أي: الموصوف بكمال الحكمة، وبكمال الحكم بين عباده. فالحكمة سعةُ العلم والاطلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، وعلى سعةِ الحمد حيث يضع الأشياءَ مواضعها وينزلها منازلها، **ولا يتوجّه إليه سؤال ولا يقدح في حكمتِه مقال،** فلهُ الحكمة في خلقه وأمره... **وكذلك أحكام الجزاء**

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٢٦)، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، (عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ، اعتنى به: محمد أيمن الشبراوي).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٥٠)، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي (ﷺ) يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه.
وأخرجه مسلم في صحيحه (١٠٦٢)، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وتصبّر من قوي إيمانه، من حديث عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه).

(٣) شرح القصيدة النونية (٢ / ١٠٦).

على الأعمال في غاية المناسبة والموافقة للحكمة جملة وتفصيلًا، والله أعلم»[1].

فاللهُ لا يعذِّب أحدًا إلّا وفق حكمته البالغة، وهذا المخلوق المعذّب يستحقُّ ذلك العقاب. وليس للعبدِ الفقير الجاهل أن يعترضَ على الخالق الغني العليم الحكيم في سببِ عذابه أو جزائه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، و﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

النُّقطةُ الرّابعة: الإيمانُ بأنه لا أحدَ يوجب على الله شيء: الملحدُ الذي يعترض بمشكلةِ جهنم المنطقية يتكلَّم كأنه يوجب على الله أنْ يفعل أو لا يفعل. وليس للعباد أنْ يعترضوا بهذه الاعتراضاتِ أصلًا. قد لخَّص الإمام ابن القيم (رحمه الله) هذا الأمرَ بقوله:

مــا للعبــاد عليــه حــقّ واجــب	**هــو أوجــب الأجــر العظيــم الشــان**
كلا ولا عمـــل لديـــه ضائـــع	**إن كان بالإخـــلاص والإحســـان**
إن عذّبـــوا فبعدلـــه أو نعمـــوا	**فبفضلـــه والحمـــد للمنّـــان**[2]

«قال أهلُ السُّنة والجماعة: إنه لا يجبُ على الله شيء، لأنَّ الوجوب معناه أنَّ أحدًا أوجبَ عليه، ليس فوقه سبحانه مَن يوجب عليه شيء، قال تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فلا يجب عليه سبحانه إثابةُ المطيع ولا عقاب العاصي، بل الثَّواب محْض فضله وإحسانه، والعقاب محْضُ عدله وحكمته، ولكنه هو سبحانه الذي يوجبُ على نفسه ما يشاء، فيصير واجبًا بمقتضى وعده الذي لا يخلف»[3].

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن (٣٧ – ٣٩)، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (دار ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ).

(٢) متن النونية (٢٠٨).

(٣) شرح القصيدة النونية (٢/ ٩٩).

النُّقطةُ الخامسة: الإيمانُ بالصفات والأفعال الآتية: الغضب، واللعن، والسُّخط، والأسف، والانتقام، والمقت. فكما أنّ الله هو الودود، الرحمن، الرحيم، فإنَّه متَّصف بهذه الصِّفات أيضًا. والأدلة على قوله تعالى: ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ [الفتح: ٦]، وقوله عزَّ وجلّ: ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠]، وقوله جلَّ وعلَا: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصفّ: ٣].

فعذابُ الله للكافرين ليس أثرًا من آثار محبَّته أو رحمته لهم، بل من آثار غضبه وسخطِه عليهم، وأنه لعنَهم ومقتهم، وأنهم آسَفُوه فانتقم منهم. فلو قيل: إنّ الله يحبُّ جميعَ الناس حتى الكافرين - كما سيأتي أنَّه من أقوال النصارى - فإنَّ الإيمان بأنه يعذّبهم عذابًا أليمًا أبديًّا يعدُّ تناقضًا. ولكنَّ المعتقد الإسلامي بهذه الصفات لا يتناقض أبدًا مع الإيمان بعذابِ جهنم، بل هو في غاية الاتِّساق. فالله يحبُّ المؤمنين ويرضى عنهم، ولذلك رحمهم وأدخلَهم الجنة. وهو يسخطُ على الكافرين ويمقتهم، ولذلك أدخلهم النارَ، وعذّبهم عذابًا أليمًا.

فكما ذكرَ البروفسور فينبرغ، فإنه يمكن حلُّ مشكلة جهنم بمجرّد شرح الإيمان بالصِّفات الإلهية الذي يزعم الملحدُ أنه يتناقض مع العذاب في جهنم. ولكنَّ الإشكالَ عندَه في التمسُّك بالعقيدة النصرانية اللاعقلانية، بينما عقيدة المسلم متوافقة مع هذا العذاب.

الأمرُ الثّاني: الذي ذكره البروفسور فينبرغ: أنَّ غاية ما يحتاج إليه مَن يردُّ على هذه المشكلة هو أنْ يقدِّم أسبابًا ممكنة لوجود هذا العذاب في ظلِّ معتقده الألوهي. فلو أمكنَ تقديمُ بعض الأسباب الممكنة لوجود العذاب فإنّ هذه المشكلة تسقط تلقائيًّا، لأنَّه لا بدَّ أن تكون المقدِّمات في الحجة ضرورية[١].

وقدْ سبق ذكرُ أسباب تعذيب أصحاب النار وفق المعتقد الإسلامي، وسيأتي ذكرُ بعضِ الأسباب الأخرى في القسم الثالث - إن شاء الله -.

---

(١) انظر: The Many Faces of Evil (405)

- **القسمُ الثّاني: الردُّ على مشكلة جهنم البرهانية:**

مشكلةُ جهنم البرهانية مبنيَّة على أنَّ الجمع بين الإيمان بخالق العليم القدير الخيِّر والإيمان بعذابِ جهنم ليس مستحيلًا من الناحية المنطقية، ولكن من المستبعد أن يوجَد خالقٌ متَّصف بهذه الصفات، وأنه يعذِّب الناس في جنهم. وكما سبق عند الحديث عن مشكلة الشَّر البرهانية، فإنَّ هذه المشكلة بهذه الصياغة تميل إلى كونها عاطفية أكثر من كوْنها شبهةً علمية منطقية. وهذا هو حالُ مشكلة جهنم البرهانية أيضًا.

وقد ذكرَ البروفسور جون فينبرغ أنَّه يمكن التعاملُ مع هذه المشكلة بطريقتين:

الطريقةُ الأولى: الطريقةُ الهجومية:

وخلاصتُها أنْ يتكلَّف الألوهي عبءَ الإثبات بذكر الأدلة والبراهين على أن المعتقد الألوهي أفضلُ من غيره.

الطريقةُ الثّانية: الطريقةُ الدفاعية:

وهو أن يحمِّل الألوهي عبءَ الإثبات على الملحدِ بذكر الأدلة والبراهين أنّ المعتقدَ الألوهي مستبعَد، وغير مرجَّح.

وذكر أنه يفضّل الطريقة الثانية؛ لأنَّ الملحدَ هو الذي طرح الشبهة أصلًا، والبيِّنة على المدَّعي[1].

ثمَّ واصل البروفسور فينبرغ بعدَ ذلك، وذكر أنَّ صاحب شبهة مشكلة جهنم البرهانية ليس مطالبًا بإيرادِ دليلٍ واحد، ويرجّح عدم إمكانية الجمع بين الإيمان بالخالق المتَّصف بهذه الصفات وبينَ وجود جهنم، بل هو مطالب أنْ يأتي بجميع الأدلة في صالحِ المذهب الألوهي، ثمَّ يأتي بجميع الأدلة ضدَّ هذا المعتقد، ثمَّ يوازن بين الأدلة ويقولَ: إنَّ عدمَ إمكانية الجمع أرجح. وأنَّى للملحد أن يفعل ذلك[2].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٤٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٤١).

وهذا الوجهُ جيِّد، ويمكن تلخيصُه بطريقة بالحوار الآتي:

الألوهي: «هل تقول إنَّ الجمعَ بين الإيمان بوجود خالق عليمٍ قدير خيِّر وبينَ وجود عذاب جهنَّم؛ مستحيل منطقيًّا؟»

المُلحد: «لا، هو ممكن منطقيًّا، ولكنه مستبعَد وغيرُ مرجَّح».

الألوهي: «لكي تقومَ بعملية الترجيح تحتاج أن تجمع بين جميع الأدلة المؤيدة لصالح المذهبِ الألوهي وبينَ هذه الشبهة، ثمَّ تقوم بعملية الموازنة الموضوعية، وتقول إنَّ الشبهةَ أقوى من تلك الأدلة».

المُلحد: «وكيف أستطيع ذلك؟ هذا مستحيل!»

الألوهي: «نعم، ولهذا تسقط هذه الشبهة».

وأمّا المسلم، فإنه يبني إيمانَه على ثلاث قضايا يقينية في هذه المسألة:

القضيةُ الأولى: الأدلةُ والبراهين والحجج اليقينية على وجود خالق متَّصفٍ بصفات الجلال والكمال. وقد سبقَ تقريرُ ذلك في الباب الثاني من هذه الرسالة.

القضيةُ الثّانية: الأدلةُ والبراهين والحججُ اليقينية على صحّة الوحي الإسلامي مثل: دلائل النبوة، وإعجاز القرآن الكريم، إلخ.

القضيةُ الثالثة: الأدلةُ اليقينية في الوحي الإسلامي الدالَّة على وجود جهنَّم، وأنَّ الله يعذِّب فيها الكافرين ومَن شاء من العصاة.

وجميعُ هذه القضايا الثلاث يقينيةٌ لا تقبل الشَّك. ثمَّ يأتي الملحد بهذه الشبهة المبنية على العاطفة، ويقول إنَّ الجمعَ بين الإيمان بالخالق المتّصف بهذه الصفات وبين وجود عذابِ جهنم غيرُ مرجَّح. فغايةُ ما يخبر به الملحد: شعورُه تجاه جهنم، وليس بإمكانه أنْ ينصب نفسَه حكمًا موضوعيًّا في هذه القضية. ولهذا لا تعْدو هذه الشبهة من كونها شبهةً عاطفية ذاتية واهية، وليست حجةً علمية موضوعية صحيحة.

• القسمُ الثّالث: الأسبابُ والحِكم من وجود عذاب جهنم:

قد تبيَّن في القسميْن السابقين أنَّ مشكلة جهنم المنطقية ومشكلة جهنم البرهانية واهيتان، ولا تقومان على أرضيةٍ صُلبة. وتبيَّن من ذلك أن المشكلة المزعومة ليست مشكلةً أصلًا. ولكنْ إضافةً إلى ذلك فقد بيَّن علماءُ الغرب بعض الحِكم والأسباب لتعذيبِ الإله للناس في جهنم. وأقتصرُ من ذلك على ذكْر ذلك من أربعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: حجةُ سلطان الإله المطلق:

ذكرَ البروفسور فينبرغ أنَّ الإله له الحقُّ في تنفيذ وفرض أي نظام حكم أخلاقي يريدُه في عالمنا. ومن ثمَّ، فإذا أرادَ أن يرسل العصاة إلى الجحيم من أجل التعذيب الأبدي، فهذا حقُّه[١].

وهذا القولُ صحيح، وهو موافقٌ لما سبقَ تقريره من الإيمان بربوبية الله. فالبشرُ من خلقِه وملكه، واللهُ يحكم لا معقِّبَ لحكمه، وله الأمرُ من قبْل ومِن بعد.

الوجهُ الثّاني: حجةُ العدل:

يعترض الملاحدةُ على عذاب جهنم بأنَّ العقوبة أطول من الجريمة، وأنَّ أسوأ المجرمين على وجْه الأرض، مهْما كان ما قاموا به من الجرائم، فإنَّ ذنوبهم مقتصرة على مدَّة محدَّدة، بينما عذابُ جهنم أبَدي. ويزعمون أنَّ هذا منافٍ للعدل[٢].

وقد ناقشَ القديس أغسطين هذه الشبهة، وذكر أنَّ هذه العقوبة عدلٌ في الحقيقة، وذلكَ من ناحيتين:

النَّاحيةُ الأولى: أنَّ العادة أنه لا علاقةَ بين طول الجريمة ومدة العقوبة. وذكر من الأمثلة على ذلك أنَّ الإنسان قد يقومُ بجريمة في لحظة قصيرة، ولكن عقوبته تكون مطوَّلة. وهذا لا يتنافى مع العدل.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٢٧).

(٢) انظر: A Theodicy of Hell (37)

النّاحيةُ الثّانية: أنَّه يحقُّ للدولة أن تعاقِب على بعضِ الجرائم بالإعدام أو إخراج الشَّخص في منفًى للأبد. وهذا هو العدلُ في ذلك المقام. ويمكن أن يُقاس على ذلك العذابُ الأبدي في جهنم[1].

وهذا الردُّ جيِّد ومعقول، فقد يقتل القاتلُ شخصًا في أقلّ من دقيقة، فهل من العدل أن يُسجَن دقيقة واحدة كعقوبة؟ لا يقول بذلك عاقل. فما المقدار المناسبُ عقوبةً لهذا المجرم إذًا؟ لا شكَّ أن مدَّة العقوبة أضعافُ مدة الجريمة، وللقاضي أن يحكم بما هو مُناسب. واللهُ تعالى يحكم بين العباد بما هو يشاء.

والحقُّ أنَّ «العلاقة بين العقوبات والذنب ليستْ علاقة رياضية عددية، وإنما هي علاقةٌ سببيَّة؛ فبعضُ الذنوب والأخطاء القليلة في عددِها قد تترتَّب عليها عقوبة عظيمة جدًّا، نتيجةً لضخامتها من حيث الكيف، أو لسعةِ ما يترتَّب عليها من الآثار والفساد، أو لما قامَ في نفس فاعلها من الاستخفاف والاستطالة وعدم المبالاة. فلو أنَّ رجلًا أتلفَ عامدًا متعمدًا ألفَ كيلو من الفضة، فإنه لا يمكن أن يساوَى برجل أتلفَ عامدًا متعمدًا مائةَ كيلو من الذهب، فمَن أتلف الذهب سيكون جرمه أعظم، وذنبه أشنع، مع أنَّ فعله أقلّ في الكمِّ من الآخر، وكذلك الحال في صور كثيرة لا تخفى.

إنَّ المشكلَ المنهجي عندَ المعترضين على تخليدِ الكفار في النار أنهم يتعاملون مع عقوبةِ الله تعاملًا رياضيًّا عدديًّا، واعتقدوا أنَّ العدل والرحمة لا تتحقّقان إلا بذلك، وهذا التعاملُ مخالفٌ للعقل والواقع، ويوقع في مناقضة ظاهرة للعدل والرحمة»[2].

معَ التَّنبيه على أنَّ العذاب الأبدي يختصُّ بالكفر الأكبر، ولا يخلّد أحد في النار بسببِ ذنوب ومعاصٍ. والكفرُ الأكبر أعظمُ جريمة وأشنعها، لهذا ناسب لهما أشدَّ عذاب وأعظم عقوبة.

---

(١) انظر: City of God (338 - 339), by: Augustine of Hippo, (Dutton, 1972)

(٢) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢/ ٩٤).

و«إذا تبيَّن أنَّ العلاقة بين العقوبة والذنب علاقة سببية وليست علاقة عددية، فإنَّ الذنبَ الذي وقعَ فيه الكافر المستحقّ العقاب بلغ من العظمة والضخامة مبلغًا عظيمًا جدًّا، إلى درجةٍ أنه أضحى مُستحقًّا للعذاب الأبدي، فإنَّ الكافر تنكَّر لأكبر حقيقة في الوجود، وتكبَّر على أعظم شيء في الكون، معَ ظهور الدلالة عليه، وشدّة التحذير من المخالفة له.

فاللهُ تعالى خلقَ الإنسانَ على الفطرة المقتضية للأخذ بالحقّ، ولم يكتف بذلك، وإنَّما أرسلَ الرسلَ لبيان مُقتضيات تلك الفطرة، وإرشاد مَن انحرف عنها، وتذكيره بها، وأنزلَ كتبه، وأبانَ فيها معالمَ الطريق إلى الحقِّ، وبيَّن عقوبة مَن ينحرف ويضلّ، وأكثر مِن التهديد والوعيد لكلِّ مَن يكفر ويعرض، وصرَّح فيها بالعذاب الأليم والوعيد الفظيع لمن بقيَ على انحرافه.

فمَن بقيَ على كفره بعدَ علمه بكلِّ هذه الأمور، ولم يوجد أيُّ مانع معرفي يمنعه من قبولِ الحقّ، وانتفتْ عنه كلُّ الشبهات؛ فإنَّه لا محالة بلغ من الفساد مبلغًا عظيمًا.

فالعذابُ المؤبَّد في الحقيقة ليس على الفعل المحدود في الزمان والعدد، وإنما هو على حالةِ الكافر التي كشفَ عنها ذلك الفعلُ المحدود، وطبيعته المعرضة عن الحقّ والمتعالية عنْ قبول الأدلة البيِّنة، والمستخفَّة بالحقائق، والمستهترة بما يترتّب عليها من العذاب والعقوبة.

وهذه الحقيقةُ المركّبة لحال الكفّار كشف اللهُ عنها في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، فهذا إخبارٌ من الله بأنَّ نفوس الكفار الذين بقوا على كفرهم بعدَ بلوغ الحجَّة إليهم بلغتْ من الفساد والانحراف درجة لا تقتضي إلّا الكفر، ولا تعزم إلّا على الإنكار والإعراض، ولا يمكن أن تقبل غيره.

فلأجلِ هذا استحقَّ الكفارُ التخليد في النار، والحكم عليهم بأنهم لا يخرجون منها أبدًا، فالتخليدُ في النار إذًا ليسَ على الفعل المحدود المجرّد من غير اعتبار أي بُعد آخر، وإنَّما هو على الفعل مصطحبًا معه حالةَ الكافر في الإعراض، ومنهجه في التعامل مع الحجج والبيّنات»[1].

وهذا ما يبيِّن بجلاءٍ أنَّ العذاب الأبدي لا يتنافى مع العدل الإلهي.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٩٤ - ٩٥).

الوجهُ الثّالث: حجَّةُ إرادة الإنسان:

هذه الحجَّة مبنيَّة على أنَّ الذي يدخل النارَ يفعل ذلك جزاء لما قام به من العمل بناءً على إرادته، ولذلك كانت عقوبة بما كسبتْه يداه. ومادام أنَّه يعاقب على ما قام به هو بناءً على إرادته، فلا يتنافى ذلكَ مع العدل الإلهي. أمّا لو لم يكنْ للإنسان إرادة لعملِه، ولا قدرة على تنفيذه؛ فقد يقال إنه منافٍ للعدل[1].

وهذا الوجهُ صحيح، فاللهُ تعالى يقول لأصحاب النار ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

وقال الإمامُ الطبري (رحمه الله) مفسِّرًا لهذه الآية: «بما أسلفت أيديكم واكتسبتها أيام حياتكم في الدنيا، بأنَّ الله عدلٌ لا يجورُ فيعاقب عبدًا له بغير استحقاق منه العقوبة، ولكنَّه يجازي كلَّ نفس بما كسبت، ويوفِّي كلَّ عامل جزاء ما عمل، فيجازي الذين قال لهم ذلك يوم القيامة»[2].

الوجهُ الرّابع: صناعةُ النَّفس:

المقصودُ بهذا الوجه أنَّ العلم بعذاب جهنَّم ينمِّي الخصال الحسنة في الإنسان. فكلَّما ازداد الإنسان علمًا بذلك ازدادَ تقرّبًا إلى الله. وبذلك توجد حكمة كبيرة من وجودِ هذا العذاب، ولولاه ما حصلتْ هذه التنمية النفسية[3].

وهذا الوجهُ صحيح، فإنَّ مِن ثمرة الإيمان بالآخرة أنّ الإنسان يتقرّب إلى الله بما أحبَّ، ويجتنب ما حرَّمه سبحانه؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١]. فربطَ بين الخوف من القيام بين يدي الله وبينَ نهيِ النَّفس عن اتِّباع الهوى؛ قال العلامة السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «خافَ القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثَّر

---

(١) انظر: A Theodicy of Hell (135)

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦ / ٢٨٣).

(٣) انظر: The Many Faces of Evil (430 - 431)

هذا الخوف في قلبه فنهى نفسه عن هواها الذي يقيِّدها عن طاعةِ الله، وصارَ هواه تبعًا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصَّادين عن الخير»[1].

والخوفُ من أعظم أنواعِ العبادات وأجلِّ القربات وأفضل الطاعات، وله ثمراتٌ جليلة في حياة العبد، منها: «أنه يقمعُ الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبةُ عنده مكروهة، كما يصير العسلُ مكروهًا عندَ مَن يشتهيه إذا علم أن فيه سمًّا، فتحترق الشهواتُ بالخوف، وتتأدَّب الجوارح، ويذلّ القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقدُ والحسد، ويصير مستوعب الهمّ لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرّغ لغيره، ولا يكون له إلّا شغل المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والضِّنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النَّفس في الخطرات والخطوات والكلمات... اعلم أنَّ الخوف سوط الله تعالى يسوقُ به عبادَه إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى»[2].

فهذه بعضُ ثمراتِ الخوف من الله وعذابه، وتبيّن من ذلك أهمية وجود العذاب ليقومَ العباد بتنميةِ نفوسهم وتزكيتها والقيام بما أوجبه الله واجتناب ما نهى عنه.

كما أنه تبيَّن من هذه الأوْجه الأربعة أنَّه يوجَد عددٌ من الأسباب والحِكم لخلق جهنم وعذاب الكافرين والعصاة فيها. وبذلك تسقط مشكلة جهنم المزعومة.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماءِ الغرب على مشكلةِ جهنّم:

قد ردَّ علماءُ الغرب على مشكلة جهنم بطريقة جيّدة ومفيدة، فنقضوا المشكلة بصياغتيْها المنطقية والبرهانية، كما أنهم ذكروا بعضَ الأسباب والحِكم لوجود جهنم. وقد تبيَّن أنَّ هذه الأوجه التي ذكروها متوافقةٌ إلى حدٍّ كبير مع ما هو مذكور في القرآن وما قرّره علماء الإسلام، وإن كان ما قرّروه أكمل ما قرّره أولئك.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٨٧٠).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (٣٨١ - ٣٨٢)، لأحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي، (دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ).

ولكنْ يبقى أنَّ موقفَ النصارى تجاه هذه المشكلة ضعيف من نواحٍ عديدة، وهي متجذِّرة في معتقدهم نفسه. ولبيانِ ذلك سأستشهدُ بمقال: «كيف يمكن للإله أن يخلق جهنم» (How could God create Hell?) للبروفسور جيري والس[1]. فقد حاول في هذا المقال أن يردَّ على هذه المشكلة، ولكنْ زادَ الطين بلَّة بذكر بعض العقائد النصرانية ذاتِ العلاقة بالمشكلة، وهي المعتقدات الآتية:

المعتقدُ الأوَّل: أنَّ الإله خلق كلَّ شيء، وكلُّ شيء خلقه الله طيب، وخلقه مظهر من مظاهره[2].

المعتقدُ الثّاني: أنَّ الإله هو المحبّة، وحيث إنَّ المخلوقات مظهر من مظاهر الإله، فهي مظهرٌ من مظاهر محبّته[3].

المعتقدُ الثّالث: أنَّ الإله يحبّ جميع الناس حتى «أولاده المبعدين»، ولهذا السبب أرسلَ ابنه إليهم ليفدي نفسه من أجل ذنوبهم[4].

والجمعُ بينَ هذه المعتقدات الثلاثة والإيمان بالعذاب الأبدي في جهنّم؛ متناقضٌ للغاية. وقد تقدَّم أنَّ النصارى يذكرون أنَّ دخول الإنسان في النار عملٌ من أعمال الإله الجزائية، ونابعٌ من قداسته وعدلِه. ولكنَّهم في الوقت ذاته يذكرون أنّ جهنّم مظهر من مظاهرِ محبَّته، وأنَّ الإله يحبُّ جميع الناس، حتى الكفار. فكيف تكون جهنّم مظهرًا من مظاهر محبَّة الإله، وكيف يعذِّب مَن يحبُّه؟ فالعذاب الشديد

---

(١) جيري والس (Jerry Walls): بروفسور الفلسفة الأمريكي والمتخصّص في نقد مشكلة جهنّم. انظر:

God is Great, God is Good (262)

(2) "How Could God Create Hell?" by: Jerry L. Walls, in "God is Great, God is Good" (159), (161)

(٣) انظر: المصدر السابق (١٦١).

(٤) انظر: المصدر السابق (١٦٣).

يتنافى مع المحبة، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨]. وقال النبي ﷺ: «... لا والله، لا يلقي اللهُ حبيبَه في النار»[(١)].

فذكرُ المحبة في سياق العذابِ الشديد الأبدي يعدُّ تناقضًا، ولهذا لا يستغرب أنَّ مشكلة جهنم ظهرتْ في بيئة نصرانية. بينما لا تعدُّ هذه الشبهة مشكلة في ظل المعتقد الإسلامي؛ لأنَّ العذاب أثرٌ من آثار سخط الله وغضبه. بل أخبر اللهُ تعالى أنّ جهنم تتغيَّظ على الكافرين إذ قال: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ [الملك: ٦ – ٨]. قال ابن قتيبة[(٢)] (رحمه الله): (تكاد تنشق غيظًا على الكفّار)[(٣)].

والخلاصةُ أنَّ اللاهوت النصراني أصلُ مشكلة جهنّم، كما أنه أصل مشكلة الشَّر، ولكنَّ بعضَ علماء الغرب أجادوا في الردِّ على هذه المشكلة. ومع ذلك، فلا يمكن الإجابةُ عنها إجابةً شافية وافية إلّا في ظلِّ العقيدة الإسلامية.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٣٤٦٧)، من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥ / ٥٣١).

(٢) ابن قتيبة: هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. العلامة الكبير، ذو الفنون. حدث عن: إسحاق بن راهويه، ومحمد بن زياد بن عبيد الله الزيادي. حدث عنه: عبيد الله السكري. من مؤلفاته: مشكل القرآن. توفي عام: ٢٧٦ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٣ / ٢٩٦ – ٣٠٢).

(٣) معالم التنزيل في تفسير القرآن ٨٤ / ١٧٧)، للحسين بن مسعود البغوي، (دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ).

المبحثُ الثّالث

ردودُهم على شبهةِ سلبِ الإرادة

قد تقدَّم في مبحث مشكلة الشَّر أنَّ مِن حِكم وجود الشرور في العالم: أنَّ الله خلقَ هذه الدنيا امتحانًا واختبارًا، وأنَّه لا يتأتَّى هذا إلّا إذا كان للإنسان إرادة للقيام بأعماله وقدرة على فعلها.

ومِن الردود على مشكلةِ جهنم: أنَّ الإنسان قادرٌ على اختيار سبيل الحقّ والرشاد وسبيل الغواية والضلال، وأنه لا يدخل الإنسان جهنم إلّا بسبب اعتقاده أو عمله.

ومِن هنا، يثير الملاحدةُ شبهةَ أخرى تسمى بـ: «سلب الإرادة». وخلاصتها: أنَّ الإنسان ليست لديْه إرادةٌ في الحقيقة، وليس بإمكانه اختيار طريق الحقّ.

وإن كان الملاحدةُ يدَّعون أنهم يستندون في هذه الشبهة إلى فلسفات وبعض العلوم التَّجريبية إلا أنَّ الشبهة في الجدل الإيماني الإلحادي تثار بطريقة عاطفية - كما سيأتي بيانُه -. ولهذا السببِ جعلتُها ضمنَ الشبهات العاطفية. وقسَّمت هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ النقاش عن إرادة الإنسان.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ الملاحدة المعاصرين لشبهة: سلب الإرادة.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: سلب الإرادة.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: سلب الإرادة.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ النقاش عن إرادة الإنسان:

النقاشُ عن إرادة الإنسان استمرَّ منذ أكثر من ألفي سنة بين الفلاسفة واللاهوتيين. ويصعب استيعابُ تعقيد هذه الشبهة إلّا بسرْد تاريخي لهذا النقاش. وحيث إنَّ النقاش قد استمرَّ لهذه الفترة الطويلة، فسأقسِّم هذه الفقرةَ إلى ثلاثة أقسام:

- **القسمُ الأوَّل: الاختلافُ بين الفلاسفة القدماء:**

كان الفلاسفةُ اليونانيون يناقشون قضيةَ إرادة الإنسان في كتبهم ضمن الحديث عن تنميةِ الأخلاق والفضائل؛ فكان أفلاطون يناقش هذه القضية في الجزء الرابع من كتابه: «الجمهورية» (Πολιτεία)، إذْ كان يفترض وجودَ جوانب عقلانية وحيوية وشهية للروح البشرية. ورأى أنَّه مادام الإنسانُ مكوَّنًا من روح وجسد، فإنّه قادر على السيطرة على أعماله وتنمية أخلاقه[1].

وتبعَه على ذلك أرسطو حيث ناقش قضيةَ تنمية الأخلاق في الجزء الثالث من كتابه: «الأخلاق النيقوماخية» (Ἠθικὰ Νικομάχεια)، وبيّن أنَّ الإنسانَ يختلف عن الكائنات غيرِ العقلانية بحيث إنَّه يستطيع أن يفرِّق أن يفعل أو ألا يفعل[2]. والخلاصة أنَّ أفلاطون وأرسطو قد أثبتا إرادة للإنسان.

وأمّا الرواقيون والأبيقوريون فقدِ اعتقدوا أنَّ جميعَ الأشياء العادية، بما فيها الأرواح البشرية: مادية، وتحكمُها قوانينُ أو مبادئ طبيعية. واعتقد الرواقيون أن جميع الخيارات والسلوكياتِ البشريةَ يتمُّ تحديدها سببيًّا، لكنهم رأوا أنَّ هذا يتوافق مع كون مسئولية أفعالنا راجعةً إلينا. فجمَعوا بين القول بالحتمية في العالم الفيزيائي وإثبات إرادة للإنسان غير حتمية.

---

(١) انظر النسخة المترجمة إلى اللغة الإنجليزية: The Republic IV وهي منشورة على هذا الرابط: https://www.sparknotes.com/philosophy/republic/full-text/book-iv/

(٢) انظر النسخة المترجمة إلى اللغة الإنجليزية: Nicomachean Ethics III, وهي منشورة على الرابط: iii.html.٣.http: / /classics.mit.edu /Aristotle /nicomachaen

وكان لدى أبيقور وأتباعِه تصوّرٌ ميكانيكي للفعل الجسدي لدى الإنسان أكثر من الرُّواقيين. فرأوا أنَّ جميع الأشياء - بما في ذلك الروح البشرية - تتكوَّن من الذرات، وأنَّ هذه الذرّات محكومةٌ بقانون محدَّد، ولكنَّهم رفضوا الحتمية بافتراض أن الذرات - على الرّغم من خضوعها للقانون - عرضةٌ لانحرافات طفيفة أو انحرافات عن المسارات المعتادة[1].

ويلاحَظ هنا العلاقة بين كوْن الرّواقيين والإيبيقوريين يتبنّون مذهبًا قريبًا من المذهب المادي، وأنَّ ذلك أثَّر في موقفهم من إرادة الإنسان. وذلك مع أنهم لم ينكروا إرادةَ الإنسان كما فعل الملاحدة الماديون المعاصرون.

- **القسمُ الثّاني: الاختلافُ بين فرق النَّصارى:**

قد وقع اختلافٌ بين النصارى في قضية إرادة الإنسان أيضًا؛ فقد ذكر بعضُ الباحثين أنّهم اختلفوا فيها على أربعة أقوال:

القولُ الأوَّل: الحتمية (Determinism) التقدير بدون حرية: وهُم يرون أنّه ليس للإنسان إرادةٌ أصلًا، وأنَّ كلَّ شيء يرجع إلى مشيئة الإله.

القولُ الثّاني: التوافقية (Compatibilism) الحرية ضمن التقدير: وهُم يرون أنَّ الإنسانَ لديه إرادة، ولكنَّ هذه الحرية مقيّدة بأحداث سابقة، والإله يقدّر له الطرق التي يمكن أن يختارَ بينها، ولهذا كانت اختياراته مقيّدة بفعل بعض الأشياء فقط.

القولُ الثّالث: المنافسة (Concurrence) التقدير ضمن الحرية: وهذا القول قريبٌ من السّابق، إلا أنَّهم يركّزون على مسئولية الإنسان أكثر على أعماله من المذهب الثاني.

القولُ الرّابع: الليبرتارية (Libertarianism) الحرية بدون تقدير: وأتباعُ هذا المذهب يروْن أنَّ الإنسان له إرادةٌ حرَّة بدون أي قيود، وأنَّ إرادة الإنسان ليست خاضعة لمشيئة الله[2].

---

(١) انظر المقال: Free Will في موسوعة ستانفورد للفلسفة على الرابط:
https://plato.stanford.edu/entries/freewill/

(٢) انظر المقال: ٤ Views of Free Will على الرابط:
https://www.christianpost.com/voices/4-views-of-free-will.html

وينبغي التنبيهُ على أنَّ اللاهوتيين من الفرق النصرانية المختلفة يتبنون هذه الآراءَ في مسألةِ إرادة الإنسان، ولكن حسبَ التتبع والاستقراء فإنَّ أغلبهم يتبنون القولَ الثاني والثالث، وأنَّ القول الأوّل الرابع شاذان.

فخلاصةُ المسألة أنَّ النصارى يختلفون في إرادة الإنسان، وأغلبهم يثبتونها، ويرون أنَّ هذه الإرادة تحتَ تقدير الله، ولكنَّهم يختلفون في مدى حرية إرادة الإنسان، ويستخدمونَ في ذلك أقوالًا مجملة ليست منقولة من الوحي المعصوم.

- **القسمُ الثّالث: الاختلافُ بين الفلاسفة المعاصرين:**

يحدِّد المؤرّخون أنَّ رينيه ديكارت مؤسِّسَ الفلسفة الحديثة - كما سبق ذكره مرارًا -، وكان ديكارت من روَّاد الفلسفة العقلانية المنتشرة في القارة الأوروبية. وكانت فلسفة "ثنائية العقل والجسد" (Mind – Body Dualism) من أشهر الأفكار الفلسفية لديكارت. وخلاصةُ هذه الفلسفة أنَّ الإنسان مكوَّن من الجسد المادي والعقل غير المادي. ورأى أنَّ المادة حتمية، بينما العقل حرٌّ، وغير مقيّد بالحتمية[1].

عارضَ الفيلسوف البريطاني توماس هوبز الفلسفة الثنائية لديكارت وتبنّى الفلسفة المادية - القائلة بأنَّ الإنسان مكوّن من الجسد المادي فقط -. وكان يرى أنَّ الحرية في الحقيقة هي عدمُ وجود معوِّقات للعمل. وعليه، فإنَّ للأعمال الاختيارية والإرادة الحرَّة أسبابًا ضرورية تسبقها، فتكون حتمية[2].

وتقوَّى القولُ بالحتمية معَ اكتشافات نيوتن، فرأى أتباع المذهب الحسّي أنه يمكن توقُّعُ حركات جميع الأشياء بناءً على العلم بنقطةِ انطلاقها، وسرعتها والقوى بينها. فاعتقدوا أنَّ القوى التي تتحكَّم في الأجرام السماوية تتحكّم في جميع الأشياء الأخرى،

---

(١) انظر: The History of the Free Will Problem, Chapter 7 (84), by: Bob Dyele والكتاب إليكتروني ومنشور على الرابط:
https://www.informationphilosopher.com/books/scandal/History.pdf

(٢) انظر: المصدر السابق.

بما في ذلك أذهاننا[1]. وهذا ما يُعرَف في الفيزياء بالحتمية السببية، وهي الفكرة القائلة بأنَّ كلَّ حدثٍ تقتضيه أحداثٌ وظروف سابقة جنبًا إلى جنب مع قوانين الطبيعة[2].

وحيث إنَّ هذه الفكرة تقوَّت مع فيزياء نيوتن، فإنّها أثّرت في نظرة العلماء والفلاسفة إلى إرادة الإنسان. فإذا كان كلُّ حدثٍ مسبوقًا بأحداث أخرى وفق قوانين الطبيعة، ولا يمكن أن يتَّخذ مسارًا آخر؛ فإنَّ إرادة الإنسان من ضمن هذه الأحداث. وعليه، فإنَّ إرادة الإنسان حتميَّة كذلك. وذكر البروفسور مارك بالاغوير[3] أنّ الحتمية في الفيزياء هي الحجةُ المركزية للقول بالحتمية في إرادة الإنسان[4].

ولكنْ تغيَّر ذلك مع الفيلسوف المشكِّك ديفيد هيوم، حيث قرّر أنّ العلم بمبدأ السببيَّة ليس بديهيًّا، وإنما يُعرف عن طريق الحسّ - كما سبق ذكرُه -، وحيث إنَّ الحتمية السَّببية مبنيَّة على القول بمبدأ السببية أثّر ذلك في موقفه من الإرادة الحرّة[5].

فحاولَ هيوم التوفيقَ بين القول بالإرادة الحرّة ووجود الحتمية في الفيزياء، وهو ما عُرِف في الفلسفة بالتوافقية (Compatibilism). فكيف جمع هيوم بينهما؟ ذكر أنه إذا كانت قراراتُك وأفعالك ناتجةً بشكل عام عن رغباتك، فتكون لديك إرادة حرة. بمعنى: أنَّ الرغبة سبب في القرارات والأفعال، ولكن هذه الرغبة نفسها ضمن

---

(١) انظر المصدر السابق (٨٥).

(٢) انظر المقال: Causal Determinism في موسوعة ستانفورد للفلسفة على الرابط:

https://plato.stanford.edu/entries/determinism-causal/

(٣) مارك بالاغوير (Mark Balaguer): بروفسور الفلسفة في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتَّحدة، وهو متخصِّص في فلسفة الإرادة الحرّة. انظر:

https://www.calstatela.edu/faculty/mark-balaguer

(٤) انظر:

Free Will (11), by: Mark Balaguer, (The MIT Press, 2014)

(٥) انظر:

The History of the Free Will Problem, Chapter 7 (86)

الحتمية. والإنسانُ لا يستطيع أن يتحكَّم في هذه الحتمية. فالخلاصة أنَّ الإنسان ليست لديه إرادة حرَّة، وإنما أعادَ هيوم تعريف الإرادة الحرّة بالعمل وفق الرغبات[١].

وجاءَ الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت بعدَ هيوم وانتقد هذا الرأي بقوّة، واعتبره مجرَّد تلاعب بالكلمات[٢]. واقترح رأيًا آخر بأن تمتلك قراراتنا على الأقل تضمينات أخلاقيَّة خارج السببية، وتقع خارجَ القوانين التي تحكم الأشياء المادية[٣].

وهكذا تخبَّط الفلاسفة في هذه المسألة، وانتقد الأوّلُ الآخرَ، ولم يستقرّوا على قولٍ مِن الأقوال، بل تعدَّدت أقوالهم واختلفت مذاهبهم واضطربت مواقفهم. وذكر الدكتور بوب دايل[٤] أنَّ بعدَ عصر إسحاق نيوتن وإيمانويل كانت لم يقدّم أحدُ الفلاسفة أفكارًا جوهريَّة جديدة، ولكنَّه أشارَ إلى تقدُّمات جديدة في العلوم الأخرى بخصوص هذه المسألة[٥].

فما هي العلومُ المؤثّرة في مواقف الفلاسفة والعلماء من الإرادة الحرّة؟

العلومُ المؤثِّرة في مواقف الناس من الإرادة الحرَّة:

أكثرُ العلوم تأثيرًا في مواقف العلماء والفلاسفة من إرادة الإنسان هي: فيزياء الكم، وعلم الوراثة، وعلم الأعصاب، وعلم النفس. وبيانُ ذلك كالآتي:

العلمُ الأوَّل: فيزياءُ الكم: سبقَ في المبحث المخصّص بميكانيكا الكم أنَّ علماءَ هذا العلم اختلفوا اختلافًا كبيرًا في تفسير الظواهر الغريبة في العالم دون الذرّي. ومن

---

(١) انظر: Free Will (46 - 48)

(٢) انظر: المصدر السابق (٥٤).

(٣) انظر: The History of the Free Will Problem, Chapter V (86)

(٤) بوب دايل (Bob Doyle): حامل شهادة الدكتور في الفيزياء الفلكية في جامعة هارفارد ومهتمّ بالفلسفة عمومًا، ولا سيَّما فلسفة الإرادة الحرّة. انظر:
https://www.informationphilosopher.com/about/

(٥) انظر: المصدر السابق (٩٢).

أشهرِ التفسيرات في هذا العلم: تفسير كوبنهاغن، الذي جعل العلماء يشكّكون في الحتميَّة في الفيزياء[1]. وقد سبقَ بيانُ الارتباط بين القول بالحتمية السببية في الفيزياء والحتميَّة في إرادة الإنسان في هذا المبحث. فكانت الاكتشافاتُ في هذا العلم من أسباب قول بعض العلماء بالإرادة الحرّة.

العلمُ الثّاني: علمُ الأحياء الجزيئي: رأى بعضُ القائلين بعدم وجود إرادة حرّة أنَّ الحتميةَ المزعومة في الفيزياء تنطبقُ على علم الأحياء الجزيئي كذلك، وشبّهوا الإنسانَ بآلةٍ بيولوجية[2].

العلمُ الثّالث: علمُ الأعصاب: الماديون ينكرونَ كلَّ شيء غير مادي. وعليه، فإنَّهم يحصرون العقلَ والتفكير في عمليات بيوكيميائية في داخل الدماغ - كما سبق ذكرُه مرارًا -. وقد أجرى علماءُ الأعصاب بعض التجارب المتعلّقة بإرادة الإنسان. ومن أشهرِ هذه التجارب: «تجربة ليبيت» (Libet experiment) نسبة إلى البروفسور بنيامين ليبيت[3].

وخلاصةُ هذه التجربة أنَّه تمَّ ربطُ متطوّعين بأجهزة قياس موجات الدماغ. وطلب البروفسور ليبيت منهم إصدارَ حركة في وقت محدَّد. وتمَّ خلال هذه التجارب رصدُ إشاراتٍ عصبية قبلَ الوعي بالقرار. فاستنتجَ ليبيت أنَّ القرارات التي يتّخذها الإنسان يجري اتِّخاذها في الدماغ قبلَ أن يكون الإنسان على وعي بها[4]. واختلف العلماءُ في

---

(١) انظر:

Free Will: A Very Short Introduction (15), by: Thomas Pink, (Oxford University Press, 2004)

(2) The Grand Design (32)

(٣) بنيامين ليبيت (Benjamin Libet): بروفسور علم وظائف الأعضاء في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتَّحدة، ومتخصِّص في مجال الوعي الإنساني. توفي عام ٢٠٠٧م. انظر:

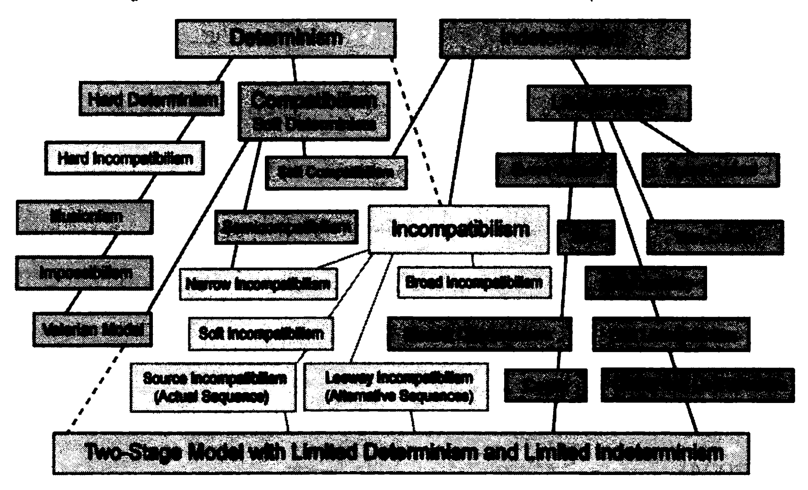
Https://rauterberg.employee.id.tue.nl/lecturenotes/DGB01%20ADD/libet.htm

(٤) بحثه منشور في: Brain, Vol. 106، Issue 3، September 1983، Pages 623 - 642،

تفسيرِ هذه التجارب في إطار الإرادة الحرَّة، ولكن استدلَّ سام هاريس بهذه التجربة على إنكارها - كما سيأتي ذكره بالتفصيل -.

العلمُ الرّابع: علمُ النَّفس: اللاوعي من أشهر المصطلحات في علم النفس وقد عرَّفته موسوعة بريتانيكا بأنَّه: «مجمع الأنشطة العقلية داخل الفرد التي تستمرُّ دونَ وعْيِه»[(١)]. وهذا النوعُ من الوعي يحيط به الكثيرُ من الغموض، ولكن استدلَّ سام هاريس بوجود اللاوعي على إنكار الإرادة الحرّة[(٢)].

وبسببِ هذه الاختلافات بينَ اللاهوتيين والفلاسفة والتفسيرات المتعارضة للعلوم التَّجريبية اختلفَ المتخصِّصون في إرادة الإنسان على أقوال كثيرة جدًّا. وقد قسَّم الدكتور بوب دويل هذه الأقوالَ إلى قولَيْن رئيسين: القولُ بالحتمية والقول بعدم الحتمية، ثمَّ جعل تحتَ كلِّ قسمٍ أكثر من عشرة أقوال، وبعض الأقوال الحتمية تداخلت مع الأقوال غيرَ الحتمية للقرب بينها. ورسم خريطة للأقوال المتضاربة على النحو الآتي[(٣)]:



---

(١) انظر المقال: Unconscious في موسوعة بريتانيكا على الرابط:

https://www.britannica.com/science/unconscious

(٢) انظر: Free Will (16 - 19)

(٣) انظر المقال: History of the Free Will Problem, وهو موجود على الرابط:

https://informationphilosopher.com/freedom/history/

فهذا كلُّه يدلُّ على العلماء والفلاسفة لم يتَّفقوا على رأي واحد في هذه المسألة، بل يدلُّ على أنه لا يمكن الإنسانُ أن يهتدي في حقيقة إرادة الإنسان إلا عن طريق الوحي المنزَّل. وأمّا الفلسفاتُ والعلوم التجريبية فلم تحسم القول في هذه القضية المهمّة.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ الملاحدة لشبهة: سلب الإرادة:

اختلفَ اللاهوتيون والفلاسفة والمتخصِّصون في العلوم التجريبية اختلافًا كبيرًا في إرادة الإنسان - كما تقدَّم -. ولكنْ كعادةِ دعاة الإلحاد الجديد، فإنّهم يسطّحون العلومَ للجماهير، ويصوِّرون القضايا العميقة بطريقة ساذجة. وقد تولّى سام هاريس كبْرَ هذه المهمَّة في كتابه: «الإرادة الحرّة» (Free Will). وقد ابتدأ كتابه بقوله: «تمس مسألة الإرادة الحرَّة كلَّ شيء نهتمُّ به تقريبًا: الأخلاق، والقانون، والسياسة، **والدين**، والشئون العامة، والعلاقات الحميمة، ومشاعر الذنب، والإنجاز الشخصي. ويبدو أن معظم ما هو إنساني واضح في حياتنا يعتمدُ على رؤيتنا لبعضنا البعض كأشخاص مُستقلين، وقادرين على الاختيار الحرّ»[١].

فبيَّن أنَّ الموقف الذي يتَّخذه الإنسان في هذه القضية له أبعاد كبيرة، من ذلك ما يتعلَّق بالدين مباشرة. ويدخُل في ذلك أيضًا ما له علاقة بالدين ضمنًا مثل: الأخلاق، والسياسة، وعقوبة المجرمين.

كما أنه ذكرَ في موطنٍ آخر من كتابه أنَّ هذه المسألة تمسّ عقوبة العصاة في جهنم وفقَ المنظور الديني؛ فقال: «في إطار ديني، يدعم الإيمان بالإرادة الحرة فكرة الخطيئة، التي يبدو أنها لا تبرّر العقوبة القاسية في هذه الحياة فحسب، ولكنَّ العقابَ الأبدي في الحياة التالية أيضًا»[٢].

واستمرَّ في بداية كتابه بقوله: «**لو أعلن المجتمعُ العلمي** أنَّ الإرادة الحرة مجرَّد وهْم، فسيؤدي ذلك إلى نشوبِ حربٍ ثقافية أكثر عدوانية بكثير من تلك

---

(1) Free Will (13)

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٩).

التي تمَّ خوضُها في موضوع نظرية التطور. بدون الإرادة الحرة، لن يكون المذنبون والمجرمون أكثر مِن ساعة مُعايرة بشكلٍ سيّئ، وأيُّ تصور للعدالة يؤكد على معاقبتهم بدلًا من ردعهم أو إعادةِ تأهيلهم أو احتوائهم فقط فسيبدو متناقضًا تمامًا»[1].

وتكلَّم عن المجتمع العلمي كأنه كيانٌ واحد، ويتكلّم بصوت واحد، متجاهلًا العلوم والفلسفاتِ المتداخلة في هذه القضية العميقة. ثمَّ أعلن رأيه بوضوح في هذه القضية كأنه حقيقةٌ قطعية؛ فقال: «الإرادةُ الحرَّة مجرَّد وهْم. إرادتنا ببساطةٍ ليست من صنعنا. تنبثق الأفكارُ والنوايا من أسبابٍ مُسبقة لا ندركها، ولا نمارس عليها أي سيطرة واعية. ليس لديْنا الحرية التي نعتقد أنَّنا نمتلكها»[2]. فتكلَّم عن مسألة عدم حرية الإرادة بصيغة الجزْم. واستدلَّ على ذلك ببعض نتائج العلم التجريبي كما سبق ذكره.

وإذا كان سام هاريس رائدَ الملاحدة في إنكار الإرادة الحرّة وقد أثار هذه الشبهة، فثمَّة ملاحدة غيره على هذه الطريق يسيرون.

ومِن الأمثلة على ذلك أنَّ البروفسور أليكس ريوسينبيرغ قرّر هذا القول بقوّة في كتابِه: «دليل الملحد إلى الواقع: الاستمتاع بالحياة بدون أوهام» (The Atheist’s Guide to Reality: Enjoying Life without Illusions)[3]. وروسينبريغ بروفسور في الفلسفة، وخصَّص هذا الكتابَ لتقرير المذهب الإلحادي ولوازمه. وتوصَّل إلى أنَّ إنكار حرية الإرادة من لوازم الإلحاد المادي.

ولكنْ لم يوافق جميعُ الملاحدة الجدد على القول بإنكار الإرادة الحرّة؛ فقد ذهبَ دانيال دينيت إلى مذهب التوافقية في كتابه: «تطوّر الحرية» (Freedom Evolves). وحاول فيه التوافقَ بين القول بالحتمية المطلقة في الفيزياء، وأنّه قد تطوَّرت إرادة لدى الإنسان يمكن الاختيارُ بها. وهو قولٌ ردَّ عليه سام هاريس بقوة في

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٥).

(٣) انظر: (3 - 2) The Atheist’s Guide to Reality: Enjoying Life without Illusions

كتابه: حرية الإرادة[1]. ولكن سبقَ بيانُ أنَّ مذهب التوافقية الذي اخترعه الفيلسوف ديفيد هيوم مجرّد تلاعب بالكلمات. فالتوافقي يحاول التوفيقَ بين القول بالإرادة الحرّة والحتمية في الفيزياء، ولكنّه في نهاية الأمر ينكر أنَّ لدى الإنسان إرادة حرّة.

وبقيةُ الملاحدة الجدد تخبَّطوا في هذه المسألة، ولم يتصوّروها جيّدًا. ومن الشواهد على ذلك أنه عُقِدت جلسةٌ مع ريتشارد دوكينز ولوارنس كرواس، سُئل فيها دوكينز: «هلْ للإنسان إرادة حرّة؟» فأجابَ بأنه سؤال يرهبه، لأنّه ليس لديه تصوّر واضح فيه، ولكنَّه يتبنَّى القول بالحتمية في الفيزياء. وهذا يجعله يميلُ إلى القول بأنَّ من اعتقد أن لديْه إرادة حرّة فإنَّه يوهم نفسه بذلك. ثمَّ قال إنَّ القول بالحتمية يناقض **الشعورَ الذاتي القوي جدًّا بوجودِ الإرادة الحرّة،** فأوصى بقراءة كتاب دينيت في المسألة.

فتدخَّل لوارنس كرواس، وقال: إنه يمكن الاطلاعُ على كتاب هاريس لفهم هذه المسألة[2]، وذكر أنَّ العالَم يشير إلى وجودِ حتمية مطلقة، ولكننا نتعامل وكأنه لدينا إرادةٌ حرّة، وفي نهايةِ الأمر ذكر أنَّه يرجع إلى الفلاسفة أن يبيِّنوا الموقفَ الصحيح في المسألة[3].

فمِن الواضح أنَّ دوكينز وكراوس - وهمَا من أعلام الإلحاد الجديد - لم يفهما هذه المسألةَ العميقة، والخلاف الواسع بين الفلاسفة والمتخصّصين في تحديد حرية الإرادة.

وخلاصةُ المسألة أنَّ الإلحاد المادي يقتضي القولَ بإنكار الإرادة الحرّة، وقد استغلَّ داعيةُ الإلحاد الجديد سام هاريس هذه المسألة لإثارتها كشبهة متعلّقة ضمنيًّا بمشكلة الشرِّ ومشكلة جهنّم. وذلك بناءً على أنَّ مِن أبرز دفاع علماء الغرب عن وجود الشرِّ في العالم، ومعاقبة الإله للعُصاة في جهنم: أنَّ الإنسان لديه إرادة حرّة.

---

(١) انظر: Free Will (20 - 23)

(٢) فكأنه لم يفهم أنَّ هاريس نفسه لم يوافق دينيت، بل هاجمه في كتابه، وإن كان مؤدّى القولين في نهاية الأمر واحدًا.

(٣) انظر الجلسة: Free Will – Lawrence Krauss and Richard Dawkins على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=anBxaOcZnGk

وعليه، فإنَّ هذه المسألة مُرتبطة بالمبحثين السابقين في هذا الفصل. وهاريس نفسه يثير هذه الشبهةَ بطريقة عاطفية - كما سبقَ بيانُه -، وإنْ كان يستند إلى بعض التجارب العلمية.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماءِ الغربِ على شبهة: سلب الإرادة:

مسألةُ إرادة الإنسان عميقةٌ ومتشعِّبة، وقد سبق أنَّ الخلافَ فيها بين الفلاسفة استمرَّ أكثرَ من ألفي سنة، وأنه يوجَد عشرات الأقوال فيها. وقد اهتمَّ عددٌ من علماء الغرب بنقدِ كلام الملاحدة القائلين بأنَّ الإرادة الحرّة مجرَّد وهْم. وسألخّص كلامهم من سبعةِ أوجه:

- **الوجهُ الأوّل: تحديدُ المراد بالإرادة الحرّة:**

ابتدأ سام هاريس كتابَه بذكر خطورة مسألة: الإرادة الحرّة وتأثيرها في الدين والسياسة والأخلاق، ثمَّ ذكر أنَّ الإرادة الحرّة وهم، واستشهد بعددٍ من الدراسات العلمية على موقفِه، ولكنَّه لم يعرِّف الإرادة الحرّة بتعريف جامع مانع. وعندما سئل دوكينز وكراوس عن الإرادة الحرَّة تخبَّطَا تخبطًا عجيبًا في هذه القضية، ولكنهما لم يعرّفا مقصودَهما بالإرادة الحرَّة أوّلًا. وسبق أنَّ الفيلسوف ديفيد هيوم عرّف الإرادة الحرّة بأنها: العملُ وفقَ الرغبات، مع أنَّ الرغبات حتمية. وهذا الاضطراب عند منكري الإرادة الحرّة في التعريفات من أكبرِ أسباب الخطأ في هذه المسألة.

وقدِ انتقدهم البروفسور مارك بالاغوير بسبب هذا الصنيع، وخصّص عشراتِ الصَّفحات من كتابِه عن الإرادة الحرّة في ذكر أرجح التعريفات في المسألة.

وخلاصةُ ما ذكره أنه يجب التفريقُ بين تعريف الفيلسوف هيوم للإرادة الحرّة الذي هو العملُ وفقَ الرغبات، وبين "الإرادة الحرّة غير الحتمية" (Not - predetermined free will). وفرَّق بين الإرادتين بذكر أربع نقاط:

النقطةُ الأولى: تعريفُ هيوم للإرادة الحرّة متوافق مع الحتمية؛ فلا شكَّ أنّه يمكن الجمعُ بين القول بأنَّ الإنسان يعمل وفقَ رغباته، وأنَّ الرغبات نفسها حتمية.

النقطةُ الثّانية: الإرادةُ الحرّة غيرُ الحتمية ليست متوافقةً مع الحتمية في الفيزياء كما هو واضحٌ من اسمها. وسيأتي تعريفه لاحقًا.

النقطةُ الثّالثة: لا خلافَ بين الفلاسفة في كوْن الإنسان لديه إرادةٌ حرَّة بمفهوم هيوم. وكلُّ أحدٍ أكل كعكة مثلًا يعلم أنه فعل ذلك بسبب الرغبة.

النقطةُ الرّابعة: يوجد خلافٌ كبير بين الفلاسفة والعلماء في وجود الإرادة الحرَّة غير الحتمية، أو عدم وجودها[١].

ومثالٌ يوضِّح ما تقدّم هو أنَّ الحيوان يعمل وفق رغباته، فالأسد يفترس الغزال إذا جاع. ولكن، هل يُقال: إنَّ الأسد لديه إرادةٌ حرّة في التصرّف مثل الإنسان؟ هذا هو محلُّ الخلاف في هذه المسألة.

واصلَ البروفسور مارك بالاغوير بعدَ ذلك في توضيح النوع الثاني من الإرادة، وهي الاختيارُ عند القرار الممزَّق (Torn decision). وفسَّر القرار الممزَّق بأنه: قرار مدروس حيث يكون لديْك خيارات متعددة وأنتَ ممزَّق بشأن الخيار الأفضل. يعني، لديك خياراتٌ متعددة تبدو لك أكثرَ أو أقل تقييدًا للأفضل، بحيث تشعر أنك غير متأكِّد تمامًا - أو ممزقٌ تمامًا - بشأن ما يجبُ عليك فعله. وأنت تقرّر وأنت تشعر بهذا التمزُّق[٢].

وذكرَ أنه لا بدَّ أن يتوفّر في الإرادة الحرّة غيرِ الحتمية شرطان من أجل تمييزها عن الإرادة الحرّة وفقَ تعريف هيوم، وهما:

الشرطُ الأوَّل: أنا الذي أختار هذا الأمر.

الشرطُ الثّاني: أنَّ هذا الخيار لم يحصل بناءً على أسباب حتمية أخرى[٣].

---

(١) انظر: Free Will (50 - 52)

(٢) انظر: المصدر السابق (٦٣).

(٣) انظر: المصدر السابق (٧٥ – ٧٦).

هذا الكلامُ الذي ذكره البروفسور مارك بالاغوير جيّدٌ في الردِّ على تخبّطات مُنكري الإرادة الحرّة، وأنَّ هذا التخبّط من أسباب حصول الخلط في هذه المسألة. ولكن يبدو في الوقت نفسه أنّه يُبالغ في تعريفه للإرادة الحرّة. فهناك أنواعٌ من الإرادات بين تعريفه وبينَ تعريف هيوم التي يمكن أن توصف بأنّها إرادات حرّة. فالإنسان قد يتصرّف بطريقة واعيةٍ ومدركة بدون الشعور بالتمزُّق بدون توفّر الشرط الثاني تمامًا.

ويمكن ضربُ مثالين لتوضيح هذا الأمر:

المثالُ الأوَّل: شخصٌ يجلس على كرسي ويقرأ كتابًا، ويشعر بالجوع فيمدُّ يده إلى المكسّرات بجانبه ويأكلها لاشعوريًّا. في هذا المثال: الرجل قد عمل وفق الإرادة الحرّة عندَ هيوم.

المثالُ الثّاني: الشخصُ نفسه يجلس ويقرأ كتابه، ولا يشعر بالجوع، ولكنه بدأ يفكِّر: هل يخرج من البيت إلى المطعم للأكل أو يبقى في البيت للقراءة؟ فبدأ يشعر بحيرةٍ وتمزُّق في الاختيار، وفي نهايةِ الأمر خرجَ من بيته إلى المطعم لكي يأكل، وهو مازال متردِّدًا حتى يصل إلى المطعم نفسه. في هذا المثال قد عمل بالإرادة الحرّة وفقَ تعريف البروفسور بالاغوير.

ولكنْ لا شكَّ أنه يوجَد أنواعٌ كثيرة من الإرادات بين هذين المثالين. فقد يجلس شخصٌ لقراءة كتابه ويشعر بالجوع، فيتَّخذ القرار بالخروج إلى المطعم للأكل بدون شعورٍ بالتمزُّق والحيرة. وكوْنه شعرَ بالجوع يتنافى مع الشرط الثاني من شروط البروفسور بالاغوير؛ لأنَّ الجوع من الأسباب المسبقة لاتِّخاذه هذا القرار. ومع ذلك، فيقال إنّ هذا الإنسانَ اتّخذ قرارًا واعيًا بعيدًا عن كوْنه لاشعوريًّا بالذهاب إلى المطعم للأكل.

ومعَ ذلك، فإننا نستفيدُ من ردِّ البروفسور بالاغوير على منكري الإرادة الحرّة أنهم تلاعبوا في قضية التعريف. ولهذا قد يسردون عددًا من الأمثلة والتجارب العلمية على حصولِ تصرُّفات غيرِ واعية للإنسان. وتكون هذه الأمثلة والتجارب كلّها خارجة عن محلِّ الخلاف أصلًا. فالخلافُ ليس في حصول تصرُّفات غير واعية أو لا، لأنّ كلّنا نعلم ذلك، ولكنَّ الخلاف في كوْن الإنسان يتصرَّف بتصرُّفات واعية،

ويكون لديه خيار أنْ يفعلَ أو ألا يفعل. وهل هذا الأمرُ حاصل؟ لا شكَّ في ذلك، إذن تسقط شبهة سام هاريس من أصلها.

فهاريس أثارَ مسألةَ سلبِ الإرادة كشبهة متعلِّقة بعقوبة الله للعصاة. ولو ضربنا مثالًا على ذلك بالزاني. فالزاني يعمل وفقَ شهوته، وقد يكون هناك أسباب كثيرة في كوْنه يريد أن يزني بامرأةٍ معينة. ولكنَّ هذه الشهوة وهذه الأسباب كلها لا تسقط عنه التَّكليف، بل لديه خيار أنْ يزني وألَّا يزني. وكثيرٌ من الناس لديهم هذه الشهوة وأسبابٌ داعية للزنا، ومعَ ذلك يمتنعون عن الزنا. فبتوضيح هذا اللبس، وبذكر أمثلة على وجود تصرُّفات واعية لدى الإنسان؛ فإنَّ هذه الشبهة تسقط من أصلها.

- **الوجهُ الثّاني: إنكارُ حريةِ الإرادة يستند إلى المذهب المادي الباطل:**

سبقَ ذكرُ تاريخ شبهة سلبِ الإرادة، وأنَّ هذه الشبهة ارتبطت مع المذهب المادي ارتباطًا وثيقًا. وقد ركَّز كيل بوت[١] على هذه المسألة في مقاله بعنوان: «الإلحاد والإرادة الحرَّة» (Atheism and Free Will).

بدأ المقالُ بذكر حقيقةِ المذهب المادي، وأنَّ الملاحدة يختزلون الوجود في المادة والطاقة فقط، وينكرون كلَّ شيء غير مادي. وبناء على ذلك، فإنّهم يعتقدون أنَّ الحالاتِ والعمليات العقلية هي حالاتٌ وعمليات فيزيائية محْضة. ونقل قول البروفسور الملحِد ريتشارد ليفوتين[٢] أنَّه قال عن التطوّريين أنّه لديهم «التزام مبدئي للمذهب الطبيعي... وعليه، فإنَّ المذهب المادي عندهم ثابت»[٣].

---

(١) كيل بوت (Kyle Butt): عالم دين نصراني ومتخصّص في الدفاع عن النصرانية، وقد ألّف وشارك في تأليف ٣٥ كتابًا. انظر: http://www.apologeticspress.org/kb.aspx

(٢) ريتشارد ليفوتين (Richard Lewontin): بروفسور علم الحيوان في متحف علم الحيوان المقارن بجامعة هارفارد بالولايات المتَّحدة. انظر:
https://mcz.harvard.edu/people/richard-lewontin

(3) "Billions and Billions of Demons", in The New York Review of Books, 44 (1): 31, January 9. By: Richard Lewontin.

ثمَّ واصل كيل بوت ردَّه على الملاحدة في هذه المسألة بقوله: «ما هي المضامينُ المنطقيَّة لفكرة: أنَّ كلَّ شيء في الكون يتكوّن من المادة والطاقة فقط؟ للوهلة الأولى، قدْ لا تبدو الفكرةُ المادية عميقة جدًّا أو محطّمة للأرض، لكن التحقيق الأعمق في المفهوم يكشف أنَّ بعض الجوانب الأساسية للإنسانية معرّضة للخطر. في هذا المقال، نركِّز على سمةٍ واحدة للإنسانية يجب إنكارُها إذا تمَّ قبول المادية: الإرادة البشرية الحرة. كما ترى، إذا كانت المادةُ والطاقة كلَّ ما هو موجود «بالفعل»، فيجب رفض الفكرة القائلة بأنَّ هناك إرادةً بشرية توجِّه عملية صنع القرار. باختصار، إذا كنت أنت كشخصٍ قد اتَّخذت قرارًا حقيقيًّا واحدًا؛ إذا كنت قد اخترتَ بحريةٍ القيامَ بأي شيء أو عدمَ القيام به، فلا يمكن أن يكون الإلحاد حقيقيًّا. هذا هو الحالُ لأن قرارك سيكون نتيجةً لشيء «أكثر من» المادة. لا يمكن تفسيرُه بسلسلة «السبب والنتيجة» الطبيعية للأحداثِ الكيميائية. إذا كان هناك «أنت» داخلَ جسدك تختار هذا بحرية أو ترفض ذلك، فإنَّ الفهم المادي للكون خاطئ»[1].

والشعورُ بالإرادة الحرَّة شعورٌ فطري يجده الإنسان في نفسه ضرورة[2]، واعترف دوكينز بأنَّ التزامه بالمذهب المادي والقول بالحتمية يناقض الشعور الذاتي القوّي جدًّا بأنَّ لدينا إرادة حرَّة. فالملحدُ يعيش في صراع داخلي بين التزامه بالمذهب المادي الباطل، وبينَ هذا الشعور الفطري.

وخلاصةُ هذا الوجه أنَّ تبنِّي الملاحدة القول بالمذهب المادي هو التزام مبدئي أوّلي، والقولُ بوجود الإرادة الحرَّة يُناقض المذهب المادي. فلو أمكن بيانُ أنَّ العقل غير محصور في الدماغ وأنَّه غير مادي؛ فإنَّه يبطل الإلحاد المادي من أساسه؛ فيستنبط إنكارهم بالإرادة الحرَّة. وهذا يقودنا إلى الوجه الثالث.

---

(١) المقال: Atheism and Free Will, وهو منشور على الرابط:
http://apologeticspress.org/apPubPage.aspx?pub=1&issue=1228

(٢) انظر: شموع النهار (٧٩).

• الوجهُ الثّالث: العقلُ غيرُ محصور في الدماغ:

التزامُ الملحد بالمذهب المادي هو التزامٌ مبدئي أوّلي، والأدلة عليه متهافتة. وقد خصَّصت مبحثًا كاملًا في إبطال هذا المذهب في الباب الأوّل، فلا حاجة لإعادته. وأكتفي بإيرادِ ردود جيمس روشفورد[1] على هذه المسألة في مقاله: «العقل والدماغ: هل الإرادة الحرَّة وهْم؟» (The Mind and the Brain: Is Free Will an Illusion?).

ذكر في هذا المقالِ أنَّ الماديين ينكرون الإرادة الحرّة لأنهم يحصرون العقل في الدماغ. ويستدلّون على ذلكَ بأنه إذا جرحَ الدماغ فإنَّه يؤثِّر في طريقة تفكيرنا وتصرفنا؛ فعلى سبيل المثال: إذا كان الشخصُ يشرب كثيرًا من الكحول، فمِن الواضح أنَّ هذا سيؤثر في طريقة قيادته للسيارة. وكذلك إذا قام شخصٌ ما بضربك على رأسك فإنَّه يكون لذلك آثار دائمة على قدرتِك على التفكير بوضوح.

وبعدَ ذلك ذكرَ أنَّ هذه الشواهد والأمثلة لا تدلُّ على أنَّ العقل هو عين الدماغ. وذلكَ لثلاثة أسباب:

السببُ الأوَّل: غايةُ ما تدلُّ عليه هذه الأمثلة أنّ العقل يعتمد على الدماغ، وليس أنّه الدماغ[2]. ومن الأمثلة[3] على ذلك أنّه لو استعمل الخشّابُ المنشارَ الآلي لقطع شجرة، ثمَّ تضرَّرت سلسلةُ القطع في الآلة، فإنّه سيؤثّر في عملية قطع الشجرة؛ لأنَّ الخشّاب يعتمدُ عليه في القطع، ولكنَّ الخشّاب غير المنشار.

---

(١) جيمس روشفورد (James M. Rochford): عالم اللاهوت النصراني والمتخصّص في نقد الإلحاد. انظر:

http://christianapologeticsalliance.com/author/james-rochford/

(٢) نصوص الكتاب والسنة تدلّ على أنّ العقل محلّه القلب، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]. ولكن لا يمنع ذلك أنّ الدماغ له وظيفة في عملية التفكير، حيث إنه توجد صلة بين الدماغ والقلب. انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٩/ ٣٠٣ - ٣٠٤).

(٣) ذكر جيمس روشفورد مثالاً بعلاقة عازف الجيتار بالجيتار في الموسيقى، ولكن رأيت المثال غير مناسب فأبدلته بما ذكرت.

السببُ الثّاني: للعقلِ والدماغ سماتٌ مختلفة، مما يدلُّ على الحقيقة أنهما غير مُتطابقين. إذا أردنا تحديدَ أنَّ شيئين غير متطابقين، فإننا نحتاج فقط إلى إظهار أنَّ أحدَهما له خاصية لا يمتلكها الآخر. يشير الفلاسفةُ إلى هذا على أنه قانون لايبنيز لتطابق الهوية (Leibniz's Law of the Indiscernability of Identicals). ينصّ هذا القانونُ على أنَّه بالنسبة لأي X وأي Y, إذا كانت X تساوي Y, فإن كلّ ما ينطبق على X ينطبق أيضًا على Y (والعكس صحيح أيضًا). هذا مجرد طريقة خيالية للقول إنه إذا وُجد شيئان متطابقان؛ فستكون لهما خصائصُ وسماتٌ متطابقة. ومع ذلك، عندما نفكِّر في هذا، نكتشف بسرعة أنَّ عقولنا لها خصائص مختلفة عن أدمغتنا.

لعقولنا خصائصُ مثل: اللون أو الحجم لا تمتلكها أدمغتنا؛ فعلى سبيل المثال: إذا فكَّرتُ في ناطحة السحاب[1]، فأنا أفكِّر في شيء يبلغ ارتفاعه بضع مئات من الأمتار. ومعَ ذلك، لا يوجد شيء في الدماغ يبلغ ارتفاعه بضع مئات من الأمتار. وبالمثل، عندما أفكِّر في ناطحة السحاب، لديَّ فكرة عن لونه من كونها رمادية مثلًا. ومع ذلك، لا يوجَد شيء رمادي في دماغي. أفكارنا لها خصائص لا تمتلكها أدمغتنا.

السببُ الثّالث: حتى لو كانتِ الإرادةُ الحرة وهمًا، فكيف يمكن لكائن غير واعٍ أن يلاحظَها؟ يمكن أن يحدُث الوهمُ فقط في حالة وجودِ مراقب واع. فإذا كانت الإرادة الحرةُ همًا عميقًا، فمَن الذي يتوهَّم؟ بعيدًا عن العمل كدليلٍ ضدَّ الإرادة الحرة، حتى تصوُّر الوهم سيدعم في الواقع وجود عقل واع[2].

فقدَّم جيمس روشفورد ثلاثةَ أسباب جيِّدة في نقد شبهة الملاحدة الماديين في كوْن العقل - وبما فيه الإرادة - محصورًا في الدماغ. ولكن، إذا لم يكن العقل

---

(١) ذكر جيمس روشفورد مثالاً بتمثال الحرّية، ولكن رأيت المثال غير مناسب.

(٢) انظر المقال:

The Mind and the Brain: Is Free Will an Illusion? By: James M. Rochford: http://www.evidenceunseen.com/theology/anthropology/the-mind-and-the-brain-is-freewill-an-illusion/

محصورًا في الدماغ وليسَ ماديًّا فقط؛ فما هو إذًا؟ الجوابُ عن هذا السؤال يظهر في الوجه الرابع.

- **الوجهُ الرّابع: الإنسانُ مكوَّن من روح وجسد:**

الإنسانُ ليس آلةً بيولوجية مادية كما يزعم الملاحدةُ الماديون، بل الإنسان مكوَّن من روحٍ وجسد. وفي ظلِّ الإيمان بذلك، يمكن تفسير الشعور الذاتي القوّي جدًّا – حسب تعبير دوكينز – بوجود الإرادة الحرّة. فالإرادة الواعية ليست شعورًا فقط، بل هي حقيقة. ولا يمكن أن تكون حقيقة إلّا في ترك المذهب المادي، والإيمان بوجود الروح. وقد ذكرَ تيم ستراتون[1] هذا الوجه بقوله: «نظرًا لكون الأفكار غير مادية، فلدينا سببٌ للاعتقاد بأنَّ العقل / الروح هو شيء يفكِّر بخلاف الطبيعة. وهذا يعني أن الروح هي «شيء مفكِّر غيرُ مادي». ويترتَّب على ذلك أنَّ هذا الشيء المفكّر لن يتمّ تحديدُه بالحتمية السببية خلالَ قوانين الكيمياء أو الفيزياء أو ميكانيكا الكم أو أي شيء أو عملية فيزيائية أو مادية أخرى. ستكون الروح متحرِّرة من حتمية السبب والنتيجة للكون الطبيعي. وعليه، فيمكنُ للنفس (أنت كإنسان عامل) أن تفكِّر بحرية. وهذا يعني أن أفكارك ومُعتقداتك لا تُفرَض عليك خلال عوامل خارجية خارجة عن إرادتك. يمكنك اختيارُ معتقداتك (أو على الأقل بعضها) بصدق وبحرية»[2].

وهذا الكلام ممتازٌ في مناقشةِ الملاحدة الماديين الذين يعتقدون أن الحتمية الفيزيائية مسلَّم بها معَ شعورهم بوجود الإرادة الحرَّة، ولكنَّ المسلم لا يؤمن بوجود الحتمية الفيزيائية المطلقة بقوانين الطبيعة التي لا تنخرم؛ بل المسلمُ يؤمن بأنَّ الله خلق الخلق وفقَ سُنن، وأنَّ المخلوقات مسخَّرة بأمره، ولكنّه قد يُحدث معجزات

---

(١) تيم ستراتون (Tim Stratton): عالم اللاهوت الأمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت والمتخصِّص في نقد الإلحاد. انظر:
https://freethinkingministries.com/tim-stratton/

(٢) المقال: How Does Soul Provide Free Will?، على الرابط:
https://freethinkingministries.com/qa-2-how-does-a-soul-provide-free-will/

لأنبيائه وكرامات لأوليائه إذا شاء. وقد سبق تقريرُ هذا بالتفصيل في المبحث المتعلّق بقوانين الطبيعة والمبحث المتعلّق بالمعجزات، فلا حاجة للإعادة.

كما أنَّ المسلم لا يؤمن بأنَّ الروح حرٌّ تمامًا، وليست للإنسان حرية إرادته بهذا الإطلاق. وسيأتي بيانُ ذلك بالتفصيل في نهاية هذا المبحث – إن شاء الله –. ورغم ذلك، فيمكن الاستفادةُ من كلام الدكتور ستراتون في مناقشة الملاحدة في هذا الباب.

- **الوجهُ الخامس: الإرادةُ الحرَّة دليلٌ على وجود الخالق:**

إذا أقرَّ الملحدُ بوجود روحٍ غير مادي، فإنّه يبطل مذهبه المادي، ويقوده إلى الإيمان بوجودِ الخالق، وقد ذكرَ كيل بوت ذلك بقوله: «... إذا كان لدى البشر إرادة حرة، وكانَ الإلحاد يقتضي أنَّ الأمر ليس كذلك، فإنّه يدلُّ على أنَّ الإلحاد باطل. من ناحية أخرى، فإنَّ فكرة وجود إله خارق للطبيعة يمنح البشر عقلًا ووعيًا وروحًا تتناسب تمامًا معَ حقيقة الإرادة البشرية الحرة. وعليه، فإنَّ الشخص الذي يحاول «اتباع الدليل حيث يقود» يجبُ أن يستنتج أنَّ الإرادة البشرية الحرة تثبت وجود خالق متعالٍ على الطبيعة»[1]. وقد سبقَ تقريرُ هذه المسألة في المبحث المخصَّص لحجة الوعي، ويمكن الرجوع إليه.

- **الوجهُ السّادس: الردُّ على التجارب التي يستندُ إليها منكرو الإرادة الحرّة:**

قد تبيَّن مما سبقَ أنَّ الملاحدة المنكرين للإرادة الحرّة يخلطون بين أنواع مختلفة من الإرادات، ويبْنون إنكارَهم المطلق للإرادة الحرَّة على المذهب المادي الفاسد بما فيه إنكارُ الروح. وإذا فهمَ المرءُ هذه الأوجه السابقة جيِّدا فإنَّه يفهم أنّ الأمثلة التي يذكرها الملاحدةُ المنكرون للإرادة الحرَّة لا قيمة لها. حيث إنَّ هذه الأمثلة تدلُّ على جزء من الحقيقة الكاملة. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله سام هاريس: «توقّف لحظة للتفكير في السياقِ الذي سيحدُث فيه قرارك التالي: لم تخترْ والديك أو وقتَ ومكان ولادتك. لم تخترْ جنسَك أو معظمَ خبراتك الحياتية. لم يكن لديك أي

---

(١) المقال: Atheism and Free Will

سيطرة على الإطلاق على جينومك أو تطوُّر عقلك. والآن يتَّخذ دماغك الخيارات على أساس التفضيلات والمعتقدات التي تمَّ التوصلُ إليها على مدى العمر؛ خلال جيناتك، وتطورك البدني منذ لحظةِ الحمل، والتفاعلات التي أجريتها مع الأشخاص الآخرين، والأحداث، والأفكار. أين الحريةُ في هذا؟»[1].

في هذا الكلام، يورد سام هاريس جملةً من الأمثلة بطريقة عاطفية. ولا شكّ أنَّ ما ذكرَه من الأمثلة مؤثِّرٌ في قراراتنا اليومية. فالمكانُ الذي وُلد فيه الإنسان وزمن ولادته، كما جنسه، وتربيةُ والديه له، وجينومه؛ كلُّها من المؤثِّرات في اتّخاذ القرارات. ولكن، هل يعني ذلك أنَّ الإنسان غيرُ قادر على أن يختار بين الحقّ والباطل، أو بين الإيمان والكفر، أو بينَ الطاعة والمعصية؟ الجواب: لا. وأيُّ عاقل يستطيع أن يكتشف هذا الأمر!

ولكنْ تكمُن الخطورةُ عندما يحتجّ سام هاريس بالتجارب العلمية على قوله - لما في العلمِ التجريبي من مكانة في نفوس أتباعه ومريديه -. وأشهرُ تجربة علمية أوردها في كتابه: تجربة ليبيت - المشار إليها سابقًا -.

وكما هي عادتُه فإنَّه لبَّس على القراء. فقد عنونَ لبابٍ في كتابه بـ: «الأصول اللاشعورية للإرادة»، ثمَّ أورد مثالًا عن كونه يفضِّل شربَ القهوة في الصباح على شرب الشاي. وذكر أنَّ هذا التفضيل مبنيٌّ على عمليات في دماغه، وهو لا يراقب هذه الأحداثَ، أو لا يستطيع أن يؤثِّر فيها. ولو اختار شربَ الشاي في الصباح بدلًا عن القهوة فإنّه أيضًا مبنيٌّ على أسبابٍ لاشعورية. ثمَّ قال بعد ذلك: «إنَّ الإرادة لفعل شيء دونَ آخر لا تنشأ في الوعي؛ بل تظهرُ في الوعي، كما يفعل أي فكر أو دافع قد يعارضه. اشتهرَ عالم الفسيولوجيا بنيامين ليبيت باستخدام مخطط كهربية الدماغ لإظهار أنَّ النشاط في القشرة الحركية للدماغ يمكن اكتشافه بحوالي ثلاثمائة مللي ثانية قبل أن يشعرَ الشخصُ أنه قرَّر التحرّك...»[2]، ثمَّ أورد بعضَ التجارب المماثلة، ثمَّ استنتج منها النتيجة الآتية قائلًا: «يصعب التوفيقُ بين هذه النتائج وبين الشعور بأننا

---

(1) Free Will (32)

(٢) المصدر السابق (١٦).

المؤلِفون الواعون لأفعالنا. هناك حقيقةٌ واحدة تبدو الآن لا جدالَ فيها: قبل لحظات من إدراكِك لما ستفعله بعد ذلك - الوقت الذي تظهر فيه بشكل شخصي أنك تتمتع بحرية كاملةٍ في التصرف على النحو الذي ترضيه -، لقد حدَّد عقلُك بالفعل ما ستفعله. ثمَّ تصبح مدركًا لهذا «القرار» وتعتقد أنك بصدد اتخاذه»[1].

فاستدلَّ هاريس بتجربة علمية، ثمَّ قرَّر منها نتيجته بإنكار الإرادة الحرّة. والتدليس أنَّه أشارَ إلى مصدرِ التجربة في الحاشية التي وضعها في آخر كتابه - حتى ربّما لا يطَّلع عليها القارئ - وعلَّق على المصدر في الحاشية: «... ومع ذلك، تكهّن ليبت وآخرون بأنَّ مفهومَ الإرادة الحرة قد يتمُّ الحفاظُ عليه: ربما يتمتع العقل الواعي بحرية «النقض» بدلًا من الشروع في عمل معقَّد. لطالما بدَا هذا الاقتراح سخيفًا في ظاهره؛ فمن المؤكّد أنَّ الأحداثَ العصبية التي تمنع الإجراء المخطط له تنشأ بشكل غير واع أيضًا»[2].

بمعنى أنَّ صاحبَ هذه التجربة وآخرين معه، لم يفهموا من التجربة ما فهمه هاريس. فهوَ يستدلُّ بالتجارب العلمية حسب فهمه هو، ويقدّمها كأن «المجتمع العلمي قد أعلن» - حسبَ تعبيره -، ولكنَّ التجربة في وادٍ، ومفهوم هاريس في وادٍ آخر. ولكن حتَّى استنتاج ليبيت أنَّ العقل الواعي يتمتع بحرية النقض بدلًا من الشروع في عمل معقَّدٍ غيرُ صحيح. فالاستنتاجاتُ من هذه التجربة في مسألة الإرادة الحرّة في غير محلّها.

وقد تعقَّب البروفسور مارك بالاغوير استنتاجَ مُنكري الإرادة الحرّة من هذه التجربة. فبدأ أوّلًا بتلخيص النتيجة قائلًا: «عندما تقوم بعمل ما، إذا لم تتَّخذ قرارًا واعيًا بالتصرُّف إلّا بعد أن تكون الأسبابُ المادية لهذا الفعل قد بدأت بالفعل، فإن الفكرةَ أنَّ لديك إرادة حرَّة تعتبر مجرَّد وهْم. ببساطة، ليس من المنطقي أن تقول: إنك قرّرت تحريكَ معصمك بإرادتك الحرة إذا كانت الأسبابُ المادية لأفعالك تتحركُ بالفعل قبل أنْ تتخذ قرارَكَ الواعي. بعبارة أخرى، الفكرةُ هنا هي أنه لا يمكن أن تكون لدينا إرادة حرَّة - لا يمكن أن تكون قراراتُنا الواعية هي الأسبابَ النهائية

---

(١) المصدر السابق (١٦ - ١٧).

(٢) المصدر السابق (٤٨).

لأفعالنا – لأنَّ هناك أحداثًا دماغية غيرَ واعية بحتة تتسبَّب في إحداث أفعالنا، وهذا يحدث قبل أن نتخذ قراراتنا الواعية»[١].

ثمَّ أجاب عنْ هذا الاستنتاج الخاطئ بقوله: «هذه هي الحجة. والآن أريد أن أخبركم بالخطأ فيها. باختصار، المشكلةُ في هذه الحجة أنها تفترض فقط أن لإمكانية الاستعدادِ تأثيرًا إلى حدٍّ ما في الوظيفة السببية في إنتاج أفعالنا. لكن، **في الواقع فإنَّه ليس لدينا أيُّ فكرة عن الغرض من إمكانية الاستعداد. لا نعرف سببَ حدوثه ولا نعرفُ ماذا يفعل**. هذه نقطة مهمَّة جدًّا. من أجل أن تُحدِث نتائج ليبت مشكلة حقيقيَّة للإرادة الحرة، يجب أن تكون الحالة أن إمكانية الاستعداد تؤثّر تأثيرًا خاصًّا للغاية في إنتاج قراراتنا وإجراءاتنا»[٢].

خلاصةُ هذا الردِّ أنَّ علماء الأعصاب يشاهدون أنّه يحصل شيء في داخل الدماغ ثلاثمائة ميللي ثانية قبلَ الشعور باتِّخاذ القرار. ولكن ما هو هذا الشيء؟ وماذا يفعل هذا الشيء؟ وما مدى تأثير هذا الشيء في اتّخاذ قرارتنا؟ التجربة نفسها لا تجيب عن هذه الأسئلة، وإنما استنتج ليبيت وهاريس استنتاجين مختلفين من هذه الظاهرة. والاستنتاجُ ليس مبنيًّا على العلم التجريبي المشاهد نفسه. وعليه، فإنّ العلم التجريبي لم يقلْ شيئًا عن هذه القضية، وغايةُ ما أمكن مشاهدته أنه يحصل شيء في الدماغ قُبيل الشعور باتِّخاذ القرار. والمسلمُ الذي يؤمن بوجود الروح قد يستنتج استنتاجات مختلفة لهذه الظاهرة. ولكن حيث إنَّ هذه الظاهرة لها علاقة بإرادة الإنسان، وإرادة الإنسان لها علاقةٌ بالروح. وكيفية الروح وعمله مما استأثر اللهُ بالعلم به؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. فلعل الإنسانَ لن يحصل على علمٍ يقيني بهذه الظاهرة في الدماغ، ولكن هل هذه الظاهرة دليلٌ علمي على أنّ الإرادةَ الحرَّة مجرَّد وهْم؟ لا، إنما هو استنتاجٌ خاطئ استنتجه سام هاريس في ثوب علمي مزوّر!

---

(1) Free Will (97-98)

(٢) المصدر السابق (٩٨).

- **الوجهُ السّابع: اللوازمُ الفاسدة من إنكار الإرادةِ الحرَّة:**

إضافةً إلى كلٍّ ما سبق مِن الردود على شبهات الملاحدة المنكرين للإرادة الحرّة في هذا الباب، فإنَّ علماءَ الغرب قد بيَّنوا أنَّ هذا الإنكار يؤدّي إلى عدد من اللوازم الفاسدة. ومِن أبرز هذه اللوازم الفاسدة:

أنَّه يؤدِّي إلى القول بأنه لا يمكننا أن نعرفَ شيئًا. ذكر جيمس روشفورد هذا اللازم قائلًا: «العقلُ يقتضي أنه يمكن للعاملِ الشخصي أن يختار بين خيار وآخر، وكذلك تقييم حقيقة كلٍّ منهما. لكن إذا كانتِ الحتمية صحيحة، فلن نستطيع أبدًا أن نعرف أنَّنا وصلنا إلى الحقيقة؛ لأنَّنا كنّا مصممين على القيام بذلك. **كلُّ ما يمكننا قوله: إننا نعتبرُها صحيحة (أي أنَّ هذه هي حالتنا النفسية الحالية)؛ لا نعتقد أنها صحيحة (أي أننا استخدمنا العقلَ للوصول إلى هذا الاستنتاج)**»[١].

المقصود أنَّ الإنسانَ يعتقد شيئًا معينًا بناءً على الحجج والبراهين، ولكن اختيار هذه الحجج والبراهين مبنيٌّ على وجود إرادة للإنسان وأنه يختار بها. وإذا لم يكن للإنسانِ إمكانية للاختيار في الحقيقة، فكيف يقيمُ حجَّة على شيء أصلًا؟ وكيف يقتنعُ أحدٌ بحجته؟ بل كيف يقيم حجَّة على أنَّ الإرادة الحرّة وهمٌ، ويقنع الآخرين بها؟ وبذلك يبطل القولُ بإنكار الإرادة الحرّة نفسه بنفسه.

ويبطلُ أيضًا جميعُ العلوم التي يستند إليها الملاحدة المنكرون للإرادة الحرّة؛ قال البروفسور كينيث ميلير[٢]: «إنَّ قبول الحتمية السلوكية لا يقوّض نفسه بنفسه فحسب، بل يقوِّض جميعَ العلوم التجريبية، وربما الفنون والعلوم الإنسانية أيضًا»[٣].

---

(١) المقال: The Mind and the Brain: Is Free Will an Illusion?

(٢) كينيث ميلير (Kenneth Miller): بروفسور علم الأحياء في جامعة براون بالولايات المتَّحدة، ويعتبر أحد أبرز المدافعين عن نظرية التطوّر مع إيمانه بالله. انظر:
https://vivo.brown.edu/display/kemiller

(3) The Human Instinct (152), by: Kenneth Miller, (Simon & Schutser, 2018)

وإذا لم يمكن للقائل بأنّ الإرادة وهمٌ أنْ يعتقد اعتقاداتٍ مبنيَّة على حجج وبراهين، ولا يمكن الاستنادُ إلى العلوم التجريبية في الحقيقة، فلماذا يحاول أمثالُ هاريس أنْ يقنع الآخرين بالإلحاد؟ بل لماذا يصنِّف كتابًا كاملًا في الاستدلال على إنكار الإرادة الحرَّة؟! وقد ذكرَ كيل بوت ذلك بقوله: «إذا كان البشرُ آلاتِ نجاة لا يمكنها اتخاذ أيِّ خيارات حقيقية، فإنَّ جميع الحجج «المقنعة» ستكون بلا قيمة. أولئك الذين يؤمنون بالله مُبرمجون ومُجبَرون بواسطة جيناتهم للقيام بذلك [في نظر المنكرين للإرادة الحرّة]. أولئك الذين يؤمنون بعدمِ وجود إله هُم نتاجُ فيزياء أجسادهم بالتساوي. فالبشر لا يغيِّرون آراءهم كما يدَّعي هاريس، ولكن عقولهم تغيِّرُهم. فلماذا إذنْ يحاول تغييرَ عقول المؤمنين؛ لأَنَّهم لا يملكون حقًّا «عقولًا"، وأدمغتهم سوف «تؤمن» مهما كانت الجينات تخبرهم على أيِّ حال؟ على الملحدين في الواقع أن يفترضوا حريةَ الإرادة حتى لمناقشة الموضوع»[1].

وفي نهايةِ الأمر، فالظاهر أنَّ الملحدَ المنكر لإرادةِ الإنسان الواعية لا يؤمن بما يقول، وإنَّما يتعصَّب لهذا الرأي لأنَّه من لوازم الإلحاد المادي. وهو يعيش في صراعٍ نفسي بين اعتقادِه الباطل وبين شعوره الفطري.

ويعبِّر البرفسور الملحد دانيال واغنير[2] عنِ انفصام الشخصية لديه في هذه القضية بقوله: «إنَّه وهْم، لكنه وهمٌ دائم للغاية؛ يستمرُّ في العودة... على الرغم من أنك تعلمُ أنَّها خدعة، يتمُّ خداعُك في كلِّ مرَّة. المشاعر لا تختفي»[3].

---

(١) المقال: Atheism & Free will

(٢) دانيال واغنير (Daniel Wegner): بروفسور علم النفس في جامعة هارفارد بالولايات المتَّحدة. وهو من القائلين بأنَّ الإرادة الحرّة وهم. انظر:
https://mitpress.mit.edu/contributors/daniel-m-wegner

(٣) المقال: Free Will: Now You Have it, Now You Don’t على الرابط:
https://www.nytimes.com/2007/01/02/science/02free.html?pagewanted=all&_r=2&

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة: سلب الإرادة:

هذا المبحثُ يتعلَّق بأحد أكثر الموضوعات حساسيةً في النقاش بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله. وذلك لسببين:

السببُ الأوَّل: أنَّ هذا الموضوع يتعلّق بإرادة الإنسان، وإنْ قُدِّر أنَّ قول الملاحدة في هذا الباب صحيحٌ فهو شبهةٌ حقيقية ضدَّ إمكانية الإنسان أن يختار الإيمان. ولكن تبيَّن خلالَ هذا المبحث أنَّ قولهم ضعيف للغاية، بل متناقض إلى أبعد الحدود. وردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة جيّدة، ويُستفاد منها.

السببُ الثّاني: أنَّ موضوعَ إرادة الإنسان من محيِّرات العقول، واختلف الفلاسفة وعلماءُ العلوم التجريبية فيه إلى عشراتِ الأقوال. وهذا دليلٌ على أن الإنسان لا يمكنه الاهتداءُ إلى الحقِّ الخالص في هذه المسألة بالعقل المجرَّد، ولا عن طريق التجارب العلمية. وغايةُ ما يُستفاد من ردودِ علماء الغرب هو أنَّ قول الملاحدة المنكرين للإرادة الحرّة باطل، وأنَّ حججَهم ضعيفة. ولكنَّ علماءَ الغرب أنفسهم لم يهتدوا إلى الحقّ والهدى في هذه المسألة. والسببُ أنَّ موضوعَ إرادة الإنسان فيه تداخل بين ثلاث مسائل:

المسألةُ الأولى: لا يمكن أنْ نفهم قدرةَ الإنسان وإرادته بطريقة صحيحة إلا في ظلِّ الإيمان بالخالق المتَّصف بصفات الجلال والكمال. وأنه خالقُ العبد وأفعاله، وأنَّ له قدرةً تامة، ومشيئةً نافذة. وإذا كانت الأدلةُ والبراهين على وجود الخالق المتّصف بهذه الصِّفات متعدِّدة، إلا أنَّه لا يُعلم حقيقة الصفات إلا عن طريق الوحي المنزّل.

المسألةُ الثّانية: أنَّ الإنسان مكوَّن من روحٍ وجسد. ولا سبيلَ إلى فهم إرادة الإنسان إلّا بناءً على الإيمان بذلك. ولا يمكنُ للإنسان أن يعلم عن كيفية العلاقة الثنائية بين الروح والجسد عن طريق العقل أو الحسِّ أو العلوم التجريبية. وإنما مَردُّ ذلك إلى الوحي المنزّل أيضًا.

وهاتان المسألتان يُنكرهما الملاحدة، وإنكارُهم لهما سببُ ضلالهم في هذا الباب. بينما علماءُ الغرب اعتمدوا على كتابهم المقدَّس - المحرَّف - والكتب اللاهوتية المنحرفة فضلّوا السبيل.

المسألةُ الثّالثة: وجودُ جُملة من المؤثرات المادية تؤثِّر في إرادة الإنسان واختياراته. والملاحدةُ يركّزون على إيرادِ الأمثلة على ذلك في تقريرهم لشبهة سلب الإرادة، وقد ردَّ علماءُ الغرب عليها. وقد تبيَّن أنّه مهْما كان لهذه المؤثّراتُ المادية من تأثير، فلا يصلُ الأمرُ إلى كون الإرادة وهمًا.

فتبيَّن من ذلك أنه لا يمكن أن يصلَ الإنسانُ إلى الحقِّ الخالص المطلق إلا عن طريق التَّسليم للوحي المنزَّل، وأكثرُ ما يُستفاد من كلام علماء الغرب هو في المسألة الثالثة. وإنْ ذكروا كلامًا مُجملًا جيّدًا في المسألتين الأولتين. فما هو تحقيقُ القول في المسألتين الأولتين؟

تحقيقُ القول في خلقِ أفعال العباد وإرادة الإنسان:

قد لخَّص شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) عقيدة أهل السنة في أفعال العباد بقولِه: «والعبادُ فاعلون حقيقة، واللهُ خالق أفعالهم، والعبدُ هو المؤمن والكافر والبرُّ والفاجر، والمصلي والصائم، وللعباد قدرةٌ على أعمالهم ولهم إرادة، واللهُ خالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]»(١).

هذا مِن باب الإجمال، ولكنْ ماذا يقتضي ذلك على وجه التفصيل؟ هل إرادة العبدِ وقدرته مؤثّرتان؟ قد حقَّق شيخُ الإسلام هذه المسألة بكلام مطوّل، ولذا سألخِّصه في أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) محققًا المرادَ بالتأثير في القدرة: «التأثيرُ اسمٌ مشترك قدْ يُراد بالتأثير الانفراد بالابتداع والتوحيد بالاختراع، فإنْ أريدَ بتأثير قدرةِ العبد هذه القدرة، فحاشَا لله لم يقلْه سنِّي، وإنما هو المعزوُّ إلى أهل الضَّلال. وإنْ أريد بالتأثير نوعُ معاونة إمّا في صفة من صفات الفعل، أو في وجه مِن وجوهِه كما قاله كثيرٌ من متكلِّمي أهل الإثبات. فهوَ أيضًا باطل بما به بطل التأثير

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٠).

في ذاتِ الفعل، إذْ لا فرقَ بين إضافةِ الانفراد بالتأثير إلى غير الله سبحانه في ذرة أو فيل. وهل هو إلّا شركٌ دونَ شرك، وإن كان قائلُ هذه المقالة ما نحا إلّا نحوَ الحق.

وإنْ أُريدَ بالتأثير أنَّ خروجَ الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسُّط القدرة المحدثة، بمعنى أنَّ القدرةَ المخلوقة هي سببٌ وواسطة في خلق الله - سبحانه وتعالى - الفعلَ بهذه القدرة، كما خلقَ النبات بالماء، وكما خلقَ الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا حقٌّ، وهذا شأنُ جميع الأسباب والمسبِّبات. وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرةِ العبد شركًا، وإلّا فيكون إثباتُ جميع الأسباب شركًا...

فقدْ بانَ لك أنَّ إطلاق القول، بإثبات التأثير أو نفيه دونَ الاستفصال، وبيان معنى التأثير؛ ركوبُ جَهالات واعتقادُ ضلالات، ولقد صدق القائلُ: أكثر اختلاف العقلاء من جهةِ اشتراك الأسماء. وبانَ لك ارتباطُ الفعل المخلوق بالقدرة المخلوقة، ارتباط الأسباب بمسبِّباتها، ويدخُل في عموم ذلك جميعُ ما خلقه الله تعالى في السماوات والأرضِ والدنيا والآخرة، فإنَّ اعتقادَ تأثير الأسباب على الاستقلال، دخول في الضَّلال، واعتقاد نفي أثرها وإلغاؤه ركوب المحال...»[1].

الفقرةُ الثّانية: حقَّق شيخُ الإسلام (رحمه الله) المرادَ بالأسباب في هذه المقام بقوله: «فلعلَّك أن تقول بعدَ هذا البيان: أنا لا أفهمُ الأسباب، ولا أخرج عن دائرة التقسيم والمطالبة بأحدِ القسمين... فيُعاد عليك البيانُ بأنَّ لها تأثيرًا من حيث هي سبب، كتأثيرِ القلم، وليس لها تأثير مِن حيث الابتداع والاختراع. ونضرب لك الأمثال، لعلك تفهمُ صورةَ الحال، ويبيِّن لك أنَّ إثبات الأسباب مبتدعات هو الإشراك، وإثباتها أسبابًا موصولات هو عينُ تحقيق التوحيد»[2]، إلى آخر ما ذكره (رحمه الله).

الفقرةُ الثّالثة: بيَّن (رحمه الله) سببَ نسبةِ الفعل إلى العبد بقوله: «اعلم أنَّ العبدَ فاعلٌ على الحقيقة، وله مشيئةٌ ثابتة، وله إرادةٌ جازمة وقوة صالحة، وقد نطق القرآنُ بإثباتِ مشيئة العباد في غير ما آية كقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩] ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩]. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩٢).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٣٩٢).

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٥ - ٥٦]. ونطق بإثبات فعله في عامة آيات القرآن يعملون، يفعلون، يؤمنون، يكفرون، يتفكرون، يحافظون، يتقون»[١].

الفقرةُ الرّابعة: وبيَّن مخالفةَ قول أهل السنة للقدرة والجبرية في هذا الباب بقوله: «وكما أنّا فارقنا مجوسَ الأمة بإثباتِ أنَّه تعالى خالق، فارقنا الجبريةَ بإثباتِ أنَّ العبد كاسبٌ فاعل صانعٌ عامل، والجبرُ المعقول الذي أنكره سلفُ الأمة وعلماءُ السنة هو أنْ يكون الفعلُ صادرًا على الشيء، مِن غير إرادة ولا مشيئة ولا اختيار، مثل حركة الأشجار بهبوب الرياح، وحركة... ومثله في الأناسي حركة المحموم والمفلوج والمرتعش فإنَّ كلَّ عاقل يجد تفرقةً بديهية بينَ قيام الإنسان وقعوده وصلاته وجهاده، وزناه وسرقته وبينَ انتعاش المفلوج وانتفاض المحموم، ونعلم أنَّ الأول قادرٌ على الفعل، مريدٌ له، مُختار. وأنَّ الثاني غيرُ قادر عليه، ولا مريدٌ له، ولا مختار. والمحكي عن جَهْم وشيعتِه الجبرية أنَّهم زعموا أنَّ جميعَ أفاعيل العباد قسم واحد، وهو قول ظاهر الفساد، وبما بينَ القسمين من الفرقيْن انقسمتِ الأفعال إلى اختياري واضطراري، واختصَّ المختار منها بإثباتِ الأمر والنهي عليه... »[٢].

وبناءً على هذا التقرير نفهمُ أنَّ كلمة «الإرادة الحرّة» التي هي محلُّ الجدل في هذه المسألة كلمةٌ مُجملة. فإنْ أريد أنَّ الإنسان له إرادة حرّة غير مخلوقة وأنها ليست تحتَ مشيئة الله، فهو كلامٌ باطل. فاللهُ تعالى يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فأثبتَ للعبد مشيئة، ولكنَّها تحتَ مشيئة الله، وليست «حرّة».

وإنْ أريدَ بها نفيُ المؤثّرات الطبيعية مطلقًا في اختيار الإنسان ما يختاره، فهو أيضًا باطل. ولكن إنْ أريدَ بالإرادة الحرّة إثباتُ أنَّ الإنسان له قدرة حقيقة، وأنَّ له إرادة حقيقة، وأنَّ له مشيئة في الاختيار بين الحقِّ والباطل، والإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، وأنه يُثاب على ذلك أو يعاقَب؛ فهو حقٌّ. وهذا ما أراد الملاحدةُ نفيه في هذا الباب، وقولهم ظاهرُ البطلان.

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٣٩٣).

(٢) المصدر السابق (٨/ ٣٩٣ - ٣٩٤).

المبحثُ الرّابع

ردودُهم على شبهةِ الشَّرور المترتبة على وجود الأديان

هذا المبحثُ يتناول شبهةً إلحادية عاطفية مشهورةً معروفة بـ: شبهة الشرور المترتّبة على وجودِ الأديان. وسمِّيت هذه الشرورُ في الجدل بين الملاحدة والمؤمنين بوجود الله بـ: "الشرور الدينية" (Religious Evils). وهذه الشبهة لم تشتهرْ كثيرًا في الماضي، ولكنّها من أكثرِ الشبهات انتشارًا بعدَ ظهور حركة الإلحاد الجديد. وسأقسِّم هذا المبحث إلى أربعِ فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ انتقاد الشُّرور المترتبة على وجود الأديان.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ الملاحدة الجددِ لشبهة الشُّرور المترتبة على وجود الأديان.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهةِ الشُّرور المترتبة على وجود الأديان.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شُبهة الشرور المترتبة على وجود الأديان.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ انتقاد الشُّرور المترتِّبة على وجود الأديان:

قد تقدَّم عندَ الحديث عن تاريخ الإلحاد أنَّ الكنيسة كانت مليئةً بالطغيان والفساد والشُّرور في العصورِ الوسطى، وكانتْ في الوقت ذاته مسيطرةً على الشئون الدينية والعلميَّة والسياسية والاجتماعية في أوروبا. ولهذا لم يكدْ يجرؤ أحد على انتقاد الدين في تلك الفترة. ومَن تجرَّأ على نقدِ الديانة النصرانية أو الكنيسة اتّهم بالهرطقة والإلحاد - وإن كان لا ينكر وجودَ الخالق - [1].

---

(١) انظر البحث:

The Medieval Period, in The Oxford Handbook of Atheism (167-169)

ولكنْ تغيَّر هذا الأمرُ تدريجيًّا في عصر النهضة عندما بدأ بعضُ الفلاسفة والمفكِّرين ينتقدونَ الكنيسة. وكان نيكولو ماكيافيلي[١] أحدَ الفلاسفة الذين انتقدوا الكنيسة ورجالَ دينها في تلك الفترة. ومما انتقدَهم به: الفساد المستشري في الكنيسة وبين رجال الدين. وقد ربطَ بينَ هذا الفساد وبينَ قلَّة التديُّن عند الإيطاليين إذ قال: «بما أنَّ البعضَ يروْن أنَّ رفاهية إيطاليا تعتمد على كنيسة روما، فإنني أرغب في طرح بعض الحجج التي تخطرُ ببالي ضدَّ هذا الرأي، وسأقدّم حججًا قوية للغاية، التي لا يمكن الإجابةُ عنها في رأيي. الحجةُ الأولى هي أنَّه خلال المثال السيئ للمحكمة الرومانية، فقدتِ البلادُ كلَّ شعور ديني وتقوى، وهي خسارةٌ ترتَّب عليها مذابح واضطرابات لا حصرَ لها؛ فكما أنَّ وجود الدين يعني كل امتياز، فإن العكس من ذلك في غيابه. لذلك، **نحنُ الإيطاليين مدينونَ للكنيسة ورجال دينها بهذا الدَّين الأول، بأننا خلالَهم أصبحنا أشرارًا وغيرَ متديّنين**. ونحن مدينون لهم بدَيْن أكبر بناءً على السبب المباشر لخرابنا؛ ألا وهوَ أنَّ بلادنا منقسمة بسبب الكنيسة. إذ لم يكن هناك بلد على الإطلاقِ موحدًا أو مزدهرًا لم يتنازلْ عن طاعة أمير أو دولة ما، كما كان الحال مع فرنسا وإسبانيا. **والكنيسةُ هي السببُ الوحيد الذي يجعل إيطاليا تقف على أساس مختلف**، ولا تخضع لملك أو دولة واحدة»[٢].

ألَّف ماكيافيلي هذا الكتابَ في القرن السادس عشر، ولم يصدر إلا بعد وفاته[٣]. ويعتبر هذا الكلامُ نقدًا شديدًا للكنيسة ورجال دينها، وأنهم ليسوا سبب فساد الإيطاليين فحسب، بل سبب قلَّة تديُّنهم. واختلفَ المؤرّخون في معتقد ماكيافيلي؛

---

(١) نيكولو ماكيافيلي (Niccolò Machiavelli): فيلسوف ورجل دولة إيطالي في عصر النهضة. واشتهر بسبب كتابه: الأمير. توفي عام: ١٥٢٧ م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Niccolo-Machiavelli

(2) Discourses on Livy (68), by: Niccolo Machiavelli, (Trench & CO, 1883, translated from Italian by: Ninian Hill Thomson)

(٣) انظر: Discourses on the First Ten Books of Livy في موسوعة بريتانيكا على الرابط:

https://www.britannica.com/topic/Discourses-on-the-First-Ten-Books-of-Livy

فمنهم مَن رأى أنه مالَ إلى الإلحاد، ومنهم مَن ذكر أنه مال إلى الديانات الوثنية، ورأى غيرُهم أنَّه كان يفضّل إصلاح الديانة النصرانية من داخلها[1].

ومعَ هذا الاختلاف في تحديد معتقد ماكيافيلي، فإنَّ هذا أوّلُ نصٍّ وقفت عليه في الربط بين رجال الدين وبين قلة التديّن.

ثمَّ ازداد هذا النقدُ بقوَّة في عصر التنوير، وقد أثار الفليسوف الربوبي الفرنسي فولتير هذه الشُّبهة. ألَّف فولتير كتابه: «الموسوعة الفلسفية» (Dictionnaire philosophique) عام ١٧٦٤م، وانتقدَ فيها النصرانية، واليهودية، والإسلام بقوّة. وكانت إحدى الشبهات التي أثارها في هذه الموسوعة: شبهة: الشُّرور المترتّبة على وجود الأديان. وركّز على قضيةِ العنف الذي مارسه أتباع هذه الديانات[2].

وأصبحَ اتِّهامُ الأديان بأنَّها من أسباب العنف ديدن الملاحدة واللادينيين بعد فولتير. وقد تأثّر الثوارُ في الثورة الفرنسية بفلسفة فيولتير وانتقاداته الشديدة ضدَّ الديانة النصرانية. وكان ذلك مِن أسباب حقدهم الشديد على الكنيسة وقساوستها[3].

ولكنِ انقلبتِ الموازينُ بعد الثورة الفرنسية، وأصبح الحكم بيد العلمانيين الذين مارسوا أبشعَ أنواع الإرهاب والطغيان ضدَّ المتديّنين - كما سبق ذكرُه -. كما أنَّ أغلبَ الحروب التي وقعت بعد ذلك - ولا سيَّما في القرن العشرين - كانت لأسباب ودوافع غير دينية. إضافةً إلى أنَّ الإبادات الجماعية في القرن العشرين وقعت على أيدي النازيين العلمانيّين والشيوعيين الملاحدة، فلم يبقَ مبرِّر لانتقاد الأديان في كونها من أبرز أسباب الشُّرور كما كان قبل الثورة الفرنسية.

---

(١) انظر سيرة ماكيافيلي في موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https://www.britannica.com/biography/Niccolo-Machiavelli/The-Discourses-on-Livy

(٢) انظر هذه الجزئية المترجمة إلى اللغة الإنجليزية من الموسوعة على الرابط:
https://history.hanover.edu/texts/voltaire/volrelig.html

(٣) انظر المقال: Role of Voltaire in French Revolution على الرابط:
https://www.gktoday.in/gk/role-of-voltaire-in-french-revolution/

ولكن تغيَّر ذلك في القرن الواحد والعشرين، فقد انهارتِ الدولُ الشيوعية الإلحادية، ووقعتْ أحداثُ الحادي عشر من سبتمبر، وظهرت حركة الإلحاد الجديد. وأعاد رموزُ هذه الحركة شبهة: الشرور المترتبة على وجود الأديان من جديد، واستغلوا الموجة المعادية للدين عمومًا، وضدَّ الإسلام خصوصًا. فكيف قرّروا هذه الشبهة؟

الفقرةُ الثّانية:
تقريرُ الملاحدة الجددِ لشُبهة الشُّرور المترتبة على وجود الأديان:

أوَّلُ كتاب صدرَ لدعاة حركة الإلحاد الجديد هو: «نهاية الإيمان: الدين، والإرهاب، ومستقبل العقلانية» (The End of Faith: Religion, Terror and the Future of Reason) لسام هاريس في عام ٢٠٠٤م، وخصَّص الباب الثالث للحديث عن الشرور المترتّبة على الأديان عمومًا - حسبَ زعمه -[١]، وعنْونَ للباب الرابع بـ: «مشكلة الإسلام»، وحاولَ فيه ربط الإرهاب بالإسلام[٢].

وألَّف ريتشارد دوكينز كتابه: «وهْم الإله» في عام ٢٠٠٦م، وتكلّم في الباب السّابع عن حثِّ كتاب النصارى المقدَّس على أنواعٍ من الشرور، وعلى رأسها: أمر الإله بقتلِ الأقوام المعادية لبني إسرائيل[٣]. وعنونَ دوكينز للبابِ الثامن من كتابه بـ: «ما هي مشكلةُ الأديان؟ لماذا هي عدوانيةٌ إلى هذه الدرجة؟» وخصَّص ما يقرب من ثلاثين صفحةً لسرْد الشُّرور المترتّبة على الأديان - في نظره -، وكان يركِّز على العنف باسم الإله[٤]. فربطَ دوكينز بين الأوامر الإلهية - كما يدّعي كتاب النصارى المقدّس - بالقتل، وبينَ شبهة: الشرور المترتِّبة على وجود الأديان.

---

(١) انظر:

The End of Faith: Religion, Terror and the Future of Reason (80-107)

(٢) انظر: المصدر السابق (١٠٨ - ١٣٢).

(٣) انظر: The God Delusion (٢٤٥ - ٢٤٨)

(٤) انظر: المصدر السابق (٢٧٩ - ٣٠٨).

وجاءَ كريستوفر هيتشن في عام ٢٠٠٧م، وأصدر كتابه الأشهر: «الإله ليس عظيمًا: كيف أنَّ الدين يسمِّم كلَّ شيء» (God is not Great: Why Religion Poisons Everything). وكما هوَ واضح من عنوان الكتاب، فإنَّه ركَّز في كتابه على الشرور المزْعومة المترتِّبة على الأديان. وبعد أنْ بدأ بالباب الأوَّل كمقدّمة عنون للباب الثاني بـ: «الدين يقتل»، وخصَّصه للحديث عن ممارسة العنف باسم الدين[١].

وكما هي عادةُ دعاة الإلحاد الجديد فإنّهم يوردونَ الشبهاتِ بطريقة عاطفية. وحيث إنَّ العمليات الإرهابية باسْم الإسلام تكرَّرت في تلك الفترة؛ فإنهم وجدوا بيئة حاضنة لقبولِ هذه الشبهات. ومعَ ذلك، فلم أقف على أنَّهم حاولوا صياغة هذه الشبهة بطريقةٍ منطقية، ولم يدَّعوا أنَّ هذه الشبهة دليلٌ على عدم وجود الخالق. وغاية ما سعوا إليه: إثارةُ المشاعر ضدَّ الأديان عمومًا، وضدَّ الإسلام خصوصًا.

ولكنْ في عام ٢٠١٤م، كتب الفيلسوف الملحد دانيال كوداي[٢] بحثًا فلسفيًّا بعنوان: «مشكلة الشرّ الديني» (The Problem of Religious Evil) وحاول فيه أن يصيغ هذه الشبهةَ بصياغة منطقية. وقد افتتح بحثه قائلًا: «أوضح عدد من المآسي في تاريخ العالم الحديث أنَّ الدين أحيانًا متورِّط في الشَّر. إنَّ الإرهاب الأصولي، والعنف الطائفي، والقمع السياسي المبرر دينيًّا؛ تذكيرٌ مؤلم بأن كلمة الإله يمكن إساءة استخدامها بطرقٍ مروِّعة. يبدو من المعقول أن نقترح أنَّ هذه الظاهرة مرتبطة بمشكلة الشَّر»[٣]. فربطَ بين هذه الشبهة وبين مشكلة الشَّر. ثمَّ قال: «مرتكبو الشر الديني، وكذلك قادتُهم الروحيون؛ يستخدمون اللغةَ الدينية لتبرير شرور معنية، ويصورونها على أنَّها فاضلة ومفيدة،

---

(١) انظر: God is not Great (15 - 36)

(٢) دانيال كوداي (Daniel Kodaj): أستاذ الفلسفة في جامعة أوروبا الوسطى بالمجر، وحامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة نفسها، وقد عمل باحثًا في جامعة أكسفورد المرموقة سابقًا. انظر: https: / /dkodaj.net/

(3) “The Problem of Religious Evil” (1), by: Daniel Kodaj, in: “Religious Studies, July 2014” (pp. 1-19)

ومدعومة بالكامل من قبَل قوى خارقة للطبيعة، وربما حتى دعا إليها الوحيُ صراحة»[1].
وبذلك يختلف الشرُّ الديني - حسب تعبيره - عن الشُّرور الأخرى، حيث يرى المرتكبُ أنه يؤجَر على ارتكابها، بل قد يعتقد أنَّ الوحي الإلهي يدعوه إلى ارتكابها. وصاغَ حجته المزعومة بطريقة منطقية على الشكل الآتي:

(١) الإيمانُ بالإله يسبِّب الشَّر.

(٢) الإلهُ يدين الشَّر.

(٣) ما يدينُه الإله فهو خاطئ موضوعيًّا.

(٤) وعليه، فبناءً على ١ - ٣ فإنَّ الإيمان بالإله يسبّب ما هو خاطئ موضوعيًّا.

(٥) ينبغي على الألوهيين أن يتجنَّبوا ما يسبّب ما هو خاطئ موضوعيًّا.

(٦) وعليه، فبناءً على ٤ و٥ فإنّه ينبغي على الألوهيين أن يتجنّبوا الإيمان بالإله[2].

ثمَّ قال عقبَ هذه الصياغة: «هذه الحجة صحيحة. يظهر تبرير المقدّمة (١) للوهلة الأولى بوجود الشَّر الديني. ولا يمكن أنَّ المؤمن العاقل أن ينتقد (٢) يجب أن يوافق على أنَّ الإله يدين جرائمَ الحرب، وتعذيب الأبرياء وإهانتهم، وقتل الأطفال؛ وكلها قد ارتكبتْ بالفعل باسم الإله. المقدمة (٣) بديهيَّة للمؤمنين. وبما أنه يبدو أنه لا يمكن انتقاد المقدِّمة (٥) فإنَّ المقدّمة (٦) تبدو أنها تتبع بسهولة من المعتقدات التوحيدية، بالإضافةِ إلى الحقائق عن الشَّر الديني. تولِّد الحجة هزيمة معيارية للإيمان بالإله، وتصوّر الإيمان الألوهي على أنه متناقض ذاتيًّا. وإذا كانت الحجة صحيحة، فإن الشرَّ الديني يجبرُ المؤمن العقلاني على التخلي عن إيمانه»[3].

فشبهة: الشُّرور المترتِّبة على وجود الأديان تقدّم في الغالب بطريقة عاطفية، ولكنَّها قد تصاغ بهذه الصياغة المنطقية.

---

(١) المصدر السابق (٣).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤).

(٣) المصدر السابق.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغربِ على شبهة الشُّرور المترتِّبة على وجود الأديان:

قد أوردَ الدكتور كوداي هذه الشبهة بصياغة منطقية، بينما قدّمها زعماءُ الإلحاد الجديد بطريقةٍ عاطفية سطحية. ولذا، فسأقسِّم الردود إلى قسمين: الردود على الصياغة المنطقية، والردود على خطاب الملاحدة الجدد. وأبدأ بنقد الصياغة المنطقية، لأنّها إذا سقطتْ فإنَّ الشبهة العاطفية تسقط تبعًا.

- **القسمُ الأوَّل: الردودُ على الصياغة المنطقية:**

الصياغةُ المنطقية لهذه الشبهة حديثة نسبيًّا، ولهذا لا توجد ردودٌ كثيرة عليها. ولكنّي وقفتُ على بحثٍ فلسفي كتبه البروفسور لويد ستريكلاند[١] يردُّ فيه على صياغة كوداي المنطقيَّة لهذه الشبهة. ورغم أنَّ لويد يعترف بأنه لاأدري[٢]، إلا أنه انتقد شبهة الدكتور كوداي من النّاحية الفلسفية البحتة. وقد ردَّ على شبهة كوداي من ثلاث نواحٍ:

الناحيةُ الأولى: أنَّ "**الإيمان بالإله**» يتسبَّب في وجود الشَّر. ركّز البروفسور ستريكلاند ردَّه من هذه الناحية على ادِّعاء الدكتور كوداي أنَّ الإيمان بالإله نفسه هو ما يسبِّب وجودَ هذه الشرور. بدأ البروفسور ستريكلاند ردَّه بتمييز هذا الادّعاء عن ادِّعاءات أخرى مماثلة. فالدكتور كوداي لم يقل: «إنَّ بعضَ النصوص الدينية تدعو إلى العنف»، ولا إنَّ «بعض الديانات تدعو إلى العنف»؛ بل قال: «إنَّ الإيمان بالإله نفسه يدعو إلى الشَّر"، وذكر البروفسور ستريكلاند أنّه توجَد دراسات كثيرة جدًّا عن أسباب العنفِ باسْم الدين. وقد كتبَ الدكتور ماثيو رولي[٣] بحثًا في هذه القضية بعنوان: «أسباب العنف باسم الدين:

(١) لويد ستريكلاند (Lloyd Strickland): بروفسور الفلسفة والتاريخ الفكري في جامعة مانشيسر ببريطانيا. وهو متخصِّص في فلسفة الدين. انظر:

https://www.routledge.com/authors/i19327-lloyd-strickland

(2) “The Problem of Religious Evil: Does belief in god cause evil?” (238), by: Lloyd Strickland, in: International Journal for Philosophy of Religion, (84), 237-250, (2018)

(٣) ماثيو رولي (Matthew Rowley): حامل شهادة الدكتوراه في تاريخ الأديان من جامعة ليستر في بريطانيا، ويعمل كباحث في جامعة كامبردج الممشهورة. انظر:

www.wolf.cam.ac.uk/people/matthew-rowley

ثلاثمائة من الأسباب المساهمة المدّعية» (What Causes Religious Violence: Three houndred claimed causes)[١]. وكما هو واضح من العنوان فإنّه جمعَ ثلاثمائة من الأسباب التي ذكرها الباحثون لحصول العنف باسم الدين. ولم يقل أحدٌ من هؤلاء الباحثين إنَّ الإيمان بالإله نفسه سبب من هذه الأسباب. وإذا لم يكن كذلك، فإنَّ ادِّعاء الدكتور كوداي غير مدعوم بدراسات علمية. وحيث إنّه توجد فرقٌ عديدة من أتباع الديانات تُنكر استخدامَ العنف في أي حال من الأحوال، فإنّ القولَ بأنَّ الإيمان بالإله نفسه يتسبَّب في حصول العنف ادّعاء غير صحيح[٢].

هذا النقدُ جيِّد؛ لأنَّ الدكتور كوداي يحاول أنّ يقيم الحجّة ضدَّ الإيمان بالله نفسه، ولم يقمِ الحجَّة في نقد دينٍ من الأديان. وحاول أن يدَّعي أنَّ الإيمان بالإله نفسه متناقض ذاتيًّا، ولكن تبيَّن أنَّ هذا الادّعاء غير مدعوم بدراسات علمية.

الناحيةُ الثّانية: أنَّ الإيمان بالإله **«يتسبّب»** في وجود الشَّر. أبرز البروفسور ستريكلاند في هذا المقام أنَّ ما زعمه الدكتور كوداي من أنّ الإيمان بالإله يعتبر سببًا لوجود هذه الشُّرور. فذكر البروفسور ستريكلاند أنّه توجد دراسات كثيرة عن العلاقة بينَ الدين وبين العنف؛ فمنهم مَن يرى أنَّ الدين سببٌ من أسباب العنف، ومنهم مَن يرى أنّه ليس بسبب، وإنما يحصل العنف باسْم الدين كغطاء لأسباب سياسية، إلخ.

ثمَّ تساءل البروفسور ستريكلاند بعد ذلك: أيُّ نوع من أنواع الأسباب يقصده الدكتور كوداي؟ لأنَّه يوجد ثلاثة أنواع من الأسباب: السبب الضروري (Necessary cause)، والسبب الكافي (Sufficient cause)، والجمع بينهما المسمى بالسبب الوحيد (Sole cause). وبما أنَّ الدكتور كوداي لم يبيّن ذلك، فيحقّ النظر في ذلك كالآتي:

---

(١) هذا المقال منشور في:

Journal of Religion and Violence, 2(3), 361-402

(٢) انظر:

The Problem of Religious Evil: Does belief in god cause evil?” (239)

إذا كان المعتقدُ الديني **سببًا ضروريًّا** للشَّر الديني، فلن يحدث الشرُّ الديني بدون المعتقد الديني. لكنْ حقيقة أنَّ الشَّر يُرتكَب ظاهريًّا باسم الإله لا يعني أن المعتقد الديني كان وراءه، حيث يمكن استخدامُ الدين كذريعةٍ للعنف، كما لاحظه كثير من الباحثين. وعليه، فإنَّه لا يمكن أن يكون المعتقد الديني سببًا ضروريًّا في الشَّر الديني.

وإذا كان المعتقدُ الديني **سببًا كافيًا** للشَّر، فإنه يعني أنَّ المعتقد الديني يضمن حدوثَ الشَّر. ولكن ذكر البروفسور ستريكلاند أنه يمكن رفض هذا الادِّعاء على أسس تجريبية، وذلك ببساطة خلالَ الإشارة إلى أنه يوجد الآن - كما أنه وُجد في السابق - عددٌ من الأشخاص الذين لديهم إيمانٌ ولم يشاركوا في هذا النوع من الممارسات التي يصفُها كوداي بأنَّها شريرة. وعليه، فلا يمكن أنْ يكون المعتقد الديني سببًا كافيًا للشَّر.

وإذا كان المعتقدُ الديني هو السببَ الوحيد للشر، فلنْ تكون هناك عوامل أخرى متضمَّنة. لكنَّ البروفسور ستريكلاند بيَّن أنه يمكن رفضُ هذا بأنه يوجد عوامل سياسية أو اقتصادية أو عرقية أو قومية في الشُّرور التي توصف بأنها «دينية»، مثل: الاضطرابات في أيرلندا الشمالية، والصراع الإسرائيلي الفلسطيني، أو حرب البوسنة.

واستنتجَ البروفسور ستريكلاند من ذلك أنّه من غير المعقول الادعاءُ بأن المعتقدات الدينية تسبِّب الشَّر، سواء ادَّعى أنَّه السبب الضروري، أو السبب الكافي، أو السبب الوحيد[١].

وهذا الردُّ أيضًا جيِّد، ويبيِّن أنَّ أسباب العنف باسم الدين متعدِّدة، وأنَّ كثيرًا مما يُرتكَب باسْم الدين له أسباب ودوافع أخرى. فعرضُ الشبهة بهذه السطحية مع وجود دراساتٍ علمية مختلفة في هذه القضية؛ يدلُّ على أنَّ الدكتور كوداي لم يفهم العلاقة بين الدين وبين حصول العنف.

الناحيةُ الثّالثة: أنَّ الإيمان بالإله يتسبَّب في وجود «**الشَّر**». تحدّث البروفسور ستريكلاند في هذا المقام فيما يصفُه الدكتور كوداي بأنّه شرّ، لأنّه عرّف الشرَّ بناءً على

---

(١) انظر المصدر السابق (٢٤٥ - ٢٤٦).

كتبٍ علمانية ومُعادية للدين، بينما لو أراد أن يلزمَ المتديّن بأنّ فعلًا معينًا يعتبر شرًّا، فلا بدَّ أن يأخذ بتعريفهم للشرّ. فقد يعتقد المتديّن أنّ فعلًا معيّنًا يعتبر شرًّا، ولا يوافقه عليه العلماني. ومن الأمثلة على ذلك: الكفر. وقد يعتقد العلماني بأنّ فعلًا من الأفعال شرٌّ، ولا يوافقه عليه المتديّن - لا سيَّما إن فعل هذا الفعل باسم الدين نفسه -. فلا يمكن للملحدُ أن يلزم المتديِّن في هذه القضية، لأنهم يختلفون في المراد بالخير والشَّر[1].

والردُّ من هذه الناحية جيِّد لأنَّ الدكتور كوداي يدعو المتديّن - ويدخل في ذلك المسلم - أن يكفر بالله، لأنه يرتكبُ أنواعًا من الشرور - حسب تعريفه - باسْم الدين. ولكن ارتكاب الكفر والشرك أعظمُ الشرور على الإطلاق؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

وإضافةً إلى ذلك، فقد يدَّعي الملحد أنَّ الجهاد في سبيل الله شرٌّ لأنَّه يتضمّن القتل والقتال، ولكنَّ المسلم لا يرى أنَّ الجهاد الشرعي شرٌّ؛ بل هو مِن أعظم أنواع العبادات على الإطلاق. وقد وعد اللهُ المجاهدين بالفضل العظيم في القرآن، والتوراة والإنجيل معًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

القسمُ الثّاني: الردودُ على خطابِ الملاحدة الجدد:

قد تقدّم في الردودِ السابقة تأصيلٌ جيِّد في نقد هذه الشبهة بصياغتها المنطقية. وتبيَّن أنَّ هذه الشبهة لا تهدِّد الإيمانَ بالله من الناحية المنطقية. ولكن الملاحدة الجُدد يخاطبون عواطفَ الناس بعيدًا عن استخدام لغة المنطق والعقلانية. ولذا، فقد اهتمَّ علماءُ الغرب بنقدِ خطاب الملاحدة الجدد. وذلك من أربعة أوجه:

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢٤٧ - ٢٤٨).

- **الوجهُ الأوَّل: تصحيحُ مفهوم الملاحدة الجدد للدين:**

عنْوَن هيتشن لكتابه الأشهر بـ: «الإله ليس عظيمًا: كيف أنَّ الدين يسمِّم كلَّ شيء». فعمَّم كلمة «الدين» بأنّه يسمِّم كلَّ شيء. ومثل هذا النوع من التعميم يتكرَّر في خطاب الملاحدة الجدد[١].

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا التعميم في خطابهم. وأوَّلُ مشكلة في هذا الخطاب أنَّ الملاحدة الجدد لا يحدِّدون المرادَ بالدين. وذكر البروفسور ألستر ماكغراث أنه لا يوجَد تعريف متَّفق عليه، فيما يميِّز الدين عنْ غيره. ومن الأمثلة على ذلك أنَّ الكونفوشيوسية توصَف بأنّها ديانة، مع أنَّها أقرب إلى فلسفة حياة، فقد لا تدخل في مفهوم الدين[٢].

كما أنَّ كلمة «الدين» تستخدم بمعنى أوسع في هذا الزمان من المعنى المتبادر إلى الذِّهن؛ فعلى سبيل المثال فقد كتبت البروفسورة كارولين مارفين[٣] بحثًا بعنوان: «التضحية بالدم والأمة: إعادة النظر في الدين المدني» (Blood Sacrifice and the Nation: Revisiting Civil Religion) في دورية الأكاديمية الأمريكية للدين، وذكرت فيه أنّ الوطنية تعتبر أقوى ديانةٍ في الولايات المتَّحدة، وربما في دول أخرى أيضًا. وذلك لأنّ الوطنية تعكسُ أنظمةَ الإيمان الطائفية الموجودة في ديانات أخرى في رأيها[٤]. والبروفسورة مارفين متخصِّصة في هذا المجال، ونشرتْ هذا البحث العلمي في دورية متخصّصة[٥]، وقد عدَّت الوطنية العلمانية ضمن الأديان.

---

(١) انظر أمثلة على ذلك في كتاب: Gunning for God (60 - 64)

(٢) انظر: "Is Religion Evil?", in God is Good, God is Great (122)

(٣) كارولين مارفين (Carolyn Marvin): بروفسورة متخصِّصة في العلاقات الثقافية في جامعة بنسيلفانيا بالولايات المتَّحدة. وألّفت كتبًا طبعتها مطابع جامعة أكسفورد وجامعة كامبردج. انظر:
https://www.asc.upenn.edu/people/faculty/carolyn-marvin-phd

(٤) انظر: "Blood Sacrifice and the Nation: Revisiting Civil Religion", by: Carolyn Marvin, in Journal of American Academy of Religion, Vol. 64, No. 4, pp. 767-780

(٥) وصف موقع Jstor – الذي يجمع أكثر من ١٢ مليون بحث علمي – هذه الدورية بأنّها تعتبر أفضلَ دورية متخصِّصة في الدراسات الدينية.
انظر: الرابط: https: / /www.jstor.org/stable/1465621?seq=1

وقد اعترفَ البروفسور الملحد مايكل روس بأنّ نظرية التطوّر دين بقوله: «التطوّر دين. هذا يصدقُ على التطوُّر في البداية، ويصدق على التطوّر حتى اليوم»[1].

فإذا نظرنا إلى كلمة «الدين» بهذا المفهوم العام، فإنَّه يقال: إنَّ الوطنيين العلمانيين والملاحدةَ التطوّريين؛ أصحابُ ديانات. وهذا المفهوم له حظٌّ من النظر، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٥]. فإله العلمانيين والملاحدة: الأهواء والشهوات، ودينهم: اتِّباع تلك الأهواء والشهوات. ولديهم معتقدات يتعصّبون لها أكثر مما يتعصَّب بعضُ المتديّنين إلى دياناتهم.

فلا بدَّ أن يحدِّد الملاحدة الجدد ماذا يقصدون بالدين، ومن أي ناحية يكون الدين سببًا في هذه الشرور. وقد ذكر البروفسور كيث وارد أنَّ مَن أراد أن يتكلّم عن هذا الأمر فينبغي أنْ يقول إنَّ: «هذا الدين المعيّن، في هذه المرحلة من تكوينه خطير في هذا السياق الاجتماعي»[2].

وذكرَ البروفسور ألستر ماكغراث أنّه لو أردنا أن نحدِّد الخطورة الحقيقية في هذه القضية، فإنَّها تكمُن في التشدُّد والتعصُّب للمعتقد الذي يتبنّاه الإنسان. ثمّ انتقد دعاةَ الإلحاد الجديد بأنهم يتّصفون بهذه الصفة[3].

والخلاصةُ أنّه لا يخلو إنسانٌ من دين؛ فلا يمكن أن يُلام الدين بهذا العموم، بل لا بدَّ من تحديد الصفة الخطيرة فيمَن يتبنَّى ديانة من الديانات، وهي - في نظر البروفسور ماكغراث - صفةُ التعصّب والتشدّد، والملاحدة الجدد يتّصفون بهذه الصفة.

وقد ألزمَ البروفسور جون لينوكس الملاحدةَ الجدد بأنه لو صحَّ هذا التعميم على جميعِ المتديّنين بسبب ما يقوم به بعضُ المتديّنين؛ فإنَّه يصحُّ هذا التعميم

---

(1) How evolution became a religion: creationists correct? National Post, pp. B1,B3,B7 May 13, 2000.وقد سبق إيراد هذا النصّ.

(2) Is Religion Dangerous (55), by: Keith Ward, (Lion Hudson, 2006)

(٣) انظر: "Is Religion Evil?", in God is Good, God is Great (123)

كمقابل في حقِّ جميع الملاحدة، نظرًا لما قام به بعضهم. وحيث إنَّ عددًا كبيرًا من الملاحدة قاموا بمجازر، مثل لينين، وستالين، وماو - كما تقدَّم في مبحث: خطورة الإلحاد - فإنَّه يصحُّ وفقَ هذا المنهج التعميمي أن ينسب ذلك إلى جميع الملاحدة. والملاحدة الجدد لا يرتضونَ ذلك. وبناءً عليه، فلا ينبغي لهم أن يعمّموا ذلك على جميع المتديّنين[1].

- **الوجهُ الثّاني: نقدُ الملاحدة الجدد انتقائي:**

قد تبيَّن أنَّه لا توجد علاقة سببية بين الإيمان بالله وبين وجود الشرور، كما أنَّ ادِّعاء الملاحدة الجدد أنَّ «الدين» منبع الشرور خطأ كبير وتعميم غير منصف. ولكن الملاحدة يذكرون عددًا من النصوص الدينية من القرآن الكريم والكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى، ويذكرون أنَّ هذه النصوص تدعو إلى العنف. والدعوة إلى العنف شرٌّ في نظر الملاحدة. وعليه، فإنَّ الكتب المقدّسة لدى المتديّنين من أسباب وجود الشرور.

وقد انتقدَ علماءُ الغرب منهجَ الملاحدة في الاستدلال بهذه النصوص. فذكر البروفسور ألستر ماكغراث أنَّ هذه النوع من الاستدلال الانتقائي يتوافق مع المخاوف لدى السياسيّين العلمانيين الغربيين، إلا أنّه بعيد عن إدراك الحقائق من جميع جوانبها[2].

والتَّنبيه على هذا الأمر مهمٌّ لأنَّه لا يمكن أن نفهم النصوص الدينية إلا في سياقها الصَّحيح. والملاحدةُ الجدد مِن أبعد الناس عن فهم النصوص الدينية، ولا سيَّما فهم القرآن الكريم والسنة النبوية. وقد سبق أنَّ دوكينز كتب في تغريدة: «لم أقرأ القرآن فلا أستطيعُ أن أنقل منه بذكر السورة والآية كما أستطيعُه في الكتاب المقدَّس»[3]. فكيف ينتظَرُ منه أن يفهمَ الآيات القرآنية أصلًا؟ بل كيف ينتظر منه أن يفهم الأحكامَ الإسلامية التي ينتقدها، مثل الجهاد في سبيل الله؟

---

(١) انظر: Gunning for God (61)

(٢) انظر: Why God won't go away (43 - 44)

(3) https://twitter.com/richarddawkins/status/307369895031603200?lang=en

وإذا صحَّ هذا المنهجُ الانتقائي، فيمكن الاستدلالُ بما هو مكتوب في صفحة البرلمان البريطاني - الذي يعيش دوكينز في ظلِّه - : «بموجب الصلاحيات الملكية، يمكن للحكومة إعلانُ الحرب، ونشرُ القوات المسلحة للنزاعات في الخارج دون دعم أو موافقة البرلمان»(١). ولكن، هل يعني ذلك أنَّ حكومته يمكنها إعلان الحرب أو نشر القوات بدون أيِّ ضوابط أو قواعد أو أحكام؟ الجواب: لا. ولو أكمل القارئ قراءة ما هو مكتوبٌ في صفحة البرلمان سيجد ذلك جليًّا. فكما أن دوكينز لا يرضى أن يقرأ أحدٌ هذه النصوصَ القانونية وينتقدها بسطحية، فلا يجوز له أنْ يقرأ نصوص الكتاب والسنة وينتقدها.

- **الوجهُ الثّالث: كثرةُ الخير باسْم الدين(٢):**

مِن الأساليب التي يستخدمُها الملاحدةُ الجدد: التركيزُ على بعض ما يقوم به أتباعُ الأديان مما يروْن أنه شَرّ، ويغضون الطرفَ عن العمل الخيري الذي يقومون به. وقد انتقدَ علماءُ الغرب هذا الأسلوب عندهم؛ فكتب البروفسور تيري إيجلتون بنبرة ساخرة مُنتقدًا كتاب: «وهم الإله» لدوكينز: «هذا هو الحيادُ العلمي الذي لا يتزعزع لدوكينز لدرجةِ أنَّه في كتاب من أربعمائة صفحة تقريبًا، لا يكاد يستطيع إقناع نفسه بأن منفعة بشريةً واحدة قد انبثقتْ من الإيمان الديني، وهي وجهةُ نظرٍ غير محتملة بداهة بقدر ما هي خاطئة تجريبيًّا»(٣).

بل الدراساتُ العلمية التجريبية تبيِّن أنَّ المتديّنين أفضل من غير المتديّنين نفسيًّا

---

(١) صفحة: Waging war: Parliament’s role and responsibility على رابط البرلمان:
https://publications.parliament.uk/pa/ld200506/ldselect/ldconst/236/23603.htm

(٢) المقصود بهذا الوجه هو مناقشة الملاحدة ببيان عدم إنصافهم، وذكر أمثلة على ما يقرُّون بأنه عملٌ خيري. وأمّا المسلم، فيعتقد أنَّ العمل الصالح لا يكون مقبولًا إلا من مسلم مخلصٍ في عمله، ومتَّبعٍ لسنة نبينه r فيه. وقد تقدّم الحديث عن ذلك في الردّ على شبهة: برهان الملحد.

(٣) المقال: Lunging, Flailing, Mispunching, وهو منشور على الرابط:
https://www.lrb.co.uk/the-paper/v28/n20/terry-eagleton/lunging-flailing-mispunching

واجتماعيًّا. كتب البروفسور ديفيد سلوان ويلسون[١] مقالاً في الردّ على انتقادات دوكينز للمتديِّنين. وذكرَ تلخيصًا الدراسات العلمية في المقارنة بين المتديّنين وغير المتديّنين، وهو ما يأتي: «في المتوسط، يكون المؤمنون المتديّنون اجتماعيّين أكثرَ من غير المؤمنين، ويشعرون برضا نفسيٍّ أكثر، ويستخدمون وقتَهم بشكل جدّي أحسن، وينخرطون في التَّخطيط طويلِ الأجل بدلًا من إرضاء رغباتهم المندفعة. على أساس لحظة بلحظة، أفادوا بأنهم أكثرُ سعادة ونشاطًا واجتماعية ومشاركة وحماسة»[٢].

ثمَّ كتب في خاتمةِ مقاله خلاصةً مهمَّة عن دوكينز وأمثاله: «تكمُن مشكلة تحليل دوكينز في أنَّه لا يفهم الحقائق المتعلقة بالدين بشكل صحيح. في الوقت الحالي، هو مجرَّد ملحدٍ غاضب آخر، يتاجرُ بسمعته كمتحدِّث عن التطوّر، ومتحدثٍ باسم العلم للتَّعبير عن آرائه الشخصية عن الدين»[٣].

والدراساتُ العلمية في المقارنة بين الصحة النفسية والجسدية بين المتديّنين وغير المتديّنين؛ كثيرة جدًّا. وقد طبعتْ مطبعة جامعة أكسفورد كتابًا بعنوان: «دليل الدين والصحة» (Handbook of Religion and Health)، واطّلع محرّرو الكتاب على ١٢٠٠ دراسة و٤٠٠ مراجعة علمية في هذه القضية. وقد نقلَ أندرو سيمس - بروفسور الطبّ النفسي البريطاني - خلاصةَ الدراسات قائلًا: «في غالبية الدراسات، يرتبط التديّن بالرفاهية والسعادةِ والرضا عن الحياة. إضافةً إلى الأمل والتفاؤل، والشعور بالغرض والمعنى في الحياة. وكذلك ارتفاع احترام الذات، وتكيُّف أفضل مع المصيبة. وأيضًا، دعم اجتماعي أكبر ووحدة أقل. وانخفاض في معدلات الاكتئاب والتعافي بشكل أسرع من الاكتئاب. وانخفاض معدلات الانتحار، وقلة المواقف الإيجابية تجاه الانتحار.

---

(١) ديفيد سلوان ويلسون (David Sloan Wilson): بروفسور علم الأحياء في جامعة بيميتغتون بالولايات المتَّحدة. انظر: https: / /www.skeptic.com/eskeptic/07 - 07 - 04/

(٢) المقال: Beyond Demonic Memes: Why Richard Dawkins is Wrong About Religion, وهو منشور على الرابط: https: / /www.andyross.net /wilson.htm

(٣) المصدر السابق.

وكذلك، قلق أقلّ، وذُهان[1] أقلّ، وميول ذهانية أقل. إضافة إلى انخفاض معدلات تعاطي الكحول والمخدرات»[2].

فلماذا يتجاهل الملاحدةُ الجدُد هذه الدراسات العلمية كلّها، ثمّ يأتي أمثالُ هيتشن ويقول إنَّ «الدين» يسمِّم كلَّ شيء؟ فهذا دليلٌ على أنّهم لا يبالون بدراسات علمية، وإنَّما يريدون إثارةَ المشاعر والعواطف والتعبير عن أحقادهم الشخصية تجاه الدين والمتديّنين.

- **الوجهُ الرّابع: العنفُ باسْم الإلحاد:**

قد خصَّصت مبحثًا كاملًا في أنَّ مِن أساليب علماء الغرب في الردّ على الملاحدة: بيان الشرور المترتِّبة على الإلحاد، وبيَّنت أنَّ الشيوعيين الملاحدة تسبّبوا في موت ما يقاربُ مائة مليون نسمة. ولكن يحسنُ التَّنبيه أنَّ مِن طرق ردِّ علماء الغرب على شبهة: الشُّرور المترتّبة على وجود الأديان أنهم يقلبون الحجة على الملاحدة، بتذكيرهم بالشرور التي فعلها العلمانيون والملاحدة. وقد تقدَّم مِن كلام البروفسور جون لينوكس أنّه ألزم الملاحدةَ الذين يحكمون بالعموم على جميع المتديّنين بسبب ما يقوم به البعض، أنه يمكن وفقَ هذا المنهج التعميمي أنْ يحكم على جميع الملاحدة بسبب ما يقوم به بعضهم.

وإضافةً إلى ذلك، فإنَّ علماء الغرب قلبوا الحجةَ من جهة أخرى. وذلك أنَّ الملاحدة الجدد يركّزون على إبراز أمثلةٍ من الشرور التي مارسها أتباع الأديان المختلفة عبرَ التاريخ، فقلب علماء الغرب الحجة عليهم.

وذلكَ بالاعتراف أنَّ أتباع الديانات المختلفة قاموا بعدد من الشرور، وأن ذلك حصلَ في الغالب عندما تمكَّنوا من الحكم. فالنصارى على سبيل المثال كانوا مقموعين ومَظلومين في القرون الأولى بعد المسيح (عليه السلام) فيما يسمَّى بفترة

---

(١) ذهان (Psychosis): اختلال شديد في القوى العقليّة، يؤدِّي إلى اختلال جميع وسائل التكيُّف والتوافق العقليّ والاجتماعيّ والمهنيّ والدينيّ، مع فقد القدرة على الاستبصار. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ٨٢٦).

(٢) البحث: Is Faith a Delusion? (8), by: Andrew Sims وهو منشور على الرابط: https://www.rcpsych.ac.uk/docs/default-source/members/sigs/spirituality-spsig/is-faith-delusion-andrew-sims-editedx.pdf?sfvrsn=59a019c0_2

الاضطهاد[1]. ولكن عندما تمكّنوا من الحكمِ انقلبوا إلى ظلمة، ونشَروا دينهم بقوّة السلاح كما حصل في الحروبِ الصليبية وغيرها. ويمكن العلماني أن يوردَ عددًا من الأمثلة على ذلك، كما فعل الفيلسوف فولتير عندما أثار شبهةَ الربط بين الأديان والعنف، وكذلك مَن تبعه على ذلك من الملاحدة الجدد - كما سبق بيانُه -.

ولكن، ماذا فعلَ العلمانيون أنفسهم عندما تمكّنوا من الحكم؟ أوّلُ مرَّة تمكّنوا فيها من الحكم كان في الثورة الفرنسية، والثوّار كانوا متأثّرين بفلسفة فولتير المعادية للأديان. فماذا فعلَ هؤلاء الثوّار؟ وما هي آثارُ ثورتهم على مَن جاء بعدهم من العلمانيين؟

قد تخصَّص البروفسور المؤرّخ مايكل بيرلي[2] في هذه الجزئية من التاريخ، وألّف كتابه: «القوى الأرضية - صدام الدين والسياسة في أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب الكبرى» (Earthly Powers: The Clash of Religion and Politics in Europe from the French Revolution to the Great War). وكتب في هذا الكتاب عن الثورة الفرنسية: «ليس من المستغرب أنَّ مؤرخي الجمهورية [الفرنسية] اعتبروا دائمًا الثورة كأنها شيء «لا يمكن تفسيره»، خاصَّة وأنَّ ربع مليون شخص قد لقوا حتفهم خلال القمع الوحشي بعد الثورة من قبَل «المتعصبين» الذين لجأوا إلى تقنيات الإبادة الجماعية. كانت هذه هي المناسبة الأولى في التاريخ عندما شرعت دولة «غير دينية» معادية للكهنوت في برنامج القتلِ الجماعي الذي استبقَ عددًا من أهوال القرن العشرين. كانت الدولة العلمانية قادرةً على ارتكاب وحشية لا يمكن تصوُّرها مثل أي دولة مستوحاة من الدين»[3].

---

(١) انظر: النصرانية دراسة عقدية تاريخية (٧٩ - ٩٨)، للدكتور عبد الرحمن بن غالب عواجي، (دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٤٠ هـ).

(٢) مايكل بيرلي (Michael Burleigh): بروفسور التاريخ البريطاني، وقد عمل في عددٍ من الجامعات المرموقة، منها: جامعة أكسفورد. وقد ترجمت كتبه إلى عشرين لغة. انظر:
https://www.buckingham.ac.uk/research/hri/fellows/burleigh

(3) Earthly Powers: The Clash of Religion and Politics in Europe from the French Revolution to the Great War (97), by: Michael Burleigh, (Harper Collins E Books, 2004).

وقصدُه من هذا الكلام أنَّ أوّلَ مرَّة تمكَّن العلمانيون من الحكم فقاموا بمجازر راح ضحيتَها ربعُ مليون شخص[1]، ولكنَّ المؤرِّخين العلمانيين في فرنسا تحدّثوا عن هذه الثورة ووحشيتها كأنَّه لا يمكن تفسير هذه الشرور. فالعلمانيون سنّوا سنتين:

- **السُّنةُ الأولى: سنةُ الوحشيَّة في الحكم ضدَّ المتديّنين:**

وقد تأثَّر بهم مَن جاء بعضهم من الملاحدة والعلمانيين المعادين للأديان والمتديّنين. فالإلحادُ يمثّل خطورةً بحدِّ ذاته - كما سبق تفصيلُه في مبحثٍ خاص -، ولكنَّ الملاحدة والعلمانيين أنفسَهم درجات. وأخطرهم الحاقدون على الأديان والمتديّنين، كما كان الواقعُ في الثورة الفرنسية. وقد تكرَّر هذا الأمر في عددٍ من الدول؛ قالت مالرين روبينسون[2]: «حصل عنفٌ مستمرٌّ ضدَّ الدين - في الثورة الفرنسية، وفي الحرب الأهلية الإسبانية، وفي الاتحاد السوفيتي، وفي الصين. في ثلاثة من هذه الحالات، كان استئصالُ الدين جزءًا من برنامجٍ لإعادة تشكيل المجتمع خلال استبعاد أشكال معينة من الفكر عنْ طريق خلق غيابٍ للاعتقاد»[3].

ونقلَ البروفسور جون لينوكس هذا النصّ، وذكر أنَّه يقدِّر أنَّ حوالي ٩٤ مليون نسمة ماتوا بسبب السياسات القمعية في الدول الشيوعية، إضافة إلى أنَّ هتلر نفسه كان يتبنى جملةً من المعتقدات أقرب ما تكون إلى الإلحاد[4].

فعددُ مَن مات بسببِ سياسيات العلمانيين والملاحدة يقدَّر بأكثر من مائة مليون، رغم أنّهم لم يتمكَّنوا من الحكم إلّا في فترة وجيزة من التاريخ البشري. وهذا لم

---

(١) وحسب تقديرات أخرى فإنَّ العدد أكثر من ذلك بكثير كما سبق.

(٢) مالرين روبينسون (Marilynne Robinson): كاتبة أمريكية مشهورة بكتاباتها عن الأديان، وقد حاز على عدد من الجوائز في الأدب. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Marilynne-Robinson

(٣) انظر المقال: Hysterical Scientism على الرابط:
https://harpers.org/archive/2006/11/hysterical-scientism/

(٤) انظر: Gunning for God (88)

يحرِّك مشاعرَ الملاحدة الجدد، وإنما تحرّكت مشاعرهم بسبب أحداث الحادي عشر من سبتمبر، التي ماتَ فيها أقل من ٣٠٠٠ شخص، لأنّهم يزعمون أنّ تلك العمليات فُعلت باسْم الدين.

- **السُّنةُ الثّانية: سُنَّة غضِّ الطرف عن الأسباب الحقيقية لجرائمهم:**

فهذه الأسبابُ موجودةٌ في داخل الفكر العلماني والإلحادي نفسه. والملاحدة الجددُ لا يزالون ينكرونَ العلاقةَ بين الإلحاد وبين الجرائم التي قام بها الملاحدة. ومن الأمثلة على ذلك أنَّ ريتشارد دوكينز قال: «حتى لو قبلنا أنَّ هتلر وستالين كانا ملحدين، فإنَّ كلاهما ذو شاربٍ أيضًا... وماذا يعني ذلك؟! السؤال المثير للاهتمام ليس ما إذا كان البشرُ الأفراد الأشرار (أو الطيبون) متدينين أو ملحدين... ما يهمُّ هنا ليس ما إذا كان هتلر وستالين مُلحدين، ولكن ما إذا كان الإلحاد يؤثر بشكلٍ منهجي في الناس لفعل أشياء سيئة. ولا يوجد أدنى دليلٍ على ذلك»[1].

فالملاحدةُ يكثرون مِن إيراد الأمثلة على جرائم وشرور قام بها متديّنون لإثارة المشاعر ضدَّ الأديان. ولكن أوّل ما يوجَّه الاعتراض نفسه إليهم، فإنهم يعرضون عن الأسباب الحقيقية الموجودة في الفكر الإلحادي التي تؤدّي إلى هذه الجرائم. ولهذا يتهرَّب دوكينز ويقول إنَّ كلًّا من هتلر وستالين كان لديهما شوارب، بدون نظر في حقيقة فكرهما العلماني والإلحادي.

وحجَّة دوكينز في ذلك أنّ الإلحاد هو عدم الإيمان، ولا أحد يفعل الخير أو الشَّر، لأنَّه لا يؤمن. وهذه مغالطة، وقد تقدَّمت أدلةٌ وبراهين على أنَّ الفكر الإلحادي نفسه خطير. وإضافةً إلى ذلك، فقد ذكرَ البروفسور ديفيد برلينسكي ردًّا قويًّا على ادّعاء دوكينز أنَّ الإنسان لا يفعل شيئًا بسببِ غياب الإيمان، وهو قوله: «ما لم يؤمن به هتلر، وما لم يؤمن به ستالين، وما لم يؤمن به ماو، وما لم يؤمن به أفراد قوات الأمن الخاصة النازية، وما لم يؤمن به الجستابو [الشرطة السرّية النازية]، وما لم تؤمن به المخابرات

---

(1) The God Delusion (272-272)

السوفيتية، وما لم يؤمن به المفوضون والموظفون والجلادون المتهورون والأطباء النازيون، ولا المنظّرون والمثقفون في الحزب الشيوعي... هؤلاء كلّهم لم يؤمنوا **بأنَّ الله كان يراقبُ أفعالهم**. ويمكن أن نقول: إنَّ قلَّة قليلة من أولئك الذين نفذوا أهوالَ القرن العشرين كانوا قلقين مِن أنَّ الله كان يراقب أفعالهم أيضًا؛ لأنَّ هذا هو المراد الحقيقي بالمجتمع العلماني في نهاية الأمر»[١].

وقد لخَّص الأديب الروسي ألكسندر سولجنيتسين[٢] السببَ الرئيس للجرائم التي قامَ بها ملاحدةُ الاتِّحاد السوفيتي، بل المعاناة كلُّها في القرن العشرين بقوله: «إذا طُلب منّي اليوم أن أصيغَ بأكبر قدرٍ مُمكن من الإيجاز السببَ الرئيس للثورة [الروسية] المدمرة التي ابتلعت حوالي ستين مليونًا من شعبنا؛ لم أستطعْ أن أكون أكثر دقة من أن أقول: **لقد نسوا الإله**؛ لهذا السبب حدثَ كلُّ هذا... إذا دُعيت لتحديد السمة الرئيسية للقرن العشرين بأكمله، هنا أيضًا، لن أتمكَّن من العثور على أي شيء أكثر دقة وبليغًا مِن أن أكرِّر مرة أخرى: **لقد نسي البشرُ الإله**»[٣].

وهذا هو السببُ الرئيس لكثرة الشرِّ الذي قام به الملاحدة والعلمانيون منذ أوّل يوم استلموا فيه الحكم، وإلى هذا الزمان. وبذلك قلبَ علماءُ الغرب حجة الملاحدة عليهم، وبيَّنوا الشرورَ التي قام بها الملاحدة، وأنَّ هذه الشرور منبعثة من الفكر الإلحادي نفسه، وإنْ كان الملاحدة الجدد يحاولون جاهدين التغطية على هذه الحقيقة القطعية.

---

(1) Devils Delusion (26-27)

(٢) ألكسندر سولجنيتسين (Aleksandr Solzhenitzyn): الأديب والمؤرّخ الروسي، حاز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٧٠ م. وتوفي عام: ٢٠٠٨ م. انظر:
www.britannica.com/biography/Aleksandr-Solzhenitzyn

(3) Aleksandr Solzhenitzyn, Templeton Prize Address, 1983, in: Gunning for God (95)

الفقرةُ الرّابعة:

تقييمُ ردودِ علماءِ الغرب على شبهةِ الشُّرور المترتبة على وجود الأديان:

يكثُرُ الملاحدةُ من استعمال شُبهة: الشُّرور المترتبة على الأديان في إثارة المشاعر لدَى أتباعهم، ولتشكيكِ أتباع الأديان في معتقداتهم. وقد استغلَّ الملاحدةُ الجدد العملياتِ الإرهابيةَ التي وقعتْ باسْم الدين في القرن الواحد والعشرين لنشر إلحادهم وكفْرهم. ولكنَّ علماءَ الغرب قد أفادوا في ردودهم على هذه الشبهة. وقد فكَّكوا الشبهةَ من أساسها، وقلبوا الحجة على الملاحدة بطريقة جيّدة.

ولكنَّ هذه الشبهة بالذات تظهر التناقضَ الواضح عند كلٍّ مِن النصارى والملاحدة الجدد. وبيانُ ذلك بما يلي:

التناقضُ عند النصارى:

التناقضُ عندهم يرجعُ إلى ما سبق مِن ضعفهم في التعامل مع مشكلة الشرِّ ومشكلة جهنَّم. وذلك أنَّ النصارى يذكرون أنَّ الإله هو المحبّة، ويركِّزون على أنَّ ديانتهم هي ديانة المحبَّة والودِّ والرحمة. ومع ذلك فإنَّ كتابهم المقدَّس ينصُّ جليًّا على أنَّ الإلهَ أمر بني إسرائيل بالإبادة الجماعية كما تقدّم.

والجمعُ بين الإيمان بأنَّ الربَّ هو المحبّة نفسها، وأنّه يأمر باستئصال أقوام بأكملهم، حتَّى حيواناتهم؛ فيه صعوبةٌ بالغة. ولهذا ركَّز دوكينز على هذه القضية في كتابه: وهم الإله، قبل إثارة شبهة الربط بين الدين والعنف.

وهذه المسألة تنسفُ جميعَ الردود الجيِّدة السابقة للنصارى؛ لأنَّ النصارى يسعون إلى فكِّ الارتباط بينَ الدين والعنف والادِّعاء أنَّ دينهم هو دين المحبة، ولكن هذه النُّصوص في كتابهم المقدَّس تصرِّح أنَّ الربَّ نفسه أمر بهذه الإبادة الجماعية.

التناقضُ عندَ الملاحدة الجدد:

قد تقدَّم مرارًا أنَّ حركة الإلحاد الجديد بدأت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمر، وأنَّها أشبهُ ما تكون بردَّة فعلٍ للعنف الذي مورس باسم الدين. وقد يتوقّع منهم أنهم ضدَّ

كلِّ أنواع والعنف وأشكاله. ولكنَّ الواقع ليس كذلك. بل أيّد ريتشارد دوكينز كريستوفر هينشن وسام هاريس على ما سمِّي بالحرب على الإرهاب بعد ذلك[١].

وقد نشرَ معهد واتسون للشئون العامة والدولية (Watson Institute for In-ternational and Public Affairs) التابع لجامعة براون (Brown University) الأمريكية بحثًا بعنوان: "إيجاد اللاجئين: النزوح الناجم عن حروب الولايات المتحدة بعد ١١ سبتمبر" (Creating Refugees: Displacement Caused by the Unit-ed States' Post - ٩ / ١١ Wars) عام ٢٠٢٠م، وذكرَ الباحثون أنَّه قتل وجرح ملايين من البشر في أربع دولة بسبب حرب الولايات المتَّحدة على الإرهاب، وقد تشرَّد بسببها ما بين ٤٨ - ٥٩ مليون شخص[٢]. فدعاةُ الإلحادِ الجديد يتباكون على مَن قُتل في أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي راح ضحيتَها أقلُّ من ثلاثة آلاف شخص، ثمّ أيَّدوا هذه الحرب المدمّرة التي مات وجرح فيها الملايين.

فكلٌّ من النصارى والملاحدة الجدد يتظاهرون بأنّهم ضدَّ جميع أشكال العنف، ولكنَّ الكتاب المقدَّس عندَ النصارى يأمر بالإبادة الجماعية، ودعاة الإلحاد الجديد يؤيِّدون الحروب المدمّرة. وهذا هو التناقض بعينه.

وأمّا المسلم، فإنَّه يقرُّ بأنَّ الجهاد شعيرة من شعائر الدين، ولكنه يعتقد أنه ليس المقصودُ منه استئصالَ الكفّار بأكملهم؛ بل المقصود الأعظم هو دعوتهم إلى الإسلام؛ فـ(كان رسولُ الله (ﷺ) إذا أمّر أميرًا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومَن معه من المسلمين خيرًا، ثمَّ قال: اغزوا باسْم الله في سبيل الله، قاتلوا مَن كفر

---

(١) انظر المقال:

Why the arguments of the 'New Atheists' are often just as violent as religion

الذي جمع أقوالهم في هذه المسألة على الرابط:

https://www.kcl.ac.uk/new-atheists

(٢) البحث منشور على الرابط:

https://watson.brown.edu/costsofwar/files/cow/imce/papers/2020/Displace-ment_Vine%20et%20al_Costs%20of%20War%202020%2009%2008.pdf

بالله، **اغْزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا**، وإذا لقيت عدوَّك مِن المشركين، فادْعُهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيَّتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكفَّ عنهم، **ثمَّ ادْعهم إلى الإسلام، فإنْ أجابوك، فاقبلْ منهم، وكفَّ عنهم، ثمَّ ادعهم إلى** التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إنْ فعلوا ذلك فلهم ما للمُهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإنْ أبوا أن يتحوَّلوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعرابِ المسلمين، يجري عليهم حكمُ الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإنْ هُم أبوا فسَلْهم الجزية، فإنْ هُم أجابوك فاقبَل منهم، وكفَّ عنهم، فإنْ هُم أبوا فاستعنْ بالله وقاتلهم)[1].

وفي هذا الحديث دليلٌ على أنه ليس المقصود مِن قتال المشركين: قتلهم كلّهم، بل يدْعون إلى الإسلام أوّلًا، ثمَّ إلى الجزية، والخيار الثالث والأخير هو قتالهم. وفي الحديث بيانٌ لجملةٍ من آداب الحرب، مثل النهي عن الغلول، والغدر، والتمثيل، وقتل الأولاد. فلا بدَّ إذًا من إدراك أنَّ الجهاد في الإسلام وسيلةٌ لنشر الخير والهداية والنور في العالم، وإزالة كلِّ ما يمنع من ذلك، وليس هو غاية في نفسه.

وفرقٌ بين مَن يقرُّ بشعيرة الجهاد مع ضوابطه الصارمة، وبين من ينافق ويتظاهر بأنَّ دينَه ضدَّ العنف مع اشتمال كتابه المقدَّس على الإبادة الجماعية، أو من ينكر على الحروبِ الدينية ويحثُّ على الحروب المدمّرة بحجة محاربة الإرهاب. فالإسلام دينُ الوضوح والصراحة، وبعيد مَن نفاق النصارى والملاحدة الجدد.

وبقيَ التَّنبيه على أنَّ مَن قتل وأرهب من المسلمين قد لا يفعل ذلك باسْم الدين، وإنَّما أوتي في الغالب من قبَل فهمِه الخاطئ لأحكام الإسلام؛ فهو مَن يتحمَّل سوء فعله لا الإسلام. ثمَّ ينبغي أيضًا إدراك أنَّ أولى وأعظم من تصدى لهؤلاء الغلاة هم المسلمون، بل علماؤهم؛ فلم لا يذكر دعاةُ الإلحاد الجدد أنَّ الإسلام هو الذي دعا علماء المسلمين إلى التصدّي لتلك الشرور التي يتباكون عليها!

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٣١)، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، من حديث بريدة t.

المبحثُ الخامس

ردودُهم على شبهةِ مصير الجاهل

هذا المبحثُ يتناول سؤالَ الملاحدة: ماذا سيحصل في الآخرة بالذي لم يسمع بالرسالةِ الإلهية؟ وحسبَ المعتقد الألوهي فإنَّ الإله عليم بحالهم وقادر على إيصال الرِّسالة إليهم، وينتج مِن ذلك السؤال: هل من الرحمة أن يعاقبهم رغم جهلهم؟ هذه خلاصةُ الشبهة، وكما هو ظاهرٌ فإنّها تشبه مشكلةَ الشَّر من ناحية، كما أنّها تتعلّق بمشكلةِ جهنم. ولكنْ رأيت مِن المناسب أنْ أوردَ هذا المبحث في آخر هذه الرسالة، لأنَّ الشبهة تتعلَّق بمصير الجاهل، فكأنّها آخرُ ما يمكن أن يتمسّك به الملاحدة بعد أنْ أقيمت الحجةُ عليهم. وكما سيتبيَّن خلال هذا المبحث فإنَّ هذه الشبهة داحضة.

وبحسبِ التتبُّع والاستقراء، فإنَّ الملاحدة لا يستخدمون هذه الشبهة كثيرًا، وإذا أوْردوها فإنهم يذكرونَها بطريقة عاطفية. وهذا هو سببُ إيرادها ضمن الشبهات العاطفية. وقد قسَّمتُ هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: مواقفُ النصارى من مصير الجاهل.

الفقرةُ الثّانية: بيانُ شبهة الملاحدة المتعلقة بمصير الجاهل.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: مصير الجاهل.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: مصير الجاهل.

الفقرةُ الأولى: مواقفُ النَّصارى من مصير الجاهل:

الكتابُ المقدَّس لدى النصارى مُشتمل على كتبٍ ورسائل مختلفة، قد ألّفها مؤلّفون كثيرون عبرَ فترةٍ زمنية طويلة، ثمَّ جُمعت في كتابٍ واحد. ولا يُعرف كثير عن أكثر هؤلاء المؤلفين، ولكن مما لا شكَّ فيه أنَّ آراءهم اللاهوتية لم تكن متّفقة[١].

وهذا مِن أسباب اختلاف الفرق النصرانية فيما بينها في قضايا عقدية عديدة. ومن هذه القضايا العقدية: مصيرُ الجاهل في الآخرة.

وقدِ اختلف اللاهوتيون النصارى الأوائلُ في هذه المسألة إلى أقوال متعددة، ولكن استقرَّ القولُ عند اللاهوتيَين أغسطين وتوما الأكويني إنه يجب معرفة المسيح قبل الموت، وإلّا كان مصير الإنسان إلى النار[٢].

ذكرَ البروفسور وليام لاين كرايغ والبروفسور جي بي مورلاند أنَّ الاعتقاد أنَّ الديانة النَّصرانية هي الطريق الوحيد للخلاص تسمّى بـ"الخصوصية المسيحية" (Christian Particularism)، واستقرَّ هذا الاعتقاد بين النصارى، وكان سائدًا في القرون الوسطى. ولكنَّهما ذكرا أنَّ هذا الاعتقاد ضعُفَ معَ ما يسمى بتوسُّع أوروبا واكتشافات الرحّالة بينَ ١٤٥٠ حتى ١٧٥٠م. فخلالَ رحلاتهم، وصلوا إلى حضارات جديدة، وتمَّ اكتشافُ عوالم لا تعرف شيئًا عن النصرانية. وكان الإدراك أنَّ جزءًا كبيرًا من العالم يقع خارجَ حدود النصرانية له تأثير مزدوج في تفكير الناس الديني. وبيّن البروفسور وليام لاين كرايغ والبروفسور جي بي مورلاند أنَّ هذا التأثير كان من وجهين:

---

(١) انظر بيان البروفسور بارت إيرمان لهذه المسألة في المقطع:

Bart Ehrman on Bible Authors

وهو منشور على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=pDfYA21lDic

(٢) انظر المقال: The Perennial Debate, وهو منشور على الرابط:

https://www.christianitytoday.com/ct/٢٠٠٠/aprilweb-only/١٢,٠a.html

الوجهُ الأوَّل: أنَّ الناس مالوا إلى جعل المعتقدات الدينية نسبية. وكان مِن الواضح أنه بعيدًا عن أنْ تكون النصرانية الدينَ العالمي للبشرية، فإنّها كانت محصورةً إلى حدٍّ كبير في أوروبا الغربية، وهي جزءٌ صغير من العالم فقط. وبدا لبعض الناس أنه لا يوجد دينٌ يمكنه الادِّعاء بالصلاحية العالمية. فظهر لهؤلاء المتأثّرين بالاكتشافات أن لكلِّ مجتمع دينَه الخاص الذي يلائم احتياجاته الخاصة.

الوجهُ الثّاني: أنَّهم رأوا أنَّ ادِّعاء النصرانية بأنها الطريق الوحيد للخلاص يبدو ضيقًا وقاسيًا[١].

واستغلَّ فلاسفةُ التنوير مثل: فولتير هذه الأجواء، واستهزأوا بالنصارى بذكر أنه يوجَد ملايين من الصينيين سوفَ يدخلون النار بسبب عدم إيمانهم بالمسيح، مع أنهم لم يسمعوا به أصلًا. وحسبَ ما وقفتُ عليه، فإنَّ سخرية فولتير بداية ظهور شبهة: مصير الجاهل. وكانت شبهةً عاطفية، سُخريةً بالديانة النصرانية أكثرَ من كوْنها اعتراضًا على وجودِ الخالق[٢].

وفي القرن العشرين تغيَّرت التركيبةُ السكانية في الغرب كثيرًا، وازداد عددُ المعتنقين لدياناتٍ مختلفة، وهُم يعيشون جنبًا إلى جنب مع الحديث عن التعدّدية الدينية في المجتمعات الغربية وتقبُّل الآخر. وهذا الأمرُ جعل بعض اللاهوتيين النصارى يعيدون النظرَ في المعتقد التقليدي في الخصوصية المسيحية، ومصير غير النصراني في الآخرة[٣].

وقد ذكر بعضُ الباحثين أنَّ النصارى اختلفوا إلى ثلاثة أقوال رئيسة في هذه المسألة:

---

(١) انظر: Philosophical Foundations of a Christian Worldview (616).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر المقال:

A Three-Pronged Defense of Salvific Exclusivism in a World of Religions

وهو منشور على الرابط:

http://www.leaderu.com/theology/salvific.html

القولُ الأوَّل: التفرُّدية (Exclusivism). وخلاصة هذا القول: إنه لا يمكن الخلاصُ إلّا عن طريق العلم بالمسيح ورسالته. ومن لم يؤمن بالمسيح فإن مصيره إلى النار.

القولُ الثّاني: التعدُّدية (Pluralism). وخلاصته: أنَّ جميع الديانات الكبيرة تقدِّم طرقًا للخلاص والعلم بالحقيقة الإلهية.

القولُ الثّالث: الإجمالية (Inclusivism). وهو قولٌ وسط بين القولين الأوّلين. وخلاصته: أنّه لا بدَّ من الإيمان بالوحي الخاص الذي جاء به المسيح، كما أنه لا بدَّ من الإيمان بألوهيته، وأنَّه مات من أجل ذنوب البشر. ولكنَّ الجاهل الذي لم يسمع بالمسيح مخاطب بالاستجابة للوحي العام. ومقصودُهم بالوحي العام: الإيمان بوجود الله وعبادته[1].

أمّا القولُ الأوَّل فهوَ القول التقليدي لدى النصارى بعد أغسطين حتى عصر التَّنوير، ولا يزال كثيرٌ من اللاهوتيين المدافعين عن النصرانية يتبنون هذا القول، بل هو قولُ معظم الإنجيليين من البروتستانت المحافظين والأصوليين. والقول الثاني يتفرّع إلى أقوالٍ متعدِّدة، ويتبنّاها بعضُ فلاسفة النصارى المعاصرين. وأمّا القولُ الثالث فهو ما ذهبَ إليه الكاثوليك بعد المجمع الفاتيكاني الثاني في الستينيات من القرن الماضي، وهو قولُ كثير من البروتستانت غير الأصوليين[2].

وشبهةُ مصير الجاهل تتوجَّه في المقام الأوَّل إلى القائلين بالقول الأوّل، لأنَّهم يشترطون الإيمانَ بالمسيح للخلاص من النار ولدخول الجنة. ولا شكَّ أنه يوجد

---

(١) انظر:

The Salvation of the Unevangelized: What the Literature Suggests (2-3), by: Robert A. Alstadt and Enoch Wan

وهو بحث إليكتروني منشور على هذا الرابط:

http://www.enochwan.com/english/articles/pdf/The%20Salvation%20of%20the%20Unevangelized.pdf

(٢) انظر المقال:

A Three-Pronged Defense of Salvific Exclusivism in a World of Religions

عددٌ كبيرٌ من الناس لم يسمعوا بالمسيح، فيتوجَّه السؤالُ إليهم: كيف يعاقب هؤلاء لعدم إيمانهم به، رغم جهلهم؟

والشبهةُ لا تتوجَّه إلى القائلين بالقول الثاني، لأنهم لا يشترطون الإيمانَ بالمسيح إطلاقًا، بل جميعُ الديانات طرق وسبلٌ إلى الجنة وللخلاص من النار.

وأمّا القائلون بالقول الثالث، فيمكن توجيهُ الشُّبهة إليهم من ناحية، وهي أنَّ الإله قد يسَّر السبلَ والطرق للإيمان لمن عاش في الدول النصرانية حيث تقام عليه الحجة التَّفصيلية - في نظرهم -. وأمّا الاستجابة للوحي العام فهي أمرٌ غامض عند النصارى. وقد ذكرَ البروفسور وليام لاين كرايغ أنّه يتمنى أنه يوجَد أناس استجابوا لهذا النوع من الوحي - وأنَّ أرسطو منهم على سبيل المثال -، ولكن مَن تأمَّل دلالات كتابهم المقدّس فإنَّه يُفهم أنّ عددَ هؤلاء قليل جدًّا[1].

الفقرةُ الثّانية: بيانُ شبهة الملاحدة عن مصير الجاهل:

ظهرتْ شبهة: مصير الجاهل تدريجيًّا في عصري النهضة والتنوير. وكان فولتير يوردُ هذه الشبهةَ على سبيل الاستهزاء والسخرية من المعتقد النصراني. ولا شكّ أنَّ هذه الشُّبهة مؤثِّرة في النصارى حتى إنَّها جعلت بعضهم يعيدون النظر في معتقداتهم، بل إنَّ الكنيسة الكاثوليكية غيّرت رأيها في المسألة.

فهذه الشبهةُ أزمةٌ في داخل الصفوف النصرانية، ويتأثّر بها كثير من النصارى. ويعلم دعاةُ الإلحاد أنَّ هذه المسألة نقطة ضعف عند النصارى، فيشكّكونهم في عقائدهم بإثارتها. ومِن الأمثلة على ذلك ما قاله سام هاريس في مناظرته مع البروفسور وليام لاين كرايغ عن الأسس الأخلاقية للإلحاد والنصرانية: «... والأسوأ من ذلك، مِن وجهة نظر الدكتور كرايغ، فإنَّ معظم هؤلاء الناس - وكثير منهم بالتأكيد - سيذهبونَ

---

(١) انظر المقطع:

How Will God Judge Someone Who Has Never Heard the Gospel

وهو منشور على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=cBmLTpem7tw

إلى الجحيم لأنهم توجَّهوا بصلاتهم إلى الإله الخطأ. فكّر في ذلك! حسنًا، بدون أيِّ خطأ من جانبهم، فقد وُلدوا في ثقافةٍ خطأ، تعلّموا منها الدين؛ ففاتَهم الوحي. حسنًا، يوجد ٢,١ مليار شخصٍ في الهند في هذه اللحظة. معظمهم من الهندوس. وعليه، فإنَّ معظمهم مشركون. حسنًا، في عالم الدكتور كرايغ - بغضِّ النظر عنْ مدى خيرية هؤلاء الأشخاص - فإنهم محكومٌ عليهم بالخسارة. إذا كنت كذلك، إذا كنتَ تدعو إله القرد هانومان فأنتَ محكوم عليك. حسنًا، ستتعرَّض للتعذيب في الجحيم إلى الأبد. الآن، هل هناك أدنى دليلٍ على ذلك؟ لا. ما في دليل، ولكن قيل ذلك في مرقس ٩، ومتى ١٣، والرؤيا ١٤ [١]...

حسنًا، لقد خلقَ الإله العزلةَ الثقافية للهندوس. لقد هَندَسَ ظروف موتهم حتى جهلوا الوحي، ثمَّ خلق عقوبةً لهذا الجهل، وهو الخلود في النار بعذاب واعٍ. حسنًا، من ناحيةٍ أخرى، فحسبَ الدكتور كرايغ، فإنَّ القاتل المتسلسل العادي في أمريكا، الذي قضى حياتَه في اغتصاب وتعذيب الأطفال. ما عليه سوى القدوم إلى الإله - تعال إلى يسوع - في محكوميته... وسيقضي له بالخلود في الجنَّة بعد الموت. هناك شيء واحد يجبُ أن يكون واضحًا تمامًا بالنسبة لك: هذه الرؤية للحياة لا علاقة لها مطلقًا بالمساءلة الأخلاقية»[٢].

فالبروفسور كرايغ ناقشَ هاريس في مسألة: الأخلاق الموضوعية والمساءلة عن التَّجاوزات الأخلاقية في الآخرة. فأورد هاريس شبهة: مصير الجاهل أثناء النقاش. وحاولَ أن يبرهن بطريقة عاطفية أنَّ محاسبة الجاهل بالوحي في الآخرة بالعذاب الأبدي في النار منافٍ للعدل والرحمة. وهذه المناظرة اشتهرت كثيرًا في الغرب، وعدد مشاهداتها يزيدُ عن ستة ملايين[٣]، إضافة إلى أنَّها مترجمة إلى اللغة الغربية

(١) يشير هاريس إلى النصوص التي يستدلّ بها النصارى على هذه المعتقدات من كتابهم المقدّس.

(٢) المناظرة:

Is the Foundation of Morality Natural or Supernatural? The Craig-Harris Debate

وهي مفرّغة على الرابط.

(٣) عنوان المناظرة في يوتيوب: The God Debate II: Harris vs. Craig, وهي منشورة على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=yqaHXKLRKzg

بعنوان: الإلحاد بين قصورين[1]. وعليه، فإنَّ هذه الشبهة انتشرت، ولا بدَّ من الردّ عليها.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: مصير الجاهل:

قد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة من أوجه عديدة، أكتفي بذكر أربعة منها:

الوجهُ الأوَّل: تحويلُ الشبهة العاطفية إلى شبهة منطقية، مع الردِّ عليها:

أظهرَ فولتير هذه الشبهةَ في صورة الاستهزاء والسخرية، ثمّ طرحها سام هاريس بطريقةٍ عاطفية. ولكنَّ السخرية والاستهزاء ودغدغة العواطف والمشاعر لا تعتبر اعتراضًا حقيقيًّا على وجودِ الخالق، أو حتى في الردِّ على معتقد ديني. لا شكَّ أنَّ كثيرًا من الناس عندَهم حساسية، ويتأثَّرون بالشبهات العاطفية، ولكنَّها ليست حججًا. ولهذا، فإنّه قد يكونُ من المفيد أنَّ الذي يردُّ على الشبهات العاطفية أن يصيغها بصياغة منطقية حتى يرى المتأثّر أنَّ ما يظهر في صورة الحجة ليست بحجة في الحقيقة.

وهذا ما فعله البروفسور وليام لاين كرايغ والبروفسور جي بي مورلاند في تعاملهما معَ هذه الشبهة؛ حيث ذكرَا أنَّ صاحب هذه الشبهة يزعم في الحقيقة أنه لا يمكن الجمعُ بين عبارتين:

العبارةُ الأولى: الإله ذو قدرةٍ مطلقة، ويحبُّ الجميع.

العبارةُ الثانية: بعضُ الناس لم يسمعوا بالإنجيل، فيكون خاسرًا في الآخرة بسبب هذا.

---

(١) قام مركز دلائل بترجمة هذه المناظرة ونشْرها بالكامل - بما في ذلك ترجمة شبهة هاريس -. ومع خطورةِ هذه الشبهة لم يتمّ التعليق عليها إلا بتسعة أسطر في الحاشية عن إقامة الحجة. انظر: الإلحاد بين قصورين (٥٩).
وأمّا البروفسور كرايغ فلم يردّ على هذه الشبهة في المناظرة إلا ببيانه أنّها ليست محل النقاش في مناظرته، ثمَّ نصح بالرجوع إلى موقعه التنصيري: The Reasonable Faith. الإلحاد بين قصورين (٦٧ - ٦٨).
ولا شكَّ أنّ ترجمة شبهة عاطفية كهذه مع الردّ المختصر في الحاشية من الخطورة بمكان، ويتوجّب الردُّ التفصيلي عليها.

وحيث إنَّ الجمع بين العبارتين ليس مستحيلًا منطقيًّا، ولا يوجد تعارض مطلق بينهما؛ فلا بدَّ أن يفترض صاحبُ الشبهة أنَّ هناك بعض المقدّمات الضمنية الأخرى، مثل:

المقدِّمة الضِّمنية الأولى: إذا كان الإلهُ ذا قدرة مطلقة، فإنه يمكنه خلقُ عالم يسمع فيه جميعُ الناس بالإنجيل. وعليه، فإنهم يصلون إلى الخلاص[1] بحرّية.

المقدِّمة الضِّمنية الثانية: إذا كان الإلهُ يحبُّ الجميع، فإنه يفضّل وجود عالم يسمعُ فيه جميعُ الناس بالإنجيل ويصلون إلى الخلاص بحرّية.

ثمَّ ردًّا على المقدّمة الضمنية الأولى بأنَّ الإله يقدر على خلق أيِّ عالم، ويقدر أنْ يهيئ الظروفَ للجميع بأنْ يسمعوا بالإنجيل. ولكن، مادام أنَّ البشر عندهم إرادة واختيارٌ فلا ضمان أنَّ جميعهم سيصلون إلى الخلاص. بل بالعكس فقد يكون كثيرٌ منهم يرفضونَ الإيمان ويضلُّون الطريق. وعليه، فإنَّ هذه المقدّمة الضمنية ليست صحيحةً بالضرورة.

والردّ على المقدِّمة الثانية هي أنها ليست صحيحةً بضرورة أيضًا؛ فقد يكون للإله وحِكم في عدم حلقه لمثل هذا العالم[2].

وتعليقًا على ما تقدَّم أقول: طريقةُ التعامل مع الشبهات العاطفية بتحويلها إلى صياغةٍ منطقية طريقةٌ جيِّدة؛ لأنَّها تكشف عن حقيقة الشبهة وجوهرها ومكمن الخلل فيها. والكلامُ العاطفي قد يحجب الإنسانَ عن إدراك حقيقة ما يسمعه ويتأثّر به لا شعوريًّا. ولهذا يمكن الاستفادةُ من طريقة البروفسور كرايغ والبروفسور مورلاند في التعامل معَ هذه الشبهة، وغيرها من الشبهات العاطفية.

وأمّا طريقتهما في الردِّ مع هذه الشبهة بعينها، ففيها مشكلتان أساسيتان:

المشكلةُ الأولى: أنَّ كلامهم منصبٌّ على النصرانية ومعرفة الإنجيل. ومقصودهم بالإنجيل: رسالة المسيح التي حرَّفها بولس، ثمَّ تطوَّر إلى ما يُعرف

---

(١) بمعنى أنهم يدخلون الجنة وينجون من النار في زعمهم.

(٢) انظر: Philosophical Foundations of a Christian Worldview (621 - 623)

اليوم بالديانة النَّصرانية. وهذا دينٌ وثني لا علاقةَ له بالمسيح، ولا علاقة له بالكتاب المنزَّل عليه المسمَّى بالإنجيل. وعليه، فإنَّ هذه الديانة لا توصل أحدًا إلى الجنة.

المشكلةُ الثّانية: أنَّ هذا الكلام مبنيٌّ على العقيدة النصرانية التي تزعم أنَّ الإله يحبُّ جميعَ الناس بأعيانهم. وقد تقدَّم الردُّ على هذه العقيدة الفاسدة في تقييم ردودهم على مشكلة الشَّر. وهذا مِن أسباب استشكال هذه الشبهة أصلًا. وإذا أضيف إلى ذلك الموقفُ التقليدي مِن مصير الجاهل بالإنجيل، فلا يستغرب أنَّ بعضَ النصارى يتأثَّرون بهذه الشبهة.

وأمَّا المسلم، فلا يعتقد أنَّ الله - تبارك وتعالى - يحبُّ جميعَ الناس، بل يحبُّ المؤمنين المطيعين، ويبغضُ الكافرين ويسخط عليهم. ومع ذلك، فإنَّه لا يعذِّب أحدًا إلا بعد قيامِ الحجة عليه. كما سيأتي بيانُه بالتفصيل في نهاية المبحث - إن شاء الله -. وفي ظلِّ المعتقد الإسلامي تزول هذه المشكلة من أساسها.

- **الوجهُ الثّاني: الردُّ على التصوُّر الخاطئ للشبهة:**

تناقش رجلٌ نصراني مع البرفسور جريج كوكل[1] وذكر الرجل أنّ أخاه ارتدَّ عن النصرانية بسببِ شبهة: مصير الجاهل. فسأله كوكل: «ما هي حقيقة المشكلة عنده؟» فقال الرجل: «إنَّ معاقبةَ الإنسان بسبب ولادته في بقعة من الأرض لم تصله الرسالة يُعتبرُ ظلمًا». فبيَّن كوكل أنّه لا يعاقَب إنسانٌ بسبب البقعة التي وُلد فيها، وإنّما يحاسَب بسبب أعماله. ثمَّ سأل كوكلُ الرجلَ: «فهل هؤلاء الذين سيحاسَبون قد قاموا بأي خطايا وذنوب في حياتهم؟» فكان جوابُ الرجَل: «نعم». فذكر كوكل أنّهم لو أذنبوا في اليوم عشر مرّات، وعاشوا خمسينَ سنة،

---

(١) جريج كوكل (Greg Koukl): بروفسور الدفاع عن النصرانية في جامعة بيولا بالولايات المتَّحدة. وقد ألّف عددًا من الكتب وناظر كبار الملاحدة. انظر:

https://www.str.org/greg-koukl

فقد أذنبوا مئات الآلاف من المرّات. وهي هذه الذنوبُ التي سوف يحاسبون عليها[١].

خلاصةُ ردِّه على مَن ينشر هذه الشبهة: أنّ لديهم تصوّرًا خاطئًا عن حقيقة المحاسبة. فلا يحاسب أحدٌ بسبب المكان الذي وُلد أو عاش فيه، وإنما يحاسَب بسبب ما فعله من الذنوب والسيئات والآثام في حياته.

وتبيين هذا الفرق مُهمٌّ لأنَّ الملاحدة مثل: سام هاريس يلبِّس على الناس في هذه القضية؛ فقد قال في مناظرته مع البروفسور كرايغ: «فإنَّ معظم هؤلاء الناس - وكثير منهم بالتأكيد - سيذهبونَ إلى الجحيم لأنهم توجَّهوا بصلاتهم إلى الإله الخطأ. فكّر في ذلك! حسنًا، **بدون أيِّ خطأ من جانبهم، فقد وُلدوا في ثقافة خطأ**، تعلّموا منها الدين ففاتهم الوحي».

فخلطَ في كلامه بينَ ولادتهم في ثقافةٍ خطأ وبينَ توجُّههم بالصلاة إلى آلهة الهندوس. ولا شكَّ أنَّ ولادتهم في الهند لا تعتبر خطأً منهم - كما قال هاريس -، وإنما خطؤهم ما قاموا به من الأعمال، وعلى رأسها: الشركُ بالله تعالى. فعندما يطرح الملحدُ هذه الشبهة فلا بدَّ من تبيين هذا الفرق، وإزالة هذا التلبيس. وقد أصاب جريج كوكل في ذلك بجوابه، إلّا أنَّ الإشكال في جوابه أنّه خصَّص كلامه عن الذنوب والآثام التي قامَ بها هؤلاء. وأمّا حسبَ مُعتقد المسلم، فلا يخلّد أحدٌ في النار بسبب الذنوب والآثام، وإنما يخلَّد في النار بسبب كفره بشرطِ إقامة الحجة الرسالية عليه. ثمّ تكون الذنوبُ من أسباب زيادة العذاب. وأمّا المسلم الذي أصاب ذنوبًا لم يتبْ منها فإنّه تحتَ مشيئة الله؛ إن شاء عذّبه وإنْ شاء عفا عنه.

---

(١) انظر: المقطع:

Greg Koukl Responds to the Problem of the Unevangelized

وهو في موجود على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=8Ehx_CeYAI0

- **الوجهُ الثّالث: فهمُ الجواب عن الشبهة في ظلّ العدل الإلهي:**

ذكرَ دانيال ماريتز [(١)]أنه لا يمكن فهمُ هذا السؤال بدون الاعتقاد أنَّ الإله هو الحكمُ العدل، وأمّا الإنسانُ فلا يمكن أن يصلَ إلى كمال العدل الموضوعي[(٢)]. وذلك أنَّ الإنسانَ يحكم بناءً على منظوره الشخصي، وقد يؤثِّر في حكمه على الآخر ما يراه من الأمورِ الظاهرة. وأمّا الإله فإنَّ عدله موضوعي، ولا يحكم على الإنسان بسبب الظاهر فقط، بل بسبب ما في قلبِه أيضًا. وهذا لا يتأتى للإنسان[(٣)].

وذكرتْ أليسيا وود[(٤)] أنَّ هذه الشبهة مبنية على أنه سيأتي أناس يوم القيامة ويقولون: «ما كنت أعرف أيَّ شيء!» بل بالعكس، لعلهم يقولون: «كان المفترض علينا أن نسمع، وكان المفترضُ علينا تليينَ قلوبنا، وهكذا. فالشبهة مبنيَّة على افتراض، ونحنُ لا نعلم ما سيقوله الناس يوم القيامة[(٥)].

---

(١) دانيال ماريتز (Daniel Maritz): المدافع عن النصرانية الأمريكي والمتخصِّص في نقد الإلحاد. لديه موقع قناة مشهورة في يوتيوب. انظر:
www.dlm-christianlifestyle.com

(٢) لا يخفى توسُّع القوم في التعبير عما يقوم بربّنا سبحانه من الصفات - كما مضى التنبيهُ عليه مرارًا - ومن هذا: وصف عدل الله بأنه «موضوعي». وهذا وصف لا دليل عليه عندنا - معشر المسلمين -، وإنما نصف عدله تعالى بالكمال المنزّه عن أي نقص.

(٣) انظر المقطع:
How will GOD JUDGE THOSE who have NEVER HEARD THE GOSPEL?
وهو منشور على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=yqJdVEE8aII

(٤) أليسيا وود (Alycia Wood): المدافعة عن النصرانية والمتخصّصة في نقد الإلحاد، وهي حاملة شهادة الماجستير في العدالة الاجتماعية. انظر:
https://www.rzim.org/speakers/alycia-wood

(٥) انظر المقطع:
What about People Who Die Not Ever Hearing the Gospel?
وهو منشور على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=60SS0XIFl2g

وهذا الجوابُ جيِّد ومُفيد في فهْم معاقبة الله للكافرين في جهنّم. فاللهُ تعالى يحكم بينَهم بعدله، وهو يعلم منهم كلَّ صغيرة وكبيرة في الظاهر والباطن؛ فهو عالمُ الغيب والشَّهادة، ويعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور. فعندما يسمع الإنسان هذه الشبهة، فعليه أن يطمئنَّ تمامَ الاطمئنان أن الله لن يعاقب أحدًا في النار إلا وهو يستحقّ ذلك؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٦ - ١٧]. قال الإمام الطبري (رحمه الله) عن المراد بـ(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ): «لا بخس على أحدٍ فيما استوجبه من أجر عمله في الدنيا، فينقص منه إن كان محسنًا، ولا حُمِل على مُسيء إثمُ ذنب لم يعمله فيعاقب عليه»[1]. بل سيحمَد الأولون والآخرون ربَّهم على حكمه العادل ذلك اليوم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥]. وقال العلامة السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «لم يذكر القائل مَن هو، ليدلَّ ذلك على أنَّ جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة»[2].

وما قالته أليسيا وود صحيحٌ أيضًا - وإن كان كلامها من وجهة نظر النصراني -. فأصحابُ الجحيم لا يعتذرونَ بعدم وصول الرسالة إليهم، بل يعترفون بأنهم لم يسمعوا ولم يعقلوا؛ قال تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٦ - ١١]. فالكفار يعترفون بذنوبهم وأنَّهم لم يستجيبوا للرسل. ولم يقل أحدٌ منهم: «لم تصلْنا الرسالة!». وبقيَ تنبيهٌ على أنَّ مما يؤخذ على كلامها عندنا

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠ / ٢٩٩ - ٣٠٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦٩٧).

- معشر المسلمين - : أنّنا نعلمُ كثيرًا مما سيقوله الناس يوم القيامة بما علّمنا الله ورسوله (ﷺ).

الوجهُ الرّابع: فهمُ الجوابِ عن الشبهة في ظلِّ العلم الإلهي المحيط:

تقدَّم في الوجه السابق أنَّ الله عالم الغيب والشهادة، وأنه يحكم على عباده بناءً على ما علمَه منهم. ولكنْ إضافةً إلى ذلك، فإنَّ الله يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون. وقد ذكرَ البروفسور كرايغ والبروفسور مورلاند أنّ الإيمان بهذا النوع من العلم الإلهي في ردِّهما على هذه الشبهة. وذلك أنّه قد يكون أنَّ الإله يعلم من هذا الشخص الذي لم يسمعْ بالإنجيل أنَّه لو سمع به، فإنه سيكفُر[1]. وبذلك، فلا تكون معاقبتُه ظلمًا.

ذكرَ الفيلسوف جريج كوكل في ردِّه على هذه الشبهة أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يحكمَ في هذه القضية؛ لأنَّه لا يمكنه أن يعلمَ عن حقيقة حال هؤلاء، وماذا سيفعلون لو وصلتْ إليهم الرسالة. فالذي يعلم ذلك هو الإله[2].

وذكر هذا النوع من العلم الإلهي في هذا المقام صحيح من ناحية، وغيرُ صحيح من ناحيةٍ أخرى. فلا شكَّ أنَّ الله متَّصف بهذا النوع من الله؛ قال اللهُ تعالى يقول: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقد أجاب النبي (ﷺ) عندما سُئل عن أولاد المشركين؛ فقال (ﷺ): «اللهُ إذ خلقَهم أعلم بما كانوا عاملين»[3].

---

(١) انظر:

Philosophical Foundations of a Christian Worldview (625)

(٢) انظر المقطع المشار إليه سابقًا:

Greg Koukl Responds to the Problem of the Unevangelized

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٨٤)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين.
وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٠)، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المشركين، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

فأجابَ النبي (ﷺ) عنْ مصير أولاد المشركين بعلمِ الله بما لم يكن لو كان كيف يكون. ولكنَّ هذا الجواب غيرُ صحيح من حيث إنَّ الله لا يجازي أحدًا بسبب ما علم منهم، وإنَّما يجازيهم بما قاموا به من الأعمال. فقد علَّق الإمام ابن القيم (رحمه الله) على الحديثِ المشار إليه سابقًا بقوله: «فهوَ سبحانه وتعالى يعلم القابلَ منهم للهدى، العاملَ به لو عاش، والقابلَ منهم للكفر، المؤثر له لو عاش، ولكن لا يدلُّ هذا على أنه يجزيهم بمجرَّد علمه فيهم بلا عملٍ يعملونه، وإنما يدلُّ على أنه سبحانه وتعالى يعلمُ منهم ما هُم عاملون بتقدير حياتهم»[1].

وسيأتي التفصيلُ عن قضيةِ إقامة الحجة والامتحان الأخروي في الفقرة الرابعة - إن شاء الله -.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة: مصير الجاهل:

شبهة: مصير الجاهل ليست منتشرةً في الخطاب الإلحادي المعاصر، ولكنّها موجودةٌ ومؤثِّرة إلى حد؛ فقد أدَّت إلى أزمة حقيقية في داخل اللاهوت النصراني بسبب بعض المعتقداتِ المنحرفة لديهم. ولهذا السبب لم يتَّفقوا على رأي واحد في هذه المسألة المهمَّة في بداية ظهور النصرانية. وبعدَ ذلك ظلَّ رأي التفرّدية سائدًا لحوالي ألف سنة، ثمَّ تراجعت فرقٌ كبرى مثل الكاثوليك عن هذا الرأي، وتبنّوا القول بالإجمالية الدينية، بينما ذهبَ بعضُ اللاهوتيين الآخرين إلى القول بالتعدّدية الدينية. وهذا الاضطراب راجع إلى التَّناقضات الكبيرة في كتابهم المقدَّس، كما تقدَّم في بداية المبحث، إضافة إلى تأثّرهم بالبيئة المحيطة بهم.

وردودُ علماءِ الغرب على هذه الشُّبهة عمومًا جيِّدة، ولفتوا الانتباهَ إلى بعض الأجوبةِ الوَجيهة. ولكنَّ المشكلةَ الكبرى أنَّ كلامهم في هذه المسألة متداخلٌ مع العقيدةِ النصرانية في مصير الجاهل. وهذه العقيدةُ تشبه العقيدة الإسلامية من بعض الجوانب، ولكنَّها تختلف عنها في جوانبَ أخرى مهمَّة. وهذه الجوانبُ التي تخالف

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٣٨٧)، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية (دار السلفية، الطبعة الثانية، ١٣٩٤ هـ).

فيها العقيدةُ النصرانية العقيدةَ الإسلامية في هذه المسألة، هي في الحقيقة جوانبُ الضعف عندَ النصارى، وجوانب القوَّة عند المسلمين. وأبرز هذه الجوانب ثلاثة:

- **الجانبُ الأوَّل: تحريفُ الديانة النصرانية:**

شبهةُ مصير الجاهل الموجَّهة ضدَّ النصارى تتعلّق بمصير الجاهل بالديانة النصرانية في الآخرة. وأتباعُ هذه الديانة ينتسبونَ إلى المسيح عيسى ابن مريم، ويعتقدون فيه الألوهية. وعليه، فإنَّ من أهمِّ العقائد النصرانية التي يشترطون الإيمان بها: ألوهية المسيح. ولكنَّ الإشكال الكبير في الديانة النصرانية أنَّ المسيح لم يعتقد ذلك في نفسه ولم يدعُ الآخرينَ إلى هذا المعتقد. وقد أخبر اللهُ تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

والمسلمُ يؤمن بذلك لأنَّه وردَ في القرآن بناءً على إيمانه بأنه وحيٌ من الله. ولكن حتَّى الباحثون المتخصِّصون في تاريخ النصرانية يعلمون أنَّ المسيح لم يعتقد أنه إله، ولم يدعُ الآخرين إلى هذا المعتقد. وقد ألَّف البروفسور بارت إيرمان(١) كتابًا بعنوان: «كيف صارَ يسوع الإله» (How Jesus Became God) في أكثر من ٤٠٠ صفحة، ودلَّل فيه ببراهين تاريخيةٍ أنَّ المسيح دعا الآخرين إلى أنه كان نبيًّا، ولم يدعهم إلى ألوهيته، بل لم يعتقد في نفسه أنه إله(٢).

---

(١) بارت إيرمان(Bart Ehrman): بروفسور التاريخ النصراني المبكّر الأمريكي، وقد ألّف عشرات الكتب العلمية في هذه المسألة. انظر:

https://www.bartdehrman.com/barts-biography/

(٢) انظر:

How Jesus Became God (85-128), by: Bart Ehrman, (Harp One, 2014)

ومِن هنا، تبرز مشكلةٌ عظمى في الدِّيانة النصرانية، وهي لوازمُ الحقيقة التاريخية الثّابتة بأنَّ المسيح نفسَه كان «جاهلًا» بألوهيَّته المزعومة. فوفقَ عقيدتهم الفاسدة سوف تنطبقُ عليه شبهةُ مصير الجاهل. وعقيدتُهم في الجاهل بألوهية المسيح - وفقَ مذهب التفرُّدية - أنَّه من أصحاب النار - والعياذ بالله -.

وهذه المشكلةُ ليست موجودةً في الديانة الإسلامية. فلا يمكن إنكار أنَّ نبينا محمدًا (ﷺ) جاءَ بالإسلام، ودعا الناسَ إلى الإيمان، وأقام الحجة على العباد. وأنّ العقيدة التي دعا الناسَ إليها محفوظة بالتواتر إلى يومنا هذا.

- **الجانبُ الثّاني: الاختلافُ بين الوحي العام والوحي الخاص:**

أحدُ الردود التي ذكرها النَّصارى على شبهة: مصير الجاهل هو أنّ الله أقام الحجة على العباد بالوحي العامِّ والوحي الخاصّ. ومَن لم يبلغه الوحي الخاص، فعليه أن يستجيبَ للوحي العام. والاستجابةُ للوحي العام قد تقودُ إلى الوحي الخاص. ويقصدون بالوحي العام: ما يشبه الإيمانَ الفطري بوجود الخالق وعبادته، ويقصدون بالوحي الخاص: ما وردَ في كتابهم المحرَّف. وهذا الجوابُ يمكن أن يستخدمه المسلم - كما سيأتي -، ولكنَّه مُشكل في الديانة النصرانية. وذلك للبُعد الواسع بين الوحي العام والوحي الخاص لديهم. تكلَّم البروفسور جون سانديرس - وهو من أنصار القول بالتعدُّدية في هذه المسألة - عنْ ذلك فقال: «إذا لم نكنْ نفكّر في موضوعات لم يعلن عنها الكتاب المقدَّس مباشرة، فلن يكون لدينا سوى قليل من اللاهوت؛ لن يكون لدينا عقيدةُ الثليث، ولا العقيدة بأنَّ يسوع له طبيعة بشرية وإلهية في الاتحاد الأقنومي»[1]. يقصد بذلك أنَّ أهمَّ المسائل اللاهوتية في الوحي الخاص لديهم: عقيدة التثليث، وطبيعة المسيح الإلهية والبشرية - كما يزعمون -. ومع أنَّ هذه المسائل هي أصلُ الأصول في اللاهوت النصراني، إلّا أنَّ الوحي العام لا يشير إليها أدْنى إشارة؛ بل الفطرة البشرية تتناقض معَ اللاهوت النصراني، وتنفِّر منها.

---

(1) No Other Name: An Investigation into the Destiny of the Unevangelized (17), by: John Sanders, (Wipf and Stock Publishers, 2001)

فلو عاشَ إنسان في مكانٍ منعزل، واهتدى بفطرته إلى أنَّ هذه المخلوقات لا بدَّ لها مِن خالق، وأنَّه مُستحقٌّ للعبادة، فقد استجابَ للوحي العام. ولكن لو سمع بعد ذلك بأنَّه توجد ديانةٌ تدَّعي أنَّ هذا الخالق واحد، ولكنه في الوقت نفسه ثلاثة أقانيم، وأنَّ هذه الديانة تدَّعي أنَّه وُجد إنسانٌ له طبيعة إلهية وطبيعة بشرية في آنٍ واحد، فلن يشعر هذا الإنسانُ بموافقة إيمانه الفطري لهذه العقيدة؛ بل هذا الإنسان سيشعر بأنَّ تلك العقيدةَ النصرانية تتنافى مع إيمانه الفطري.

ولكن، لو سمعَ هذا الإنسان نفسُه بالإسلام، وأنَّ هذا الخالق أرسل رسلًا - وآخرهم محمد (ﷺ) - لدعوةِ الناس إلى هذا الإيمان الفطري، فحينئذٍ ستقوده استجابته للوحي العام إلى الاستجابة للوحي الخاص.

ولهذه كانتْ شبهة: مصير الجاهل مشكلةً كبيرة عند النصارى؛ لأنَّ الجاهل بالوحي الخاصِّ لم تقمْ عليه أيُّ حجة، بل الحجةُ القائمة عليه بالوحي العام سوف تُبعده عن النَّصرانية لو سمع بها، ولن تقرِّبه إليها. فلا نستغربُ حين يقول البروفسور وليام لاين كرايغ - كما سبق ذكرُه - أنَّ عددَ مَن يستجيب للوحي الخاص بناءً على الوحي العام قليل جدًّا.

الجانبُ الثَّالث: عقيدتُهم مبنيَّة على الخطيئة الموروثة:

النصارى الذين يتبنَّون مذهبَ التفرُّدية - الموقف التقليدي في مسألة مصير الجاهل - يعتقدون أنَّ الإنسانَ الذي لم يسمع بالمسيح، ولم يؤمن بألوهيته، وأنه افتدى نفسه من أجلِ البشرية[1] سيعذَّب في الآخرة. وهذا الاعتقادُ في مصير الجاهل مبنيٌّ على إيمانهم بالخطيئة الموروثة[2]. وهذه العقيدةُ اللاعقلانية من أغرب العقائد النصرانية. وأمّا في الإسلام، فإنَّ الإنسان لا يولَد مذنبًا، بل اللهُ - تبارك وتعالى - يقول في حديث قدسي: «وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمتُ عليهم ما أحللت لهم، وأمرتُهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»[3].

---

(١) وأما الاستجابة للوحي العام فبيّنت أنهم يقولون: إنه نادر جدًّا.

(٢) انظر المقال المشار إليه سابقًا: The Lostness of Mankind في بيان هذه المسألة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٦٥)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، من حديث عياض بن حمار المجاشعي (رضي الله عنه).

وإضافةَ إلى ذلك، فإنَّ الإنسان لا يعاقب بفعل غيره ولا يعذّب اللهُ أحدًا إلا بعد إرسالِ الرسل؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

قال العلامةُ السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «واللهُ تعالى أعدلُ العادلين، لا يعذّب أحدًا حتَّى تقوم عليه الحجةُ بالرسالة، ثمَّ يعاند الحجة، وأمّا مَن انقاد للحجة، أو لم تبلغْه حجةُ الله تعالى؛ فإنَّ الله تعالى لا يعذبه، استدلَّ بهذه الآية على أنَّ أهل الفترات، وأطفالَ المشركين؛ لا يعذِّبهم الله، حتَّى يبعث إليهم رسولًا لأنَّه منزَّه عن الظلم»(١).

وأمّا الذين لم تبلغْهم الحجةُ الرسالية في الدنيا إطلاقًا، وكانوا من أهل الفترة أو في حُكمهم، فقد اختلفَ العلماءُ في حكمهم في الآخرة. وقد نقل العلامة محمد الأمين الشنقيطي هذا الخلاف(٢)، ثمَّ قال: «الظاهرُ أنَّ التحقيق في هذه المسألة التي هي: هل يُعذر المشركون بالفترةِ أو لا! هو أنَّهم معذورون بالفترة في الدنيا، وأن الله يوم القيامة يمتحنُهم بنارٍ يأمرهم باقتحامها، فمَن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدّق الرسلَ لو جاءته في الدنيا، ومَن امتنع دخل النار وعذّب فيها، وهو الذي كان يكذِّب الرسلَ لو جاءته في الدنيا؛ لأنَّ الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل»(٣).

والحديثُ المشار إليه هنا هوَ قولُ رسول الله ﷺ: «يكون يوم القيامة رجلٌ أصم لا يسمعُ شيئًا، ورجلٌ أحمق، ورجلٌ هرم، ورجلٌ مات في فترة، فأمّا الأصم فيقول: رب، لقد جاء الإسلامُ وما أسمع شيئًا. وأمَّا الأحمقُ فيقول: رب، لقد جاء الإسلامُ والصبيان يحْذفونني بالبَعر، وأمّا الهرمُ فيقول: رب، لقد جاء الإسلامُ وما أعقل شيئًا، وأما الذي ماتَ في الفترة فيقول: رب، ما أتاني لك رسول، فيأخُذ مواثيقهم ليطيعنه،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان (٤٢٩).

(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣/ ٦٥ - ٧٤).

(٣) المصدر السابق (٣ / ٧٣).

فيرسل إليهم: «أنِ ادخلوا النار»، قال: فوالذي نفسُ محمد بيدِه لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا»[1].

وقال العلامةُ الشنقيطي عنْ هذا الحديث: «وهذا ثبتَ عن رسول الله (ﷺ) وثبوته عنه نصٌّ في النزاع؛ فلا وجه للنزاع ألبتَّة مع ذلك»[2].

فهذا يدلُّ على العدلِ الموجود في الإسلام في حكم أهل الفترة في الآخرة. وتبيّن من ذلك أنَّ شبهةَ مصير الجاهل التي تسبَّبت بأزمة في داخل اللاهوت النصراني، لا تعتبر مشكلة في ظل العقيدة الإسلامية.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٣٤٤)، (٤ / ٢٤)، من حديث الأسود بن سريع (رضي الله عنه)، وصحّح الألباني إسناده في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٤٣٤).

(٢) أضواء البيان (٣ / ٥٧٠).

المبحثُ السّادس
نقدُ ردودِهم على شُبهاتِ الملاحدة العاطفية

هذا الفصلُ يتناول ردودَ علماء الغرب على شبهات الملاحدة العاطفية. والشبهات المذكورةُ فيه هي: مشكلةُ الشَّر، ومشكلة جهنم، وشبهةُ سلب الإرادة، وشبهة الشرور المترتِّبة على وجود الأديان، وشبهة مصير الجاهل.

وبعضُ هذه الشبهات مثل: مشكلة الشَّر، وشبهة الشُّرور المترتبة على الأديان مُنتشرة جدًّا في النِّقاش بين الملاحدة وعلماء الغرب، بينما الشبهات الثلاث الأخرى أقلُّ انتشارًا. وحيث إنَّ النقاش عن الشبهتين الأوليين قويّ جدًّا في الساحة الفكرية والدِّينية في الغرب، فقد تكوَّنت لدى علماءِ الغرب خبرة طويلة في التعاطي معها. ولديْهم بعضُ الردود المتميِّزة في نقدِ هذه الشبهات، ويمكن الاستفادةُ منها إلى حدٍّ كبير. ومعَ ذلك، فلا يخلو كلامُ علماء الغرب في هذا الباب من بعض الخلل. ويتبيَّن ذلك خلالَ أربعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: قد ساهمَ اللاهوت النصراني في ظهور مشكلة الشرِّ، ومشكلة جهنَّم. وذلك لأنَّ اللاهوتيين النصارى يقرِّرون أنَّ الإله هو المحبة ويحبّ جميع الناس؛ فينشأ السؤال: لماذا يخلق العالمُ الذي فيه هذه الشُّرور كلّها، ولماذا يعذِّب غير المؤمنين في جهنَّم للأبد؟ ولا يستغرب أن يوجّه نحوَ هذا السؤال إلى اللاهوتيين النصارى بعد هذا التَّقرير. ولكن لا يمكن توجيهُ الشُّبهة بهذا الشكل إلى العقيدة الإسلامية، لأنَّ نصوصَ الكتاب والسنة تدلُّ على أنَّ الله لا يحبّ جميع الناس، بل يحب المؤمنين ويُبغض الكافرين. فعذابُه للكافرين معَ بُغضه إياهم موافقٌ للعقل السليم، بينما قول النصارى: إنَّ الله يعذِّب الكافرين للأبد مع حبِّه إياهم مخالف للعقل. فالمسلم يستطيع أن يقرِّر العقيدةَ الإسلامية السليمة في هذه المسألة، ويذكر

ردود علماء الإسلام المتميزة على هذه الشبهة إضافةً إلى بعض ردود علماء الغرب، وبالتالي تبطل الشبهةُ من أساسِها. وأمّا النصارى فإنَّهم يستطيعون ذلك مع وجود هذا اللاهوت الفاسد.

الوجهُ الثّاني: أنَّ كتابَ النصارى المقدَّس يحثُّ على عددٍ من الشرور كالإبادة الجماعية لأعداء بني إسرائيل. ولا يستغرب أنَّ الملاحدة استشكلوا هذه النصوص عند تقريرهم لمشكلة الشَّر، وشُبهة الشرور المترتِّبة على وجود الأديان. وإن كان هذا الأمرُ مُستشكلًا في كتابهم المقدَّس، فليست هذه مشكلة موجودة في الدين الإسلامي. فاللهُ تعالى يأمرُ بما فيه خير ومصلحة لعباده ولا يأمر بالشَّر.

الوجهُ الثّالث: قد تخبَّط الفلاسفة واللاهوتيون في إرادة الإنسان خبطَ عشواء، وحيث إنَّ هذه المسألة محيطةٌ بكثير من الغموض فلا يمكن الاهتداءُ فيها إلّا عن طريق الوحي المعصوم. وفي ظلِّ تلك الظروف ظهرت شبهة: سلب الإرادة. وإن كان لدى علماءِ الغرب كلامٌ جيِّد ومفيد في الردِّ عليها إلا أنَّ تقريراتهم في هذا الباب تميل إلى قولِ القدرية. ولهذا ينبغي للمسلم الذي يستفيدُ من ردودهم في هذا الباب أن يكون على حذرٍ شديد حتى لا تزلَّ قدمه.

الوجهُ الرّابع: أنَّ اللاهوت التقليدي لدى النصارى في مسألة مصير الجاهل في الآخرة ينصُّ على أنَّه يدخل النار، وإن لم يسمعْ بالوحي الخاص. وهذا اللاهوت كان مِن أسباب ظهورِ شبهة مصير الجاهل عند الربوبيين والملاحدة. وقد أعاد بعضُ النصارى النظرَ في هذا اللاهوت، كما أنَّ لديهم بعض الردود الجيّدة على هذه الشبهة يمكنُ الاستفادةُ منها. ولكنَّ هذه الشبهة لا تتوجَّه إلى العقيدة الإسلامية حيث إنَّها تنصُّ على أنَّ الله لا يعذِّب أحدًا إلّا بعد قيام الحجة الرسالية عليه.

الخاتمة

الحمدُ لله الذي بنعمتِه تتمُّ الصالحات، والصلاةُ والسلام على أشرف الأنبياء والمرْسلين؛ نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبِه، ومَن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقدِ انتهيتُ بحوْل الله وقوَّته مِن إتمام هذه الرسالة بعد أن أمضيت نحوًا من خمس سنواتٍ في البحث والكتابة. وقد استفدتُ من الرسالة فائدة عظيمة. وهذه الخاتمةُ تشتملُ على ثلاثة أمور:

الأمرُ الأوَّل: خلاصةٌ تقييمية.

الأمرُ الثّاني: تلخيصُ أهمِّ مباحث الرسالة.

الأمرُ الثّالث: التوصيات.

الأمرُ الأوَّل: خلاصةٌ تقييمية:

يحسُن أن أختمَ الرسالة ببيانِ خلاصةٍ تقييمية لموضوع الرسالة؛ أعني لردود علماءِ الغرب على الإلحاد، معَ إيضاح بعضِ المقارنات المفيدة، وهي خلاصة لما عايشته أثناءَ سنوات البحث.

- **أوَّلًا: أقسامُ ردود علماء الغرب:**

يمكن تقسيمُ ردودِ علماء الغرب على الإلحاد إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الحججُ العلمية القويَّة: ومِن الأمثلة على ذلك: حججُهم العلمية على وجودِ الله، مثل: الحجج المتعلقة بعلوم الفلك، والأحياء، والفيزياء، والكيمياء. فهذه الحججُ تستند إلى حقائقَ علميةٍ قطعية. وكلامُهم في هذه المسائل لم يختلط مع مُعتقداتهم الباطلة إلّا قليلًا. والحججُ العلمية على وجودِ الله مِن أقوى ما يستدلُّ بها على وجودِه سبحانه في مناقشةِ المتأثّرين بالخطاب الإلحادي، لا سيَّما وهم يعظِّمون

العلمَ التجريبي. عليه، فإنَّه يمكن الاستفادةُ من كلام علماء الغرب في هذا الباب كثيرًا لا سيَّما وأنَّ الغرب - كما لا يخفى - لهم السَّبق واليد الطولى في هذه العلوم في العصر الحديث. ولكن لا بدَّ من انتقاء الكلام الأنسب والأقوى.

القسمُ الثّاني: ردودُهم العلمية والعقلية المختلطة مع تصوّراتهم اللاهوتية والفلسفية: ومِن الأمثلة على ذلك: ردودُهم على النظريات العلمية مثل: نظرية التطوُّر، ونظريةُ الانفجار العظيم. وكذلك ردودُهم على أسس الملاحدة، وبعض شبهاتهم، مثل: المذهب المادي والعلموية، ومشكلة الشَّر.

فيمكنُ الاستفادةُ من المتخصِّصين في العلوم التجريبية مثل: الأحياء، والفيزياء، والكيمياء، وكذلك الاستفادةُ من المتخصِّصين في نظرية المعرفة، والمنطق. ولديهم ردودٌ مُفيدة على أسس الملاحدة ونظرياتهم وشبهاتهم. وإضافةً إلى ذلك: فإنَّ المتأثّر بالخطاب الإلحادي من أبناء المسلمين قد يقبَلُ ردودَ المتخصِّصين في هذه العلوم أكثر من ردود المتخصِّصين في العلوم الشرعية، وهذا واقع لا يُجحد. ومِن هنا تبرز أهمية الاستفادة منهم. ولكنْ في الوقت نفسه، فقد اختلطتْ هذه الردود بتصوّراتهم اللاهوتية والفلسفية مما يوجبُ الحذرَ في التعاطي معها. ولا بدَّ للمسلم أن يزنَ كلامهم بميزان الشرع المطهّر؛ فما كان مقبولًا قبله، وما كان مرفوضًا رفضه.

القسمُ الثّالث: الحججُ والردودُ الضعيفة: ومِن الأمثلة على ذلك: الحجة الوجودية، والحجة البراغماتية، وردودهم على شبهة: مصير الجاهل. فكلامهم في هذا البابِ مرفوض، ويغني عنها الحجج أو الردود التي ذكرها علماء الإسلام. وقد تُذكر من باب الردِّ على النَّصارى، وإظهار ضعفهم في مقابل الحجج والردود الإسلامية.

وبناءً على هذا التقسيم أرى أنَّ القول بعدم الاستفادة من كلام علماء الغرب مُطلقًا خطأ، كما أنَّ الاستفادة من كلِّ ما قالوه في ردودهم على الملاحدة بدون تمييز وتمحيص خطأ أيضًا؛ وبالتفصيل يوضع الحقُّ في نصابه.

- **ثانيًا: ضوابطُ الاستفادة من علماء الغرب:**

حسبَ دراستي لهذا الموضوع أرى أنَّ ثمة خمسةَ ضوابط رئيسة تجب مراعاتها في الاستفادة من ردود علماء الغرب على الملاحدة:

الضَّابطُ الأوَّل: أنَّ الأصلَ هو عدمُ استفادة المسلم من كلام الكفّار، وفي كلام علماءِ الإسلام غُنية في المسائل الدينية. ومتى وُجدت الحاجةُ ساغ النقل عنهم والاستفادة منهم. وإذا نقل المسلم كلامَهم فلا يجوز الإخلال بعقيدة الولاء والبراء، مثل: الترحُّم عليهم أو إظهار محبتهم.

الضّابطُ الثّاني: أن يكون المستفيدُ متأصّلًا في عقيدة أهل السنة والجماعة تأصيلًا جيِّدًا حتى يميِّز بين صحيح كلامهم وفاسده ومُجمله.

الضّابطُ الثّالث: أن يكون المستفيدُ على علم بالمعتقد الديني والانتماء الفكري الفلسفي للمُستفاد منه. فمَن لم يكن على دراية بذلك فقد ينقل عنه كلامًا دون أن يدركَ أنه يروّج لعقيدة دينية أو فلسفة باطلة.

الضّابطُ الرّابع: أن يكون لدى المستفيدِ إلمام بالعلوم التي ينقلها عنهم حتى يميِّز الحقائقَ العلمية عن النظريات أو الفرضيات؛ فلا يقبل كلّ ما قيل باسم العلم على أنه حقيقةٌ ثابتة.

الضّابطُ الخامس: أنْ يفهم المستفيدُ أنَّ علماء الغرب أنفسهم على مستويات مُتفاوتة في تخصُّصاتهم؛ فليس كلُّ مَن عاش في الغرب وتكلَّم باسْم العلوم يعدُّ من العلماء المتخصِّصين الذي يحتجُّ بأقوالهم. وعليه، فلا بدَّ أن يحسن انتقاء من ينقل عنهم.

- **ثالثًا: واقعُ السّاحة الدعوية المعاصرة:**

بعدَ مُتابعة طويلةٍ للساحة الدعوية الإسلامية في نقد الإلحاد ألاحظ أنَّ الواقعَ بين إفراطٍ وتفريط في الاستفادةِ من كلام علماء الغرب. فمَن عمل في مجال نقد الإلحاد، ولا يرجعُ إلى كلام المتخصِّصين الغربيين فقدْ تفوته فائدةٌ كبيرة، إضافة إلى أنّ المتأثّرين بالخطاب الإلحادي قد لا يقبَل كلامه.

وفي المقابل، فإنَّ مَن يقبل كلامَ الغربيين مطلقًا بدون تمحيص ونقد؛ فقد يتابعهم في أخطائهم العقديةِ والعلمية. وكلا الطريقين مذموم، وإن كان الثاني أخطرَ من الأوّل. فالأوَّل تفوتُه الفائدة، ولكنَّ الثاني يقع في أخطاء عقدية وعلمية. وهذا ملاحَظ عند عددٍ ممّن يتصدَّى لنقد الإلحاد في الساحة الدعوية اليوم مع الأسف الشديد.

ولهذا أرى أنَّ القيامَ بنحو هذه الدراسات العلمية المبنية على العرض والنقد معًا فيه فائدةٍ كبيرة، وكذلك الاستشهاد بكلام علماء الغرب في تخصّصاتهم في الأبحاث والكتب؛ أمرٌ مُستحسن إذا دعتِ الحاجةُ مع مراعاة الضوابط المذكورة. وأمّا ترجمةُ كتب كاملة لعلماءِ الغرب بدون تعليقٍ نقدي أو ترجمة مناظراتهم مع الملاحدة بكلِّ ما فيها فلا أرى أنّها طريقةٌ جيِّدة. وقد نبَّهت على هذا الأمر في الرسالة عند الكلام عن ترجمة مركزٍ من المراكز لمناظرة وليام لاين كرايغ مع لورانس كراوس كما هي.

وأخيرًا يجدر التنبيهُ على أنَّ المسلمَ لن يجد الحقَّ المحضَ إلّا في الكتاب والسنة، وفي تقريراتِ أهل السنة والجماعة. فبابُ تقرير العقيدة لا يكون إلا بـ«قال الله» و«قال الرسول (ﷺ)»، وما نهج عليه سلفُنا الصالح. ومن أصول علماء أهل السنة: التقيّد بالألفاظِ الشرعية وتجنُّب الألفاظ المجملة. وأمَّا في باب الردود فيمكن للمسلم أن يتوسَّع أكثرَ من باب التقرير، ويمكن أن يستشهدَ بكلام المخالفين أمثال علماء الغرب - كما سبقَ تقريره في مقدّمة الرسالة -.

الأمرُ الثّاني: تلخيصُ أهمِّ مباحث الرسالة:

يمكن أن ألخِّص أهمَّ مباحث الرسالة في النقاط الآتية:

الإلحادُ في اللغة: الميل مطلقًا، وفي الشرع: الميل عن الحقّ إلى الباطل، وقد فسّر علماءُ التفسير كلمةَ الإلحاد ومشتقاتها الواردة في بعض الآيات بالكفر والمعاصي، بل وما هو دونَ المعاصي. وقد استخدم أئمةُ السلف هذه الكلمة - غالبًا - في مصنَّفاتهم بمعنى الانحرافات العقدية الكبيرة، بينما ذكر بعضهم أنها تعني إنكارَ وجودِ الخالق. وأمّا المرادُ بالإلحاد في المصطلح المعاصر فهوَ عدمُ الإيمان بوجود الخالق.

قسَّم الباحثون الملاحدةُ إلى أقسام مختلفة. ومِن ذلك تقسيمهم من حيث قناعتهم ونوعيةِ أدلَّتهم؛ والأرجح أنَّهم ثلاثة أقسام: الملاحدة الإلحاد القوي الصلب، والملاحدة الإلحاد الضعيف السلبي، واللاأدريون. كما ينقسم الملاحدة حسب دوافع إلحادهم إلى قسمين: الإلحاد المبنيّ على الشبهات، والإلحاد غير المبنيّ على الشُّبهات. والتقسيمُ الأخير للملاحدة: تقسيمهم من حيث التشدّد؛ فينقسمونَ إلى قسمين: الملاحدة المتشدّدين وغير المتشدّدين.

قد قسَّم الباحثون التاريخَ الفكري الغربي إلى ثمانية عصور: العصر اليوناني، والعصر الروماني، والعصور الوسطى، وعصر النهضة والإصلاح، وعصر التنوير، والقرن التاسع عشر، والقرن العشرين، والقرن الحادي والعشرين. وجميعُ هذه العصور لها آثارُها الخاصَّة في تكوين الفكر الإلحادي، إمّا بشكل مباشر أو غير مباشر.

الحضارةُ الغربية امتدادٌ للحضارة اليونانية القدية، وقد وضع فلاسفةُ العصر اليوناني بعضَ أسس الفكر الإلحادي؛ منها: المذهب المادي، ودراسة العلم التجريبي وفقَ المذهب الطبيعي، والادِّعاء أنَّ الإيمان يتعارض مع العقل، وفلسفة الشكِّ ونسبية الحقائق، ونقد الأديان. وقد اتُّهم عددٌ من الفلاسفة المشاهير بأنهم ملاحدة في ذلك العصر، ولكنَّ الصوابَ أنَّ الإلحاد الذي اتّهموا به ليس هو الإلحادَ بالمفهوم المعاصر، وإنما أنكروا وجودَ الآلهة الوثنية.

العصرُ الروماني من أهمِّ العصور وأطولها في التاريخ الأوربي. وتتمثَّل أهميته في تكوين الفكر الإلحادي بأنَّ فلاسفة الروم طوّروا الفلسفة اليونانية ونقلوها إلى أنحاء أوروبا، كما أنَّ النصرانية المحرَّفة ظهرتْ في هذا العصر. والإلحاد المعاصر أشبه ما يكون بردَّة فعلٍ لهذه الديانة. ولكنْ لم يُعرف ملاحدة بالمفهوم المعاصر في هذا العصر.

كانت العصورُ الوسطى أطولَ حقبة زمنية في التاريخ الأوروبي، حيث استمرَّت حوالي ألف سنة. وفي هذا العصر سيطرتِ الكنيسة الكاثوليكية على الشئون الدينية والفكرية والسياسية في الدول الأوروبية بالظلم والطغيان. وكان هذا الظلم من أسبابِ ظهور الإلحاد في أوروبا بعد ذلك. واهتمَّ اللاهوتيون النصارى في تلك العصور

بالاستدلال العقلي على وجود الله. وكان بعضُ هذه الأدلة في غاية الضَّعف، وقد انتقدَ الملاحدة المعاصرون هذه الأدلة الضعيفة في خطابهم الإلحادي. ولكنْ لم يُعرف ملاحدة بالمفهوم المعاصر في تلك العصور.

انتهتِ العصورُ الوسطى في أوروبا ببداية عصر النهضة والإصلاح. وبدأ التخلُّص التَّدريجي من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية في هذا العصر. وذلك بظهور الكنائس البروتستانتية المنافسة، وكذلك مذهب الشكِّ النهضوي والمذهب العقلاني. وقد اتّهم عددٌ كبير من الناس في هذا العصر بالإلحاد، ولكن الأرجح أنه لم يُعرف ملاحدة بالمفهوم المعاصر.

في عصرِ التَّنوير ظهر الملاحدة الأوائل في فرنسا، وألَّفوا عددًا من الكتب في الدعوة إلى الإلحاد. كما أنَّ الثورة الفرنسية قامت في ذلك العصر، وأدَّت إلى تمكُّن العلمانيين من الحكم، وإضعاف مكانة الكنيسة. وبعد ذلك انتشر الإلحادُ في أنحاء الدُّول الأوروبية بشكل متسارع.

كان القرن التاسع عشر في غايةِ الأهمية للفكر الإلحادي حيث ظهر عددٌ من الملاحدةِ المشاهير في فرنسا، وألمانيا، وبريطانيا وأصّلوا للفكر الإلحادي. كما أنَّه تكوَّنت بعضُ المذاهب الفكرية الإلحادية مثل: الشيوعية في هذا العصر. ومن الأحداث المهمَّة في هذا القرن أنّ داروين اخترع نظرية التطوّر لتفسير الإتقان والإحكام في المخلوقات الحية عن طريق الانتخاب الطبيعي. وقد اتّكأ الملاحدةُ بعده على هذه النظرية أكثر من النظريات الأخرى.

في القرن العشرين تمكَّن الشيوعيون الملاحدة من الحكم في عددٍ من الدول، ونشروا الإلحادَ بقوَّة الحديد والنار. كما أنَّ الدول الغربية تبّنت مذاهب فكرية علمانية، وساهمت هذه المذاهب في ظهور الإلحاد أيضًا. ووُجد عددٌ من الملاحدة المشاهيرِ في هذا العصر، وقد ألَّفوا كثيرًا من الكتب في الدعوة إلى الإلحاد، إضافةً إلى حضورهم المكثّف في الإعلام الغربي.

ظهرتْ حركةُ الإلحاد الجديد في القرن الحادي والعشرين، وتتَّسم هذه الحركة بالحماسةِ في الدعوة إلى الإلحاد والعداوة الشديدة لجميع أشكال التدين. كما

أنَّ خطابَ دعاة هذه الحركة جماهيري أكثر من ملاحدة القرن العشرين، ولذلك استطاعوا الوصولَ إلى عددٍ كبير من الناس في الغرب والشرق.

لا يوجد شيء أخطرُ من الإلحاد؛ فهو أخطرُ شيء على العقيدة، والفطرة، والعقل، والعلوم، والأخلاق والبشرية جمعاء.

برزَ عددٌ من دعاةِ الإلحاد المشاهير في القرن الحادي والعشرين. وأشهرهم مَن اشتهروا بلقب: فرسان الإلحاد الأربعة، وهم: ريتشارد دوكينز، وسام هاريس، ودانيال دينيت، وكريستوفر هيتشن. وقد صنّفوا عددًا كبيرًا من المؤلفات، إضافةً إلى استخدامهم لوسائلَ أخرى لنشر الإلحاد. وثمة دعاة آخرون إلى الإلحاد ساهموا في نشر هذا الفكر أيضًا.

قدِ استخدم الملاحدةُ المعاصرون وسائلَ كثيرةً ومتعدّدة في دعوة الناس إلى كفرهم وإلحادهم. ومِن أبرز هذه الوسائل: تأسيس المؤسسات الإلحادية، وتأليف الكتب، وعقد المناظرات، وإنتاج الأفلام الوثائقية والسينمائية، وإلقاء المحاضرات، والنشاط في وسائل التواصل، وصنع لوحات دعائية في الشوارع، وإنتاج موسيقى إلحادية.

أوّلُ مَن تصدَّى للملاحدة هم الأنبياء والمرسلون (عليهم الصلاة والسلام)؛ فقد ناظرَ خليل الله إبراهيم نمرود، وكليم الله موسى ناظر فرعون. وبعدهم اهتمَّ فلاسفةُ العصر اليوناني والروماني بذكر أدلة على وجود الله مثل: المحرّكُ الذي لا يتحرّك والحجة الغائية. وقد اختلطتْ أدلتُهم بفلسفاتهم المنحرفة، وكان لذلك أثرٌ بالغ في اللاهوت النصراني، وأدلة وجود الله التي ذكرها اللاهوتيون. وأبرزُ اللاهوتيين النصارى المهتمّين بأدلة وجود الله في العصور الوسطى: أغسطين، وأنسلم كانتربري، وتوما الأكويني.

قام عددٌ كبير من العلماء في أوروبا بنقدِ الإلحاد في عصري النهضة والتنوير والقرنين التاسع عشر والعشرين، إضافةً إلى هذا القرن الحادي والعشرين. وكان الروّادُ المنتقدون للإلحاد من مجالات مختلفة مثل: الفلسفة، والسياسة، والعلوم التجريبية. وقد تخصَّصوا في نقدِ الإلحاد في جوانب مختلفة مثل: نقد الخطاب الإلحادي، وذكر التوافق بين العلم التجريبي والدين، وذكر الأدلة التجريبية على وجودِ الله، والردّ العقلي الفلسفي على الملاحدة.

أهمُّ أسسِ الملاحدة: المذهب المادي، والعلموية، والعقلانية، ومذهب الشكِّ، وتعظيم الصدفة. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الأسس بردودٍ قوية ومقنعة.

الملاحدةُ يتبَّنون المذهبَ المادي، ويحصرون الوجود فيما يمكن إدراكه بالحسِّ والتجارب العلمية. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا المذهب ببيان أنَّ المخلوقات كلَّها شاهدة على وجود الخالق، وأنَّ العلم التجريبي نفسه قد دلَّ على وجود الغيبيات.

مِن سمات الملاحدة الجدد أنهم يعظِّمون العلم التجريبي، ويرون أنَّ ذلك يؤدِّي إلى الإلحاد. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا المذهب ببيان حدود هذا العلم، وأنَّ كثيرًا من العلماء التجريبيين قديمًا وحديثًا كانوا يؤمنون بوجود الله، بل أنَّ العلم التجريبي نفسَه شاهد على وجوده سبحانه.

يتظاهرُ الملاحدةُ المعاصرون بتعظيم العقل، وأنَّهم عقلانيون، ويدَّعون أنَّ الإيمان يتنافى مع العقل. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة بأنّه لا يمكن تفسيرُ التفكير المنطقي وفقَ الفكر الإلحادي. وإضافةً إلى أنَّ أكبر الفلاسفة والعلماء التَّجريبيين عبر العصور كانوا مؤمنين بوجود الخالق. كما أنهم ردّوا على ادِّعاء أنَّ العقلَ يتنافى مع الإيمان، بأنَّ الإيمان نفسه مبني على حجج عقلية وعلمية.

الملاحدةُ يسعون إلى تشكيك المتديِّنين في معتقداتهم. وقد ذكر علماءُ الغرب بعضَ القواعد الجيّدة في التعامل مع الشكوك والشبهات؛ منها: أنه بتحديد الشبهة يسهلُ ردُّها، وبمعرفة أصل الشبهة يسهل التعامل معها، وأنّ الشكَّ ليس مشكلة عقلانية فحسب؛ بل هناك بعدٌ روحانيٌّ أيضًا، وأن الشبهات الواقعية تدفع بالأدلة والبراهين، وأنَّ الشبهات العاطفية والإرادية لا تعالج بتقديم الحجج فقط، والاعتراف بقصور العقل والمعرفة، وأنه إذا عملَ العقل في إطاره الصحيح فيسهل التعاملُ مع الشَّك.

مِن أسسِ الملاحدة أنهم استبدلوا الحديثَ عن العناية الإلهية بالحديث عن الصدفة، وبالغوا في قدراتها في فعل المستحيل. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا الموقف ببيانِ تلبيساتهم في تعريف المستحيل، وأنَّ ما يدَّعي الملاحدة أنَّ الصدفة قادرةٌ عليه هو أبعدُ المحالات. كما أنّهم ردّوا على نظريةِ القرد اللامحدودة التي يستند إليها الملاحدة في حديثهم عن الصدفة.

مِن أساليب علماءَ الغرب في الردِّ على الملاحدة: بيان مغالطاتهم المنطقية، وشطحاتهم، وتناقضاتهم، وبيان ضعف خطابهم، ومخالفتهم للمنهج العلمي، إضافةً إلى بيانِ الشرور المترتبة على الإلحاد.

قد بيَّن علماءُ الغرب أنَّ الملاحدة وقعوا في عدد كبير من المغالطات المنطقية؛ من أهمُّها: تجسيد المجرّدات، والمراوغة، والمصادرة على المطلوب، والسؤال المشحون المركّب، والقسمة الثنائية الزائفة، والشخصنة، والاحتكام الخاطئ إلى المرجعية، ورجل القش.

مِن أساليب علماء الغرب في الردِّ على الملاحدة: بيان الشطحات التي وقعوا فيها. ومِن هذه الشطحات: نظرتُهم الدونية إلى حقيقة الإنسان وقيمته بحصره في مجموعة من الذرّات التي لا تعْدو كونها وسخًا كونيًّا. وللملاحدة شطحاتٌ كثيرة في إنكار الأخلاق الموضوعية وإنكار الهدف الموضوعي للحياة. كما أنَّ لديهم شطحات في تعريفِ اللاشيء. ومِن شطحاتهم: موقفهم من الصدفة واعتقاد بعضهم أنَّ كائنات فضائية زرعت الحياةَ على هذا الكوكب! فرارًا من الاعتراف بوجود الخالق سبحانه.

قد بيَّن علماءُ الغربِ أنَّ الملاحدة وقعوا في عدد من التناقضات، منها: أن الكون خلقَ نفسَه من العدم، وأنَّ الكون ليس بحاجة إلى سبب بينما يقولون إنَّ الخالق لا بدَّ له من سبب، ويروْن أنَّه لا دليلَ إلّا من العلم التجريبي بينما هذا الادّعاء نفسه ليس مبنيًّا على تجارب علمية! وأنه لا يوجد معيار موضوعي للشر بينما يقولون إنَّ الدينَ شرّ، وقولهم إنَّ مشكلة الشَّر دليلٌ على الإلحاد بينما يعتقدون أنه لا يوجد خيرٌ وشرٌّ موضوعيين، ناهيكَ عن كثرة كلامهم عن العنف باسم الدين بينما الملاحدةُ أكثر الناس استعمالًا للعنف، ومثله ادِّعاؤهم أنّ الأديان تحارب النظريات العلمية المخالفة لعقائدها، بينما الملاحدة من أكثر الناس محاربة للنظريات العلمية المخالفة لعقائدهم.

مِن أساليب علماءِ الغرب: بيانُ ضعف الخطاب الإلحادي. وذلك من أوجه عديدة، منها: ضعفُ الحجج العقلية عند الملاحدة، وكثرة مغالطاتهم، وسطحيتهم، واهتمامهم بالزخرفة الكلامية دون المضمون الحقيقي، وكثرة استعمالهم للقدح الشَّخصي والسخرية، وعدم فهمهم لقول المخالف، وكذلك غلوهم وتطرّفهم.

قد بيَّن علماءُ الغرب مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي، وذلك أنّ الملاحدة استندوا إلى عددٍ من المبادئ العلمية، وقد أوضحَ علماءُ الغرب أنها غير صحيحة. ومن هذه المبادئ: أنَّ جميع الكائنات الحية في الأصل آليات، وأن المقدار الكلي للمادة والطاقة لم يتغيَّر، وأنَّ قوانين الطبيعة ثابتة بدون أي تغيّر، وأن وعي الإنسان قد أنتجتْه العملياتُ المادية في الدماغ، وأن الطبيعة ليست ذات هدف، وأنَّ الذاكرة مخزَّنة في الدماغ، وتُمْحى بعد الموت، وأنَّ الظواهر غير المفسّرة علميًّا مجرّد وهم.

قدْ أفاد علماءُ الغرب في بيان الشرور المترّتبة على الإلحاد. وذلك بتقرير علاقة الإلحاد بالشُّرور أوّلًا، ثمَّ ذكرَ أمثلة واقعية على الشرور المترتبة على الإلحاد. وقد ارتبطَ الإلحاد بعدد من الفلسفات المدمّرة التي أثّرت في أخلاقياتهم، وسبَّبت في قيامهم بأنواعٍ كثيرة من الشرور. ومِن ضمن هذه الفلسفات: النفعية التلذذية، والتطورية، والنسبوية الأخلاقية، والنفعية والحلولية. ومن الأمثلة على الشرور التي انتشرتْ في المجتمعات الإلحادية والعلمانية: الحروب والإبادة الجماعية، والعنف والإجرام، والمخدرات، والهوس الجنسي.

قد تنوَّعت وسائلُ علماء الغرب في الردّ على الإلحاد، منها: تأليف الكتب، وعقد المناظرات، وإنتاج البرامج والمقاطع المرئية، والنشر في وسائل الإعلام والتواصل، وإصلاح العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق العلمية.

قد ألَّف علماءُ الغرب مؤلفاتٍ كثيرة جدًّا في الردِّ على الإلحاد في مجالات متعدّدة، مِن أهمها: الأدلة العقلية على وجود الله، والأدلة العلمية على وجود الله، وإثبات المعجزات، ونقد خطاب الإلحاد الجديد، ونقد المذهب المادي، ودرء التعارض بين الإيمان والعلم التجريبي والعقل، ونقد النظريات العلمية التي يتبناها الملاحدة.

قد عقدَ علماءُ الغرب مئاتِ المناظرات مع الملاحدة. وأهمُّ المناظرين من علماء الغرب: البروفسور وليام لاين كرايغ، والبروفسور جون لينوكس، والبروفسور ألستر ماكغراث. وقد يستفيد المتخصِّص في نقد الإلحاد من مشاهدة هذه المناظرات، ولكنْ لا تجوز مشاهدتُها لغير المتخصِّص لما يُعرض فيها من الشبهات والسخرية والاستهزاء.

مِن وسائل علماء الغرب في نقدِ الإلحاد: إنتاج البرامج والمقاطع المرئية. وقد اشتهرتْ هذه المقاطع كثيرًا، وبلغ عددُ مشاهدات بعضها الملايين. وهي مقاطع متنوِّعة، ومن أهمِّ أنواعها: أفلام وثائقية، ومقتطفات من المناظرات والمحاضرات، وموشن غرافيك، مقاطع مرئية قصيرة وهادفة في نقد الإلحاد.

النَّشرُ في وسائل الإعلام والتواصل من وسائل علماء الغرب في نقد الإلحاد. ومن ذلك أَنَّهم يستخدمون الوسائل التقليدية مثل: الإذاعة، وكذلك يستخدمون مواقعَ الإنترنت. ولديهم بعضُ المواقع المفيدة في نقد الإلحاد، ويعمل فيها فريق عملٍ كبير من المتخصِّصين في نقد الشبهات. وإضافة إلى ذلك لديهم حسابات في وسائلِ التَّواصل الحديثة، وقد تبيَّن خلالَ البحث أنَّ دعوة الملاحدة أكثر انتشارًا في هذه الوسائل من الحسابات المتخصِّصة في الردّ عليهم.

قد تبنَّت المؤسساتُ الحكومية الغربية مناهجَ تعليميةً مبنية على المذهب الطبيعي. وقد اجتهدَ علماءُ الغرب إلى إصلاح العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية على الصعيدَيْن السياسي والعلمي. فقد سعوا سياسيًّا إلى إدخال نظريات علمية منافسة للمذهب الطبيعي مثل: نظرية الخلق ونظرية التصميم الذكي في المؤسسات التَّعليمية. وإضافةً إلى ذلك فتحوا دوريات ومجلات علمية تنشر أبحاثًا علمية مبنية على هذه النظريات.

تنقسم الحججُ على وجود الله إجمالًا إلى ثلاثة أقسام: الحجج العقلية، والحجج العلمية، والحجج الحسية.

الحججُ العقلية التي يذكرها علماءُ الغرب هي: حجة الفطرة، والحجة الكونية، والحجة الغائية، وحجة التوافق الدقيق للكون، وحجة الجمال، والحجة الوجودية، والحجة الأخلاقية، وحجة الوعي، والحجة البراغماتية.

لم يستخدمِ اللاهوتيون النصارى في العصور الوسطى حجةَ الفطرة على وجود الله، ولكنها ظهرتْ في عصر النهضة والإصلاح على يد اللاهوتي جون كلفن والفيلسوف رينيه ديكارت. وقد قام علماءُ النفس في هذا العصر بإجراء عددٍ من

الدراسات العلمية المهمة عن الإيمان الفطري عند الأطفال. وليس يخفى أنّ الفطرة مذكورةٌ في عددٍ من الآيات والأحاديث وقد بيّن علماء الإسلام حقيقة هذه الفطرة ودلالتها على وجود الخالق.

الحجةُ الكونية مبنيَّة على أنَّ الكون حادث، وأنّ حدوثَه دليل على وجود خالقٍ أحدثَه من العدم إلى الوجود. ودليل الخلق والإيجاد في القرآن مبني على الاستدلال بما يُعلم حدوثُه ضرورة على وجود الخالق. وعلماء الغرب يستدلّون بالحجة الكونية، بينما دليلُ الخلق والإيجاد مذكور في القرآن. والصياغات المنطقية القديمة للحجة الكونية فيها ضعف، بينما بعضُ الصياغات الحديثة أقوى بكثير. وقد أيّد علماءُ الغرب هذه الحجة بالاستدلال العقلي والعلمي على حدوث الكون مما جعل هذه الحجَّة قوية. وفي الوقت نفسه تخبَّط علماءُ الغرب في ذكر نتيجة الحجة الكونية حيث تكلَّموا عن الخالق بألفاظ مجملة غير لائقة. ولذلك يمكن الاستفادة من كلام علماء الغرب عن الحجة الكونية مع الحذر من أخطائهم.

يعتمد الاستدلالُ في الحجة الغائية على الإتقان والإحكام في المخلوقات في إثبات وجودِ خالق عليم حكيم. وقد أرشدَ الله تعالى في آيات كثيرة إلى النظر في المخلوقات والتفكّر فيها لدلالتها على وجوده وربوبيته. وقد سمّى علماءُ الإسلام هذه الحجةَ بدليل الإحكام والإتقان، ودليل العناية. وهي من أقوى الحجج على وجودِ الله، ويندرج تحتَها عددٌ من الحجج الفرعية. وفي هذا الزمان أبرز علماءُ الغرب الحجةَ الغائية باسم: حجة التصميم، واندرجت تحتها: حجة التعقيد المخصَّص وحجة التعقيد غير القابل للتبسيط. وقد ردّ علماءُ الغرب على اعتراضات الملاحدة على هذه الحجج بردود مفيدة.

حجةُ التوافق الدقيق للكون مشتقة من الحجة الغائية، وهي من الحجج العقلية العلمية القويَّة على وجود الله. وهذه الحجة تعتمد على أدلة علمية دالة على أنَّ الكون مضبوطٌ بدقة بلغت الغاية. وقد استدلَّ علماءُ الغرب بهذه الحجة بطرق جيِّدة ومفيدة، كما أنهم ردّوا على شبهات الملاحدة المتعلقة بهذه الحجة، مثل شبهة: نظرية الأكوان المتعددة، والمبدأ الإنساني الضعيف.

حجَّة الجمال من الحجج العقلية الدالة على وجود الله، وتستند إلى الجمال الموضوعي في المخلوقات ودلالته على وجود الخالق. وتكتسب هذه الحجة قوتها إذا انضمَّت إلى الحجة الكونية والحجة الغائية. وكان لعلماء الإسلام مثل: الإمام ابن القيم (رحمه الله) السبقُ في الاستدلال على الجمال في المخلوقات على وجود الخالق، وقد ساقَ على ذلك أمثلة متعدّدة.

الحجَّة الوجودية حجة عقلية قبلية محضة على وجود الله. وقد أظهر اللاهوتي أنسلم كانتبري هذه الحجةَ في العصور الوسطى، وتلقّاها بعض اللاهوتيين باستحسان، بينما ردَّها آخرون. وهذه الحجة ضعيفة وأصبحت محلَّ سخرية عند الملاحدة، ولهذا لا ينبغي الاحتجاج بها مطلقًا.

مِن الحجج العقلية التي يستعملها علماءُ الغرب في الاستدلال على وجود الله: الحجَّة الأخلاقية. ومَفادُ هذه الحجة: أن الإحساس بالقيم والأخلاق الموضوعية أمرٌ فطري في الإنسان، ويستحيل تفسير وجود القيم والأخلاق الموضوعية في الفكر الإلحادي. وخلاصةُ تقييم هذه الحجة أنّها قوية في مناقشة الإنسان القريب من فطرتِه المعترف بوجود أخلاق موضوعية، ولكن لا يمكن استعمالها مع مَن ينكر وجودها.

حجةُ الوعي من الحجج العقلية العلمية على وجود الخالق. وتعتمد هذه الحجة على أنَّه لا يمكن تفسيرُ الوعي الإنساني عن طريق المذهب المادي الإلحادي لكون الوعي غيرَ مادي. وقد استدلَّ علماءُ الغرب بهذه الحجة من بعض الأوجه القوية التي يُستفاد منها؛ فهي حجة جيّدة على وجود الله.

الحجةُ البراغماتية من الحجج العقلية على وجود الله، وتسمَّى رهان باسكال نسبة إلى صاحبه: الفيلسوف الفرنسي بليزيه باسكال. وهذا الرهان مبني على أنَّ وجود الله مُحتمل، ولكن حيث إنَّ الإيمان به يقود إلى الجنة فإنّه أسلم وأرجح من الكفر. وهذه الحجةُ استحسنها بعض اللاهوتيين الغربيين وردّها آخرون. والخلاصة أنّها حجةٌ ضعيفة، ولا يجوز الاستدلالُ بها؛ لما فيها من الأسس الفاسدة كالقول بأنَّ الإيمان بوجود الخالق محتمل وليس ضروريًّا.

الحججُ العلمية على وجود الله عندَ علماء الغرب ليست حججًا مباشرة على وجودِه سبحانه، وإنما هي حجج داعمة للحجج العقلية مثل: حجة الفطرة، والحجة الغائية. والحجج العلمية على وجود الله هي الحجج التي تنتمي إلى علوم: الكون والفلك، والفيزياء، والأحياء، والكيمياء، والرياضيات وعلم النفس. وقد أفاد علماءُ الغرب كثيرًا في إبراز هذه الحجج، وعليه فإنّه يمكن الاستفادة منهم.

العلومُ التجريبية المتعلقة بالكون تنقسم إلى علم الكون وعلم الفلك. وقد استدلَّ علماءُ الغرب بحجج كثيرة على وجود الله تتعلّق بهذين العلمين مثل: الدقّة المتناهية في الثوابت الفيزيائية الأساسية الستة في الكون، ودقة التمدّد الكونية، ودقة أحداث الدقائق الثلاث الأولى بعد خلق الكون، ودقة مستوى إنتروبيا الكون، إضافة إلى حجج علمية مشاهدة أيضًا. وخلاصة تقييم هذه الحجج أنّ الاستدلال بالآيات المشاهدة في علم الفلك أقوى من الاستدلال بالنظريات العلمية المتعلقة بالماضي السحيق في علم الكون، ولكن يجوز الاستدلال بكلٍّ منهما.

الحججُ العلمية على وجود الخالق المتعلقة بالفيزياء تنقسم إلى قسمين رئيسين: دلالة القوانين الفيزيائية على الخالق عمومًا، ودلالة الضبط الدقيق للقوى الفيزيائية الأساسية في الطبيعة. ومن الأمثلة على النوع الثاني: الضبط الدقيق للقوة الجاذبية، والقوة الكهرومغناطيسية، والقوة النووية القوية، والقوة النووية الضعيفة. وكلُّ هذه القوى مضبوطةٌ بدقة متناهية، وذلك دليلٌ واضح وقوي على وجود الخالق، حيث يستحيل حصولُ ذلك مصادفة.

موضوعُ علم الأحياء: دراسة الكائنات الحية. وقد استدلَّ علماءُ الغرب بالإتقان والإحكام في هذه الكائنات على وجود خالق عليم قدير. والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، ومِن أبرزها: الخلية، والمخّ، والعين. وكلامُ علماء الغرب في هذا الباب علمي سليمٌ في الجملة، وغيرُ مختلط بعقائدهم الفاسدة. ولهذا يمكن أن يستفيد المسلمون من تقريراتهم في هذا الباب.

الكيمياء علمٌ معني بالمواد التي تتكوّن منها المادة، والبحث عن خصائصها وتفاعلاتها. وقد استدلَّ علماءُ الغرب بحجج علمية كيميائية على وجود الله عمومًا،

كما أنهم استدلّوا بعددٍ من الأمثلة الفرعية من هذا العلم: ملاءمة العناصر الكيميائية لوجود الحياة، ووفرة الكربون والماء الضروريان للحياة، والتركيب الكيميائي للغلاف الجوي. وكلام علماء الغرب في هذا الباب علمي جيّد، ويمكن الاستفادة منه.

علمُ النفس يُعنى بالدراسةِ العلمية للعقل البشري، ووظائفه - لا سيَّما المؤثّرة في السلوك في سياق معيّن -. وقد استخدم علماءُ الغرب هذا العلم لبيان أنَّ الإنسان مفْطور على المبادئ الفطرية الضرورية والإيمان بالخالق. كما أنهم استفادوا منه في بيانٍ أنَّ الإلحاد مشكلة نفسية وانحراف سلوكي عن الفطرية السوية. وقد بيّنوا أنَّ أغلبَ الملاحدة المشاهير تعرَّضوا لمشاكل في طفولتهم - ولا سيَّما بفقدان آبائهم - وأنَّ ذلك كان مؤثّرًا في إلحادهم. وكلامهم في هذا الباب في الجملة جيّد ومفيد، ويُستفاد منه إلى حدٍّ كبير.

الرياضياتُ هي العلمُ المجرّد للرقم، والمقدار، والمسافة. وقد استخدم علماءُ الغرب هذا العلم في الردِّ على الملاحدة من وجهين: الأوّل: دلالة التناسق بين الرياضيات والعلم الطبيعي على وجود الخالق. والثاني: دلالة الأنماط الرياضية في الطبيعة على وجود الخالق. وقد أفادوا في ذلك وأبرزوا بعض عجائب مخلوقات الله. ومن ذلك: وجودُ النسبة الذهبية في مخلوقات كثيرة. وكلامهم في ذلك علمي بحت في الغالب، ولذا يمكن الاستفادة منه.

الحججُ الحسية على وجود الله تستندُ إلى الاستدلال بالآثار الحسية على وجوده سبحانه، واتِّصافه بالخلق. وأبرزُ هذه الحجج ثلاث: حجة إجابة الدعاء، وحجة المعجزات، وحجة ثبوت الحقائق الدينية.

حجةُ إجابة الدعاء مبنية على حصول إجابة الدعاء لعددٍ لا يمكن حصرُه من البشر، وأنَّ ذلك دليلٌ قطعي على وجود خالق مجيب للدعوات. وقد أفاد وأجادَ علماءُ الإسلام بذكر هذه الحجة، بينما كان كلام علماء الغرب عنها قليل. ولكن لديهم كلامٌ جيِّد في الردِّ على شبهة: عدم إجابة الدعاء يستفاد منه.

قد اعتنى علماءُ الغرب بالحديث عن المعجزات اعتناءًا كبيرًا، ولكنّ حديثهم عنها في الغالب منصبٌّ على معجزات المسيح (عليه السلام) وأنّها دالة على ألوهيته

المزعومة. ولهذا كان كثيرٌ من كلامهم في هذا الباب باطل. ومعَ ذلك فقد ذكروا بعضَ التقريرات الجيِّدة في بيان إمكانية المعجزات من الناحية العقلية والعلمية التجريبية، إضافةً إلى ردودهم على شبهاتِ الملاحدة في هذا الباب. ولهذا يمكن الاستفادةُ من بعضِ الجوانب من كلامهم معَ الحذر من أباطيلهم. وقد استدلَّ علماءُ الإسلام بدلائلِ النبوة على وجود الخالق، وعدُّوها من أقوى الحجج على ربوبيته سبحانه وتعالى، ولا ريب أنَّ كلامهم أجود من كلام الغربيين.

حجةُ ثبوت الحقائق - أو الخبرات - الدينية من الحجج الحسية على وجود الخالق. ويقصد علماءُ الغرب بهذه الحجة أنَّ الوقائع والخبرات والحقائق الدينية التي تحصل للإنسان؛ دليلٌ على وجوده. وقد ذكروا بعض التقريرات الجيّدة في هذا الباب، ولكنَّهم في الوقت نفسه تخبَّطوا كثيرًا. ولهذا ينبغي الحذرُ من الانسياق وراء تقريراتهم دونَ بصيرة.

قد أوردَ الملاحدة شبهات متعدّدة على وجود الخالق أو بعض صفاته. وهذه الشبهاتُ تنقسم إلى ثلاثة أقسام: شبهات عقلية فلسفية، وشبهات علمية تجريبية، وشبهات عاطفية. وطائفة من هذه الشبهات منتشرة، وقد ردَّ علماءُ الغرب عليها بردودٍ كثيرة، بينما لم تنتشر شبهات أخرى فكانت ردودهم عليها أقل.

شبهةُ الخصائص غير المتوافقة تشتمل على عددٍ من الشبهات المتعلّقة بالصفات الإلهية. ويزعم الملاحدةُ أنَّ اتِّصاف الخالق بصفة معيّنة أو أكثر من صفة في آنٍ واحد مستحيل. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهات ببيان تلبيسات الملاحدة في الاستحالة المنطقية والاستحالة الميتافيزيقية، إضافةَ إلى بيان أنَّ الملاحدة ينطلقون في شُبهات من تصوّرات مادية مسبقة، وأنّ هذه التصورات الباطلة أثّرت في موقفِهم من الصفات الإلهية. وبيّنوا أيضًا أنَّ الخالق متّصف بالكمال المطلق، وعليه فلا يمكن قياسُه بالمخلوقات. كما أنّهم ذكروا أنَّ المذهب الإلحادي نفسه متناقض. وردودُهم في هذا الباب جيّدة من نواحٍ عديدة، إلا أنَّ النصارى انحرفوا انحرافًا شديدًا في الإيمان بالله وصفاته. ولهذا اختلط كلامُهم الجيّد بكثير من الكلام الباطل، ولا نجد الحقَّ إلّا عند أهل السنة المتمسِّكين بالوحيين.

مِن الشُّبهات المندرجة تحتَ شبهة الخصائص غير المتوافقة: شبهة تصاغ بصياغة السؤال: «إذا كان الله خلق كلَّ شيء؛ فمَن خلق الله؟». وقد أخبر النبي (ﷺ) أنَّ الشيطانَ يوسوس بهذه الشبهة في قلوب العباد، ولكنَّ الملاحدة يوردونها شبهةً على وجود الخالق. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة ببعض الردود الجيّدة والمفيدة، ولكنَّ المشكلة أنّهم يخلطون كلامَهم الجيد ببعض الألفاظ المجملة الباطلة مما يوجب على المسلم الحذر. وقد أرشدَ النبي (ﷺ) إلى كيفية التعامل مع الشبهة في أحاديث متعدِّدة، كما أنَّ علماءَ الإسلام ردّوا على هذه الشبهة بكلام يشفي الصدور.

الملاحدةُ العوام يكثرونَ السؤال: «كيف نؤمن بوجودِ الله مع أننا لا نراه؟». وهو سؤالٌ غيرُ منتشر بينَ دعاة الإلحاد. وقد ذكر علماءُ الغرب بعض الأجوبة الجيّدة على هذا السؤال. وهذه الأجوبةُ في الغالب متوافقة مع ما ذكره علماءُ الإسلام في هذا الباب أيضًا.

مِن الشُّبهات المندرجة تحت شبهة الخصائص غير المتوافقة: شبهة تناقض القدرة المطلقة. وخلاصتُها: أنَّ إيمان المؤمنين بالقدرة المطلقة يؤدّي إلى تناقضات؛ فلا بدَّ من وجود بعضِ الاستثناءات في جملة «الإله قادرٌ على كلِّ شيء». وبناءً على ذلك يوردونَ السؤال: «هل يستطيع الخالق خلقَ حجرٍ وهو غيرُ قادر على حمله؟». وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة ببعض الردود الجيّدة ببيان حقيقة مفهوم القدرة المطلقة، وأنها متعلِّقة بالممكنات دون المستحيلات. كما أنهم ذكروا ردودًا أخرى جيِّدة. وهذه الردودُ في الجملة متوافقة مع ما ذكرها علماء الإسلام، ولكنَّ علماءَ الغرب يستخدمون بعضَ الألفاظ المجملة والفلسفية، وهي باطلة، ويجب الحذرُ منها.

شبهةُ الوحي غير المتناسق شبهة إلحادية متعلّقة بالوحي الإلهي. وخلاصتها: أنَّه يستبعدُ وجودَ الإله الذي يؤمن به المؤلهة؛ لأنَّهم يعتنقون أديان متعارضة، وكلُّهم يدَّعون أنَّ أديانهم مستندة إلى وحي إلهي. وحيث إنَّ التعارض موجود فإنّه يدلُّ على عدمِ صحّة الوحي، وعليه فإنهم ينكرون وجود الخالق. وقد ردّ عليها علماءُ الغرب على هذه الشبهة ببعض الحجج العقلية الجيّدة، إلا أنَّ كلامهم مصحوبٌ بالدَّعوة إلى ديانتهم الباطلة. ولهذا يمكن الاستفادة من ردودهم مع تجنُّب كلامهم الفاسد.

مِن الشُّبهات الإلحادية الخطيرة: شبهةُ عدم إدراك المراد بالإله. وهي مبنيةٌ على مبدأ التحقُّق في فلسفة الوضعية المنطقية. وخلاصة هذا المبدأ أن ما لا يمكن التحقُّق منه حسيًّا، فليس للكلام عنه معنى. وعليه، فإنَّهم يقولون إنَّ الكلام عن الخالق ليس له معنى. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا المبدأ الفاسد وهذه الشبهة الفلسفية الباطلة ببعض الردودِ العقلية القوية. ومن ذلك أنّ هذا المبدأ نفسه ليس مبنيًّا على دليل حسي، كما أنه توجَد حقائق كثيرة في البديهيات والعلوم التجريبية التي لا يمكن التحقُّق منها حسيًّا. وكلامُ علماء الغرب في هذا الباب جيّد من حيث العموم، إلّا أنَّ اللاهوت النصراني المخالف لبديهيات العقل ساهم في انتشار هذه الشبهة.

شبهةُ إبريق راسل مبنيَّة على افتراض أنَّ الأصل عدم وجود الإله إلا إذا أمكنَ إثباته بأدلَّة يرتضيها الملحد. وضربَ الملاحدة لذلك مثالًا بوجود إبريق صيني لا يمكن رؤيتُه يدور في الفضاء؛ فيلزم مَن آمن بوجوده أن يثبت ذلك، وإلا كان الأصلُ عدمَ وجوده. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة بردود عقلية جيّدة مثل: أنَّ هذه الشبهة تفترض أنّ الإلحاد هو الأصل، بينما الصواب أنّ وجودَ المخلوقات تدلُّ على وجود الخالق؛ فالمؤمن باقٍ على الأصل، بينما الملحد يخالفه. كما أنه يمكن تقديمُ عددٍ من الأدلة القوية على عدم وجود إبريق صيني يدور في الكواكب، بينما لا يستطيع الملحدُ تقديم أدلة حقيقة على عدم وجود الخالق. ولهذا تمسَّكوا بهذه الشبهات الضعيفة. وردود علماء الغرب في هذا الباب جيّدة، وقد أجادَ بعضُ الباحثين المسلمين المعاصرين في نقد هذه الشبهة أيضًا.

شبهةُ عدم الإيمان ارتبطت مع شبهة الاختباء الإلهي. ومؤدّى هاتين الشبهتين واحد، وهو أنَّ الأدلة على وجود الله ليست كافية للإيمان به وهذا سبب وجود عددٍ كبير من الملاحدة. وقد ردَّ علماءُ الغرب ببعض الحجج العقلية إلا أنّ كلامهم اختلطَ كثيرًا بعقائدهم الفاسدة. بينما يستطيع المسلمُ أن يردَّ على هذه الشبهة بأنَّ الله فطرَ العباد على الإيمان، وأخذ العهد من بني آدم، وأقام عليهم الحجة على وجودِه وربوبيته بآياته ومخلوقاته، كما أنه أرسلَ إليهم الرسل. فالأدلة أكثرُ من كافية، ومَن أعرض عنها بعد ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه.

أوردَ بليزيه باسكال رهانه المشهور، وردَّ عليه الملاحدة بردود متعدّدة. ومن ضمن ردودِهم إقامة ما سمّوه برهان الملحد. ونتجت شبهةٌ من هذا الرهان مفادها أنّه لو كانَ الإله موجودًا فإنّه سيجازي الملاحدةَ والمتديّنين المتحلّين بأخلاق طيبة بدخول الجنة. وعليه، فلا حاجةَ للإيمان به. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة ببعض الرُّدود العقلية المفيدة، إلا أنَّ كلامهم اختلط بعقائدهم الفاسدة. بينما يستطيع المسلمُ أن يردَّ على هذه الشبهة بطرق أقوى نظرًا لصحّة عقيدته.

شبهةُ ضعف التصميم: شبهة عقلية علمية، حيث يدّعي الملحد أنه يوجد عيوبٌ في بعض المخلوقات، وأنَّ هذه العيوب تدلّ على أنّ هذه المخلوقات ليست مخلوقة لخالقٍ عليم حكيم. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة بحجج عقلية وعلمية. وأعظمُ ما يستفاد من كلامهم في الجانب العلمي التجريبي المحض حيث بيّنوا أن ما ادَّعى الملاحدة أنّها عيوبٌ في المخلوقات ليست كذلك. وذكروا أنّ كلّ مثال أبرزه أولئك قد تبيَّن بطلانه لاحقًا وفقَ دراسات علمية حديثة. وأما ردودهم العقلية ففيها تداخلٌ مع تصوّراتهم اللاهوتية الباطلة. والحقّ أن الله خلق كلّ شيء بإتقان وإحكام، ولا يتنافى هذا معَ حدوث الأمراض والمصائب، لأنّ الله خلق هذه الحياة امتحانًا واختبارًا، ولا يتأتى ذلك إلا بوجود مصائب.

شبهاتُ الملاحدة العلمية متعدّدة، ولكن أبرزها ما تتعلّق بـ: نظرية الانفجار العظيم، وقوانين الطبيعة، ونظريةِ التطوّر، وميكانيكا الكم، والتطوّر الكيميائي لأصل الحياة، وعلم نفس الأديان، وتاريخ الكون والأرض.

كان الملاحدةُ يعتقدون في السابق أنَّ الكون أزلي، ولكن عندما تضافرت الأدلة على أنَّ للكون بداية تمسَّكوا بنظرية تسمى بالانفجار العظيم. وإن دلّتْ هذه النظرية على وجودِ بداية مطلقة للكون إلا أنّها نظرية مادية بحتة تحاول تفسير وجود الكون بدون خالق. كما أنَّ التفاصيل المتعلقة بنشوء الكون في هذه النظرية تخالف آياتِ القرآن الكريم كما أنها تخالفُ نصوص كتاب النصارى المقدّس. ولهذا ردَّ علماءُ الغرب المتمسّكين بظواهر نصوص كتابهم على هذه النظرية. وقد ذكروا بعضَ

الأوجه الجيّدة في نقد هذه النظرية إلا أنّ كلامهم عنها أقل جودة من ردودهم على نظريات علمية أخرى.

يدَّعي الملاحدة أنّه يمكن تفسيرُ ظهور الكون من العدم إلى الوجود عن طريق قوانين الطبيعة، كما أنّه يمكن تفسيرُ جميع الظواهر الطبيعية عن طريق هذه القوانين أيضًا. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهات ببيان حقيقة قوانين الطبيعة وأنها وصفٌ للانتظام في الطبيعة وليست فاعلة. كما أنهم بيَّنوا أنَّ كلام الملاحدة - وعلى رأسهم سيتفن هوكينغ - أنَّ قانون الجاذبية خلق الكون من العدم في غاية التناقض. وكلامُ علماء الغرب في هذا الباب جيّد ويستفاد منه.

يتعصَّب الملاحدة لنظرية التطوّر تعصُّبًا شديدًا لأنهم يدَّعون أنّها تفسّر الإتقان والإحكامَ في المخلوقات الحية بدون وجود الخالق. وتبيّن خلال البحث أنّ الفكرَ التطوّري بدأ في عهدِ فلاسفة اليونان، ولكن تشارلز داروين أظهر التطوّر في صورة نظريةٍ علمية. وقد ألّف علماءُ الغرب مؤلفات وأبحاثًا كثيرة جدًّا في نقد هذه النظرية. وقد تبيَّن خلالَ هذه الردود أنّ الأسس التي تقوم عليها هذه النظرية في غايةِ الضعف والوهن. ولهذا يمكن الاستفادة من ردودهم كثيرًا في هذا الباب، ولكنَّ علماءَ الغرب أنفسهم مختلفون فيما بينهم، وقد تبنوا نظريات علمية متعدّدة مثل: نظرية التصميم الذكّي، ونظرية الخلق. ولا تخلو هذه النظريات من إشكال عقدي أو علمي. وعليه، فلا يمكن قبولُ كلِّ ما قالوه في هذا الباب، بل لا بدَّ من قراءة ردودهم بعين ناقدة.

ميكانيكا الكم هوَ العلم الذي يتعامل مع سلوك المادة والضوء على النطاق الذرِّي وما دون الذرِّي. وهذا العلم محاطٌ بكثير من الغموض لوجود عددٍ من الظَّواهر الغريبة على مستوى دون الذرّي. ولهذا وُجدت نظريات علمية متعارضة في تفسيرِ هذه الظواهر. وقد أورد الملاحدةُ بعضَ الشبهات من هذا العلم كالتشكيك في مبدأ السببية، وظهور الكون من العدم بدون وجود الخالق. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشُّبهات بردودٍ علمية متينة. وحيث إنَّ هذا العلم بحاجة إلى كلام المتخصِّصين فإنَّه يمكن الاستفادةُ من كلام متخصِّصيهم في هذا الباب استفادةً كبيرة.

شبهاتُ الملاحدة المتعلّقة بالكيمياء ترجعُ إلى محاولاتهم لتفسير أصل الحياة على الأرض ماديًّا، وهو معروف بالتطوّر الكيميائي. وقد بيّن علماء الغرب أنّ تطوُّر الحياة بدون وجود خالقٍ مستحيلٌ علميًّا بأدلة علمية كثيرة. كما أنهم ردّوا على التَّجارب العلمية التي تحاول تحاكي بداية وجود الحياة على الأرض بردود علمية متميِّزة. وكلامُهم في هذا الباب علمي في الجملة، وغير مختلط مع عقائدهم الفاسدة، ولهذا يمكن الاستفادةُ منه كثيرًا في هذا الباب.

شبهاتُ الملاحدة المتعلِّقة بعلم النفس ترجع إلى محاولاتهم في تفسير ظهور الأديان عمومًا، والتديّن لدى الأفراد بنظريات نفسية مادية. وكان سيغموند فرويد من أكثرِ مَن تكلَّم في ذلك. وقد ردَّ علماءُ الغرب عليهم بأنّهم افترضوا أنَّ الإلحاد هو الأصل، ثمَّ حاولوا تفسير ظهور الأديان والتديّن بعد ذلك. وهذا افتراض للنتيجة في إحدى المقدِّمات، ويسمى بالاستدلال الدائري، وهو باطل في علم الجدل. كما أنَّ علماءَ الغرب ردّوا على نظريات فرويد في علم النفس عمومًا، وعلى نظرياته في ظهور الأديان خصوصًا، وبيَّنوا ضعفَ منهجه في الاستدلال. وردود علماء الغرب في هذا الباب جيِّدة من حيث الجملة ولم تختلط بعقائدهم الفاسدة.

شبهاتُ الملاحدة التاريخية تتعلَّق بتاريخ الأرض. وهذه الشبهات متوجّهة في المقام الأوَّل للسرد التاريخي المذكور في الكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى. وذلك أنَّ اليهودَ والنصارى الأصوليين يعتقدون أنّ ظواهر نصوص كتابهم المقدّس تدلُّ على أنَّ عمرَ الأرض لا يتعدَّى بضعة آلاف السنين. ويذكر الملاحدة أنَّ الدراساتِ العلمية الحديثة تدلُّ على أنَّ عُمر الأرض أكثر من أربعة مليارات سنة. والعمر الطويلُ للأرض أصلٌ ضروري لنظرية التطوّر. وقد ردَّ بعضُ علماء الغرب على ذلك ببيان أنَّ الأسس العلمية لتحديد عمر الأرض ليست يقينية، بل هي مبنية على كثيرٍ من الافتراضات لا يمكن الجزم بصحتها. وكلامهم في هذا الباب جيّد، فلا ينبغي التسليمُ بادِّعاءات الملاحدة المتعلقة بعمر الأرض التي تفتح الباب لنظرية التطوُّر. ولكنَّ هذه الشبهة تتوجّه إلى اليهود والنصارى الأصوليين في المقام الأوّل، لأنَّه لا يوجد في الإسلام نصٌّ صحيح يدلُّ على تحديد عمر الأرض، بل النصوص دالَّة على أنَّ البشرية أقدم مما يدّعون بكثير.

الشبهاتُ العاطفية سمّيت بذلك لأنَّ العاطفة هي الباعث الأساس للتأثّر بها، وإن كانَ الملاحدة يوردونها بقالبٍ منطقي أو علمي. وأبرز شبهاتهم في هذا الباب: مشكلة الشَّر، ومشكلة جهنم، وسلب الإرادة، والشرور المترتّبة على وجود الأديان، ومصير الجاهل.

مشكلةُ الشَّر من أكثر الشبهات الإلحادية انتشارًا، وهي مبنية على التعارض المزْعوم بينَ وجود خالق عليم قدير رحيم وبين وجود الشرور في العالم. وقد استشكلَ الفلاسفة وجودَ الشَّر في العالم منذ آلاف السنين، إلا أنَّ هذه المشكلة لم تظهرْ على أنها اعتراضٌ إلحادي على وجود الخالق إلا في عصر التنوير. والملاحدةُ صاغوا هذه المشكلةَ بصياغة منطقية وصياغة برهانية. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشُّبهة بصياغتيْها بردودٍ قوية ومقنعة، إلا أنَّه لا يخلو كلامهم من استخدام ألفاظٍ مجملة يجب التنبُّه لها. كما أنَّ علماءَ الإسلام المتقدّمين والباحثين المعاصرين قد ردُّوا على هذه الشبهة بردودٍ قوية نافعة. وتبيَّن خلالَ البحث أنَّ وجود الشرِّ دليلٌ على وجود الخالق، وليس حجة للملاحدة.

مشكلةُ جهنَّم مبنيَّة على استشكال الملاحدة وجود خالق عليم قدير رحيم يعذِّب غيرَ المؤمنين والعصاة في جهنم. وهذه الشبهة أقلّ انتشارًا في الخطاب الإلحادي المعاصر من شبهةِ مشكلة الشَّر. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة ببعض الرُّدود الجيّدة والمقنعة. ولكنَّ كلامهم في هذه المسألة اختلط مع عقائدهم الفاسدة، فلا بدَّ من تمييز الكلام السليم من الباطل. وجميعُ الإشكالات الموجود لدى النصارى غيرُ موجودة في الدين الإسلامي، ولهذا يمكن للمسلم أن يردّ على هذه الشُّبهة بردود أقوى من ردود علماء الغرب.

حصلَ اختلافٌ قديم بين الفلاسفة وعلماء الدين في حقيقة إرادة الإنسان ومشيئته. وادَّعى بعضُ الملاحدة أنَّ الإرادة الحرّة لدى الإنسان مجرّد وهم بناءً على مذهبِهم المادي واستدلالهم ببعض النظريات العلمية. وبنوا على هذا الادِّعاء شبهاتٍ إلحادية متعلِّقة بالدين والأخلاق ومعاقبة الله للكفار والعصاة في جهنم.

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا الادّعاء وعلى النظريات العلمية التي يستندون إليها ببعضِ الردود القوية التي يمكن الاستفادة منها. ولكن لا يمكن الاهتداء إلى الحقِّ المحضِ في هذه المسألة إلا في ظلّ نصوص الوحيين. وقد أفاد علماء الإسلام؛ وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) بتقريرات مهمَّة في هذا الباب. والخلاصةُ أنَّ الإنسان لديه إرادة، ولكنّها ليست حرّة، بل هي تحت مشيئة الله تبارك وتعالى.

مِن أكثر الشُّبهات التي يردِّدها الملاحدة الجدد: شبهة الشرور المترتّبة على وجود الأديان. وقد أوردَها بعضهم بصياغةٍ منطقية ضعيفة، إلا أنَّهم يذكرونها في الغالب بطريقةٍ عاطفية بإيراد أمثلة تاريخية وواقعية على شرور وقعت على أيدي بعض أتباع الأديان. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهة بصياغتها المنطقية كما أنهم ردّوا على الأمثلة العاطفية التي أوردوها بردودٍ قوية وجيِّدة. وتبيَّن خلال البحث أنّ كلًّا مِن النصارى والملاحدة متناقضون في هذا الباب. فبينما يتظاهرون برفض العنف، إلا أنَّ كتابَ النصارى المقدَّس يذكر أنَّ الربّ أمر بني إسرائيل بإبادات جماعية، كما أنَّ الملاحدة أيَّدوا الحربَ المزعومة على الإرهاب التي راح ضحيتها الملايينُ من الأبرياء. وأمَّا المسلمُ فلا يُخفي أنَّ الإسلام يحثُّ على الجهاد، ولكنّه غيرُ مقصود لذاتِه، كما أنه مقيّد بأحكام شرعية صارمة.

شبهةُ مصير الجاهل تتعلّق بمصير الجاهل بالرسالة الإلهية في الآخرة، وهل يعاقبه الخالقُ رغمَ جهله؟ وقد أوردَها بعض الربوبيين - وعلى رأسهم الفيلسوف فولتير - في عصرِ التنوير، كما أوردَها بعضُ الملاحدة - وعلى رأسهم سام هاريس - في هذا العصر. وهذه الشبهةُ موجَّهة إلى اللاهوت التقليدي لدى النصارى في المقام الأوَّل حيث نصُّوا على أنَّ مصير الجاهل بألوهية المسيح المزعومة في الآخرة إلى جهنّم. وقد حاول علماءُ الغرب الردَّ على هذه الشبهة، وذكروا بعض الأوجه الجيّدة، إلا أنَّ المشكلة الأساسية تكمُن في ديانتهم الفاسدة. ولهذا لا يمكن الردُّ على هذه الشُّبهة بردود قطعية إلا في ظلِّ المعتقد الإسلامي.

هذه أبرزُ النتائج التي توصَّلت إليها في هذه الرسالة، وهي نتائج كثيرة ومتعّددة نظرًا لتطول الرسالة وتشعُّب مسائلها؛ ومعَ هذا فإنه لا يمكن استيفاءُ هذا الموضوع كلّه حقَّه. وذلك أنَّ الإلحاد أصبح ظاهرة في بعض البلدان وشبهات الملاحدة كثيرة. ومؤلَّفات علماء الغرب ومقالاتهم وأبحاثهم في الردِّ تبلغ الآلاف. ولهذا أريد في ختام هذه الرسالة أنْ أوصي بعددٍ من الوصايا:

الأمرُ الثّالث: التَّوصيات:

التَّوصيةُ الأولى: أوصي العلماءَ والدعاة وطلبة العلم بالقيام بدراسات ميدانية عن السَّاحة الفكرية المعاصرة لإدراك حجمِ تأثير شبهات الملاحدة على أبناء المسلمين، ولا سيَّما الشباب. وذلك كي تتكوَّن لديهم صورة صحيحة عن الواقع المعاصر بدون مبالغة أو تهوين، ثمَّ أنْ ينهضوا بواجب الدعوة والبيان.

التَّوصيةُ الثّانية: أوصي الأساتذةَ وطلبة العلم يكتابة رسائل وأبحاث علمية متعلّقة بالإلحاد. ومِن الموضوعات التي أوصي بالكتابة فيها:

الموضوعُ الأوَّل: إفرادُ رسائل وأبحاث خاصَّة بدراسة أقوى أدلة وجود الله كالحججِ العقلية، مثل: حجة الفطرة، والحجة الكونية، والحجة الغائية. والحجج العلمية مثل: الحجج المتعلقة بعلم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، والرياضيات. وكذلك الحجج الحسية مثل: حجة إجابة الدعاء وحجة المعجزات.

الموضوعُ الثّاني: إفرادُ رسائل وأبحاث علمية بنقد أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر مثل: المذهب المادي، والعلموية، ومذهب الشكّ، والتظاهر بالعقلانية، وتعظيم الصدفة.

الموضوعُ الثّالث: إفرادُ رسائل وأبحاث علمية خاصة بنقد الشبهات الإلحادية العقلية، والعلمية، والعاطفية. وأهمُّ هذه الشبهات: شبهة الخصائص غير المتوافقة، ونظرية الانفجار العظيم، ونظرية التطوّر، والشبهات المتعلقة بميكانيكا الكم، والشبهات المتعلّقة بعلم النفس، ومشكلة الشَّر، والشرور المترتّبة على الأديان، والشبهات المتعلّقة بإرادة الإنسان.

التَّوصيةُ الثّالثة: أوصي الباحثينَ بالاستفادة من كلام علماء الغرب المتخصّصين؛ حيث يمكن الاستفادةُ من دراسات غربية لغير المتديّنين في نقد معتقدات اليهود والنصارى وكتابهم المقدَّس. كما أنه يمكنُ الاستفادة من ردودهم على الأديان الوضعية مثل: الهندوسية، والبوذية، والكونفوشيوسية، والطاوية وغيرها من الأديان الباطلة. كما أنَّه يمكن الاستفادةُ من ردود أتباع بعض المذاهب الفكرية على بعض، كالاستفادة من ردودِ الاشتراكيين على الرأسماليين والعكس، وهكذا مع بقية المذاهب الفكرية الهدّامة. وذلكَ لأنّهم درسوا هذه الأديانَ والمذاهب بدراسات علمية عميقة، ويمكن الاستفادةُ مِن الطريقة المسلوكة في هذه الرسالة، ولكن لا بدَّ أن يكون عرض كلامهم مصحوبًا بنقدٍ علمي إسلامي.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

الفهرس